مِنْ وَحْيِ المِنْبَرِ

أحمد قصيب الحامد

دار الغرب الإسلامي

دار الغرب الإسلامي

بسم الله الرحمن الرحيم

من وحي المنبر

من وحي المنبر / أحمد نصيب المحاميد . - ط ٢ . - دمشق :
دار الفكر، ١٩٩٧ . - ٤٨٠ ص؛ ٢٥ سم .
١ - ٢١٨,٣٧ م ح ١ م   ٢ - العنوان   ٣ - المحاميد

مكتبة الأسد

ع - ١٠٣٦ / ٧ / ١٩٩٧

أحمد نصيب المحاميد

من وحي المنبر

دار الفكر المعاصر
بيروت - لبنان

دار الفكر
دمشق - سورية

الرقم الاصطلاحي: ٠١١,٠٦١١,٠
الرقم الدولي: ISBN: 1-57547-380-1
الرقم الموضوعي: ٢٢٠
الموضوع: دراسات إسلامية
العنوان: من وحي المنبر
التأليف: أحمد نصيب المحاميد
الصف التصويري: دار الفكر - دمشق
التنفيذ الطباعي: المطبعة العلمية - دمشق
عدد الصفحات: ٤٨٠ ص
قياس الصفحة: ١٧×٢٥سم
عدد النسخ: ١٠٠٠ نسخة

دار الفكر بدمشق
برامكة مقابل مركز الانطلاق الموحد
ص.ب: (٩٦٢) دمشق - سورية
برقياً: فكر
فاكس ٢٢٣٩٧١٦
هاتف ٢٢٣٩٧١٧، ٢٢١١١٦٦
http://www.fikr.com/
E-mail: info @fikr.com

1997
صناعة النشر
مسؤولية وإبداع

دار الفكر للطباعة والتوزيع والنشر سورية

الطبعة الثانية
1418هـ = 1997 م
ط1: 1983

ثبتُ الموضوعات

الموضوع	الصفحة
خطبة الحرب	٣٩٥
يوم الجلاء	٣٩٩
سيد الشهداء	٤٠٣
سورة الانفطار	٤٠٧
الحج وأهدافه	٤١١
من أخبار أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه	٤١٥
إمبراطورة الصحراء	٤٢٠
خديجة المسلمة أم المؤمنين رضي الله عنها	٤٢٤
حسان بن ثابت شاعر الرسول ﷺ	٤٣١
يسر الإسلام وتسامحه	٤٣٦
من نساء العرب : الخنساء	٤٤٢
أبو العلاء المعري : الشاعر الفيلسوف	٤٤٦
أسباب النزول وحكمة التشريع	٤٥١
الصوم والأمانة	٤٥٥
الأمير عبد القادر الجزائري عالم الأمراء وأمير العلماء	٤٥٩
لغتنا بين الفصحى والعامية	٤٦٤
جُلَيْبِيب عند الله ليس بكاسد	٤٦٩

كلمة الناشر

أصدرت دار الفكر عام ١٤٠١ هـ/١٩٨١ م كتاب (من وحي المنبر) وهو مجموعة خطب وأحاديث إذاعية كان ألقاها فضيلة الشيخ أحمد نصيب المحاميد في حينها فلقيت رواجاً لأهمية موضوعاتها ولطف أسلوبها وإخلاص صاحبها . ثم أصدرت له بعدئذ كتابه الآخر (قبسات هادفات) جاء على شاكلته وطريقته .. وكان حظّه كحظّه .

ولما كثر الطلب على الكتابين بعد أن نفدت نسخها ، وأرادت المؤسسة أن تعيد طبعها ، رأت ـ من الأحسن للقارئ أن ـ تجمعها في كتاب واحد يحمل عنوان الأول منها ، ما داما فرعين لينبوع بعينه .. وقد وافق المؤلف حفظه الله على هذه الخطة واستحسنها .

ودار الفكر ؛ إذ تقدم لقرائها الأعزاء هذا الكتاب بقالبه الجديد ، لترجو أن ينتفع به أكبر عدد منهم ؛ خطباء ووعاظاً ودعاة إلى الله وآباء ومربين . ذلك لأنّ هذه الخطب وتلك القبسات ليست في أساسيات الدين والمثل العليا وفلسفة الإسلام في الأخلاق فحسب ، بل إنها كذلك قطع أدبية نموذجية ؛ تعلّم الخطابة والكتابة بأسلوب سهل ميسور .

جزى الله المؤلف خير الجزاء كفاء ما صنع .

الناشر

القسم الأول

من وحي المنبر

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله الأكرم ﴿ الذي علّم بالقلم ، علّم الإنسان ما لم يعلم ﴾ [العلق : ٩٦/٤ ـ ٥] ، سبحانه ألهم الألسن أن تفصح عمّا تكن الضمائر من الحكم ، نشكره أن لطف بنا وعمّنا بمزيد النِّعَم ، فهو الإله المتفضّل المنّان ، الذي يغمر عباده ـ وإن عصوه ـ بالإحسان .

وأصلّي وأسلّم على المبعوث رحمة للعالمين ، سيدنا ومولانا وحبيبنا ، وقرّة أعيننا ، ونور قلوبنا محمد سيّد المرسلين وخاتم النبيين ، وإمام المتقين ، وقائد الغرّ المحجّلين ، سيّد الخطباء ، وأمير البلغاء والفصحاء ، من أوتيَ جوامع الكلِم ، من أطاعه واقتدى به فقد نجا وسلِم .

اللهم صلّ وسلّم وبارك عليه وعلى آله وصحبه صلاة ترضيك ، وترضيه وترضى بها عنّا يا أرحم الراحمين .

☆ ☆ ☆

أما بعد ، فهذه المجموعة الأولى من خطب منبرية ، وأحاديث وعظيّة ، تيسّر لي أن أجمعها بحكم وظيفتي الخطابة والتدريس اللتين أقوم بهما منذ ثلاثين عاماً ، في جامع الشمسية في المهاجرين ، وفي جامع العثمان المعروف بجامع (الكويتي) بدمشق ، وفي جامع التوبة في حي (العقيبة)بدمشق أيضاً .

أضفت إلى ذلك أحاديث أذعتها من محطة الإذاعة السورية بدمشق ضمن برنامج الأحاديث الدينية الصباحية .

وقد ألحّ عليّ كثير من الأصدقاء ، أن أنشر هذه الأحاديث والمقالات والخطب في كتاب لينتفع بها الناس ، ويكونوا أكثر استيعاباً لها برؤيتها وقراءتها ، كما انتفعوا بسماعها .

وسماعُ الحديث أو الخطبة مرة عبر الأثير ، يكون الانتفاع به موقوتاً ، ثم لا يلبث أن يذهب من الذاكرة كله أو أكثره ، ويظلُّ السامع يتلهّف لينظر إليه مكتوباً ، حتى تكون الفائدة أعم ، والاتعاظ به أكثر ـ على حد تعبير بعض الأصدقاء ـ.

☆ ☆ ☆

وقد ترددت بادئ الأمر في الإقدام على نشر هذه المجموعة ؛ لأني لست من فرسان هذا الميدان ، ولا من ذوي الفصاحة والبيان .

غير أن إلحاحَ الأصدقاء دعاني أن أفكّر في ذلك .

وأخيراً شرح الله صدري لتلبية الطلب ، وقلت لنفسي : إنها مجموعة بذلت جهداً في اختيار مواضيعها وانتقاء عناصرها ، واصطفاء كلماتها ، فليس بعيداً أن ينفع الله تعالى بها المتصدين للدعوة ، والقائمين بالنصح والإرشاد ، ولا سيما إذا كانت معلوماتهم محدودة ، وأوقاتهم ضيقة ، ومبتدئين مثلي أنا .

ومن يدري ؟! لعل غير المبتدئين ينتفعون بها ، حيث تذكرهم ما نسوا ، وتؤكّد لديهم ما ذكروا ، وتعيد على أذهانهم الكثير ، و ﴿ الذكرى تنفع المؤمنين ﴾ [الذاريات : ٥١/٥٥] .

نعم ! إن هذه المواضيع المتنوعة التي تناولت كل ناحية من نواحي المجتمع ، وكل زاوية عن حياته ، تنير للداعي الطريق ، وتفتح أمامه أبواب الأبحاث التي يريد أن يتحدث فيها ، والمجال أمامه سهل في أن يزيد في الموضوع ما يناسبه أو

يتصل بـه ، ممّـا وقع علمـه عليـه ، فـإني لا أدّعي أنني وفيت كل موضوع حقّـه من البحث والاستدلال والاستشهاد والتطبيق .

ذلك لأن الزمن الذي كنتُ ألقي فيـه هـذه المواضيع محـدود جـداً ، لـذلـك فليعذرني القارئ الكريم إذا لحظ أن الموضوع يقتضب أحياناً اقتضـابـاً ، ولا يزال المجال واسعاً للبحث فيه ، والزيادة عليه من الأدلّة والتطبيقات !

وغاية ما في الأمر أني فتحت الباب على مصراعيه ، ورسمتُ معـالم الطريق ، ليدخل الداعي ، والخطيب والمـدرس إلى رحـاب القرآن الكريم ، والسُّنّـة المطهّرة الصحيحة ، فيدعم الموضوع ، ويوسّع فيه ما شـاء ، ويعـدل ، ويقـدّم ، ويؤخّر ، حسب ما يراه حسناً ﴿ وفوق كل ذي علم عليم ﴾ [يوسف : ٧٦/١٢] .

☆ ☆ ☆

هـذا وإنّي أنصح إلى الإخوة الـذين أقـامهم الحق عزّ وجـلّ دعـاة لـدينـه ، وهادين لشريعة نبيّه ﷺ بشيئين اثنين هما من الأهمية بمكان :

١ ـ أن يتحروا الصـدق والإخلاص فيما يقولون وأن يكونوا من العـاملين بمـا يدعون الناس إليه ، فإنهم إذا تحققوا بـذلـك وتخلّقوا بـه كان لكلامهم ودعوتهم أثر بالغ في تهذيب الأخلاق ، وتقويم المعوج ، وتغيير المنكر ، وبالتالي فـإنهم يفوزون برضا الله ، ومحبّة الناس .

ومـا أجـدرنـا أن نتـأمّل بقول الحق عز وجـل : ﴿ يـا أيُّهـا الـذين آمنـوا لِمَ تقولون ما لا تفعلون كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون ﴾ [الصف : ٣/٦١] .

وقولـه عـزّ وجـل : ﴿ أتـأمرون النـاس بـالبرّ وتنسـون أنفسكم وأنتم تتلـون الكتاب.. ﴾ [البقرة : ٤٤/٢] .

وما أجمل ما قاله أبو الأسود الدُؤَلي في هذا المعنى :

يــا أيُّهــا الرجــل المعلِّمُ غيره ... هــلاّ لنفســكَ كان ذا التعليمُ
تصف الدواء لذي السقام وذي الضنى ... كيما يصــحُّ بــه وأنت سقيمُ
وأراك تلقـح بـالرشـاد عقـولنـا ... أبـداً وأنت من الرشـاد عـديمُ
فـابـدأ بنفسـك فـانهـا عن غيِّهـا ... فـإذا انتهتْ عنـهُ فـأنتَ حكيم
فهنـاك يُسمع مـا تقـول ويُشتفى ... بـالـوعـظ منـك وينفـع التعليمُ
لا تنـهَ عن خُلُـقٍ وتـأتيَ مثلـه ... عـارٌ عليـكَ إذا فعلتَ عظيمُ

☆ ☆ ☆

وما أروع ما قاله منصور الفقيه :

إنَّ قـومـاً يـأمرونـا ... بـالـذي لا يفعلـونـا
لمجـانين وإنْ هم ... لم يكـونـوا يُصرعـونا

☆ ☆ ☆

أخي المؤمن قـد يكـون البعض يـدعـو إلى الخير ويفعـل الشر ، ويـأمر بالمعروف ، ويفعل المنكَر ، ويزهِّد ولا يزهَد ، ويخوِّف من عذاب الله تعـالى ولا يخاف ، فهو كما وصفه أبو العتاهية بقوله :

وصفتَ التُّقى حتى كأنَّـك ذو تقى ... وريحُ الخطايـا من ثيـابكَ تسطعُ

فهذا وأمثـالـه عليـه أن يجـاهـد نفسـه ، ويلجـأ إلى الله تعـالى في إصلاحهـا وتقويمها .

وحذار أن يستمع إلى الشيطان يقول له : ما دمتَ لم تعمل بما تقول ؛ فـاترك الدعوة والنصح والإرشاد فهو أسلم لك !!

قد يوسوس له الشيطان فيحسن له هذا .

ألا فليعلم كل مؤمن أنه لا يجوز ترك الطاعة المطلوبة لوجود الخلل فيها ، بل يجب المثابرة على عمل الخير ، والمجاهدة في تحصيل الإخلاص فيه ، والإحسان بأدائه ، حتى يصل إلى حالة الكمال من العلم والعمل ، وربنا سبحانه يقول : ﴿ والذين جاهدوا فينا لنهدينّهم سبلنا ﴾ [العنكبوت : ٦٩/٢٩] .

٢ ـ أن يبتعد عن الاستشهاد بالأحاديث الضعيفة ، فإن لدينا من صحاح الأخبار ما يكفي ويزيد ، وأمامنا من سيرة النبي ﷺ ، وخلفائه الراشدين ، والأئمة المتبوعين ما يغني عن الأساطير والأوهام والخرافات .

وإذا تساهل بعض أهل العلم في الاستشهاد بالأحاديث الضعيفة في فضائل الأعمال فقد اشترطوا لذلك ألا تُخالف قواعد الإسلام الكلية ، ولا أصوله العامة .

☆ ☆ ☆

وأول الطريق في تزكية النفس أن يتهم الداعي نفسَه ، ويحاسبها ، كما فعل أبو عثمان الحيري الزاهد .

فقد روى أبو عمرو بن مطر قال :

حضرت مجلس أبي عثمان الحيري الزاهد فخرج يوماً ، وقعد على موضعه الذي كان يقعد عليه للتذكير ، فسكت حتى طال سكوته فناداه رجل كان يعرف بأبي العباس قائلاً : ترى أن تقول في سكوتك شيئاً ؟ فأنشأ يقول :

وغيرُ تقيٍّ يأمر الناسَ بالتُّقى   طبيب يداوي والطبيب مريضُ

قال : فارتفعت الأصوات بالبكاء والضجيج !

إنه رجل اتَّهم نفسه ، ووبَّخها ، ويعلم الله تعالى ماذا كان يؤنِّبها في سكوته ، حتى إذا انفجر بهذا البيت ، كان أبلغ من خطبة ، وأشد أثراً من أية موعظة فأثَّر على القلوب ، وضجَّ الناس بالبكاء ، وهذا أثر الإخلاص .

أما الذي يرى نفسه أنه وصل إلى القمة في الدعوة والنصح ، وأن الناس كلهم دونه ، وأنه هو أكثر علماً ، وأوسع فهماً ، وأبلغ قولاً ، وأفصح لساناً ، وأنصعُ حجّة ، وجعل يتعالى على الناس ويتكبر ، ويحتقرهم ويتجبر ، فذلك هو الهالك في أصعب المسالك !

☆ ☆ ☆

أخرج مسلم في صحيحه عن أسامة بن زيد رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « يؤتى بالرجل يوم القيامة ، فيُلقى في النار ، فتندلق أقتابُ بطنه ، فيدور بها كما يدور الحمار بالرحى ، فيجتمع عليه أهل النار فيقولون يا فلان ما لك ؟ ألم تكن تأمر بالمعروف ، وتنهى عن المنكر ؟ فيقول بلى ! قد كنتُ آمر بالمعروف ولا آتيه ، وأنهى عن المنكر وآتيه » .

☆ ☆ ☆

لهذا روي عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه « كان إذا أمر الرعية بأمر ، أو أصدر بلاغاً في شيء ، جمع أهل بيته وخاصته ، وقال لهم : إني قد أمرت الناس بكذا فلا يبلغني عن أحد منكم خالف ما أمرتُ به إلا أضعفت له العقوبة » .

☆ ☆ ☆

أخي المؤمن إن الدعوة إلى الله من أشرف الأعمال وأعلاها ، ويكفي دليلاً على ذلك قول الله تعالى :

﴿ ومن أحسن قولاً مِمَّنْ دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال : إنني من المسلمين ﴾ [فصلت : ٤١/٣٣] .

إن النهوض بواجب الدعوة أمر شاق ، وقد تعترض الداعيَ ظروفٌ قاسية ، ومواجهات من المدعوين سيئة ، حين يرى أن كلمته قوبلت بالإعراض ، وأن شخصه قوبل بالسخرية ، فعليه تجاه ذلك كله أن يتجمل بالصبر وأن يتحلّى بالحلم ، وأن يدفع الإساءة بالإحسان والحكمة .

وقد علم الحق سبحانه أن الدعاة يواجهون مشاكلَ وصعوبات فحضّهم على ضبط النفس والدفع بالتي هي أحسن .

لذا قال تعالى بعد الآية المتقدمة : ﴿ ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن ... ﴾ [فصلت : ٣٤/٤١] .

فليس لك أن ترد الإساءة بمثلها فإن الحسنة لا يستوي أثرها مع السيئة .

والصبر والتسامح والاستعلاء على رغبة النفس في مقابلة الشر بالشر ، يرد النفوس الجامحة إلى الهدوء والثقة ، فتنقلب من الخصومة إلى الولاء ، ومن العنف إلى اللين .

لذا قال تعالى : ﴿ ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه وليٌّ حميم ﴾ [فصلت : ٣٤/٤١] .

☆ ☆ ☆

نعم إن الكلمة الطيبة ، والنبرة الهادئة والبسمة الحانية في وجه هائج ، وغضب غاضب ، تقلب الهياج إلى وداعة ، والغضب إلى سكينة .

وذلك يحتاج إلى قلب كبير يعطف ويسمح ، وتلك درجة عظيمة لا يلقاها كل إنسان ، بل هي حظ موهوب ، يتفضل الله به على عباده الذين يحاولون أن يصلوا إلى هذه المرتبة ، ويتخلقوا بهذا الخلق ليتمكنوا من الاستمرار في الدعوة وجلب القلوب إليها ، وترغيب الناس في قبولها .

وهي كما قلت درجة عالية لإنجاح المقصود ﴿ وما يلقّاها إلا الذين صبروا ، وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم ﴾ [فصلت : ٣٥/٤١] .

☆ ☆ ☆

أما ما يتعلق بالجمعة وخطبتها فمعلوم أن لها فروضاً وشروطاً وسنّناً ومندوبات ، وقد تكفّل الفقهاء ـ جزاهم الله خيراً ـ ببيان ذلك، فعليك أخي المؤمن أن تحيط بذلك علماً ، حتى تكون على بصيرة مما تفعل ، وعلى ثقة مما تقول .

☆ ☆ ☆

ولا بد من الإشارة بهذه المناسبة أن نلفت النظر إلى أن الحق الذي لا مرية فيه ، هو أن نسلك المنهج الذي كان عليه رسولنا ﷺ ، فقد كانت خطبته عليه الصلاة والسلام متنوعة الأساليب ، متعددة الأغراض ، كثير المعاني ، متصلة بحياة الناس ، فمن تذكير بالله واليوم الآخر ، إلى تعليم وإرشاد لما فيه صلاح الناس في دنياهم وآخرتهم ، وفلاح أفرادهم ومجتمعهم .

☆ ☆ ☆

نسأله تعالى الإخلاص في أعمالنا ، والصدق في أقوالنا ، والخير في نياتنا ، وألاّ يجعل كلامنا حجةً علينا ، وأن يستعملنا فيما يرضيه ، إنه سبحانه أعظم مسؤول ، وخير مأمول .

أحمد نَصِيب المَحَامِيد

﴿ يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى ﴾

﴿ يـا أيها النـاس إنَّا خلقنـاكم من ذكرٍ وأنثى ، وجعلنـاكم شعوبـاً وقبـائـلَ لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، إن الله عليم خبير ﴾ [الحجرات : ١٣/٤٩] .

هذا هو النداء الصريح الذي جـاء بـه محمـد عليـه الصلاة والسلام ، في قرآنـه الذي أوحاه إليه ربه جل جلاله ، نداء يذكر البشر جميعاً على وجـه هـذه الأرض أنهم إخوة ، وأنهم أبناء أب واحد وأم واحدة وهذه الأخوة لبني الإنسان التي أثبتهـا قرآن محمد عليه الصلاة والسلام ، يجب أن تؤتي ثمارها وتحقق غايتها ، فـالأخ يجب أن يعيش مع أخيه بحب وأمان ، وتعـاون واطمئنـان ، وإذا اقتضت حكمـة الله ، وطبيعة التناسل أن يكون الناس قبائل وشعوباً وأمماً ، فليس معنى هذا أنهم خلقوا كذلك للخصام والتنازع ، وللتشاحن والتـدافع ، وليعـد كل قبيل للآخر وسـائل التـدمير والهلاك ، كلا إن النـاس لم يخلقوا لهـذا ، إنمـا خُلقـوا للتعـارف والتـآلف ولتحقيق الإخاء الإنساني العام ، وما يقتضيه هذا الإخاء من رحمة وبرٍّ وخير .

وقد جاءت شريعة محمد عليـه الصلاة والسلام وتعـاليمـه تشرح هـذه النواحي بوضوح وتؤكدها بإصرار ، قال عليه الصلاة والسلام في حديث أخرجـه البخـاري في صحيحه عن أنس بن مالك رضي الله عنه : « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيـه ما يحب لنفسـه » . وكل إنسـان بحسب طبعـه يحب لنفسـه الخير ، ويرغب لهـا في تحصيل الهناء والسعادة كما يكره لها الشر والشقـاوة ، ولكن تعـاليم الرسول الكريم لتفهم المؤمن أنـه لن يكون مؤمنـاً بـالمعنى الصحيـح إلا إذا أحب لأخيـه من الخير ما يحب لنفسـه ، وكره لـه من الشر مـا يكره لنفسـه ، وإذا تكونت هـذه الفكرة ورسخت في أفراد المجتمع ، وعمل كل منهم بما تتطلبه هـذه التعـاليم السـاميـة ، برز للوجود مجتمع قوي متماسك ، يسوده الحب ، ويظلله الهناء والسعادة .

إننا حين ننظر في أسباب النزاع بين أفراد البشر وجماعاتهم نجد أن ذلك ناشئ عن نبـذ هـذه الأخوة ، وتغلب الأثرة على النفـوس ، والأثرة آفـة الإنسـان ، متى سيطرت على امرئ ، محقت خيره ، ونمّت شره ، وحصرته في نطـاق ضيّق خسيس لا يعرف إلا شخصه ، ولا يتأثر بفرح أو حزن إلا لما يمسه وحـده من خير أو شر ، أما هذه الدنيا العريضة ، أمـا هـذه الألوف المؤلفـة من البشر فهو لا يهتم بـأمرهم ، ولا يعنى بشؤونهم ، إلا بقصد ما يصل إليه عن طريقهم لتحقيق آمالـه ، وإشبـاع رغباته ، ومثل هـذا الإنسـان بعيـد من رحمـة الله ، محروم من حبـه تعـالى ، لأن أحب الناس إلى الله وأقربهم إلى نيل رحمته وعفوه وتكريمه ، إنما هو أكثرهم نفعـاً للناس ، وأشدهم حباً لخلق الله .

وقد صور عليه الصلاة والسلام المسلمين الصادقين بأنهم كتلة واحـدة متماسكـة مترابطة تتأثر كل ذرة منها بمـا يصيب الجزء الآخر ، ومـا أبـدع هـذا التصوير في قوله ﷺ فيما رواه البخاري :

« مثل المسلمين في توادّهم وتعاطفهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد ، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضـاء بـالسهر والحمى » . هـذا هو المسلم الحق في نظر الرسول عليه الصلاة والسلام ، تنزل المصيبة ، في أخيه ، فيحزن لها ، ويحس معـه بالأسى ، ويشاركه الألم ، ويسعى بدفعها ورفعهـا إن استطـاع إلى ذلـك سبيلاً ، أما ذلك الذي لا يهمه الأمر ، ولا يأبـه للكارثـة تقع بـأخيـه ، ومـا دام هو سـالمـاً فالأمر لا يعنيه ، فذلك ميت العـاطفـة ، ضعيف الإيمـان ، مبتور الصلـة بمشـاعر الأخوة التي تمزج بين نفوس المسلمين فتجعلهم كالجسد الواحد كما مثّل الرسول عليـه الصلاة والسلام .

وإذا كانت تعاليم الرسول عليه الصلاة والسلام توجب عليك أن يكون فيـك هذا الشعور الحي نحو أخيك حين يصاب بـأذى أو تحل بـه كارثـة ، فمن الطبيعي أن تكون أنت أبعد الناس عن إيذائـه وظلمـه ، بل واجبـك أن تسعى لإسعـاده ،

وتأمين راحته ، لهذا يقول رسول الإنسانية : « المسلم أخو المسلم لا يظلمه ، ولا يسلمه ، من كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته ، ومن فرّج عن مسلم كربة من كرب الدنيا فرج الله عنه بها كربة من كرب يوم القيامة ، ومن ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة » . وقد عرف المسلمون الأوّلون هذه التعاليم السامية التي توطد عرا الإخاء ، وتخدم الجميع ، فكانوا يسعون لتحقيقها ، ويعملون على تطبيقها .

عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه كان معتكفاً في مسجد رسول الله ﷺ ، فأتاه رجل فسلَّم ثم جلس ، فقال له ابن عباس : يا فلان أراك مكتئباً حزيناً ، قال نعم يا ابن عم رسول الله ، لفلان عليّ حق ولاء وحرمة صاحب هذا القبر ما أقدر عليه ، قال ابن عباس أفلا أكلمه فيك ؟ قال : إن أحببت . قال : فانتعل ابن عباس ، ثم خرج من المسجد فقال له الرجل : أنسيت ما كنتَ فيه ؟ قال : لا ، ولكني سمعت صاحب هذا القبر والعهد به قريب ـ ودمعت عيناه ـ وهو يقول : « من مشى في حاجة أخيه ، وبلغ فيها ، كان خيراً له من اعتكاف عشر سنين ، ومن اعتكف يوماً ابتغاء وجه الله تعالى ، جعل الله بينه وبين النار ثلاثة خنادق ، كل خندق أبعد مما بين الخافقين » . رواه البيهقي .

إن هذا الحديث يصور إعزاز الإسلام لعلائق الإخاء الجميل ، وتقديره العالي لأنواع الخدمات العامة يقدمها الإنسان لإخوته ومواطنيه ، وبهذه الخدمات تتوطد الصلات وينمو الإخاء ، ويسعد المجتمع ، فترسو أركانه ، ويصان بنيانه ، ويعظم كيانه .

هذا ابن عباس يترك الاعتكاف ، وهو عبادة محضة ، رفيعة الدرجة عند الله عز وجل ، لأنها استغراق في الصلاة والصيام والذكر ، ثم هو في مسجد رسول الله ﷺ حيث يضاعف فيه الأجر ألف مرة فوق المساجد الأخرى .

ومع ذلك فإن فقه ابن عباس في الإسلام ، وفهمه لتعاليه جعلـه يترك ذلـك كله ليقدم خدمة لمواطن يطلب العون ، وليمشي خطوات في حاجة أخيه .

أيها الناس : استمعوا إلى هذا التصوير العجيب لموقع البرّ والإحسان عنـد الله عز وجل ، يقول تعـالى في الحـديث القـدسي : « يـا ابن آدم مرضت فلم تعـدني . فيقول ابن آدم : يا ربّ كيف أعودك وأنت رب العالمين ؟ فيقول الله تعالى : أمـا علمت أن عبدي فلاناً مرض فلم تعده ؟ أما علمت أنك لو عدته لوجدتني عنده .

يا ابن آدم استطعمتك فلم تطعمني . فيقول ابن آدم : يـا رب كيف أطعمـك وأنت رب العالمين ؟ فيقول الله تعالى : أما علمت أن عبـدي فلانـاً استطعمـك فلم تطعمه ؟ أما إنك لو أطعمته لوجـدت ذلـك عنـدي ، يـا ابن آدم استسقيتـك فلم تسقني . فيقول : كيف أسقيك وأنت رب العالمين ؟ فيقول استسقاك عبدي فلان فلم تسقه ، أما إنك لو سقيته لوجدت ذلك عندي » .

أيها الناس : تأمّلوا جيداً في هذا المعنى السامي الذي يشير إليه هذا الحـديث الجليل ، فإن الله تعالى مع عباده في كل لحظة ، وفي كل حالـة ، ولكنـه يرفع من شأن البر والمعروف الذي يوطد الإخاء بين الناس ، ويجعل البر بـالنـاس كأنّـه برٌّ به ، وما هو بحاجة البر سبحانه وتعالى إنـه هو الغني الحميـد ﴿ يـا أيهـا النـاس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغني الحميد ﴾ [فاطر : ١٥/٣٥] . ومن هنا يتبين أن الإخاء والرحمة هما الأصل بالنسبة لمبـادئ الإحسـان في الـدعوة المحمـديـة ، فهي لم تترك سبيلاً من الترغيب والترهيب إلا سلكتـه لتنطوي النفوس على الإخـاء والرحمـة ، وتنفر القلوب من الأثرة والأنانية .

ولـما كان الإخـاء والتـآلف من أهم نعم الله على عبـاده ، ومن أنجح الوسـائـل لسعادة المجتمع ، ذكر الله عبـاده المؤمنين بهـذه النعمـة ، ليستمسكوا بها ، ويحرصوا عليها ، ويعملوا الأسباب الموصلة إلى استدامتها وبقائها . فقال تعالى : ﴿ يا أيها

الـذين آمنوا اتقوا الله حقَّ تقـاتـه ، ولا تموتن .... واذكروا نعمـة الله عليكم .. ﴾ [آل عمران : ١٠٢/٣ ـ ١٠٣] .

نعم إن تآلف القلوب ، ووحـدة الصف ، وجمع الكلمـة ، لا يكون إلا بتوفيق من الله ، وهدىً منه ﴿ لوأنفقت ما في الأرض جميعاً مـاألّفتَ بين قلوبهم ، ولكن الله ألّف بينهم ﴾ [الأنفال : ٦٣/٨] .

ولم يكتف الإسـلام بـأن جعـل الإنسـان أخـا الإنسـان ، ونفى الإيمـان عن الشخص الـذي لا يحب لأخيـه الخير كما يحبـه لنفسـه ، بـل ارتقى بـالمسلم إلى أعلى درجات الإخاء ، وهي درجة الإيثار ، بأن يقدم أخاه على نفسـه وهو في حـاجـة إلى الشيء ، وقد سجَّل الله في كتابـه العزيز لهؤلاء المؤثرين مـدحـاً يُتلى إلى قيـام الساعة فقال : ﴿ ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصـة ﴾ [الحشر : ٩/٥٩] . فياأيها المسلمون ياأيها الناس ، هذه تعاليم الإسلام القيِّمة ، وهذه دعوته إلى الإخاء الحارة ، فاعملوا بها تكونوا خير أمة .

إن هذا الإخاء الذي دعا إليـه الإسلام في الأمـة قوة جبـارة ضـد أعـدائهـا ، والذين يسعون لاستعبادها والتسلط عليها ، لهذا كان من أول أعمال الرسول ﷺ حين قدم المدينـة مهـاجراً من مكـة ، كان أول تنظيم لـه في المـدينـة أن آخى بين المهاجرين والأنصار ، ليكون بهـذا الإخـاء قوة ضـد اليهود الـذين كانوا يتربصون بالمسلمين الدوائر ليقضوا على الدين الجديد .

وبهذا الإخاء وجمع الكلمة ووحدة الصف استطـاع أن يقضي على اليهود وعلى مؤامراتهم ، ولما لم تجـدِ معـاملتهم بـالحسنى استعمل معهم منتهى القوة وأجلاهم عن الديار .

والتاريخ يعيد نفسـه الآن مع هؤلاء الشراذم اليهود الأقزام الـذين بلانـا بهم الاستعمار الغاشم وعلى رأسه أمريكا الظالمة وبريطـانيـا الغـادرة وألمـانيـا الغربيـة

الماكرة ، هؤلاء هم أعداؤنا أعداء العروبة والإسلام الذين دعموا إسرائيل وأرادوا لها دولة في قلب البلاد العربية وفي أقدس الأماكن الإسلامية لينهبوا ثرواتنا ولينعموا بخير بلادنا ، وليعملوا على إزعاج أهلنا وأبنائنا ، فما علينا اليوم إلا أن نتّحد جميعاً لنردّ كيد أعمالهم بقوتنا ، باتحادنا ، بتدربنا على السلاح ، وبانضوائنا بالجيش الشعبي الذي نذر نفسه للدفاع عن الوطن مقدماً ضريبة الدم في المعركة المصيرية الحاسمة بإذن الله ، فالواجب يدعونا لنكون أفراداً وجماعات على أهبة الاستعداد لندفع عن بلادنا العربية والإسلامية شرّ الطُّغاة الآثمين إسرائيل الباغية ، ولندحرها حتى نخرجها من أرضنا الغالية ولنلبسها ثوب العار والذل ﴿ والله على كل شيء قدير ﴾ [البقرة : ٢٠/٢ ومواضع أخرى] .

☆ ☆ ☆

الشَّعْبُ الْقَوِيُّ والأُمَّةُ الأَفْضَلُ

دخل أبو مسلم الخولاني على معاوية رضي الله عنه وهو إذ ذاك خليفة فقال : « السلام عليك أيها الأجير ، فقالوا ـ أي حاشية الخليفة ـ قل : السلام عليك أيها الأمير . فقال : السلام عليك أيها الأجير ، فعاد أعوان الخليفة ينبهونه ليقول : السلام عليك أيها الأمير ، وعاد أبو مسلم فكرر مقالته : السلام عليك أيها الأجير . فقال لهم معاوية : دعوا أبا مسلم فإنه أعلم بما يقول . فقال أبو مسلم : إنما أنت أجير استأجرك ربٌّ هذه الغنم لرعايتها ، فإن أنت هنأت جرباها ، وداويت مرضاها ، وحبست أولاها على أخراها وفاكَّ سيدُها . وإن أنت لم تهنأ جرباها ، ولم تداو مرضاها ، ولم تحبس أولاها على أخراها ، عاقبك سيِّدها » .

في هذا الحديث المتقدم مُثُلٌ عليا من سيرة السلف الصالح ، وقانون مستقيم يُحتذى للأمة الناهضة ، وسبيل واضحة جليّة للشعب الذي يبغي التقدم والعزة والفخار .

ومما لا ريب فيه أن تقدم الأمة ونهوضها يرتكز على دعامتين : إخلاص ولاة الأمور لرعيتهم ، وسعيهم الدائب لمصلحتهم ، ونصح أفراد الشعب لرؤسائهم ، وإعانتهم على تنفيذ الخطط التي يرسمونها للنهوض بهم .

ولقد كان الخلفاء والأمراء وجميع ولاة الأمور في عهد التقدم للأمّة الإسلامية ، يفتحون صدورهم للنصيحة الحكيمة ، وقلوبهم للموعظة الحسنة ، ويمهدون السبيل لجميع أفراد الأمة كي يصوا إليهم بنصحهم وإرشادهم ، ومتى كان ولاة الأمور بهذه الصفة الطبية ، كانوا موفقين للخير ، بعيدين عن الشر ، محببين لجميع أفراد شعبهم .

أمـا إذا ادّعوا أنهم معصومون من الخطـأ ، وأغلقوا أبـوابهم في وجـه النصيحـة فإنهم لا شك إلى انهيار وتحطيم ، وتأسُّف وندامة .

وإن من علامات التوفيق للحاكم أن يكون حوله بطانة خير ، وأعوان صدق يدلُّونه على مواقع الهدى ، ويحذرونه من مزالق الشرور .

ورد في الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « مـا بعث الله من نبي ولا استخلف من خليفة إلا كان له بطانتان ، بطانـه تـأمره بـالمعروف وتحضه عليه ، وبطانة تأمره بالشر وتحضه عليه ، والمعصوم من عصم الله » .

وعن عائشة رضي الله عنهـا أن النبي ﷺ قـال : « إذا أراد الله بـالأمير خيراً جعل لـه وزير صـدق ، إن نسيَ ذكَّره ، وإن ذكر أعـانـه ، وإذا أراد الله بـه غير ذلك جعل له وزير سوء ، إن نسي لم يذكره ، وإن ذكر لم يعنه » .

ومن واجب الرئيس وكل من يتـولى أمراً من أمـور الأمـة أن يكـون يقظـاً بصيراً بمـا يـدور حولـه ، وبمـا يكون من حـاشيتـه وأعـوانـه ، فـإن بعض هـؤلاء يتزلّفون لرئيسهم ، ويداهنونه ، ويمجدون جميع أعمـالـه وإن كانت غير صـالحـة ، ولا ينبهونـه على مواضع الخطـأ فيهـا ، فـأولئـك هم بطـانـة السوء الـذين خـانـوا رئيسهم ، وخانوا أمتهم وأمانتهم ، واستحقوا غضب الله ، ولعنة التاريخ .

لذلك كان من سعادة ولاة الأمور أن يُرزقوا أعواناً صالحين مخلصين يُسْـدون إليهم النصيحة ، ويعينونهم على عمل الخير لأمتهم .

ومن هؤلاء أبو مسلم الخولاني الذي دخل على معاوية فلم ترهبه الخلافـة ، ولم تخفه عظمة الملـك والسلطـان ، فبيَّن للخليفـة وظيفتـه وعـاقبـة أمره إذا هو قصَّر بهذه الوظيفة . وقد شكر له الخليفة صنيعه ، وتقبَّل منه نصيحتـه ، وفسح المجـال لتكرار مثل هذه الموعظة .

ويروي لنا التاريخ أن عمر بن عبد العزيز حين تولّى الخلافة ذهب ليستريح قليلاً فجاءه ابنه عبد الملك فقال له : ياأبت ما تريد أن تصنع ؟ قال : يا بني إنني تعبت اليوم وأريد أن أقيل . قال : ياأبت أتقيل ولا ترد المظالم ؟ قال : يا بني إنني قد سهرت البارحة في أمر عمّك سليمان - يعني الخليفة الراحل - فإذا صليت الظهر رددت المظالم . فقال له ابنه : ياأبت من أين لك أن تعيش إلى الظهر ؟ - أي هل تضمن لنفسك أن تعيش إلى الظهر ؟ - فتنبّه الخليفة وقال لابنه : ادنُ مني يا بني ، فدنا منه فقبّل بين عينيه ، وقال : الحمد لله الذي أخرج من ظهري من يعينني على ديني . ثم خرج ولم يسترح ، وأمر مناديه أن ينادي : ألا كلٌّ من كانت له مظلمة فليرفعْها . فتقدم إليه ذمي من أهل حمص ، فقال : ياأمير المؤمنين أسألك كتاب الله . قال وما ذاك ؟ قال : إن العبّاس بن الوليد اغتصبني حقي . والعباس جالس ، فقال عمر : ما تقول ياعباس ؟ قال : إن أمير المؤمنين الوليد قد أقطعني هذا الحق ، وهذا كتابه . فقال عمر : ما تقول ياذمي ؟ - أي يامن دخل في ذمتنا وعهدنا - قال : ياأمير المؤمنين أسألك كتاب الله تعالى . فقال عمر : « كتاب الله أحق أن يتبع من كتاب الوليد » اردد إليه حقه ياعباس ، ثم جعل لا يدع شيئاً مما كان في يد أهل بيته من المظالم إلا رده مظلمة مظلمة .

وخطب عمر بن الخطاب مرة فقال : « إنما العظمة لله عز وجل ، وليس للعباد منها شيء ، فلا يقولن أحد منكم إن عمر قد تغيّر منذ ولي ، أعقل الحق عن نفسي ، وأتقدم وأبين لكم أمري ، فأيما رجل كانت له حاجة ، أو ظلم مظلمة ، أو عيب علينا في خلق فليؤذنّي فإنما أنا رجل منكم » .

أيها الإخوة المومنون : هذه نتف من سيرة أولئك العظماء في أممهم وشعوبهم فقد جعلوا أنفسهم تحت رقابة الأمة ، وأقاموا أنفسهم خدماً لمصالحها ، وحراساً لدينها ، يستعملون سلطانهم في خدمة الناس ، ولا يستعملون الناس في خدمة سلطانهم .

لم يكن ولاة الأمور في الأمة الإسلامية الحقّة ملوكاً من أولئك الملوك المستبدين الذين يتصرفون بأموال الرعية وبأمورها كيف يريدون ، ولا يقبلون من أحد رأياً ولا نصيحة .

وقد كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه إذا استعمل الأمراء قال لهم : إني لم أستعملكم على أمة محمد على أشعارهم ولا على أبشارهم ، وإنما استعملتكم عليهم لتقيموا بهم الصلاة ، وتقضوا بينهم بالحق ، وتقسموا بينهم بالعدل ، وقد كان رضي الله عنه يراقب جميع عماله وينصح إليهم أحياناً ، وكان يعتقد أنه مسؤول عن جميع تصرفاتهم .

كتب مرة إلى حذيفة بعد أن ولاّه المدائن أن يطلق امرأته ، وكان بلغه أنه تزوج امرأة عجمية ، فكتب إليه حذيفة : « لا أفعل حتى تخبرني أحلال أم حرام وما أردت بذلك ؟ » فكتب إليه عمر : « لا ، بل حلال ، ولكن في نساء الأعاجم خلابة (خديعة ومكر) فإن أقبلتم عليهن غلبنكم على نسائكم » . فانتبه الوالي إلى ما يترتب على عمله ، من سيء الأثر في النساء العربيات ، فانتهى إلى رأي عمر ، وطلّق امرأته .

فمتى حصل هذا التجاوب بين الرئيس والمرؤوس ، وبين الحاكم والمحكوم ، وبين الأمير والمأمور نهضت الأمة نهضة يفخر بها الزمن ، ويهتز لها التاريخ ، وإستقرت الأمور على مناهج من العدل واضحة لا عِوَج فيها ولا التواء ، وكذلك كان الحال في أمتنا السابقة التي انتهجت هذا النهج القويم ، نجد الأمانة والعفة وتوخي المصلحة العامة عقيدة متركزة في نفوس الجميع .

طلب أحد الأمراء من خازنه مالاً لم يبيّن له مصرفه ، فأبى أن يعطيه

ما طلب ، فقال الأمير : « إنما أنت خازن لنا ، إذا أعطيناك فخذ ، وإذا سكتنا عنك فاسكت » . فقال الخازن (وهو بمثابة أمين الصندوق الآن) : ما أنا بخازن لك ولا لأبيك ولا لأهل بيتك ، إنما أنا خازن للمسلمين ، ثم جاء يوم الجمعة والأمير يخطب ، فقام الخازن وقال : « أيها الناس ، زعم الأمير كذا وكذا وإنما أنا خازن لكم ، وهذه مفاتيح بيت مالكم »ورمى بالمفاتيح إليهم .

أرأيتم أيها الناس إلى هذه الجرأة من جهة ، والعفة والأمانة من جهة أخرى .

وقدم عمر بن الخطاب حمص فأمرهم أن يكتبوا له فقراءهم ، فرفعوا إليه كتاباً فيه أسماء الفقراء ، فإذا فيه سعيد بن عامر ، قال عمر : من سعيد بن عامر ؟ قالوا : أميرنا . قال عمر : أميركم فقير ؟ قالوا : نعم ، فعجب عمر وقال : كيف يكون أميركم فقيراً ، أين عطاؤه (يعني راتبه) ؟ قالوا : يا أمير المؤمنين لا يمسك شيئاً ، فبكى عمر ، ثم عمد إلى ألف دينار فصرها وبعث بها إليه ، وقال : أقرئوه مني السلام ، وقولوا له بعث إليك بها أمير المؤمنين لتستعين بها على حاجتك ، فجاء بها الرسول إليه ، فنظر إليها فإذا هي دنانير ، فجعل يسترجع ، فقالت له امرأته : ما شأنك ؟ أصيب أمير المؤمنين ؟ قال : أعظم . قالت : فظهرت آية ؟ قال : أعظم من ذلك . قالت : فأمر من الساعة ؟ قال : أعظم من ذلك . قالت : فما شأنك ؟ قال : الدنيا أتتني ، الفتنة أتتني ، دخلت علي . فقالت : فاصنع فيها ما شئت . قال لها : أعندك عون ؟ قالت : نعم . فصرَّ الدنانير صُرراً ، ثم جعلها في مخلاة ، وبات يصلي حتى أصبح ثم اعترض بها جيشاً من جيوش المسلمين فأمضاها كلها ، أي فرَّقها .

ما أجمل الأمانة والعفَّة في نفوس أفراد الشعب ، وما أحسن الإيثار والإخلاص يجمع شمل المسلمين ، ويقوي رابطتهم ، ويشد أواصر وحدتهم ، وما أعظم الأمة التي تصدر في جميع أعمالها عن حب متبادل ، وإخلاص يفيض هناءً وسعادةً ، فالشعب المتَّصف بهذه الصفات هو الشعب القوي ، والأمة السائرة على هذا النهج هي الأمة الأفضل .

أَثَرُ الإِيمَانِ في النُّفُوسِ

أخرج البخاري عن أنس قال : قال النبي ﷺ : « لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين » .

وروى البخاري أيضاً عن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « ثلاث من كنَّ فيه وجد حلاوة الإيمان ، أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله ، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار » .

الإيمان هو هذه العقيدة الفطرية الراسخة في نفس كل إنسان ، وهو الذي أشار إليه الرسول ﷺ في حديثه الآخر حيث يقول : « كل مولود يولد على الفطرة » . هذا الإيمان متى رسخ في النفس ، ونشأ عليه الإنسان وغذاه بالعمل الصالح ، ونماه بالبر والإحسان ، أكسب صاحبه سعادة في الدنيا ، ونجاة في الآخرة ، وأصبح هذا المؤمن عضواً صالحاً في المجتمع ، ولبنة طيبة طاهرة في بنائه .

هذا المؤمن يعلم بطبيعة الحال أن المجتمع الصالح لا يقوم إلا على الحب والإخاء والتعاون ، كما يعلم أن من مقوّمات المجتمع الطيّب التناصح والهداية ، والإرشاد .

والمؤمن دائماً يسير على هدي ربه ، وتعاليم نبيّه ﷺ ، وإرشادات دينه ، فإذا أيقن أن الحب هو الأساس في سعادة الإنسان ، تساءل لمن يكون هذا الحب ، ومن الذي يستحق أن يمنح هذا الإخلاص ؟

وتجيء أحاديث الرسول الكريم التي قدمتُها شارحة موضحة هادية ، فأول من يجب على المؤمن أن يوليه محبته وإخلاصه هو الله عز وجل ، إذ أنه تعالى هو

المنعم المتفضّل المعطي الواهب المنّان ، وكل نعمة يتقلب بها الإنسان ، ويرفل في رياضها ، ويهنأ في جنباتها ، إنما هي من الله جل جلاله : ﴿ وما بكم من نعمة فمن الله ﴾ [النحل : ٥٣/١٦] . تجاه هذا الإحسان منه عز وجل ، وأمام هذه النعم الكثيرة المتوالية التي لا تتناهى ولا تُحصى ﴿ وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ﴾ [النحل : ١٨/١٦] ، تجاه هذا كله كان من واجب الإنسان أن يحب الله عز وجل ، وكلما قوي إيمان العبد ، ازداد حبه لربّه ، وتفانيه في طاعته وطلب مرضاته ﴿ ومن الناس من يتّخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله ، والذين آمنوا أشد حباً لله ﴾ [البقرة : ١٦٥/٢] .

إن هذا الحديث يكشف لنا عن تعلُّق المؤمن بالمُثُل العليا ، فليس أمامه إلا الله ورسوله يحبها ، ويتفانى في سبيلها ، لأن حب الرسول ﷺ ، هو الطريق إلى الحصول على حب الله ، والوصول إلى رضاه ﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم ﴾ [آل عمران : ٣١/٣] .

إن الإنسان لا بد له من علاقات في هذه الحياة الدنيا ، مع زوجته وأولاده ، وجيرانه وزملائه وأقرانه وغيرهم ممن تجمعه بهم ضرورات الحياة ، وعادات المجتمع ، وقد يجد لهؤلاء في قلبه من الحب والميل الشيءَ الكثير أو القليل ، ولكن هذا لا يغض من إيمانه ، ولا ينقص من عقيدته لأن حبّه لهم إنما هو من أجل الله ، حيث كوّن سبحانه وتعالى المجتمع بهذا الشكل ، ورتّبه على هذا النظام ، وأمر عباده أن يعيشوا بحب وإخاء وسلام ، وأن يتعاونوا في هذه الحياة على البر والتقوى ، ولا يتعاونوا على الإثم والعدوان فإذا أحب المسلم أخاه وصديقه ورفيقه وجاره ، امتثالاً لأمر ربّه رجع الحب في حقيقته لله عز وجل .

لذلك لم ينهَ الإسلام أتباعه عن الميل إلى متاع الحياة ومباهجها ، ولم يحرّم عليهم تناولها والتمتع بها ، لأنه دين يتمشى مع الفطرة البشرية ، والرغبات

الإنسانية ضمن حدود معينة ، إنما حذَّر الإسلام من أن تشغل متع الحياة الإنسان عن عبادة ربه ، وأداء فرائضه ، والقيام بواجباته ، وتوعَّد بشدة أن تحتل مكانَ الصدارة في نفسه وقلبه ، وأن تكون هي غايته من هذه الحياة ، لها يسعى ، ومن أجلها يعيش . قال تعالى :

﴿ قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها ، وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها ، أحب إليكم من الله ورسوله ، وجهاد في سبيله ، فتربَّصوا حتى يأتي الله بأمره ، والله لا يهدي القوم الفاسقين ﴾ [التوبة : ٢٤/٩] .

وقد جعل الحديث المتقدم حب الإنسان للإنسان من علامات الإيمان الحق ، حيث قال الرسول الكريم : « وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله » ، لأنك متى صدقت في حبّك لله ، أحببت الخلق كلهم ، لأنهم مخلوقون له ، ومن صنعه البديع المحكم ، وأحب الخلق إلى الله أنفعهم لعياله ، ومن أهم النفع لهم أن تعاملهم بحسن الخلق وسعة الصدر .

« جاء رجل إلى النبي ﷺ مرة من بين يديه وسأله : ما الدين يا رسول الله ؟ فأجاب الرسول بقوله : الدين حسن الخلق ، فأتاه الرجل من قبل يمينه وسأله : ما الدين يا رسول الله ؟ فأجابه بقوله : الدين حسن الخلق ، ثم أتاه من قبل شماله ، وسأله : ما الدين يا رسول الله ؟ فأجابه بقوله : الدين حسن الخلق ، ثم أتاه من ورائه وسأله : ما الدين يا رسول الله ؟ فالتفت إليه الرسول وقال له : أما تفقه ؟ هو ألاّ تغضب » .

وقد حرص الإسلام على أن يعيش الناس على وجه هذه الأرض بأمن واطمئنان وسلام ، ولن يكون هذا إلا إذا أحبَّ الإنسان أخاه ، وإلى هذا يشير قول الرسول الكريم فيما رواه أنس رضي الله عنه : « لا يؤمن أحدكم حتى يحب

لأخيه ما يحب لنفسه » . فقد ارتقى الحديث الكريم بالإنسان إلى أعلى درجات الكمال والإخاء فهو لم يكتف بأن يحب الإنسان أخاه وكفى ، بل جعل حقيقة هذا الحب أن تفرح في وصول الخير إليه ، وحصول السعادة له ، كما تسر بذلك لنفسك ، وهذا كله علامة الإيمان الصادق أن يرى الفرد نفسه عضواً في المجتمع ، ولن يصلح المجتمع إلا إذا كانت أسرته ترفل بالنعيم والهدوء والاستقرار .

وقد عرف المسلمون الأولون كل هذا فكان حب الله ورسوله مالئاً قلوبهم ، ومنيراً طريقهم ، ونتج عن هذا تمسكهم بدين الله ، وعملهم بسنّة رسوله ، لأن حقيقة الحب هو امتثال أمر المحبوب ، والنزول عند ما يريد .

« جاء رجل فسأل رسول الله ﷺ : متى أكون مؤمناً صادقاً ؟ قال : إذا أحببت الله ، فقال : ومتى أحب الله ؟ قال : إذا أحببت رسوله . قال : ومتى أحب رسوله ؟ قال : إذا اتبعت طريقه ، واستعملت سنّته ، وأحببت بحبه ، وأبغضت ببغضه ، وواليت بولائه وعاديت بعداوته ، ثم يقول الرسول الكريم : ألا لا إيمان لمن لا محبة له . يكررها ثلاثاً » .

وقد كان للصحابة ، رضوان الله عليهم ، الحظ الأوفر من حب الرسول الكريم ، لما عمّهم من نور المشاهدة ونالوه من ثمرة المعرفة ، ولما ذاقوه من حلاوة الإيمان .

(كان للرسول مولى يسمى (ثوبان) ، وقد بلغ من حبه له أن فقد الصبر عن البعد عنه ، قدم على الرسول يوماً فرآه هزيل الجسم ، ممتقع اللون ، عليه سحابة من الكآبة ، فسأله النبي ﷺ عمّا حلَّ به ، فقال : يا رسول الله ما بي وجع ، غير أنّي إذا لم أركَ اشتقتك ، واستوحشت من ذلك وحشة عظيمة ، فذكرت الآخرة ، حيث لا أراك هناك لأني إن دخلتُ الجنة فأين منزلتي من منزلتك ؟ فأنت في درجات النبين ، فلا أراك ، فنزل قوله تعالى : ﴿ ومن يطع

الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً » [النساء : ٤/٦٩] .

ولم تكن المرأة المسلمة بأقل حظاً في هذا المضمار ، بل ربما كان عند بعض النساء من الحب لرسول الله ﷺ ما يفوق بعض الرجال . « لمّا أشيع يوم أُحُد أن رسول الله قُتِل ، وكثرت الصوارخ بالمدينة ، خرجت امرأة من الأنصار تتعرف أخباره ، فاستقبلت في طريقها بأخيها وابنها وزوجها وأبيها ، كلهم قتلى ، وكانت كلّما مرت بواحد منهم صريعاً قالت : من هذا ؟ قالوا : أخوك . وهكذا فلم تقف عندهم ولم ينسِها مصرعهم نبي الله ، لذلك قالت : ما فعل النبي ﷺ ، فيقولون لها هو أمامك ، وما زالت سائرة تبحث عنه ، حتى وجدته سليماً معافى ، فأخذت بناصية ثوبه ، ثم جعلت تقول : بأبي أنت وأمي يا رسول الله ، كل الناس دونك جلل لا أبالي إذا سلمتَ مَن هلك » .

وهذا زيد بن الدثنّة يأسره أهل مكة ثم يعزمون على قتله فيربطونه بخشبة ويشدونه إليها ثم يصوبون إليه سهامهم منتظرين إشارة أبي سفيان ، وفي هذه اللحظة الرهيبة يتقدم إليه أبو سفيان فيقول : يا زيد ينجيك مما أنت فيه أن تسب محمداً ، ولكن زيداً يرفض بإصرار أن يتكلم في حق نبيّه بأية كلمة شائنة ، فيعجب أبو سفيان ثم يقول له : يا زيد أتحب أنّ محمداً الآن عندنا مكانك نضرب عنقَه ، وأنك في أهلك ؟ فيقول زيد : والله ما أحب أن محمداً الآن في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة وأني جالس في أهلي . فيزداد أبو سفيان إعجاباً ، ويقول : ما رأيت أحداً من الناس يحب أحداً كحب أصحاب محمد محمداً .

أيها المسلمون : هل آن لنا أن نتخلق بهذه الأخلاق الكريمة ، لنكون مجتمعاً قوياً متماسكاً ، يسوده الإخاء ويعمُّه الرخاء وترفرف عليه العزة ؟

هل آن لنا أن نحيي في قلوبنا حبَّ نبيّنا ، وأن نستمسك بتعاليه وإرشاداته ،

ليعود لنا ما فقدناه من عزٍّ وقوة وسلطـان ؟ إن المسلمين الأولين الـذين سـاروا في هذه الطريق لم يكن يقف في وجههم غاصب ، ولا يثبت أمامهم ظالم أو دخيل ، ولا يستعصي عليهم مطلب في سبيل الله .

هذا البراء بن مالك يرى القتال يشتد يوم اليمامة ، ويوضع مسيلمة الكـذاب زعيم بني حنيفة في حديقـة ، وتـدق رحى الحرب حول هـذه الحـديقـة ، ويشتـد البـأس ، ويحمى الـوطيس ، فيقـول البراء : يـا معشر المسلمين ، ألقـوني عليهم ، فألقوه من فوق الجدار ، واقتحم فقاتلهم على باب الحديقة حتى فتحه للمسلمين ، فدخلوا وقتل مسيلمة وكان النصر ، وجرح البراء بضعاً وثمانين جرحاً ما بين رمية وضربة ، فأقـام القـائـد خـالـد بن الوليـد شهراً يُعنى بـه حتى برأ من جراحـه . بهـذا الحب والشجاعة سحقوا أعداءهم ونالوا عزَّ الدنيا وسعادة الآخرة .

☆ ☆ ☆

تَدَاعي الأُمَم على المُسْلِمينَ وَسَبَبُ تَأَخُّرِهِمْ

روى أبـو داود والبيهقي في دلائـل النبـوة عن ثـوبـان رضي الله عنــه ، أن النبي ﷺ قال :

« يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأَكَلَةُ إلى قصعتها ، فقال قـائل ، ومن قلة نحن يومئذ ؟! قال : بل أنتم يومئذ كثير ، ولكنكم غثـاء كغثـاء السيل ، ولينزعن الله من صـدور عـدوكم المهـابـة منكم ، وليقـذفن في قلوبكم الـوهن ، قـال قائل : يا رسول الله وما الوهن ؟ قال : حب الدنيا ، وكراهية الموت »[1] .

أيهـا المسلمون : كم ينبهنـا رسولنـا ﷺ ، ونحن لا ننتبـه ، وكم يحـذرنـا ونحن غافلون لا نحذر ، وكم يرشدنا ويوجهنا بإرشـاداتـه القيّمـة وتوجيهـاتـه الحكيمـة ، ونحن نتخبَّط في ظلمات بعضها فوق بعض .

ما أعظم وصيَّـة الرسول ﷺ وتحـذيره في هـذا الحـديث الـذي ذكرتـه لكم ، فهو ﷺ يخبرنا بأن الأمم تكيد لنا ، وتجتمع ضدنا ، وتتآمر علينا ، وتمـد أعـداءنـا بـالسلاح والعتـاد والقـوة ، ولـمـا كان هـذا الأمر مـزعجـاً وخطيراً ، تسـاءل بعض الصحابة عن الأسباب التي تدعو الأمم للكيد بنا ، والتآمر علينا ، وسـألوا الرسول أن يوضح لهم الأسباب ، بل سبق لأذهـانهم أن قلـة المسلمين حينـذاك هي السبب في تداعي الأمم ، فقالوا : ومن قلـة نحن يؤمئـذ يـا رسول الله ؟ ويجيبهم الرسول بقوله : « بل أنتم يومئذ كثير ، ولكنكم غثاء كغثاء السيل » .

وها نحن تماماً قد وقعنا فيما حذَّرَنا منه الرسول ، والرسول إنما أخبرنـا بـذلـك لنحذر ونبتعد عن الأسباب التي جعلت كثرتنا عديمة الجـدوى ، قليلـة الفـائـدة ، لا قوة فيها ولا منعة ، بل هي رغوة طافية فوق الماء الهادر .

(١) التاج : ٣٢٧/٥ .

أيها المسلمون : إننا كثير كما أخبر الرسول ﷺ ، إننا سبع مئة مليون مسلم وعربي في أقطار الأرض ، وإن كثرة ساحقة من هذا العدد تسكن في أعظم بقاع الدنيا ، وأرغدها عيشاً ، وأقواها (استراتيجية) .

إن عدداً ضخماً من هذه الملايين لا يمكن أن يُغْلب ، وتهان كرامته ، وتُغْتَصَب أرضُه ، ويُعتدى على مقدساته ، بل إن ذلك يستحيل إلا حينما تكون هذه الملايين قد انحرفت عن الجادة ، وابتعدت عن الهدى ، وتخبطت في الظّلام .

أيها المسلمون : قد بيّن الرسول ﷺ الأسباب التي جعلت هذه الكثرة غثاءً ، لا قوة فيه . وما أجدرنا نحن المسلمين اليوم ، وفي هذه الظروف على الخصوص ، ما أجدرنا أن نرهف السمع ، ونحضر الذهن لنتأمل في بيان الرسول الكريم ، لعلنا نتدارك الأمر ، ونصلح الفاسد ، ونهتدي سواء السبيل .

أيها المسلمون : لقد قال الرسول ﷺ : « وليَقْذِفَنّ في قلوبكم الوهْن » ، وفسّره حينما سئل عنه بأنه حب الدنيا وكراهية الموت ، نعم إنهما سببان خطيران ينشأ عنهما ذل الأمة وموتها ، والاعتداء على أرضها ومقدساتها .

ذلك أن الأمة التي تريد أن تتبوّأ مكانة كريمة شريفة في الأرض لن يكون لها ذلك ، إلا إذا انطوت على خصلتين اثنتين : بذل المال ، وحب الموت في سبيل الدفاع عن الدين والعقيدة والوطن ، حينئذ لن تستطيع قوة في الأرض أن تقهرها ، أو تتغلب عليها أو تعتدي على حرماتها .

أما نحن المسلمين اليوم ، فقد فقدنا هاتين الميزتين العظيمتين : بذل المال ، وبذل النفس ، بل أصبحنا على العكس من ذلك ، أصبحنا متكالبين على الدنيا حريصين على جمعها ، ونخشى الموت كأننا لم نعلم أنه لا بد منه لكل إنسان .

وكم من آية في كتاب الله عز وجل تذكرنا بل تهيب بنا إلى التضحية

والبذل ، بل توضح لنا أن المؤمن لن يكون مؤمناً بالمعنى الصحيح لهذ الكلمة إلا إذا قدم نفسه وماله في سبيل الله عز وجل ، لإحقاق الحق ، وإزهاق الباطل ، ودفع الظلم ورد المعتدين . استمعوا إلى القرآن العظيم يقول : ﴿ إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله ، أولئك هم الصادقون ﴾ [الحجرات : ١٥/٤٩] ويقول : ﴿ يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم ؟ تؤمنون بالله ورسوله ، وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ، ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون ﴾ [الصف : ١٠/٦١ - ١١] .

فقد وضع القرآن الكريم أمام أعيننا هذا التعريف الشامل الكامل ، والميزان الصادق الدقيق ، والمقياس الصحيح لنعرف به الناس ، ونزن به الأفراد والجماعات . فليس الإيمان دعوة يدعيها الإنسان فحسب . بل لا بد لكي يكون مؤمناً صادقاً في دعواه متحققاً بما يقول ؛ أن يتصف حقيقة بدعامتين أساسيتين لتحقيق إيمانه : إنفاق للمال ، وجهاد بالنفس .

روى أبو المثنى العبدي عن بشير بن الخصاصية قال : « أتيت رسول الله ﷺ أبايعه . فقال : أتشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت ، وتؤدي الزكاة ، وتجاهد في سبيل الله ؟ قال : قلت : يا رسول الله أما إيتاء الزكاة فما لي إلا عشر ذَوْدٍ هنّ رسل أهلي وحمولتهن ، وأما الجهاد فيزعمون أن من ولّى فقد باء بغضب من الله ، فأخاف إن حضرني قتال جبنت نفسي وكرهت الموت ، فقبض رسول الله يده ثم حركها وقال : لا صدقة ولا جهاد فبم تدخل الجنة ؟ قال : فبايعته عليهن كلهن » .

أيها المسلمون : إن المؤمن الصادق هو الذي يبذل ماله ونفسه رخيصة في سبيل الله ، ويكون من أقصى أمانيه أن يقتل شهيداً في ميدان الشرف ، ومعارك البطولة ، لرفع العدوان ، وردع المعتدين .

والتـاريـخ يحتفـظ بصفحـات بيض للمسلمين السـابقين ، من جهـاد بـالمـال والنفس لم يسبق أن سجل مثلها لغير هذه الأمـة الخـالـدة . لقـد لاقى أسلافنـا كل عنتٍ ، وكل مشقةٍ ، وكل بلاءٍ وعذابٍ مما يتصوره الإنسان ومما لا يتصوره ﴿ فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا والله يحب الصـابرين ، ومـا كان قولهم إلا أن قالوا ربنا اغفر لنـا ذنوبنـا وإسرافنـا في أمرنـا وثبّت أقـدامنـا ، وانصرنا على القوم الكافرين ، فـآتـاهم الله ثواب الـدنيـا وحسن ... ﴾ [آل عمران : ١٤٦/٣ ـ ١٤٨] . ولكنهم لم يحصلوا على كل ذلك إلا حينما بذلوا الـدنيـا ، وأحبوا الموت ، فجاءتهم الدنيا ، ووهبت لهم الحياة .

قدم ضرار بن الأزور على النبي ﷺ ، وأخبره أن له ألف بعير برعاتها ، وأنه وهبها كلها لله كما وهب نفسه ، وهو يرجو ألاّ تغبن صفقته ، فقـال لـه النبي عليـه الصلاة والسلام : « ما غبنت صفقتك يا ضرار » . وقد كان مع خالد بن الوليد في قتال مسيلمة الكذاب ومن اتبعه في اليمامـة فـأبلى بلاء منقطع النظير ، وانـدفع في الميدان كأنـه صـاعقـة محرقـة ، لا يخشى عـدواً ، ولا يخـاف موتـاً حتى تكاثر عليـه الأعداء ، وما زالوا يحيطون به ، وهو يهذّهم بسيفه هذاً[1] ، حتى قطعت سـاقـاه ، فعجل يحبو على ركبتيـه ، ويقـاتل وتطؤه الخيل ، حتى غلبـه المـوت ؛ وصعـدت روحه إلى علّيّين ، وسجل اسمه في الشهداء الخالدين .

أيهـا المسلمون : هـذا ـ والله ـ هو الصـدق في الإيمـان ، هـذا والله هـو اليقين الذي لا يخالطـه شـك بـأن البيع لله رابح ، وأنـه تجـارة لن تبور ، هؤلاء مؤمنون صدقوا بقول الله عز وجل : ﴿ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بـأن لهم الجنة ﴾ [التوبة : ١١١/٩] . فبذلوا لله النفس والمال راضين بهـذا البيع مطمئنين إلى وعد الله ، فكان لهم ما أرادوا من عز في الـدنيـا ، ونصر على الأعـداء ، وسعـادة في الآخرة ، في نعيم مقيم ، ورضوان من الله أكبر .

(١) الهذّ : سرعة القطع .

ولا تحسبوا أن هذه المثل العليا خاصة بـالرجـال بل لقـد كانت النسـاء أشـد حرصـاً على إرضـاء الله في البـذل والتضحيـة في سبيلـه ، ولـولا خـوف الإطـالـة لذكرت لكم كثيراً من المثل التي تزيد الإيمان ، وترفع الرأس .

لقد كانت المرأة العربية المسلمة تنزع حليها ولآلئهـا راضيـة مطمئنـة لتقويـة جيشها وإعزاز أمتها ، بل كانت تدفع فلذات أكبادها إلى ساحات الجهاد والشرف فخورة بقتلهم معتزة باستشهادهم .

أيها المسلمون : ما أحوجنا في هذه الظروف أن نقتـدي بـأسلافنـا في جهـادهم وبذلهم ، وصمودهم ، بل إننا في هذه الظروف أشد حاجة في أن نتمثل دائمـاً أعمـالهم وبطولاتهم ، لنعيد سيرتهم ونحذو حذوهم .

وها أنتم ترون ما حل بنـا من تـآمر المستعمرين علينـا ، ومكرهم بنـا ، حتى مكنـوا لربيبتهم إسرائيـل من احتـلال أرضنـا ، وانتهـاك مقـدسـاتنـا ، وتشريـد شعبنـا .

أيهـا المسلمون : كيف يقر لكم قرار ، أو يهـدأ لكم بـال ، إذ تنعمـون بعيش ، أمام هذا التحدي والعدوان ؟ أليس الموت خيراً ألف مرة من هذا الذل والصغار ، ونحن أحفاد أولئك الأمجاد ؟

أما يحزنكم أن يعبث الصهاينة المجرمون بالمسجـد الأقصى ، ويـدنسوا الصخرة الشريفة ، ويعملوا جاهدين لتهويد القدس ، مهد المسيح ، ومسرى محمد ؟

أليس عـاراً على سبـع مئـة مليـون مسلم وعربي أن يعبث هـؤلاء المجرمـون بمقدساتهم أمـام سمعهم وبصرهم ؟ أين غيرة المسلم ، وحميـة العربي ؟ أين الـذين يحبون الموت لتوهب لهم الحياة ؟

أيهـا المسلمون : لقـد أخبرنـا رسولنـا أن سبب الخـذلان هـو حب الـدنيـا ،

وكراهية الموت ، فإن أردتم ردَّ العدوان ، ورفع الخذلان ، فابـذلوا المـال ، وأقبلوا على المـوت ، تغسلـوا العـار ، وتطهروا الأرض ، وتنقـذوا الكرامـة ، واتجهـوا إلى ربكم داعين بـدعـاء أسلافكم : ﴿ ربنـا اغفر لنـا ذنوبنـا وإسرافنـا في أمرنـا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين ﴾ [آل عمران : ١٤٧/٣] .

نُموذَجٌ مِنَ التَّربيَةِ الإسلاَميَّة

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : « كنت رديف النبي ﷺ فقال : يا غلام (أو : يا غليّم) ، ألا أعلمك كلمات ينفعك الله بهن ؟ فقلت : بلى ، قال : احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك ، تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة ، وإذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ، قد جفَّ القلم بما هو كائن ، فلو أن الخلق جميعاً أرادوا أن ينفعوك بشيء لم يقضه الله تعالى لم يقدروا عليه ، وإن أرداوا أن يضروك بشيء لم يكتبه الله عليك لم يقدروا عليه ، واعلم أن النصر مع الصبر ، وأن الفرج مع الشدة ، وأن مع العسر يسراً » .

هذا الحديث الشريف كأمثاله من أحاديث الرسول الكريم ﷺ ، يدل المسلمين الذين آمنوا بالله ورسوله ، ويرشدهم إلى العقائد الصحيحة ، وأعمال الدين والدنيا ، ويبين لهم ما يزكي نفوسهم من الفضائل ومكارم الأخلاق .

وهو كذلك يدل بوضوح على عناية النبي ﷺ بالأطفال الناشئين ، والاهتمام بتربيتهم وتهذيبهم . لقد لبث رسل الإصلاح وعلماء التربية وفلاسفة الأخلاق نحواً من ثلاثين قرناً ينفقون جهدهم ، ويبذلون قرائحهم ، ليرسموا خطة ناجعة ناجحة ، في تربية النشء ، وتكوينهم ، ليكونوا صالحين للمستقبل الذي ينتظرهم ، قادرين على احتمال الأعباء الثقيلة التي ستلقى على عواتقهم . ولكن الأمر الذي يثير الدهشة ، ويدعو إلى الإعجاب ، أن يكون المستأثر بالتربية النفسية العملية ، هو النبي العربي الأمي محمداً رسول الله ﷺ ، فقد ربى عليه الصلاة والسلام جيلين من الطفولة إلى الشباب ، ومن الشباب إلى الشيخوخة .

ونحن نراه في كل هذه الأطوار يساير الطبيعة الإنسانية مسايرة محكمة دقيقة ، ومراعياً فيها نظام الطبائع وتبدل الغرائز ، بحيث لا تصادم الأمزجة ، ولا تعاكس الفطرة .

فهـا هـو ﷺ يعلم أن الأطفـال في بـدء ترعرعهم ، يميلـون إلى اللهـو ، ويرتـاحـون لنـوع من اللعب ، فلم يكبت رغبتهم ، ولم يمنعهم ممـا يحبـون ، بـل يسايرهم في ذلك ، ويغريهم به ، ويشجعهم عليه ويظهر لهم رغبته في ذلك .

عن عبـد الله بن الحـارث قـال : « كان رسـول الله ﷺ يَصُفُّ عبـد الله وعبيد الله وكثيراً بني العباس ويقول من سبق إليّ فله كذا ، فيستبقون على ظهره وصدره ، فيقبلهم ويلزمهم » .

وعن علي أن النبي ﷺ « كان قـاعـداً في مـوضـع فطلـع الحسن والحسين فاعتركا ، فقـال رسول الله ﷺ وعليٌّ جـالس ويْهاً حسين خـذ حسنـاً ، فقلت : تؤلب على حسن ، وهو أكبرهمـا يـا رسول الله ؟ فقـال : هـذا جبريل قـائم وهـو يقول : ويْهاً حسناً خـذ حسينـاً . ومـا كان يمنعـه الوقـار أن يشـاركهم المداعبـة والمجاملة كما يصنع الأقران مع بعضهم » .

روى أبـو هريرة عن جـابر قـال : « دخلت على النبي وهـو يمشي على أربـع وعلى ظهره الحسن والحسين وهو يقول : نعم الجمل جملكما ، ونعم العدلان أنتما » .

وما كان عطفه هذا مقصوراً على أبنائـه وأحفـاده وأقربـائـه ، بل كان يشمل برعايته وعنايته البعيد كالقريب ، ولا فرق عنده بين أبنـاء القرشيين الهـاشميين ، والموالي المملوكين ، كلهم عنده سواء بالعطف وحسن التربية .

قالت عائشة : « عثر أسامة بن زيد بعتبة البـاب فشج في وجهـه ، فقـال لي رسول الله ﷺ : أميطي عنه الأذى ، فقَذِرتُه ، فجعل رسول الله ﷺ يميط عنـه الأذى بنفسـه ويبـاسطـه ويـدللـه فيقـول : لـو كان أسـامـة جـاريـة لكسـوتـه وحليته » .

قال أسامة « كان رسول الله يأخذني فيقعدني على فخذه ، ويقعـد الحسن بن علي على فخذه الأخرى ، ثم يضمنا ثم يقول : اللهم إني أرحمهما فارحمهما » .

كان عليه الصلاة والسلام يصنع هذا مع الناشئين ، ويدعو الناس لأن يسلكوا في تربيتهم هذا المسلك بل ربما أمر به وحذر من الصدوف عنه ، ففي البخاري عن أبي هريرة قال : « قبل رسول الله ﷺ الحسن بن علي ، وعنده الأقرع بن حابس التميمي فقال : إن لي عشرة من الولد ما قبّلت واحداً منهم ، فنظر إليه رسول الله ، ثم قال : من لا يَرحَم لا يُرحَم » . يفعل الرسول هذا مع الصغار حتى يعدهم أتم إعداد ، فتشحذ مشاعرهم ، وترهف حواسهم ، ويستفتح وعيهم حتى إذا جاوز الغلام هذه السن ، ومشى إلى العاشرة فما فوقها من العمر كان هناك شكل آخر من أشكال التربية ، فهو حينئذ يسير معهم على غرار قاعدة في التربية تقول : « عامل ولدك معاملة الرجال لا يلبث أن يصبح رجلاً » .

هذه الحكمة في التربية هي التي جعلت من عليٍّ كرم الله وجهه خليفة عالماً عادلاً عبقرياً ، وجعلت من ابن مسعود قارئاً عالماً ، وجعلت من ابن عباس عالماً أكبر وهو لا يزال شاباً ، وجعلت من أسامة بطل الأبطال وكمي النزال ، وأمير الرجال ، كان من آثار هذه الشعلة التي أضاءت ربوع مكة ، وصحراء الحجاز ، أن دبت الحيوية في نفوس الكبار والصغار ، وتشوقت لخوض معارك البطولة ، وميادين النضال ، بل نتج من هذه التربية القوية المتينة أن جعل الغلمان والفتيان يستبقون إلى العمل ، ويرغبون في الجهاد ، قبل أن يكون لهم من السن ما يسمح لهم بهذه المغامرات ، حتى كان الرسول ﷺ يستعرضهم فيأخذ بحجزهم عن اقتحام هذه الأهوال وهم في سن الصغر . فقد ثبت أنه حين ينادي منادي في الجهاد يتسارع الناس إلى تلبية الطلب ، وتقديم الأنفس والأموال استجابة لنداء الرسول ﷺ ، وعملاً بقوله تعالى : ﴿ إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله ... ﴾ [الحجرات : ١٥/٤٩] ، ويكون من أسرع الناس تلبية للنداء هم الشباب حتى الصغار منهم . أما حين يشتد أسرهم ، ويكمل شبابهم فقد كان يسند إليهم مهام الأمور ويقلدهم قيادة

الجيوش فقد أعطى زيد بن ثابت راية بني النجار يوم تبوك وعمره نحو من عشرين سنة ، وأعطى علياً راية بدر وهو بين إحدى وعشرين واثنتين وعشرين حتى إذا كانت غزوة خيبر، وتأخر الفتح ، قال عليه الصلاة والسلام : « لأعطين الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله ، ويحبه الله ورسوله . قال سعد : فبات الناس يدوكون[1] ليلتهم أيهم يعطاها ، فقال : أين علي بن أبي طالب ؟ فقالوا : يا رسول الله ، إنه يشتكي عينه ، قال : فأرسلوا إليه » . وفي رواية « أن الرسول أعطى أبا بكر فرجع ولم يكن فتح ، وأعطاها عمر فرجع ولم يكن فتح ، حتى طلب علياً ، فحضر وهو أرمد ، فتفل في عينه ودفع إليه الراية ، وكان فتح خيبر على يديه » . ولا شك أن علياً استبسل في الجهاد وقاتل قتال المستميت حتى حقق ثقة الرسول ﷺ به وثناء النبي عليه ، وأمثال علي من هؤلاء الذين تخرجوا من مدرسة محمد كثير لا يحصون عدداً .

أيها المسلمون : نستطيع أن نجزم بعد الذي سمعتم أن هذا الطريق الذي سلكه رسول الله ﷺ مع الشباب ، يحض على نظام الفتوة القوية المجاهدة ، لأن شباب الأمة هم معقد الأمل ، ومطمح الرجاء ، وهم الذين يدكون بسواعدهم صروح الظلم ، ويحطمون بقوتهم جيوش الطغيان ، وما أحوجنا في هذه الظروف القاسية التي تمر بها أمتنا وشعبنا أن تكون فينا نفسية أولئك الشباب المؤمنين وتلك الروح العزيزة المتوثبة الأبية التي لا تقر الضيم ولا ترضى بالهوان . بل إننا ملزمون أن نجمع الكلمة ونوحد الصفوف ونشحذ العزائم ، لنصمد أمام الأعداء ومؤامرتهم علينا وكيدهم لنا ومكرهم بنا ، أيها المسلمون : إننا ملزمون أن نخوض معركة الشرف والثأر بصبر وثبات ، ولنذكر قول الرسول ﷺ لابن عباس رضي الله عنهما في الحديث الذي تقدم : « واعلم أن النصر مع الصبر ، وأن الفرج مع الشدة ، وأن مع العسر يسراً » .

---

(١) يدوكون : يخوضون ويموجون فيمن يدفعها إليه . يقال : وقع الناس في دَوْكة ودُوكةٍ : أي في خوضٍ واختلاط . النهاية ٢/١٤٠ .

علينا واجب أكيد أمام الله والتاريخ ، أن ندفع العدوان ، ونكبح الطغيان ونطهر الأرض ، ولن يكون لنا هذا الشرف العظيم والنصر المؤزر إلا إذا قدم الناس جميعاً للمعركة الدماء والأموال ، وأن المرأة المسلمة والعربية عليها واجب ، كذلك يلزمها القيام به ، عليها واجب أن تدفع بأبنائها للمعركة بكل رضا وحماس ، وأن تكون من ورائهم بالتشجيع والتأييد ، والحض على القتال والاستبسال ، لتحيي ذكرى أختها العربية في تاريخها المشرف وليكون لها أوفى نصيب في الإسهام بدفع العدوان وصد المعتدين .

هذه نسيبة الخزرجية الأنصارية تشترك في المعركة مع المسلمين فتحمل السقاء والضماد ، حتى إذا حميت المعركة واشتد الأمر ، ألقت السقاء والضماد ، واستلت السيف للجهاد ، وقاتلت حتى جرحت وارتمت على الأرض مصروعة ، ولكنها برئت من جراحها لتخوض معركة أخرى .

ويكون ولداها حبيب وعبد الله اللذان ربتهما هذه الأم الرؤوم ، ونشأتهما على نظام المدرسة المحمدية موضع ثقة النبي ﷺ ، فبعث حبيباً رسولاً إلى مسيلمة الكذاب ، فيغدر به ويقتله شر قتلة ، وحبيب ثابت على دينه محتفظ في عقيدته ولم تحزن الأم لهذا المصاب ، لأنها وهبت نفسها وأبناءها لله ورسوله . وتكون معركة أخرى فتخوضها نسيبة وتعود منها ظافرة منتصرة بعد أن بترت ذراعها وقتل حبيب ابنها ، وعادت نسيبة من المعركة ظافرة منتصرة ، ولكنها رجعت بساعد واحد وولد واحد ، وهي بما مضى أسعد منها بما بقي ، لأن الناس كلهم إلى فناء ، والموت لا بد منه لكل كائن ، إنما الفوز أن يتحقق لنا النصر ، ويكتب على أعدائنا الهزيمة والاندحار .

أيها المسلمون : إنكم أحفاد أولئك الأجداد وإنكم أشبال أولئك الآساد ، وعار والله علينا ، أن نرى عدونا يمشي على أرضنا ويشرد إخواننا ، ولا نثور عليه ثورة تحطم منه الأركان وتزلزل البنيان .

الثَّبَاتُ وَنَتَائِجُهُ

عن البراء بن عازب رضي الله عنهما « قال له رجل : أفررتم عن رسول الله ﷺ يوم حنين ؟ قال : لكن رسول الله لم يفر . إن هوازن كانوا قوماً رماة ، وإنا لما لقيناهم حملنا عليهم فانهزموا ، فأقبل المسلمون على الغنائم ، واستقبلونا بالسهام ، فأما رسول الله لم يفر ، فلقد رأيته وإنه لعلى بغلته البيضاء ، وإن أبا سفيان آخذ بلجامها ، والنبي ﷺ يقول : أنا النبي لا كذب ، أنا ابن عبد المطلب » .

إن لكل أمة مقومات تحفظ كيانها ، وتضمن وجودها ، وتسجل لها المجد والعزة والخلود ، وإن من أهم مقومات هذه الأمة الإسلامية الجهاد ، وإذا قلنا الجهاد فإننا نريد به المعنى العام الشامل ، الذي يشمل نواحي عديدة تسمى كلها جهاداً ولمن يأتي بها أجر المجاهدين .

وبهذا يتسع معنى الجهاد أو بالأصح يتضح المعنى الحقيقي للجهاد ، فتقديم النفس لتأخذ مكانها في المعركة وبذل المال ليؤدي واجبه في تهيئة العتاد والعدة ، وامتشاق القلم ليعمل ما عليه من الدعاية ومقاطعة الأعداء وأعوانهم وأتباعهم ، ليقلل سوادهم ويضعف من شأنهم ، وإطلاق اللسان في إنهاض الهمم وشد العزائم . كل هذا وأمثاله جهاد يبوّئ فاعله مكانة عليا في مصاف المجاهدين .

ولبيان هذه الحقيقة ، وإظهار أهميتها ، أجاب الرسول ﷺ السائل بما يزيدها وضوحاً وبياناً ، « فقد سأله رجل قائلاً : يا رسول الله ، أخبرني بملاك الأمر ، وعموده ، وذروة سنامه ؟ فأجابه الرسول بقوله : ملاك الأمر الإسلام ، وعموده الصلاة ، وذروة سنامه الجهاد » . وما أروع هذه المكانة للجهاد التي بيَّنها الرسول عليه الصلاة والسلام على سبيل التمثيل ، إذ جعله أعلى عمل في الأعمال الصالحة .

وقد جاء في الصحيح عن بشير بن الخصاصية قال : « أتيت رسول الله ﷺ أبايعه ، فقال : أتشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت ، وتؤدي الزكاة ، وتجاهد في سبيل الله ؟ قال : قلت : يا رسول الله ، أما إتيان الزكاة فما لي إلا عشر ذَوْدٍ هنَّ رسل أهلي وحمولتهن ، وأما الجهاد فيزعمون أنه من ولّى فقد باء بغضب من الله عز وجل ، فأخاف إن حضرني جبنت نفسي ، وكرهت الموت . فقبض رسول الله يده ، ثم حركها وقال : لا صدقة ولا جهاد ، فبم تدخل الجنة ؟ قال : فبايعته عليهن كلهن » .

أيها المسلمون : تعالوا معي بعد هذا التمهيد الموجز ننظر في الحديث الذي صدرت به كلمتي هذه ، والذي رواه البراء بن عازب ، حيث بين لنا فيه موقفاً مشرفاً صلباً من مواقف الرسول القائد ﷺ ، يعلمنا فيه كيف يجب علينا أن نكون إذا ادلهمت الخطوب ، واشتدت الأزمات .

لقد حارب النبي ﷺ المشركين في عدة معارك ، وكان منها معركة حنين ، التي انهزم فيها المسلمون بادئ الأمر ، وفروا أمام جحافل الرماة من هوازن حين خرجوا عليهم من الشعاب ، وعن هذه الحادثة يقول رجل من قيس للبراء : أفررتم عن رسول الله ؟ يقول له هذا مؤنباً مستنكراً أن يفر الجنود من حول قائدهم ، وهو ثابت في الميدان يجاهد ويناضل ، ويدعوهم إلى الثبات والاستبسال ، كأنه يقول له في عتابه المر اللاذع ، كان واجبكم أن تصمدوا كما صمد قائدكم ، وأن تستهينوا بالموت كما استهان سيدكم ، بل كان عليكم أن تفدوه بأنفسكم ودمائكم ، وتحققوا له ما يريد من دحر الأعداء والنصر عليهم .

وهنا اعترف البراء بالحقيقة وقال : لقد سرنا إلى هوازن وثقيف ، بعد فتح مكة بنصف شهر ، وقد تكون لدينا جيش عدته اثنا عشر ألفاً ، جيش كثيف بهذا العدد يدعو إلى الفخر والزهو ، حتى قال قائلنا : لن نهزم بعد اليوم من قلة ،

وحملنا عليهم حملة شديدة فانكشفوا ، وولوا الأدبار ، وتركوا وراءهم الكثير من الغنائم .

قال البراء بن عازب : فتركنا مطاردة العدو وملاحقته ، وأكببنا على الغنائم ، فشغلنا بجمعها ، وكان العدو قد وضعوا لنا كميناً في الشعاب والمضايق ، فخرجوا علينا ، واستقبلونا بالسهام فولينا مدبرين لا يلوي أحد منا على أحد . أما رسول الله ﷺ ، ورجال من خاصة جنده ، وأركان حربه ، فلم تشغلهم الدنيا ، ولم تلههم الغنائم ، ولم تضعف من عزائمهم النكسة التي ارتكس فيها أكثر الجند ، فثبتوا في الميدان ، وصمدوا في المعركة واستقبلوا جموع الأعداء التي انقضت عليهم كالصاعقة ، يظنون أنهم سيقضون عليهم في لحات خاطفة ، لكنهم دهشوا حينما اصطدموا في المعركة برجال ، كأطواد من جبال يضربون ضربات قاضيات كالصواعق ، بل بدؤوا يتراجعون ويضعفون حينما رأوا القيادة ثابتة الأركان ، راسخة العزائم ، وازداد دهشهم وتقهقرهم ، حينما سمعوا القائد في قلب المعركة ، يصول على الأعداء ، ويظهر أمام الفرسان غير هيَّاب ولا وجل ، ينادي : « أنا النبي لا كذب ، أنا ابن عبد المطلب » .

وطبيعي أن يبعث هذا الثبات ، وهذا الصمود ، الشجاعة والحمية في نفوس الجند من جديد ، فما كانوا يرون قائدهم ورفقاءهم في المعركة حتى عادوا جميعهم ، وهم أقوى ما يكونون عزيمة وأكثر اندفاعاً ، وما هي إلا ساعة من نهار ، حتى ولى الأعداء منهزمين شر هزيمة ، تاركين وراءهم الكثير من القتلى والأسرى والغنائم .

نعم لقد كانت هزيمة الأعداء تامة وساحقة ، وكان نصر المسلمين مؤزراً بفضل ثبات محمد القائد ﷺ والفئة القليلة التى أحاطت به ، وثبتت معه ، وصمدت حتى تحقق النصر . وفي ذلك يقول القرآن الكريم : ﴿ لقد نصركم الله في مواطن كثيرة ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً وضاقت عليكم الأرض بما

رحبت ثم وليتم مدبرين ، ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنوداً لم تروها وعذب الذين كفروا وذلك جزاء الكافرين ﴾ [التوبة : ٩/٢٥ - ٢٦] .

أيها المسلمون إذا كان في التاريخ عظة وعبرة فإن في هذه الحادثة التاريخية الصحيحة التي وقعت مع النبي ﷺ نفسه ، لأكبر عظة وعبرة لنا نحن اليوم ، وفي ظروفنا هذه خاصة .

فإن الأعداء مكروا بنا ، وتآمروا علينا ، وفي الخامس من حزيران أوقعوا بنا ، ودفعوا ربيبتهم إسرائيل لتنفيذ المخطط العدواني الأثيم .

ولكن هل يدعونا كل ذلك إلى اليأس أو الاستسلام ، أو الخضوع ؟ كلا إننا لسنا إذن جنود محمد ﷺ ، ولا أحفاد خالد وسعد وأبي عبيدة رضوان الله عليهم .

إن الجواد يكبو ، وإن السيف ينبو ، ولكن سرعان ما ينهض الجواد من كبوته ، ويشمخ السيف من نبوته ، فما علينا إلا أن نجمع الصفوف ، ونوحد الكلمة ونشحذ الهمم والعزائم ، ونجود بالنفس والمال والدم ، ونخوض المعركة من جديد معتمدين على أقوى الأقوياء ، وخاذل الأعداء ، رب الأرض والسماء ، وحينئذ سيمدنا بالعون ، ويؤيدنا بالثبات ، ويكللنا بالنصر ﴿ وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم ﴾ [آل عمران : ١٢٦/٣] .

أيها المسلمون : أيها العرب : إن أمريكا وإنكلترا ومن تبعها وسار في ركابها ، كل هؤلاء يخافون العرب لأنهم يحملون الإسلام وتعاليم الإسلام ، وهذه التعاليم تخيفهم وترعبهم ، ويخشون من امتدادها نحوهم ، وسيطرتها عليهم ، ذلك لأن تعاليم الإسلام ، تحطم أنانيتهم ، وتدك كبرياءهم وتستنكر استعبادهم للأمم ، وإهانتهم للشعوب ، واستعمارهم للضعفاء ، نعم إن الإسلام يحرم كل هذا ، وهم قد اعتادوا أن يعيشوا على امتصاص دم الشعوب ، واغتصاب رزق الآمن .

أيها المسلمون ، أيها العرب : يجب أن تكونوا على يقين بأن معركتنا ليست مع إسرائيل ، بل مع أولئك الذين يستترون بها ، ليتمكنوا من تنفيذ كيدهم وتطبيق تخطيطهم ، فإذا علمنا ذلك وظهر واضحاً لا شك فيه ، فما علينا إلا أن نثبت للخطوب ، ونصمد للأحداث ، ونستعد للمعركة .

أيها المسلمون : يجب أن يعلم كل واحد منا ، صغيراً أو كبيراً ، شاباً أو فتاة ، أنه ليس أمامنا إلا واحد من اثنين : إما أن نموت شهداء ، أو نعيش كراماً أعزاء أقوياء . وحينئذ نحقق قول القائل :

ونحن أناس لا توسط بيننا ... لنا الصدر دون العالمين أو القبر

النَّفرةُ للجِهادِ وَعَدَمُ التَّثَاقِلُ

﴿ يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثّاقلتم إلى الأرض أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل . إلا تنفروا يعذبكم عذاباً أليماً ويستبدل قوماً غيركم ولا تضروه شيئاً والله على كل شيء قدير ﴾ [التوبة : ٣٨/٩ ـ ٣٩] .

أيها المسلمون ما أجدرنا كلما ألمت بنا الحوادث ، ومرت بنا المحن ، وتآمر علينا الأعداء ، وتأزمت أمامنا الأمور ، ما أجدرنا عند ذلك أن نرجع إلى تعاليم ديننا وهدي نبينا ﷺ ، وحوادث تاريخنا ، نستلهم منها الهدى والنور والعزة والمجد ، لنخرج من الحوادث والكوارث والمحن ، مكللين بالنصر المؤزر ، والفوز المبين كما خرج أسلافنا من قبل ، وكما سجل لهم التاريخ بأحرف من نور .

أيها المسلمون : هذه الآيات التي قدمت لكم في مستهل حديثي تشير إلى حادثة وقعت في عهد القائد الأعظم للأمة العربية والإسلامية سيدنا محمد ﷺ ونحن اليوم بحاجة ماسة إلى التأمل بهذه الحادثة وملابساتها ، وظروفها ونتائجها ، لنستلهم منها العزة والقوة والتضحية والصمود .

وما أريد أن أستعرض الحادثة بكل نصوصها التاريخية المفصلة فذلك أمر يطول ولا يتسع له الوقت المحدود ، إنما أريد أن أذكر مجملاً يدل على موضع العظة والعبرة ، ذلك أن النبي ﷺ بعد أن رجع من الطائف في السنة العاشرة للهجرة ، بلغه نبأ من بلاد الروم ، أنهم يعدون جيشاً جراراً لغزو حدود العرب الشمالية ، يقصدون بذلك أن يضعفوا هيبة الدولة الإسلامية الناشئة التي نشرت سلطانها في أنحاء الجزيرة العربية وتاخمت بهذا السلطان وهذه الهيبة ، سلطان الروم في الشام ، وسلطان فارس في الحيرة .

بلغ النبي ﷺ هذا النبأ ، ووقف على حقيقة الأمر فيه ، فماذا فعل القائد الأعظم ؟ إنه عليه الصلاة والسلام ، لم يتردد هنيهة في تقرير مواجهة هذا الجيش ومقابلة هذه القوى ، ولم يتردد في تقرير مسيره بنفسه مع جنده ، للقضاء على ما يدور في نفوس قادة الروم من اعتداء على حدود الدولة الإسلامية ، ولتحطيم كل أمل في نفوسهم ، في غزو الأمة العربية ، أو التعرض لها بما يمس كرامتها وأرضها . وفوراً بدأ الرسول القائد ﷺ ينفذ ما اعتزم عليه ؛ فأعلن التعبئة العامة ، وأمر الناس بأخذ الأهبة ، وإعداد العدة ، وتكوين أكبر عدد ممكن من الأبطال الشجعان ، الذين سيكونون في مستوى هذه المعركة الجديدة من نوعها بين الدولة الناشئة وبين أكبر دولة في الأرض إذ ذاك .

أيها الناس ، أيها المسلمون ، أيها العرب : تأملوا وانظروا واسمعوا ماذا كان من أجدادكم الأولين ، وأسلافكم الصالحين ، حينما دعاهم داعي الجهاد . لقد أسرعوا إلى تلبية النداء ، وإجابة الداعي ، فدفعهم إيمانهم ، وحبهم لرسول الله عليه الصلاة والسلام وتعلقهم بدينهم ، وغيرتهم على كرامتهم ، ومحافظتهم على أوطانهم ، دفعهم كل ذلك إلى تلبية النداء متدافعين بالمناكب ، مقدمين أمامهم أموالهم وإبلهم مدججين بكل ما لديهم من أدوات للحرب والسلاح .

أجابوا الداعي ، ولبوا النداء رغم شدة الحر ، وبعد الشقة ، ورهبة العدو ، وكثرة عَدده وعُدده ، ورغم أن الحياة الوادعة قد اقتربت منهم حيث طابت الظلال ، ونضجت الثمار ، ورقّ النسيم ، لكن ذلك كله لم يكن ليَثْنِيَهُم عن أداء الواجب والدفاع عن الوطن والدين والكرامة .

هؤلاء وأمثالهم من كل من يقتدي بهم ويسير على نهجهم ، استوجبوا رضاء الله ، وشهادة التاريخ ، وثناء الناس . وكفاهم مجداً وفخراً واعتزازاً أن سجل الله تعالى لهم هذه الهمة العالية ، والتضحية الزكية ، سجله تعالى لهم في كتابه

العزيز ، وأخبر نبيه الكريم ﷺ بأنه قد رضي عنهم ، وتاب عليهم ، لأنهم ﴿ اتبعوه في ساعة العسرة ﴾ [التوبة : ١١٧/٩] .

وكان هناك جماعة ـ وهم قلة ـ من المنافقين المثبطين الجبناء ، الذين لا يخلو منهم زمن ، ولا ينجو منهم عهد ، كان هؤلاء يهولون الأمر ، ويصعبون المسير ، ويثبطون الناس ، ويرغبونهم في الراحة والدعة ، هؤلاء الذين فضحهم القرآن ، وأظهر للملأ جبنهم وضعفهم ، وتحدث عن بعض أقوالهم المثبطة المجرمة حيث يقول تعالى : ﴿ فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله وقالوا : لا تنفروا في الحر قل نار جهنم أشد حراً لو كانوا يفقهون ، فليضحكوا قليلاً وليبكوا كثيراً جزاءً بما كانوا يكسبون ﴾ [التوبة : ٨١/٩ ـ ٨٢] .

وبذل هؤلاء الجبناء جهداً في إضلال غيرهم من المؤمنين ، وتخلفهم عن المشاركة في الجيش المسلم ، ولكن المؤمن يتحرك إيمانه ، ويؤنبه ضميره فيجد تخلفه عن قائده وتأخره عن جيشه ، جريمة لا يغفرها الله ، ولا يسامح بها التاريخ . من هؤلاء أبو خيثمة الذي تأخر أول الأمر ، واستحلى المكث في المدينة حيث الماء البارد والظل الظليل ، لكنه ما لبث أن وخزه ضميره ، وحفزه إيمانه ، فتذكر مسيرة الجيش حين انفصل من المدينة ، فثار النقع وصهلت الخيل ، ولمعت السيوف ، وعلا النشيد ، تذكر أبو خيثمة ذلك ، وتذكر نبيّه ورسوله وحبيبه ، يقود الجيش بنفسه ويشارك جنده في كل ما يلقون من مشقة وعسر ، فجعل يؤنب نفسه ويوبخها ، ويقول : رسول الله في الضِّح والريح ، والحر ، وأبو خيثمة في ظل بارد ، وطعام مهيَّأ ، وامرأة حسناء في ماله مقيم ، ثم هبَّ من فوره فلحق الجيش تاركاً وراءه كل هذه المغريات من متع الحياة الفانية .

وانطلق هذا الجيش المؤلف من عشرة آلاف من الجنود الأبطال الذين يحبون

الموت ، كما يحب عدوهم الحياة ، بقيادة رسولهم الكريم محمد عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم ، وما كادت أخبار هذا الجيش وسيرته الصامدة تصل إلى الروم حتى امتلأت قلوبهم رعباً وقلقاً ، وانسحبوا بجيوشهم ليجتمعوا داخل بلادهم وحصونهم .

أيها المؤمنون : هكذا كتب الله النصر للمؤمنين حينما استجابوا للدعوة ، ولبوا النداء وهبوا للجهاد بدون تردد ولا تهيُّب ، مقدمين أنفسهم وأموالهم ، والنفس والمال هما الدعامتان اللتان لا بد منهما ، لا بد من بذلها وتقديمها لكسب المعركة ، وحصول النصر ، وهذه هي الصفة البارزة في المؤمنين الصادقين كما أشارت إلى ذلك الآية الكريمة : ﴿ إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون ﴾ [الحجرات : ١٥/٤٩] .

لقد رسمت هذه الآية الكريمة تعريفاً بيناً للمؤمن الحق ، وهو الذي يبرهن على صدق إيمانه وقوة يقينه ، بتجنيد كل قواه البدنية والمالية والفكرية ، وتسخير كل طاقاته للدفاع عن عقيدته وأرضه ومقدساته .

أيها المسلمون : أيها العرب ، كونوا مثل أسلافكم الذين فهموا دينهم على حقيقته ، فجندوا أنفسهم للدفاع عنه ، ورد المعتدين الظالمين ، كونوا مثل أسلافكم الذين حرروا فلسطين وطهروها ، وركزوا فيها العدل والإخاء والمساواة .

أيها المسلمون ، أيها العرب : حينما قدمت الجنود الإسلامية العربية لتحرير فلسطين بإشارة من القائد الأعظم محمد عليه الصلاة والسلام ، جاؤوا وقلوبهم مفعمة باليقين والإيمان والنصر ، فحرروا الأرض ، ولم ترعبهم كثرة عدوهم وإحكام حصونهم .

يروي لنا التاريخ أن جندياً من جنود أبي عبيدة رضي الله عنه ، حينما اشتدت المعركة وحمي الوطيس ، جاء إلى قائده أبي عبيدة وقال : أيها الأمير ،

إني قد عزمت على أمر ، فهل لك من حاجة إلى رسول الله ﷺ ؟ ففهم القائد ما يريد جنديُّه الباسل ، وعلم أنه يعتزم أن يهجم على الأعداء ، فيستبسل ، ويمعن فيهم قتلاً وفتكاً ، ولا يرجع حتى يستشهد ، فهم القائد منه هذه العزمة الصارمة ، فلم يستغرب منه ذلك ، بل أجابه : أقرئ رسول الله ﷺ السلام ، وقل له إنا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً .

يا الله ما أروع الإيمان ، وما أعظم اليقين ، إن القائد والجندي كانا على يقين بأن هذه الدنيا رحلة ، وأن الانتقال منها بالشهادة إنما هو انتقال إلى دار أعظم ، وحياة أجل ، وأن الشهيد سيجتمع فور استشهاده برسول الله ﷺ ليبشره بالفوز والجنان ، ورحمة من الله ورضوان ، وقد نفذ الجندي ما اعتزم عليه ، وكان له ما أراد .

أيها المسلمون : أعدوا العدة وباستمرار ، وخذوا الأهبة ، وتحفزوا دائماً لخوض المعركة التي تطهرون بها الأرض ، وتزيلون العار ، وتدحرون العدو .

أيها المسلمون ، أيها العرب : اعلموا أن خوض المعركة لا يقرب أجلاً ، وأن التخلي عنها كذلك لا يبعد أجلاً . إن الأجل محتوم ، لا يؤخر ولا يقدم ﴿ أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيَّدة ﴾ [النساء : ٧٨/٤] . فموتوا أبطالاً شهداء ، خير من أن تعيشوا أذلاء ، أو تموتوا جبناء .

وإذا لم يكن من الموت بدٌّ ... فمن العجز أن تموت جبانا

إن المسلم العربي الذي تسلم هذه الأرض من أبي عبيدة وخالد وجعفر وعبد الله بن رواحة ، يأبى عليه إيمانه وشرفه وواجبه إلا أن يسلمها إلى أبنائه وأحفاده من بعده كما سلمها له أجداده من قبله طاهرةً من رجس الصهيونية ، نقية من كل ما يدنس قدسها ومسجدها وأرضها .

أيها المسلمون ! تأملوا قول ربكم : ﴿ إلاَّ تنفروا يعذبكم عذاباً أليماً ويستبدل قوماً غيركم ... ﴾ [التوبة : ٣٩/٩] .

في ذِكْرى الْمَوْلِدِ

﴿ يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً ، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً ، وبشر وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلاً كبيراً ، ولا تطع الكافرين والمنافقين ودع أذاهم وتوكل على الله وكفى بالله وكيلاً ﴾ [الأحزاب : ٣٣/٤٥ ـ ٤٨] .

بالأمس القريب احتفل العالم الإسلامي والعربي بذكرى مولد رسول العالمين ، ومنقذ العرب ، ورحمة الأكوان ، وأشرقت النفوس المؤمنة بهذه الذكرى ، وابتهجت القلوب ، وانشرحت الصدور ، ذلك لأن في هذه الذكرى العطرة ما يعيد إلى النفوس اليائسة الأمل ، كما أن فيها ما يطرد اليأس والاستخذاء ، ويبعد الذلة والاستكانة .

ونحن ـ أمة العرب ـ على الخصوص ولا سيما في مثل هذه الظروف الحالكة ، التي يتآمر علينا فيها الاستعمار ، ويدفع ربيبته الصهيونية المجرمة الممثلة بإسرائيل لتوالي عدوانها ، وتنفذ مؤمراته ؛ أقول نحن في هذه الظروف بأمس الحاجة إلى أن نعيد النظر بدقة وتأمل في تاريخ منقذ العرب ورسول الإنسانية محمد عليه الصلاة والسلام ، لنأخذ من هذه السيرة المشرفة العظة والعبرة ، ولنجدد فيها العزم والصمود ، ولنطرح عنا اليأس والاستسلام .

فإن قائدنا الأعظم محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام ، لم يضعف ولم يستكن ، ولم ترهبه قريش كلها ، بل لم ترهبه الدنيا كلها وقد وقفت من وراء قريش تناهض دعوته ، وتعارض رسالته ، وتؤذي المؤمنين به ، وتصد عن اتباعه .

وفي مثل هذا الموقف الثابت الصامد ، تتميز الأمم والشعوب ، ويظهر سر العظمة في الزعماء والقادة ، وإننا ، نحن العرب ، يجب أن نستمد العظمة والعزة

والقوة من سيرة سيد الزعماء ، وبطل الأبطال ، وصانع القواد ، سيدنا محمد ﷺ الذي لا تزال روحانيته الكريمة ترفرف علينا من عليائها في شهر ربيع الأول ذكرى مولده الكريم .

لقد اختار الله تعالى للرسالة الخاتمة محمداً عليه الصلاة والسلام ، واصطفاه من بين خلقه ، ومن خيرة خلقه ليتحمل هذا العبء الثقيل ، و ﴿ الله أعلم حيث يجعل رسالته ﴾ [الأنعام : ١٢٤/٦] .

لقد هب عليه الصلاة والسلام يصدع بأمر ربه ، وينشر تعاليم دينه ، ويدعو إلى مكارم الأخلاق ، وقف هذا الموقف بكل صلابة وعناد وحده بمفرده ، وأهله وعشيرته ضده ، والفرس والروم والهند والصين ، وكل شعوب الأرض لا يرون ما يرى ، ولا يشعرون له بوجود ، هذا هو الموقف النبي الكريم عليه الصلاة والسلام ، وهذا هو موقف العالم إذ ذاك ، رجل عاطل من كل قوة وسلاح ، إلا مضاء العزيمة ، وصلابة الإيمان ، والثقة بالنصر .

وكان عليه الصلاة والسلام يوقن بأنه لا بد لهذه الدعوة من رجال مخلصين يؤمنون بها ، ويكافحون في سبيل نشرها وتبليغها ، ويحملون السلاح من أجلها ، لذلك بذل كل ما لديه من جهد في إقناع أهله الأدنين ، وعشيرته الأقربين بصدق دعوته ، وصحة رسالته .

وبدأت القلوب الصافية تنفتح لهذا الحق الأبلج ، وشعرت العقول الهادئة بصحة هذه التعاليم السامية ، أليس هو يدعو إلى الإيمان بالله وحده لا شريك له ، أليس هو يدعو إلى تحرير الإنسان من عبادة الإنسان ؟ إنها دعوة بريئة أيضاً من كل مطمح ، بعيدة عن كل أنانية ، هدفها المؤاخاة بين الناس دون تفريق بين أبيض وأسود ، وتحقيق العدالة بين الجميع من غير تمييز بين أمير ومأمور ، وحاكم ومحكوم ، وغالب ومغلوب .

وما كاد العرب يستجيبون لهذا النداء ، وينضوون تحت راية هذا القائد ، حتى انتقلوا من حال إلى حال ، من الغموض إلى نباهة ، ومن الضعف إلى قوة ، ومن الظلمات إلى النور . فعمَّ الإشعاع جميع الأرجاء . وأشرقت الدولة العربية الإسلامية ، وغمر علمها وعدلها ورحمتها نصف المعمورة . لقد نظم الرسول الكريم العرب ، فوحد شملهم ، وجمع كلمتهم ، وألف بين قلوبهم وانتزع منها الضغائن والأحقاد ، والشر والفساد ، وإذا بهم يخرجون للناس خير أمة ﴿ تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ﴾ [آل عمران : ٣/١١٠] يتفانون في الجهاد ، ويستبسلون في مكافحة الظالمين ، ورد المعتدين ، فمكّن الله لهم في الأرض ، وملكهم قيادة أكثر المعمور .

لقد شهد كثير من المؤرخين الأجانب ، لرسالة محمد عليه الصلاة والسلام ، بأنها رسالة إنسانية عامة ؛ لما فيها من الحض على تحرير النفس والعقل ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والقول بالمسؤولية الفردية ، والإيمان بالمساواة والتعاون والتضامن ، لقد كانت كل تعاليم الرسول ﷺ وتصرفاته تسعى لإيجاد حضارة إنسانية عامة ، حجر الأساس فيها الإخاء الإنساني .

أيها المسلمون ، أيها العرب : اذكروا بكل فخر واعتزاز ـ وأنتم لا تزالون في غمرة ذكرى مولد رسول الإنسانية ﷺ ـ اذكروا هذه التعاليم السامية التي عمت الوجود ، وأنارت القلوب ، وحققت العدل .

اذكروا ذلك المجد الرفيع ، والعز المنيع الذي تركه لكم محمد ﷺ وخلفاء محمد ، وقواد محمد ، ثم اذكروا أنكم أمام عدو غادر يتربص بكم ليقضي على كل تراثكم ويبيد كل مفخرة لكم . اذكروا أنكم أمام إسرائيل عدوة نبيكم وعدوة وطنكم ، وعدوة دينكم ، بل وعدوة الإنسانية جمعاء . اذكروا أنكم أمام هذا العدو اللدود الذي يمده الاستعمار بكل ما لديه من قوة ومؤمرات .

أيها المسلمون ، أيها العرب : اعرفوا واجبكم أمام هذه المحن ، وأمام هذه المؤمرات . اعلموا أن الواجب يدعوكم إلى جمع الكلمة ، ووحدة الصف ، وحشد كل القوى ، وتجنيد كل الطاقات فإن عدوكم ذو أطماع توسعية ، وأهداف استعمارية ، إذا تمكن منكم فإنه لا يبقي ولا يذر . ومعاذ الله أن تدعوا له الفرصة لتحقيق ما يريد ، وأنتم أحفاد أولئك القادة العظماء الذين بنوا لكم مجداً خالداً ، وتركوا لكم تراثاً ثميناً .

أيها المسلمون ، أيها العرب : لقد أمركم الله في كتابه أن تعدوا لأعدائكم كل إمكانياتكم ، فقال تعالى : ﴿ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ﴾ [الأنفال : ٨/٦٠] . فامتثلوا أمر ربكم ، وأعدوا قوتكم ، واحشدوا إمكانياتكم ، وجندوا كل طاقاتكم ، لتحرروا الأرض المغتصبة ، وتعيدوا الحق السليب ، وتنقذوا الكرامة المهانة ، ويومئذ تقولون للتاريخ : إننا أحفاد أولئك الأمجاد ، حافظنا على تراثهم ، وخلدنا ذكرهم ، وكنا استمراراً لإقدامهم وبطولاتهم .

يومئذ تثبتون للعالم أجمع ، وللصهيونية المجرمة أنه لن يثنيكم عن حقكم قوة مهما عظمت ، ولن يضعف من نضالكم وكفاحكم تدابير الاستعمار ومؤامرته ، ويومئذ تقول إسرائيل لأسيادها المستعمرين الذين يدفعونها للتوسع والسيطرة ، تقول لهم اليوم ما قالته من قبل : ﴿ إن فيها قوماً جبارين ﴾ [المائدة : ٥/٢٢] .

أيها العرب : لقد رسم لكم قائدكم محمد ﷺ ، قاعدتين أساسيتين ، لا بد منهما لإحراز النصر ، وتحقيق التغلب على العدو ، قاعدتان عظيمتان نطق بهما قرآن محمد : ﴿ واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا ﴾ [آل عمران : ٣/١٠٣] . فإن النصر أكيد بحول الله وقوته متى سرتم في هذه الطريق ، واستمسكتم بهذه التوجيهات التي رسمها لكم سيد القواد ، ومنقذ العرب ، الذي لا تزال ذكرى مولده توحي إلينا العزة والمجد والثبات والصمود ، والعظمة والخلود .

الوَحْدَةُ وَالاتِّحَادُ وَأَعْيَادُ الْجَلاَءِ

قال تعالى في كتابه العزيز : ﴿ وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون ﴾ [المؤمنون : ٢٣/٥٢] .

أيها المسلمون : جاء الإسلام بتعاليه السمحة ومثله العليا الحقة ليحقق للناس مهمتين عظيمتين : أولاهما صياغة الأفراد صياغة إنسانية جديدة ، أساسها الصلة بالله والتعرف إلى الملأ الأعلى ، وإبراز خصائص الإنسان العليا ، وتطهيره من أدران الغرائز الدنيا ، والتجافي كل ما لا يتفق مع كمال إنسانيته وطبيعة فطرته ، واستكمال معاني قوته ، والسمو ببدنه وعقله ووجدانه ، ليكون في أحسن تقويم ، ولن يكون كذلك إلا بالقدوة الصالحة والفكرة الصالحة .

لهذه المقاصد كلها ، كان دعاء سيدنا إبراهيم ، صلوات الله وسلامه على نبينا وعليه ، وضراعته إلى ربه : ﴿ ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم ﴾ [البقرة : ٢/١٢٩] .

ثانية المهمتين : صياغة المجتمعات البشرية صياغة إنسانية عالمية جديدة ، وذلك بتأليف بناء متاسك قائم ، ومجتمع موحد فاضل وأمة قوية موحدة . من هذه اللبنات الصالحة ، تبدأ الجماعة الممتازة وتتطور إلى الأمة الممتازة ، وحينئذ يمتد نفع هذه الأمة للانسانية كلها ، وتصبح أداة خير للناس جميعاً ، وبهذا يظهر على مسرح البشرية ما يريده الله تعالى حيث قال : ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ﴾ [آل عمران : ٣/١١٠] . ومن هنا كانت الجماعة التي تؤمن بهذه المبادئ ، والشعوب التي تعتنق هذه الأسس ، مهما اختلفت أوطانها ، وألوانها وأجناسها ، تعتبر جميعاً في عرف

الإسلام ، أمة واحدة قوية التماسك ، عظيمة الترابط ، قد ارتفعت صلتها إلى درجة الأخوة ، ثم تجاوزتها إلى منزلة الحب ، ثم علت حتى وصلت إلى مرتبة الإيثار ﴿ ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شحَّ نفسه فأولئك هم المفلحون ﴾ [الحشر : ٩/٥٩] .

أيها المسلمون : من هنا كان الإسلام عقيدة وجنسية ، ليست جنسية الدم والأرض ، ولكنها جنسية الأخوة والروح ، وهي أقوى نتيجة وأشد فعالية ، ومن هنا جاء القرآن الكريم يقرر هذه الحقائق فيقول :

﴿ والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض ﴾ [التوبة : ٧١/٩] ويقول : ﴿ إنما المؤمنون إخوة ﴾ [الحجرات : ١٠/٤٩] . ويقول : ﴿ واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً ﴾ [آل عمران : ١٠٣/٣] .

ويؤكد النبي ﷺ هذا المعنى في أحاديثه الشريفة فيقول : « مثل المؤمنين في توادّهم وتراحمهم وتعاطفهم ، مثل الجسد الواحد ، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى » . ويقول : « لن تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ، ولن تؤمنوا حتى تحابّوا ، ألا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم ؟ أفشوا السلام بينكم » . ويقول : « إن أحبّكم إليَّ وأقربكم مني مجلساً يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً ، الموطؤون أكنافاً ، الذين يألفون ويؤلفون ، وإن أبغضكم إليَّ وأبعدكم مني مجلساً يوم القيامة المشّاؤون بالنميمة ، والمفرقون بين الأحبة ، الملتمسون للبرآء العيب » .

وكما قرر الإسلام لهذه الوحدة هذه المعاني الإيجابية ، فقد حرص على أن يحتاط من النواحي السلبية فحذر أمته من كل معاني الفرقة وعواملها . إن ائتلاف القلوب والمشاعر ، واتحاد الغايات والمناهج ، من أوضح تعاليم الإسلام وألزم خلاله ، لا ريب أن توحيد الصفوف ، واجتماع الكلمة ، هما الدعامة الوطيدة لبقاء الأمة ، ودوام دولتها ونجاح رسالتها . ولئن كانت كلمة التوحيد

باب الإسلام ، فإن توحيد الكلمة ، وتوحيد الصفوف ، سر البقاء فيه والإبقاء عليه والضمان الأول للقاء الله تعالى بوجه مشرق وصفحة نقية .

لقد كان رسول الله ﷺ شديد التحذير من عواقب الانقسام والفرقة ، وكان في حِلّه وترحاله يوصي بالتجمع والاتحاد . عن سعيد بن المسيب قال قال رسول الله : « الشيطان يهمّ بالواحد والاثنين فإذا كانوا ثلاثة لم يهمّ بهم » . وقد رأى في سفره أن القافلة عندما تستريح يتفرق أهلها هنا وهناك ، كأنما ليس بينهم رباط ، فكره هذا المنظر ونفر منه . عن أبي ثعلبة ، كان الناس ، إذا نزلوا منزلاً تفرقوا في الشعاب والأودية ، فقال النبي : « إن تفرقكم هذا من الشيطان » . فلم ينزلوا بعد إلا انضم بعضهم إلى بعض ، حتى يقال : « لو بسط عليهم ثوب لعمّهم » . وتلك نتيجة حتمية لامتزاج المشاعر ، وتبادل الإخاء ، وانسجام الصفوف . إن القرآن الكريم أفهمنا بصراحة ووضوح أن الاتحاد وجمع الكلمة ، ونبذ التنازع ، هو طريق محقق للنصر المؤزر ، والقوة المرهوبة ، يقول تعالى : ﴿ وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم ، واصبروا إن الله مع الصابرين ﴾ [الأنفال : ٤٦/٨] . وما وقع للمسلمين في (أحد) أكبر عبرة يجب أن يعتبر بها المسلمون والعرب في جميع أقطارهم . فقد تلقى المسلمون في أُحد لطمة أفقدتهم من رجالهم سبعين بطلاً ، وردتهم إلى المدينة وهم يعانون أشد الآلام ، وأمرّ الكوارث ، لم كان ذلك كله مع أن إيمانهم بالله ، ودفاعهم عن الحق يرشحانهم للفوز المبين ، إن ذلك لم يكن إلا لأنهم تنازعوا وانقسموا وعصوا أمر الله ورسوله .

أيها المسلمون ، أيها العرب : إن القرآن الكريم قد سجل هذا الدرس ليكون لكم عبرة على مرّ الدهور ، ولتذكروا أبداً صدق وعد الله لكم بالنصر والتأييد ، حينما اتحدتم واجتمعتم وأطعتم ، وتخليه عنكم حينما تنازعتم واختلفتم وعصيتم ، سجّلَ هذا الدرس في كتابه لتذكّروا وتعتبروا كلما قرأتم : ﴿ ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسُّونهم بإذنه حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون

منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ثم صرفكم عنهم ليبتليكم ﴾ [آل عمران : ١٥٢/٣] .

أيها المسلمون ، أيها العرب : إن التاريخ سيظل يعيد نفسه ويكرر حوادثه ، فما من مرحلة من مراحل الجهاد والنضال ، تجمع الأمة صفوفها وتوحد كلمتها وتُجمع أمرها ، وتصمد أمام الكوارث والمحن ، إلا أمدَّها الله بالعون وأيَّدها بالنصر وكللها بالفوز المبين .

أيها المسلمون ، أيها العرب : إن أعياد الجلاء التي نستقبلها بفرح وسرور واعتزاز ، لهي مرحلة من مراحل التاريخ التي مرت بأمتنا العربية أثبتت فيها للدنيا أنها لن تصبر على ضيم ، ولن تستكين لظالم أو مستعمر .

أيها المسلمون ، أيها العرب : إن أعياد الجلاء لتذكرنا بتلك الحوادث القاسية المريرة التي تعرضت لها أمتنا ، من ظلم المستعمر ، وشراسة الغاصب الدخيل ، كوارث ونوازل لو سلطت على غير هذه الأمة ، لغدت خبراً مطوياً من أخبار التاريخ . ولكن للحيوية الجبارة والعزم الصليب ميزات فينا ـ نحن العرب ـ عصمتنا وصانتنا من أن نتخاذل ونتراجع ونصبح من الفانين ، ولقد علمنا الإسلام فنون الثبات والصبر حتى النصر ، ونهانا أن نهن أو نحزن ، ونحن الأعلون ما دمنا على حق ، ونناضل من أجل نصرة هذا الحق .

ونحن نردد دائماً هذا النشيد الإلهي الجميل : ﴿ ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين ، إنْ يمسَسْكم قرح فقد مسَّ القوم قرح مثله وتلك الأيام نداولها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء ﴾ [آل عمران : ١٣٩/٣ ـ ١٤٠] . نردد هذا التوجيه السماوي ، فيبعث فينا القوة ، ويبعث فينا الثبات ، ويجدد فينا الحيوية ، فكأن صروف الزمن لم تك إلا حوافزَ تخدش قوانا فتثير غضبنا .، وتشحذ عزمنا ، وتبعث انتفاضتنا ، فكان ذلك النضال المستمر ،

خلال ربع قرن ، عرف المستعمر ، بل عرفت الدنيا كلها ، أننا أباةُ الضيم أحفاد أمجاد ، وأبناء جلاد ، لا نرضى بالهون ، ولا نقر على ضيم ، فكان الجلاء ، وكان الاستقلال وكانت هذه الأعياد ، التي نفخر بها ونعتز ، لأنها حصيلة جهاد طويل ، مع مستعمر دخيل .

وإننا لنرجو من الله العلي القدير ، أن تكون هذه الوحدة بين دول الاتحاد الرباعي نواة خير وأداة قوة تجمع المسلمين والعرب كلهم ، تحت راية واحدة من أجل تحرير فلسطين ، وتطهير الأراضي المقدسة ، من رجس الصهيونية وأعوانها ، وبذلك يتم للمسلمين والعرب عزهم ، ويعود لهم مجدهم ، وتكون أعياد الجلاء في فلسطين ، كما هي في سورية مبعث فخر واعتزاز ، ﴿ ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم ﴾ [الروم : ٣٠/٤ ـ ٥] .

☆ ☆ ☆

الصَّدَقَةُ والجِهَادُ

ورد في الصحيح عن بشير بن الخصاصية : « أتيت رسول الله ﷺ أبايعه . فقال : أتشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت ، وتؤدي الزكاة وتجاهد في سبيل الله ؟ قال : قلت : يا رسول الله أما إتيان الزكاة فما لي إلا عشر ذوْدهنَّ رسل أهلي وحمولتهن ، وأما الجهاد فيزعمون أن من ولّى فقد باء بغضب من الله عز وجل ، فأخاف إن حضرني قتال جبنت نفسي وكرهت الموت . فقبض رسول الله يده ثم حركها وقال : لا صدقة ولا جهاد ، فبم تدخل الجنة ؟ فبايعته عليهن كلهن » .

أيها المسلمون : إن لكل أمة مقومات تحفظ كيانها ، وتضمن وجودها ، وتسجل لها المجد والعزة والخلود ، وإن في هذه المبايعة التي اشتمل عليها حديث بشير بن الخصاصية نموذجاً حيّاً للمقومات التي تنهض بالأمة ، وترسّخ وجودها بكل نواحي الحياة : تنهض بها أخلاقياً واجتماعياً ، واقتصادياً ، وعسكرياً ، فلا تدع ميداناً من ميادين الكفاح والنضال إلا وضعت الأساس المتين لوجوده وتحقيقه .

أيها المسلمون : إن الإيمان الصادق ، والعقيدة الصحيحة ، هي الأساس المتين الشامخ الذي ترتكز عليه كل الأعمال الخيرة التي تبني بها الأمة نفسها . هذا الإيمان الذي تعبر عنه شهادة لا إله إلا الله ، وأن محمداً عبده ورسوله ، وهذه الصلاة التي تنبثق عن هذا الإيمان فتدعمه ، وتنميه ، وتقويه ، ثم هذا الصوم الذي يصقل الجسم ، ويزكي النفس مما علق بها من أدران العادات والشهوات ، ويرهف الشعور ، فيحس الإنسان بالرأفة والرحمة على بني الإنسان ، ثم تأتي فريضة اجتماعية كبرى ، هي الحج إلى بيت الله الحرام حيث حجر إسماعيل ، ومقام إبراهيم ، حيث يجتمع المسلمون من مختلف الأقطار والأمصار ، فيتعارفون ،

ويتألفون ، ويتذاكرون ، ويتداولون ، يفضي كل منهم إلى إخوانه بكل ما يلم به من الأمر ، وما يعاني من أحداث ، فيكون الترابط ، ويكون التعاون ، ويكون التناصر وإن إيماناً بغير تناصر لا يساوي عند الله شيئاً .

وهذه الزكاة التي جعلها الإسلام ركناً من أركانه ، ودعامة من بنيانه ، ينهي بتطبيقها الفقر في المجتمع الإسلامي ، بل وفي المجتمع الإنساني ، واعتبرها مطهرة للفرد والمجتمع ، مزكية لهما أي مبعدة لهما عن كل رجس ، كما قال تعالى : ﴿ خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها ﴾ [التوبة : ١٠٣/٩] . أيها المسلمون : إن هذه الخصال التي أشار النبي الكريم إليها ، والتي لا يقبل من المسلم إلا أن يلتزم بها كلها ، هي مقومات أساسية لحياة الأمة ، ونهضتها وتقدمها .

لهذا رأينا رسول الله ﷺ يتعجب مستنكراً حينما أراد بشير ألا يبايع على أداء الزكاة والجهاد ، ملتمساً بعض المعاذير ، استنكر رسول الله منه ذلك ، وقال : « لا صدقة ولا جهاد ، فبم تدخل الجنة » ؟ وصريح هذا أنه لا يدخل مؤمن الجنة بدون بذل وإنفاق وجهاد ، بعد الإيمان الراسخ بالله والاعتقاد جاءت تعاليم الرسول ﷺ وتوجيهاته ، بعد ذلك ترسخ هذه المعاني وتؤكدها .

تحدث عليه الصلاة والسلام لأصحابه عن بعض أحوال الآخرة فأخبر « أن رجلاً أمر به أن يُجلد في قبره مئة جلدة ، فما زال الرجل يتضرع ويرجو ، حتى اقتصر في عذابه على جلدة واحدة ، فاضطرم القبر عليه ناراً . فلما أفاق من عذابه قال : علام جلدتموني ؟ فقيل له : لأنك صليت صلاة بغير طهور ، ومررت على مظلوم فلم تنصره » .

أيها المسلمون : إن هذا إيقاظ للضمير ، وتحذير بالغ كي يحرص المؤمن الحرص كله على تطبيق أحكام دينه ، وتوجيهات رسوله ، عقدياً ، وعملياً ، فكما يطلب من المؤمن أن يقيم صلاته كما أمر الله ، كذلك يطلب منه أن ينصر أخاه ، وبذلك

يتقرب إلى مولاه ، وينال رضاه . يقول عليه الصلاة والسلام : « انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً ، قالوا يا رسول الله ، ننصره مظلوماً فكيف ننصره ظالماً ؟ قال : أن تردوه عن ظلمه ، فذلك نصره » ، أو كما قال .

أيها المسلمون : إن الأسس التي رسمها رسول الله ﷺ من إيمان وبذل وجهاد وإنفاق هي ثمرة الإيمان الصادق ، تعود فائدتها على الأمة كلها بالخير والعزة والإسعاد . ونحن الآن أمام عدو غادر ماكر ، يتآمر علينا ، ويمكر بنا ، ومن ورائه استعمار بغيض ، يدفعه ويقويه ، ويمده ويغذيه ، وتجاه ذلك كله ، ليس لنا إلا أن نعود إلى سيرة قائدنا الأعظم ، ومنقذنا الأكبر محمد ﷺ نترسم خطاها ، ونهتدي بهداها ، فإن تعاليه تنير لنا الطريق ، وسيرته تحل لنا العقد ، وتوضح لنا السبيل .

فقد ضرب لنا عليه الصلاة والسلام المثل الأعلى ، والقدوة الصالحة ، في الثبات والنضال ، حتى أدرك الغاية ، وحقق النصر ، وانقلب العدو بالخيبة والخسران . وقفت قريش كلها تناهضه وتعاديه ، وتغري به كل سفيه يكذبه ويؤذيه ، فما ضعف ولا استكان ، وما فتر في جهاده ولو طال الزمان . وقد اقتدى به أصحابه من بعده ، فثبتوا للأحداث ، وصمدوا للخطوب ، فاستحقوا الثناء العاطر من المولى الجليل سبحانه ، حيث وصفهم بهذا الوصف الجميل : ﴿ فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانواوالله يحب الصابرين ، وما كان قولهم إلا أن قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا ، وثَبِّتْ أقدامنا ، وانصرنا على القوم الكافرين ، فآتاهم الله ثواب الدنيا ، وحسن ثواب الآخرة ، والله يحب المحسنين ﴾ [آل عمران : ١٤٦/٣ - ١٤٨] .

أيها المسلمون : في مثل هذه المواقف الثابتة تتميز الأمم والشعوب ، ويظهر سر العظمة في الزعماء والقادة ، الذين لا يجد اليأس والفتور إلى نفوسهم سبيلاً . استدعي خالد بن الوليد رضي الله عنه من العراق ، ليكون مدداً لجيوش المسلمين

في اليرموك فيندفع ملبياً رغبة الخليفة ، بسرعة غريبة لم يعهد التاريخ مثلها عن قائد ، وأدرك المسلمين ، وهم بشدة بالغة ، لما كانوا يلاقونه من جيوش العدو المتفوقة عليهم في العدد والعدة .

ويدبر خالد الخطة الحربية الرائعة ، ويستعد للقضاء على العدو ، ويسمع خالد بعض الجند يقول : ما أكثر الروم وأقلَّ المسلمين ، فيتدارك القائد هذا الوهم الذي دخل على الجندي ، وقال له : لا تقل هذا ، بل قلْ ما أقلّ الروم وأكثر المسلمين ، إنما تكثر الجنود بالنصر ، وتقل الخذلان ، ونحن واثقون من نصر الله لنا ، وخذلانه لعدونا ، أيها الجندي : أتشك في إيماننا بالله ، قال : لا ، قال : أتشك في وعد الله ؟ قال : لا ، قال : إذن فأين أنت من قول الله تعالى : ﴿ وكان حقاً علينا نصر المؤمنين ﴾ [الروم : ٤٧/٣٠] ؟ ثم يردف القائد قائلاً : وددت أن الأشقر ـ يعني جواده ـ برئ من توجّيه ، وأنهم أضعفوا في العدو ، وأني أنازلهم وحدي .

تلك هي كلمات القائد البطل لجنوده ، كانت أكبر قوة معنوية صححت الأفهام وأزالت الأوهام وحققت النصر .

أيها المسلمون : إن إخلاص المؤمن لدينه ، وصدقه في إيمانه ، يجعل من المجتمع الإسلامي قوة مرهوبة ، يحسب العدو لها ألف حساب ، مهما كانت كثرته ، ومهما كانت معداته ، ذلك لأن المؤمن الحق ، وهي حياته لله ، وإذا وهب حياته التي هي أعز شيء ، فإن المال والمتاع أمر تافه لا قيمة له ، تجاه رضاء الله ورضاء رسوله ﷺ .

إن المؤمن الذي يردد في كل يوم ، في كل صباح ومساء : ﴿ إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين ، لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين ﴾ [الأنعام : ١٦٢/٦ ـ ١٦٣] . إن المؤمن الذي يردد هذا لا يسير في حياته

إلا على درب الاستقامة التي تعزز كيانه ، وتنهض بأمته وتتقدم بمجتمعه ، لأنه يؤمن بأن المال فانٍ ، وأن الحياة ستنتهي ، وأن الباقيات الصالحات هي خيرٌ وأحسن عاقبة ، لذلك فهو لا يتوانى عن عمل الخير ، ولا يهاب لقاء العدو ، ولا يتردد في الإقدام على الموت . قدم أعرابي فأسلم وبايع رسول الله ﷺ على الإسلام ، ولم يلبث أن نادى منادي الجهاد ، فاندفع الرجل في صفوف المحاربين يؤدي واجب الجهاد المقدس ، ويشارك في قهر العدو ، وإعزاز دين الله ، وانتصر المسلمون في معركتهم هذه ، وغنموا كثيراً من الغنائم ، وقسم رسول الله الغنائم وقدم للأعرابي حصته من الغنيمة ، وإذا به يقول لرسول الله : « والله ما على هذا اتبعتك يا رسول الله . إنما اتبعتك لكي أرمى ههنا بسهم - وأشار إلى حلقه - فأموت فأدخل الجنة .. » . وفي إحدى المعارك التي كان يقودها أبو عبيدة الجراح ، تقدم إليه جندي ، فقال : أيها القائد ، إني قد اعتزمت أمراً ، فهل لك حاجة إلى رسول الله ؟ ومعنى هذا أنه قرر أن يهجم على الأعداء ويقاتل حتى يستشهد ، وهو موقن أنه سيلقى نبيه وحبيبه ، وأنه سيحمل رسالة القائد إليه .

أيها المسلمون : بهذه الروح العالية ، وبهذا الإيمان الصادق ، وبهذه النفوس الطيبة كان لأمتنا ما كان من عظمة وعزة وقوة وسلطان ، فجددوا عهدكم لله ، وأكدوا مبايعتكم لرسولكم يكنْ لكم ما تطلبون من عزة وخلود .

☆ ☆ ☆

رَمَضَانُ وَمَا فيهِ مِنْ أحْدَاث

أيها المسلمون : نحن الآن في شهر رمضان ، هـذا الشهر العظيم المبـارك الـذي أشاد رسولنا الكريم ﷺ بفضله ، ونوّه بمكانته عند الله عز وجل .

وهو كما فهمنـا من أحـاديث رسولنـا وتوجيهـاتـه شهر الصبر ، والصبر ثوابـه الجنة ، ينالها هذا الصـابر بغير حسـاب كما قـال تعـالى : ﴿ إنما يوفّى الصـابرون أجرهم بغير حسـاب ﴾ [الزمر : ١٠/٣٩] . ذلـك لأننـا إذا أمعنـا النظر في تـاريخنـا قديماً وحديثاً نجد أن هذا الشهر العظيم حافل بالأحداث التاريخيـة الهـامـة ، التي غيرت وجه التـاريخ ، وكان للمؤمنين الصـابرين فيهـا أثر محمود ، وجهـاد مرير ، حتى سجل التاريخ أسماءهم على مر الزمن بحروف من نور .

أيها المسلمون : في شهر رمضان المبارك ، الذي لا نزال في العشر الأول منـه ، وقعت أحداث عظيمة في تـاريخ المسلمين وجهـادهم ونضـالهم في سبيل الحق ونصرة الدين . لقـد كان فيـه غزوة بـدر الكبرى ، وكان فيـه الفتح الأعظم ، فتح مكـة المكرمة ، وكان فيـه ليلـة القـدر التي هي خير من ألف شهر ، وكانت فيـه موقعـة عين جـالوت ، وكان فيـه أكبر نعمـة على المـؤمنين ، نـزول القرآن العظيم دستـور المسلمين الخالد الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفـه تنزيل من حكيم حميد .

أي شهر من الشهور فيـه مثل هـذه الأحـداث التي سجلت للمسلمين تـاريخاً ناصعاً مشرقاً مشرفاً ؟ لذلك كان رسول الله ﷺ صادقـاً وبليغـاً حينمـا وصفـه في حديث له بقوله : « قد أظلكم شهر عظيم مبارك » .

فهـو عظيم لمـا فيـه من هـذه الأحـداث العظيمـة التي أكسبت المسلمين مجـداً خالداً ، وعزة قعساء ، وهو مبـارك لمـا نتج عن هـذه الأحـداث من خير وبركـة

عمت المسلمين بل العالم كله . غزوة بدر وما أدراكم أيها المسلمون ما غزوة بدر ؟! إنها المعركة التي استبسل فيها المسلمون استبسالاً شديداً ، وثبتوا فيها ثباتاً منقطع النظير ، دفاعاً عن دينهم وعن رسولهم ، وعن حريتهم ، هي المعركة التي وقف فيها الإيمان والحق في جانب ، والكفر والشرك والباطل في جانب ، فتغلب الإيمان والحق على الشرك والباطل ، هي المعركة التي تغلبت فيها الفئة القليلة المؤمنة على الفئة الكثيرة المشركة ، هي المعركة التي ثبت فيها المسلمون ، ووهبوا دماءهم وأموالهم لله ورسوله ، فأيدهم الله بالنصر وأمدهم بالملائكة ، وأغاثهم بالسماء ، فنالوا عز الدنيا ، ورضاء الله .

أيها المسلمون : ما أجدرنا في هذا الشهر العظيم أن نقف قليلاً عند هذه الأحداث الثلاثة لنذكر كيف صبر المسلمون ، وجاهدوا في الله حق جهاده ، وأخلصوا له في أعمالهم ، فكان لهم بالنصر المؤزر والفوز المبين : غزوة بدر ، فتح مكة ، موقعة عين جالوت .

أيها المسلمون : في السنة الثانية من الهجرة ، وفي صبيحة السابع عشر من رمضان ، وفي بدر التي تبعد عن المدينة من جهة مكة مئة وستين كيلو متراً ، في هذا المكان بالذات وعلى وجه التحديد ، التقى جيش الإيمان بجيش الشرك ، واشتبك جند الحق بجند الباطل ، فما هي إلا جولة صادقة حتى انتصر الحق وأهله ، واندحر الباطل وأهله ﴿ وقل جاء الحق وزهق الباطل ، إن الباطل كان زهوقاً ﴾ [سورة الإسراء : ٨١/١٧] .

أيها المسلمون : إن المسلمين في بدر لم يحصلوا على النصر ، إلا بعد بيع أنفسهم رخيصة لله . وإليكم هذا المثل الواحد الذي تستطيعون به أن تعرفوا مدى تلك الشجاعة التي أهلتهم لإمداد الله لهم ونصرهم .

لما دنا المشركون ، والتقى الجمعان ، قال رسول الله ﷺ لأصحابه : « قوموا

إلى جنة عرضها السموات والأرض ، فقال عمير بن الحمام الأنصاري : يا رسول الله ، جنة عرضها السموات والأرض ؟ قال : بخٍ بخٍ . قال رسول الله : وما يحملك على قول : بخٍ بخٍ ؟ قال : لا والله يا رسول الله إلا رجاء أن أكون من أهلها ، قال : فإنك من أهلها » . فأخرج تمرات من قرنه ، فجعل يأكلهن ثم قال : لئن أنا حييت حتى آكل تمراتي هذه ، إنها حياة طويلة ، فرمى ما كان معه من التمر ، ثم انقض على الأعداء كالصاعقة ، وهو يقول :

ركضاً إلى الله بغير زاد ... إلا التقى وعمل المعاد
والصبر في الله على الجهاد ... وكل زاد عرضة النفاد
غير التقى والبر والرشاد

فما زال يقاتل حتى قتل » .

إن روح النضال والاستشهاد هذه ، لا يستخف بها إلا كل أعمى عن الحق ، إن روح النضال هذه نور تارة ، ونار تارة أخرى ، إنها بركان يقذف بالحمم على العدوان فيجعله حطاماً أو ركاماً .

أما غزوة الفتح فهي الغزوة التي حطمت فيها الأصنام ، وطهر فيها البيت الحرام ، وعاد المهاجرون المشردون إلى أوطانهم ، يحملون العزة والقوة والأمن والسلام ، هي الغزوة التي استقر فيها الدين ، وانتشر فيها الإسلام ، وبدأ الناس يدخلون في دين الله أفواجاً ، حينما ظهر لهم الحق ، ودالت دولة الشرك والأصنام ، نعم لقد نصر الله حزبه ، وأعز جنده ، وآن للشرك أن يطأطئ الرؤوس ، كما آن للأوثان أن تعمل فيها الفؤوس .

آن لأولئك المتكبرين المعاندين ، من قريش وغيرهم ، أن يعلموا ألا ملجأ من الله إلا إليه ، وأن عاقبة العناد الخزي والهوان ، وأن ﴿ الله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ [يوسف : ١٢/٢١] .

وآن لأولئـك المؤمنين الـذين كانوا مستضعفين في الأرض ، والـذين أخرجـوا من ديـارهم بغير حق ، آن لهـؤلاء أن يعـودوا إلى وطنهم الأول مرفـوعي الرؤوس بنصر الله ، موفوري الكرامة بما آتاهم من فضلـه وصـدق الله العظيم : ﴿ ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب ﴾ [الطلاق : ٦٥/ ٢ ـ ٣] .

كان ذلك كله في السنة الثامنـة من الهجرة ، وفي الحـادي والعشرين من شهر رمضـان العظيم ، وفي هـذا الفتـح الكبير ، والنصر المـؤزر نـزل قـول الله تعـالى : ﴿ إذا جـاء نصر الله والفتـح ﴾ [النصر : ١/١١٠] . ونحن إذ نـذكر هـذا الحـادث التاريخي العظيم في مثل هذا الشهر العظيم الذي عاد فيـه المشردون والمخرجون من ديارهم بغير حق ، عادوا إلى ديارهم بهذه العزة والنصر ، إذ نذكر هـذا ، نتجـه إلى الله العلي القـدير أن يرد الفلسطينيين إلى فلسطين مرفـوعي الرؤوس مـوفـوري الكرامـة ، كما رد المهـاجرين إلى مكـة ، والمشردين إلى ديـارهم ، وحينئـذ يفرح المؤمنون بنصر الله .

أمـا موقعـة عين جـالوت فهي الموقعـة التي لقي المسلمـون فيهـا الأهـوال من جيوش التتر ، حيث سحقت هذه الجيوش الممالك الإسلامية ، وقضت على الخلافـة العباسية ، واستولت على مقر الخلافة وعاصمة المسلمين بغداد .

وتابعت هـذه الجيوش الزاحفـة سيرهـا ، حتى وصلت إلى عين جـالوت في فلسطين ، عنـدئـذ قـام أهل النجـدة والحميـة ممن ألفـوا الاستشهـاد ، وقـامـوا ينـادون بـالمسلمين أن الأمر جـد ، وأن السيـل بلـغ الـزبى ، وأن التتر إذا جـازوا عين جـالـوت من فلسطين ، فسيقضون على بقية البلاد الإسلامية حتى المغرب الأقصى ، ولموت جميع المسلمين شرفاً ، في ساحة النضال خير لهم من أن يتم ذلـك . فصمموا أن ينتصروا ، وكثيراً ما تلد العزيمة الظفر .

وفي يوم الجمعة ، وفي الخامس والعشرين من شهر رمضـان سنـة ٦٥٨ للهجرة

التقى الجمعان واحتـدم القتـال ، وصبر المسلمون ولقوا من حملات التتـار مـا يوهن العـزائم ، غير أنهم لم يهنـوا ، لأنهم خـاضـوا المعركـة ، وليس لهم قصـد إلا إحـدى الحسنيين : النصر أو الشهادة .

وما هي إلا جولة صـادقـة حتى يسقـط (كتبغـا)قـائـد التتر قتيلاً ، وابنـه أسيراً ، وجنده مصرعون في حومة القتال ، وفلول الجيش يلوذون برؤوس الجبـال وبطون الأودية .

وفرح المـؤمنـون بنصر الله ، وزالت الخرافـة العـالقـة بـالرؤوس من أن التتر لا يهزمون .

أيهـا المسلمـون : من هـذه الحـوادث الكبرى التي يـذكرنـا بهـا شهر رمضـان العظيم ، نعلم أن الإسلام علم أهلـه التضحيـة والإقـدام ، في سبيـل المثـل العليـا ، فـ ﴿ اشترى من المؤمنين أنفسهم بـأن لهم الجنـة يقـاتلـون في سبيـل الله فيَقتُلـون ويُقتَلون وعداً عليه حقاً ﴾ [التوبة : ٩/١١١] .

ومـا دامت هـذه الروح النضـاليـة في المسلمين ؛ فـلا بـد أن تتحرر الأرض ، وتطهر المقدسات ، ويعود المشردون .

أيها المسلمون في أقطار الأرض ، ليشعر كل منكم بالتبعات الجسام التي يلقيهـا على كواهلكم التاريخ لنصرة الحق ، واستعادة الكرامـة ، ﴿ وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ... ﴾ [التوبة : ٩/١٠٥] .

الْمُسَاوَاةُ فِي الإِسلاَمِ

في الإسلام مبادئ إنسانية تجعله أصلح الأديان لأن يعيش في الوضع الجديد للبشرية ، وتجعله عاملاً مهماً من عوامل السلم ، ولا بد أن تحتاج إليه ليطبب لعللها ، ويداوي جراحها ، ويأسو كلامها ، ويأخذ بيدها إلى شاطئ الأمان والاطمئنان ، والسعادة والهناء .

أولى هذه المبادئ المساواة : ففي الإسلام مساواة بين البشر ، لا فرق عنده بين أبيضهم وأسودهم ، وغنيهم وفقيرهم ، وخاصتهم وعامتهم ، فكلهم لآدم وآدم من تراب . حتى العرب الذين هم حاملوه والناشرون له ، والذين كانت لهم ولاية الحكم ، لا امتياز لهم على غيرهم من الأمم « لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى » . وقد قرر الإسلام مبدأ المساواة في كثير من آياته : ﴿ ياأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ [الحجرات : ١٣/٤٩] . فالآية صريحة في أن الله تعالى جعل الناس شعوباً وقبائل للتعارف ، والتقارب والإخاء ، فلا يجوز أن يكون بينهم التناكر والتخاصم والعداء .

وقال تعالى : ﴿ ياأيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبثّ منهما رجالاً كثيراً ونساءً واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيباً ﴾ [النساء : ١/٤] . فهو يذكرهم بأنهم أبناء أب واحد ، وأم واحدة ، فمهما بعدت ديارهم واختلفت أجناسهم ، وتباينت ألوانهم ، فهم إخوة وذوو رحم .

جعل الإسلام المساواة مبدأ ، وأخذ يصدر عنها في كثير من الوقائع والأحكام ، قال قتادة : كان أهل الجاهلية فيهم بغي وطاعة للشيطان ، فكان

الحي ذو العدة والمنعة إذا قتل عبد قوم آخرين عبداً لهم قالوا : لا نقتل به إلا حراً ، تعززاً بقوتهم وفضلهم على غيرهم ، وإذا قتلت لهم امرأة قتلتها امرأة قوم آخرين ، قالوا : لا نقتل بها إلا رجلاً . فأنزل الله تعالى :

﴿ يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص في القتلى الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى ﴾ [البقرة : ١٧٨/٢] . نهاهم عن البغي والعدوان ، وألا يقتلوا غير القاتل ، وألا يتعززوا على غيرهم ، فيقتلوا بعبدهم حراً ، وبالمرأة منهم رجلاً ، وبالحر الواحد منهم أحراراً كثيرين ، وأنزل صدوراً عن هذا المبدأ : ﴿ وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بلأنف والأذن بالأذن والسنّ بالسن والجروح قصاص ﴾ [المائدة : ٤٥/٥] . وفي هذه الآية تقرير للمساواة في النفوس ، والأعضاء والجوارح . وقد سوّى الإسلام بين الناس في الحقوق والواجبات وجعلهم سواء أمام الشريعة .

يرى المتتبع للشريعة الإسلامية ، أن للمساواة أثراً كبيراً في المجتمع ، وعناية كبرى من القرآن ومن السنة ، ومن أفعال الرسول ﷺ وسيرته . فقد كان هو نفسه عليه الصلاة والسلام ، يصدر عن مبدأ المساواة في أقواله وأفعاله ، وإذا بدر منه ﷺ ما يشعر بخلاف هذا المبدأ لقي من الله عتاباً شديداً ، ونزل في ذلك قرآن يقرأ ، يتدارسه الناس ، ويبقى على الأيام .

روى ابن جرير ، وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : « بينا رسول الله ﷺ يناجي عتبة بن ربيعة ، وأبا جهل بن هشام ، والعباس بن عبد المطلب ، وكان يتصدى لهم كثيراً ، ويحرص عليهم أن يؤمنوا ، فأقبل إليه رجل أعمى يقال له عبد الله بن أم مكتوم ، يمشي وهو يناجيهم ، فجعل عبد الله يستقرئ النبي ﷺ آية من القرآن ، وقال : يا رسول الله علمني مما علمك الله ، فأعرض عنه رسول الله وعبس في وجهه وكره كلامه ، وأقبل على الآخرين . فلما قضى رسول الله نجواه ، وأخذ ينقلب إلى أهله ، أمسك الله بعض بصره وخفق برأسه ، ثم أنزل الله تعالى :

﴿ عبس وتولى ﴾ [عبس : ١/٨٠] الآيات . فلما نزل فيه ما نزل ، أكرمه رسول الله وكلمه ، وقال له : ما حاجتك ؟ هل تريد مني أي شيء ؟ وإذا ذهب من عنده ، قال له : هل لك حاجة في شيء ؟

وقد روي أنه ﷺ كان بعد ذلك يقول له إذا جاء : مرحباً بمن عاتبني فيه ربي ، ويبسط له رداءه ، ويقول : هل لك من حاجة ؟

فأنت ترى كيف يذكر الله نبيه في صورة عتاب بأن ضعف ذلك الأعمى وفقره ، لا يصح أن يكون حاملاً على كراهة كلامه ، والإعراض عنه ، فإنه حي القلب ، ذكي الفؤاد ، إذا سمع الحكمة وعاها ، فيتطهر بها من أوضار الآثام ، ويتعظ فتنفعه العظة .

أما أولئك الأغنياء الأقوياء ، فأكثرهم الجحدة الأغبياء ، فلا ينبغي الانصراف إليهم ، والتصدي لهم لمجرد الطمع في إسلامهم ليتبعهم غيرهم ، فإن قوة الإنسان في حياة قلبه ، وذكاء لبه ، والإذعان للحق إذا ظهر ، والانقياد للدليل إذا بهر . أما المال والنشب ، والحشم والأعوان ، والأكاليل والتيجان ، فهو عواري تغدو وترتحل ، وتقر حيناً ثم تنتقل .

قال الرازي عند قوله عز وجل ﴿ أما من استغنى ، فأنت له تصدّى ﴾ [عبس : ٨٠/ ٥ ـ ٦] : أي لا يبلغن بك الحرص على إسلامهم ، إلى أن تعرض عمن أسلم ، للاشتغال بدعوتهم ، ﴿ وما عليك ألاّ يزكى ﴾ [عبس : ٧/٨٠] أي وليس عليك بأس في أن لا يتزكى بالإسلام ﴿ إن عليك إلا البلاغ ﴾ [الشورى : ٤٨/٤٢] .

وقال السيوطي في الإكليل : في هذه الآيات حث على الترحيب بالفقراء ، والإقبال عليهم في مجالس العلم ، وقضاء حوائجهم ، وعدم إيثار الأغنياء عليهم .

وقال الزمخشري : لقد تأدب الناس بأدب الله في هذا تأدباً حسناً ، فقد روي عن سفيان الثوري أنه كان يكرم الفقراء ، ويكونون في مجلسه كالأمراء .

وفي هذه الحادثة دليل واضح على أن النبي ﷺ لا يكتم شيئاً مما أنزل إليه ، قال ابن زيد : لو أن رسول الله ﷺ كتم شيئاً من الوحي ، لكتم هذا عن نفسه .

وحادثة أخرى تشبه حادثة ابن أم مكتوم ، وهي ما رواه الإمام مسلم عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه ، قال : « كنا مع رسول الله ﷺ وستة نفر ، فقال له المشركون : اطرد هؤلاء يجترئون علينا ، قال : وكنت أنا وابن مسعود ورجل من هذيل وبلال ورجلان لست أسميهما ، فوقع في نفس رسول الله ﷺ ما شاء الله أن يقع ، فحدث نفسه ، فأنزل الله تعالى : ﴿ ولا تطرد الذين يدعون ربهم .. ﴾ [الأنعام : ٥٢/٦] » .

وروى الإمام أحمد في مسنده عن ابن مسعود قال : مرَّ الملأ من قريش على رسول الله ﷺ وعنده خبّاب ، وصهيب ، وبلال ، وعمار ، فقالوا : يا محمد ! أرضيت بهؤلاء ؟ فنزل عليه القرآن : ﴿ وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم ﴾ [الأنعام : ٥١/٦] إلى قوله : ﴿ أليس الله بأعلم بالشاكرين ﴾ [الأنعام : ٥٣/٦] .

وروى ابن جرير عن عكرمة قال : جاء عتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة ، ومطعم بن عدي ، والحارث بن نوفل ، في أشراف من بني عبد مناف من الكفار ، إلى أبي طالب ، فقالوا : يا أبا طالب ، لو أن ابن أخيك يطرد عنه موالينا وحلفاءنا فإنما هم عبيدنا وعسفاؤنا ، كان أعظم في صدورنا وأطوع له عندنا ، وأدنى لاتباعنا إياه ، وتصديقنا له ، فأتى أبو طالب النبي فحدثه بالذي كلموه به ، فقال عمر بن الخطاب : لو فعلت ذلك حتى تنظر ما الذي يريدون ، وإلام يصيرون من قولهم . فأنزل الله عز وجل هذه الآية : ﴿ وأنذر به الذين يخافون .. ﴾ [الأنعام : ٥١/٦] .

فلما نزلت أقبل عمر فاعتذر من مقالته ، فأنزل الله عز وجل : ﴿ وإذا جاءك

الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة أنه من عمل منكم سوءاً بجهالة ، ثم تاب من بعده وأصلح فَأَنَّهُ غفور رحيم ﴾ [الأنعام : ٦/٥٤] .

هذه النصوص الشرعية التي لا تقبل الشك ، تدل بصراحة وقوة على عناية الإسلام بالمساواة هذه العناية لأن الشرور والآثام ، والفساد في الأرض إنما هي نتيجة التفرقة في الحقوق والواجبات ، واعتقاد التسامي والتفاضل في الجنس ، وما كانت الحرب العالمية الأخيرة إلا من خرافة الجنس الآري ، والجنس السامي ، واعتقاد بعض المتحاربين أنهم جنس خلق ليحكم ويسود ، وأن الشعوب الأخرى خلقت لتُحكم وتُساد .

وليس أضر على المجتمع من انقسامه إلى طبقات ، يعتقد بعض هذه الطبقات أن له الحق كل الحق على غيره ، وأن ليس عليه أي حق لغيره .

وهذا هو السبب فيما رأيتم من عناية الإسلام بالمساواة ، في الأقوال والأفعال ، وتثبيتها بالسيرة العملية ، حتى غرست في نفوس أصحاب رسول الله ﷺ فكانوا في سيرتهم وحكمهم يسوون بين القوي والضعيف ، ويقتصون من الشريف وبذلك لم تكن المساواة في الإسلام كما هي عند بعض الأمم اليوم ، كلاماً يقال ، وقوانين تكتب ، بل عملاً يوجد على الأرض ، ويتحقق بين الأفراد .

☆ ☆ ☆

الهِجرَةُ

يطوف الفلك ما يطوف في ساحة عمره المديد ، فلا يقدم بين حوادثه الجليلة أروع من هجرة رسولنا محمد ﷺ ، مثلاً أعلى تتطلع إليه النفوس الشاعرة ، فتتنسم عطره ، وتستلهم عبره ، وتستوحي هديه ، وتستضيء بأنواره ﴿ أو من كان ميتاً فأحييناه ، وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها ﴾ [الأنعام : ١٢٢/٦] .

وأين الأنوار من إنارة الأفكار ، والأرواح والقلوب ، حتى يكون أهلها بشراً حقاً تستقيم بهم الحياة ، وتستنير بهداهم مناهجها ، ومحمد صلوات الله عليه ، هو رسول هذه الهداية التي تألقت في آفاق الدنيا بعد أن نصره الله بالهجرة ، فأخرج الناس من ظلماتهم إلى نور ربهم ، وصدق الله العظيم إذ يقول :

﴿ يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً ، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً ﴾ [الأحزاب : ٤٥/٣٣ ـ ٤٦] .

وإن من يتأمل الحوادث المريرة التي سبقت الهجرة ، والتي تحمل الرسول ﷺ وأصحابه فيها ألواناً من الاضطهاد والأذى ، ليعلم أن سنة الله مطردة في الكون ؛ الفرج بعد الكرب ، والسعة بعد الضيق ، واليسر بعد العسر ، والنصر بعد الصبر .

كل هذا مر على الرسول الكريم ﷺ ، حاصرته قريش في الشعب ، وقاطعوه ثلاث سنين ، فلم تجر بينهم معاملات تجارية ، ولا بيع ولا شراء ، ومنعوا حتى من الأشياء الضرورية ، أوذي عليه الصلاة والسلام في نفسه وفي أتباعه ، فكان يصبرهم ويطمئنهم بأن العاقبة لهم ، وأن الحق لا بد منتصر ، وأن الباطل لا شك مندحر .

كان المؤمنون يسمعون لرسولهم فلا يرتابون فيما يقول ، ويزدادون نضالاً وجهاداً وتثبيتاً . ولكن من أين الانطلاق ؟ إنه لا بد من التحول إلى بلد غير هذا البلد الظالم أهله ، الذين أعماهم حب أصنامهم ، وحرصهم على تقاليد آبائهم ، وشاءت حكمة الله أن تكون المدينة المنورة التي كانت تدعى من قبل يثرب ، هي مركز الإشعاع ، ونقطة الانطلاق ، ويصدر الأمر الإلهي لرسوله الكريم بأن يهاجر إلى المدينة ، وتشعر قريش بالأمر ، وتقدر ما ينتج عن هجرة النبي من خطر كبير على كيانها وحياتها وآلهتها ، فيجمعون أمرهم ، ويبيتون مكرهم ، ويقررون اغتيال الرسول الكريم ﷺ ، ولكن الله سبحانه أنزل وحيه على نبيه يخبره بما ائتمرت به قريش : ﴿ وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ﴾ [الأنفال : ٨/٣٠] .

وتمت الهجرة ، وحدث ما حدث فيها من تدبير حكيم للرسول ﷺ ، ومن معجزة خارقة بإرادة الله ، ووصل الرسول عليه الصلاة والسلام المدينة ، واستقبل استقبالاً مهيباً رائعاً يتناسب مع عظمة القادم المهاجر العظيم . وسرعان ما أسس الرسول ﷺ دولة ، وأعد الجيش ليعود إلى الأرض التي أخرج منها ، ويرغم أنف المعتدين الظالمين .

لقد هاجر الرسول ﷺ من مكة ، وانطلقت الحقيقة المؤمنة من قيود الباطل ، وانبثق النور السماوي من خلال سحب الظلام ، إن محمداً عليه الصلاة والسلام قد هاجر ، وكتب للرمال أن تقبل الخطا المباركة ، وللغار أن يتيه على أعظم القصور عزة وفخامة .

لقد ائتلق جبين الزمان بنور جديد ، فكان يوم الهجرة المباركة ، وكان للإسلام عيداً وإنه لعيد مجيد ، يحتفل به المسلمون لا ليعدوا للهجرة حيوية ضعفت ، ولا ليجددوا للهجرة ذكريات تقادمت ، بل ليستمدوا القوة من عزمة الرسول ﷺ ، ويأخذون العبرة من الماضي البعيد .

أيها المسلمون ، أيها العرب : إن في عيد الهجرة أعياداً كلها روعة وعزة وفخار .

إن من أعيادها الرائعة المتألقة عيد الوفاء في أروع مظاهره ، ويتمثل هذا واضحاً جلياً فيما فعله الصديق رضي الله عنه ، فقد كانت براثن الخطر تترقب ، ومخالب الشيطان تتوثب ، وكل شيء في شعاب الطريق ومسالكه ينذر بخطر أكيد ، ولكن كل هذا لم يثن الصديق عن وفائه لصديقه ، فأعد للأمر عدته ، وقدم لصديقه روحه وماله ودمه ، فكان خير مثال للوفاء المر ، فصابر المكاره ، وعالج العقبات ، فكان خير مثال يقتدى في مثل هذه المحن .

ومن أعياد الهجرة وذكرياتها عيد الفداء ، ويتمثل هذا واضحاً جلياً فيما فعله علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ، فقد أمره الرسول ﷺ أن ينام على فراشه حين مغادرته هو المكان ، فلم يتردد وأسرع للإجابة ، وهو يعلم أن شباب قريش قد أحاطوا بالمكان ، وأن الموت الأكيد يلمع في أسنة السيوف بباب مرقده ، ولكن هذا لم يخفه ، ورقد في مكان الرسول ﷺ ليؤمن نجاته من القوم ، فكان خير مثال للفدائي الجريء البطل .

وكان عمله هذا مدعاة لإعجاب الأبطال ورضاء الله . فقد روي أن الله تعالى تعالى قال لجبريل وميكائيل : إني قد آخيت بينكما ، وجعلت عمر أحدكما أطول من الآخر ، فمن يؤثر صاحبه بالحياة ؟ فاختار كل منهما الحياة . فقال لهما : « هلا كنتما مثل علي بن أبي طالب آخيت بينه وبين محمد ، فآثره على الحياة ، وفداه بنفسه ؟ اهبطا إلى الأرض فاحفظاه من عدوه » . فهبطا إلى الأرض ووقف جبريل عند رأسه ، وميكائيل عند قدميه يحرسانه حتى الصباح ، وهما يقولان : بخٍ بخٍ لك يا ابن أبي طالب ، فإن الله يباهي بك ملائكته .

إن من ذكريات الهجرة وأعيادها تلك الكلمات الموحية التي قالها

الرسول ﷺ وهو يخرج من مكة معبراً بها عن حبه لوطنه ، وتعلقه بمسقط رأسه . يتلفت إليها بشوق وحنين ويقول : « إنك لأحبُّ بلاد الله إلى الله ، وإنك لأحب البلاد إلي . ولولا أن أهلك أخرجوني ما خرجت » .

إن الهجرة ليست هرباً من الشدائد ، ولا بعداً عن مواجهة الأخطار ، إنما هي فتح جديد في حياة النضال والكفاح ، واستعداد مركز لدحر الظالمين ، وقمع المعتدين ، ورحم الله القائل :

سأصرف وجهي عن بلاد أرى بها ... لساني معقولاً وقلبي مقفلا
وإن صريح الحزم والرأي لامرئ ... إذا بلغته الشمس أن يتحولا

إن محمداً هاجر ليعود بعد قليل فيلقن الظالمين المعتدين درساً لا ينسى ، وليتمكن من نشر تعاليمه السامية في الجزيرة كلها .

وإن الباحث ليعجب كيف استطاع محمد ﷺ أن يفتح بفئة قليلة من المهاجرين والأنصار الحصون التي كانت حول مكة والمدينة ، وأن يظهر بهم على أقيال الجزيرة العربية ورجالاتها ، وأن يغير عقائدها وعاداتها ، وأن يرفع بهم - في غيابة الجهل ، وضلال العقل ، وحيرة الإنسانية - لواء الحق والفضيلة ، والخير والرشاد ، فينشر في أرجاء الجزيرة ، بهذه الفئة الصغيرة ، هدي السماء ، وشريعة التوحيد ، ويأتيه أهلها طائعين ، يدخلون في دين الله أفواجاً ، ثم كيف استطاع أصحابه من بعده أن يفتحوا دول العالم القديم فارس والروم ، وبلاد السند ومصر وإفريقية والأندلس ، وقد كانوا أقل عدة ، وأضعف جنداً ، وأقل دراية بفنون الحرب ؟

ولكن سرعان ما يزول العجب حينما نقدر الروح المعنوية العالية التي كانت يتمتع بها جنود الرسول القائد عليه الصلاة والسلام . كانت القوة المعنوية في جانب ، وكانت القوة المادية في جانب آخر ، وكان من الحتم أن تتغلب القوة المعنوية على كل شيء .

وكان مبعث القوة المعنوية في المسلمين ينبع من شيئين اثنين : الأول الإيمان ، الثاني الاتحاد والألفة . أما الإيمان فإن المسلمين آمنوا بشريعة الإسلام ،

وآمنوا بأنهم على حق ، في عقائدهم وآرائهم وأعمالهم ، وآمنوا بأن الناس إذ ذاك على باطل ، وآمنوا بأن الحق لا بد منتصر ، لذلك لم يكن يخطر على بالهم إلا النصر ، ولم يكن يراود أحلامهم إلا النصر ، ولم يكونوا يترقبون إلا النصر ، فكان لهم النصر المبين المؤزر .

لقد كان من نتائج هذا الإيمان أن تفانى أصحاب الرسول ﷺ في امتثال أمره ، والدفاع عنه ، بائعين أرواحهم رخيصة في سبيل دينهم ومبادئهم ، يشهد لذلك قول سعد بن معاذ رضي الله عنه زعيم الأنصار ، حينما قال الرسول ﷺ أشيروا عليّ أيها الناس . قال سعد : « والله لكأنك تريدنا يا رسول الله ، فقال : أجل . قال : يا رسول الله لقد آمنا بك وصدقناك وشهدنا أن ما جئت به هو الحق وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة فامض لما أردت فنحن معك ، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد ، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً ، إنا لصبر في الحرب صدق في اللقاء ، لعل الله يريك منّا ما تقر به عينك فسر على بركة الله » .

أما الاتحاد والألفة ، فقد بلغ المسلمون فيها الغاية ، فقد اتحدت قلوبهم ، وتحابّت نفوسهم ، وصاروا كالبنيان المرصوص ، يشد بعضه بعضاً ، وأصبحوا جسماً واحداً ، سرت فيه روح واحدة ، فكان كل فرد يشعر بشعور الآخر ، كان ذلك كله نتيجة للعمل الحكيم الذي اتخذه الرسول ﷺ أول استقراره في المدينة ، فقد آخى بين المهاجرين والأنصار، أخوة أذهبت وحشة الغربة ، وجلبت الأنس والمحبة .

أيها المسلمون : أيها العرب : ما أحوجنا في ظروفنا هذه أن نحيي في نفوسنا هذه المعاني السامية التي توحيها هجرة الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام ، وما أحوجنا أن نطبق المنهج الذي سار عليه المسلمون من توجيهات الرسول الحكيمة ، إننا إذا فعلنا ذلك فسنرى المعجزة تتجدد ، والأمل يتحقق ، والنصر حاصل بإذن الله .

حُرِيَّةُ الْعَقِيْدَةِ

... أما بعد ، فيقول الحق سبحانه وتعالى في كتابه الكريم : ﴿ لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم ﴾ [البقرة : ٢/٢٥٦] .

أيها المسلمون : في هذه الآية الكريمة يحدثنا الرب عز وجل عن مبدأ من مبادئ العقيدة ، التي ارتضاها لنا ديناً ، هو مبدأ حرية اختيار الدين الذي يتبعه المرء ، دون أن يكون لأحد حق إكراهه على دين لا يقتنع به .

وإذ قرر الإسلام نفي الإكراه في باب العقيدة والدين ، فإن معنى ذلك أنه يحترم حرية الفرد ، وحرية الجماعة من جانب من أهم جوانب الحياة ، وطبيعي أن يتبعه سائر جوانبها .

أيها المسلمون : ليس على ظهر الأرض دين قدس الحرية كما قدسها الإسلام ، في كل جانب من جوانب الحياة ، فهو قد قرر حرية الفرد ، وحرية الجماعة ، وحرية الوطن ، وحرية المواطن ، وحرية الرأي ، وكل هذه الحريات متفرعة عن تقريره الأساسي لحرية العقيدة .

وبعد أن قرر هذه الحريات طلب إلى الناس أن يدافعوا عنها بالدم والروح فقال رسول الإسلام : « من قتل دون ماله فهو شهيد ، ومن قتل دون دمه فهو شهيد ، ومن قتل دون دينه فهو شهيد ، ومن قتل دون أهله فهو شهيد » .

وليس من الجائز في نظر الدين أن يفرط الفرد في حقه في الحرية ، فهو مدعو إلى الدفاع عنها ، ومن لم يدافع عن حريته وعن حقه فليس جديراً بالحرية ولا بالحياة .

وقد مضى الإسلام في تطبيق هذه الحرية إلى أبعد الحدود ، حين ندب المؤمن إلى أن يقول الحق في الشؤون الخاصة به ، وفي الشؤون الخاصة بغيره ، سواء أكان هذا الغير فرداً أم جماعة ، وذلك في حدود النصح والإخلاص حيث يقول : « الدين النصيحة ، قلنا لمن يا رسول الله ؟ قال : لله ولرسوله ولكتابه ولأئمة المسلمين وعامتهم » . ومتى أخذ المؤمن حريته كاملة في النصح والإرشاد ، ظهر الحق ، وشاع العدل ، واندحر البغي والفساد .

والمؤمن الكامل يستعمل هذا الحق قوياً صريحاً ، لا يخشى إنساناً ، ولا يخاف أحداً ، ما دام يقرأ قوله تعالى : ﴿ وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ﴾ [الكهف : ٢٩/١٨] ، وقوله تعالى في وصف المؤمنين الذين يحبهم ويحبونه : ﴿ أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ﴾ [المائدة : ٥٤/٥] .

وفي نطاق هذه الدعوة إلى الحق والجهر به يدعو الدين أتباعه أن ينهضوا لأداء الشهادة ، حين يطلب منهم قول الحق ، فيقول : ﴿ ولا تكتموا الشهادة ، ومن يكتمها فإنه آثم قلبه ﴾ [البقرة : ٢٨٣/٢] .

وأداء الشهادة على هذا الوجه نتيجة طبيعية لتمتع المؤمن بحرية الرأي ، وقول الحق لا يخاف أحداً . ونجد الإسلام حينما يدعو المؤمن إلى قول الحق ، يرسم له الضمانات التي تحفظه ، وتمكنه من ممارسة هذا الحق ، فيقول تعالى : ﴿ ولا يضارَّ كاتب ولا شهيد ، وإن تفعلوا فإنه فسوق بكم ﴾ [البقرة : ٢٨٢/٢] . ومعنى هذا أنه حذر من إيذاء الذين يقولون الحق ، ونهى عن التعرض لهم بأي ضرر أو إساءة .

ومما يجب أن يعلم أن الحرية في نظر الدين سلاح ذو حدين ، فهي حين تستعمل استعمالاً حكيماً متبصراً تكون أداة إصلاح ، وطريق خير للأمة ، ولكنها حين يساء استعمالها ، تصبح أداة فساد ، ونذير شر مستطير .

لذلك فقد وضع الدين بجانب الضمانات التي تحفظ الحرية حقاً لأصحابها ، حدوداً تمنع من استعمال هذا الحق استعمالاً سيئاً ، قد يحدث رد فعل ، ويفسد الإصلاح المطلوب .

لذا أوجب الإسلام أن تكون هذه الدعوة إلى الخير ، والنصح الذي يقدم إلى المواطنين ، بطريقة لينة وأسلوب حكيم . وترفق بالناس فقال تعالى : ﴿ ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ، وجادلهم بالتي هي أحسن ﴾ [النحل : ١٢٥/١٦] . وحينما أرسل سبحانه موسى وهرون إلى فرعون أمرهما أن يقولا له قولاً ليناً لعله يتذكر أو يخشى ، وقد بلغت حكمة الإسلام ، ورفعة أمر المسلمين أن يستعملوا اللين والرفق حتى في مجادلاتهم مع المخالفين لهم في العقيدة ، فقال تعالى : ﴿ ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي أحسن ﴾ [العنكبوت : ٤٦/٢٩] .

بل لقد ارتفع الإسلام في استعمال الحكمة إلى أبعد من ذلك بكثير حين نهى عن السباب والشتائم للآلهة التي تُعبد من دون الله خشية أن ينتج هذا السفه إلى سب الله ، فقال تعالى : ﴿ ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدواً بغير علم كذلك زينا لكل أمةٍ عملهم ثم إلى ربهم مرجعهم ... ﴾ [الأنعام : ١٠٨/٦] .

ومن هذه الحريات التي حفظها الإسلام ورعاها حرية البيوت ، وحرمة المساكن ، فقد نهى أن تنتهك هذه الحرية من أي إنسان كان فقال تعالى : ﴿ ... لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها ذلكم خيرٌ لكم لعلكم تذكرون ، فإن لم تجدوا فيها أحداً فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم وإن قيل لكم ارجعوا فارجعوا ... ﴾ [النور : ٢٧/٢٤ ـ ٢٨] .

ومن قيود هذه الحرية التي تمنع إساءة استعمالها ، أن يرعى المرء جاره ، فلا يقلق راحته بأصوات منكرة تنطلق من بيته . أو بأعمال قبيحة ، أو بالاطلاع على عوراته من النوافذ وغيرها .

إن جوهر تعاليم الحرية في نظر الدين أن ترعى حرية الآخرين قبل أن تمارس حقك في حريتك ، فحريتك تنتهي حيث تبدأ حرية أخيك ، وحقك ينتهي حيث تبدأ حقوق الآخرين وليس من الممكن أن يعيش المرء في مجتمع دون أن يتنازل عن بعض حرياته لدعم حرية المجتمع الذي يعيش فيه .

أيها المسلمون : يجب أن نفهم الحرية فهماً صحيحاً ، ونعلمها أبناءنا بالصورة الواضحة للحرية المطلوبة ، فقد جهل أكثر الناس تعاليم الإسلام ، وظنوا أن الحرية سلعة مستوردة من ثقافة الغرب وحضارته الحديثة ، فتعاطوا الحرية بمعيار منحل ، وبكأس مسمومة ، وهي حرية تهدف إلى تخريب الأديان ، وتهديم الأخلاق ، وسفك مروءة الشباب الذين هم عدة الوطن ، ودرعه الحصين .

يجب أن نعلم أبناءنا أن الحرية جوهرة ثمينة تضاف إلى شخصية الفرد لتعينه على حل مشكلاته وتكييف حياته . يجب أن يفهموا أن الحرية ليست غريزة هائجة تنطلق متبرجة متهتكة ، لتشد خلفها الجائعين والفاسدين ، إن هذا ليس من الحرية المقدسة في شيء ، بل هو اعتداء على الحرية ، وعلى القيم وعلى صالح المجتمع .

ليس من الحرية أبداً أن يتطاول الابن على أبيه ، والتلميذ على أستاذه ، والصغير على الكبير ، والجاهل على العالم ، والمرؤوس على الرئيس ، باسم الحرية ، فهذه كلها أعراض مرضية ، لا صلة لها بالحرية ، بل هي انحلال خلقي ، يقلب القيم الاجتماعية ، ويعكس المفاهيم الصحيحة ، فيقدم الخسيس ، ويعظم الحقير ، ويهدد مستقبل الأمة وأمنها .

أيها المسلمون : ﴿ إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ﴾ [الرعد : ١١/١٣] ، ولن يصلح أمر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها ، ولقد كان الأوائل من أمتنا نماذج كاملة للكمال الخلقي والاجتماعي والسياسي ، فهموا حقيقة الدين ،

وعقلوا معنى الحرية ، ووعوا قيودها التي فرضها الله ، فكان المجتمع الإسلامي صورة مثلى للمجتمعات الراقية ، التي ينعم في ظلها الحاكم والمحكوم ، والنابه والخامل ، ويتجاوب مع تعاليمها الصغير والكبير ، والعالم والجاهل .

وحسبنا أن نصغي إلى أبي بكر رضي الله عنه يخاطب المسلمين عقب توليه الخلافة حيث يقول : « أيها الناس إني وليت عليكم ولست بخيركم ، فإن أحسنت فأعينوني ، وإن أسأت فقوموني » .

بل حسبنا أن نذكر ذلك الموقف المثالي لعمر بن الخطاب حين وقف له رجل من عامة المسلمين يوماً فقال له : اتق الله يا أمير المؤمنين ! فقال بعض الناس : أتقول لأمير المؤمنين هذا ؟! فقال عمر : « دعوه فليقلها لي ، نعم ما قال لا خير فيكم إن لم تقولوها ، ولا خير فينا إذا لم نقبلها » .

أيها المسلمون : إن الذي أخرج من العرب في جاهليتهم وغطرستهم وشركهم هذه الأمة المثالية إنما هو الدين الذي اعتنقوه عن بصيرة ، واتبعوه على هدى من غير إكراه ولا إلزام ، فكانوا بسبب هديه وتعاليمه خير أمة أخرجت للناس في كل مجال من مجالات الحياة .

وقد أسفرت جهود العلماء والباحثين عن حقيقة اجتماعية وتاريخية لا شك فيها ، هي أن الدين صانع الحضارات وأنه ما من حضارة قامت في الشرق أو في الغرب إلا على أساس ديني ، وسيظل هذا شأن الإنسان في كل زمان ومكان .

أيها المسلمون : إن الدين يمنح الأمم قوة لا غنى عنها في مواجهة الأزمات ، هذه القوة هي القوة الأخلاقية والأمة التي تكون أخلاقها نابعة من إيمانها يتوافر لها أعظم جانب من ثبات الشخصية وقوتها .

إن الأخلاق الدينية تقوم على أساس الإيمان بالآخرة ، ووجود هذا المعنى في

نفس الفرد يخلق توازناً ضرورياً في تصرفاته ، فالمؤمن لا يمكن أن يكون أنانياً تدور أعماله حول ذاته ، وتستهدف تحقيق ملذاته ، لأنه يؤمن بحقيقة أخرى ، هي أن ثواب الله أبقى وأخلد ، وأنه لن يصل إلى هذا الثواب إلا إذا أنكر ذاته ، وذكر ربه ، وخدم وطنه ، وبذل جهده في صالح مجتمعه ، ومن هنا يكون الإيثار ، والإخلاص ، والتفاني في أداء الواجب والحرص على الأمانة ، وحب الخير للناس أجمعين .

وعلى هذا الأساس يضع المؤمن نهاية حياته بين عينيه ، ويتمنى أن تكون خير نهاية ، ومن هنا كان حرص المؤمنين على الاستشهاد في سبيل الله ، لأن الاستشهاد وسيلة لمجد أمته وعزة دينه ، وأداة لتحقيق النصر على العدو .

فهو حين يسمع قوله تعالى : ﴿ ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون ، فرحين ... ﴾ [آل عمران : ١٦٩/٣ ـ ١٧٠] يوقن أن الموت نقلة إلى حياة أرفع وأكرم ، فيها رزق دائم ، وفرح بفضل الله لا ينقطع ، ومن ذا الذي لا يتمنى حياة دائمة ، ورزقاً موفوراً ، وفرحاً وابتهاجاً وسروراً .

أيها المسلمون : هذه خطفات سريعة لبعض توجيهات دينكم الحنيف فهل لكم أن تستمسكوا بها وتتبعوها ؟؟

أيها المسلمون : ﴿ استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم ﴾ [الأنفال : ٢٤/٨] ، واتبعوا منهجه الذي رسمه لكم تنالوا عز الدنيا وشرف الحياة ، وسعادة الآخرة .

الإِسْرَاءُ وَالْمِعْرَاجُ

غداً يبزغ فجر اليوم السابع والعشرين من رجب ، وغداً تضطرب في نفوس المؤمنين تلك الذكرى العظيمة الخالدة ، ذكرى إسراء محمد ﷺ ومعراجه ، ذلك الحادث الجليل في حياة الرسول الكريم ﷺ ، الذي نال فيه من ربه عز وجل ما لم ينله غيره من التعظيم والتكريم .

وإنه لجدير بالعرب والمسلمين أن يعيدوا على أنفسهم هذه الذكرى الخالدة ، لا للاحتفال بها فقط بإقامة الزينات والمهرجانات والرسميات ، بل ليفكروا بما لابس هذا الحادث العظيم ، وما سبقه من أحداث خطيرة في حياة الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام كانت السبب في إبراز حقيقة الرسول ﷺ للعالمين ، وإظهار مكانته عند الله عز وجل .

فقد ثبت في تاريخ النبي عليه الصلاة والسلام أنه ضاق ذرعاً بقريش ، وكثرت مساءاتهم واعتداءاتهم عليه ، ولا سيا بعد أن توفي عمه أبو طالب الذي كان له درعاً حصينة ، يقيه غائلة الأشرار وعدوان المعتدين .

لهذا خرج ﷺ إلى الطائف يلتمس من ثقيف النصرة والمنعة ، ولكن هؤلاء القساة لم يلقوه إلا بالصد والإعراض ، وأغروا به سفهاءهم وعبيدهم يسبونه ويقذفونه بالحجارة حتى أدموا قدميه الشريفتين ، ولو علموا على من يقذفون لذابوا خجلاً من أنفسهم ، ولفضلوا أن تقطع منهم هذه الأيدي التي يقذفون بها سيد العالم الذي وقف حياته على إسعادهم ، وبذل عمره من أجل عزهم وسيادتهم .

ولقد عز على الرسول ﷺ أن يأتي قومه برسالة السماء ، وبسيادة الأرض ، وبمفاتيح العالم ، وبكنوز الدنيا ، ثم لا يلقى منهم إلا كما يلقى الطبيب الرحيم ، من المريض الطفل ، أو الجاهل السقيم : من كره وشتم وإساءة ، عز عليه ذلك ،

وأهمه أمر أمته ، فالتجأ إلى الله يشكو إليه ضعف قوته ، وقلة حيلته ، وهوانه على الناس ، ويسأله بضراعة وإخلاص أن يهدي قومه فإنهم لا يعلمون .

وهنا أراد الله أن يستجيب لنبيه دعاءه ، ويعرفه قدره ، ويظهر للدنيا كلها منزلته ، ومكانته ، أراد عز وجل أن يبين لرسوله ﷺ أنه إن هان أمره عند الناس ، فهو عظيم عند رب الناس ، وإن لم يعرف الجاحدون قدره فإن رسل الله وأنبياءه وملائكته وأصفياءه يعرفون قدره ، وكفى بهم عارفين ومقدرين .

لذلك أسرى به الله من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى باحتفال مهيب رهيب ، قام به النبيون والمرسلون والملائكة المقربون على أرض المسجد الأقصى صفوفاً صفوفاً يستقبلون القادم العظيم ، ويحيطون به إحاطة الشهب بالبدر أو الجند بالعلم .

أيها المسلمون ، أيها العرب : إن ذكرى الإسراء والمعراج فيها كثير من الإشارات والإيحاءات ، فهي ليست ذكرى عابرة نقوم فيها بمظاهرة فارغة وكفى ، إنها صرخة داوية في أعماق الضمير ، تهيب بكم لاسترداد الوطن ، وإنقاذ البلاد ، وإعادة الشرف والاعتبار والسمعة .

أيها المسلمون ، أيها العرب : إن بلدكم فلسطين هي بلد النبوات والرسالات ، فقد آوت إبراهيم وموسى ، وأنبتت مريم وعيسى ، وكانت لمحمد مسرىً ومعراجاً ، في قدسها (القيامة) وعلى أرضها الطاهرة (الأقصى المبارك) .

أيها المسلمون ، أيها العرب : اذكروا في هذه الذكرى أن بلدكم هذه بلد البطولات ، والرجولات والأمجاد ، والميادين الخالدة ، والمعارك المشرفة .

في كل ذرة من ترابها دم شهيد ، ونفس مجاهد ، وروح بطل .

وفي أجوائها عبير صلاح الدين ، ونور الدين ، وقوافل المجاهدين من آبائكم وأجدادكم الميامين .

أيها المسلمون ، أيها العرب : إن حطين تناديكم لترفعوا راياتها ، وإن دير ياسين تدعوكم لتأخذوا بثاراتها .

إن أمامنا أملاً باسماً يدفعنا لاستعادة ما ضاع من عزة ، وما تمزق من شمل ، وما تهدم من بنيان .

كلنا أمل أن يفهم العرب والمسلمون معنى الإسراء والمعراج فهماً صحيحاً ، فلا يطيب لهم نوم ، ما دامت أرض الإسراء تحت سلطان اليهود ، ولا تسعد لهم حياة ما دامت ساحة المعراج تحت ظلال إسرائيل ، ولا يهنؤون في بلد ما دامت جوهرة البلاد العربية ، وتاج بلاد الإسلام ، يقوم فيها للأذلاء دولة ، وترتفع لهم وسط بلاد العرب راية .

إن واجبنا ـ نحن المسلمين والعرب ـ أن نقرأ قصة الإسراء والمعراج ، لا على أنها من باب اللهو والتسلية ، بل على أنها تذكرة تحفزنا إلى العمل ، وتدعونا إلى المضي قدماً في سبيل الوحدة العامة الشاملة التي تجمع القلوب المتفرقة والقوى المشتتة ، فتتخذ منها إلى المجد طريقاً ، وإلى الجهاد دليلاً وإلى العمل الصالح معراجاً .

أيها المسلمون ، أيها العرب : نحن نعلم من قصة الإسراء والمعراج أن الله تعالت قدرته أسرى بنبيه الكريم محمد عليه الصلاة والسلام من المسجد الحرام بمكة ، إلى المسجد الأقصى في القدس من أرض فلسطين ، ثم نصب له المعراج على أرض فلسطين ، وبعد أن تمت رحلته السماوية في ملكوت الله رجع ثانية إلى المسجد الأقصى ، إلى أرض فلسطين ، ثم قفل راجعاً إلى المسجد الحرام ، إلى مكة المعظمة .

ما السر في هذا كله ؟ ألم يكن في الأرض بلـدان ومـدن ينطلق منهـا ويعود إليها غير هذين البلدين ؟ نعم إن الحكمة في ذلك واضحة مشرقـة ، إن ذلـك يشير إلى أن المسلم الـذي يعظم الكعبـة ويغـار عليهـا يجب أن يعظم المسجـد الأقصى ، ويغار على الصخرة المشرفة لأن محمداً ﷺ يربـط بينهما بهـذا الربـاط الوثيق ، بل إن ذلـك يشير إلى المسجـد الأقصى وأرض فلسطين ، لم تربـط بـالمسجـد الحرام فحسب ، بل ربطت مع ذلك في السماء وأهل السماء .

أيهـا المسلمون : اذكروا في هـذه الـذكرى أن الله تعـالى سجـل هـذا الحـادث العظيم في حيـاة الرسـول محمـد ﷺ ، في سـورة من كتـابـه العـزيـز ، من طـوال السور ، وسمى هذه السورة سورة الإسراء .. !! ليكون ذلـك أدعى إلى التـأمل ، وأوجب للعمـل .

أيهـا المسلمون ، أيهـا العرب : اعملوا وجـدوا وتيقظـوا واضرعـوا إلى الله العلي القدير أن يجعل أيـامنـا القـادمـة أيـام عز وفخـار ، وقوة وانتصـار ، والله نـاصر المؤمنين ، وولي المتقين ، ولن يضيع عمل العاملين .

☆ ☆ ☆

في الاسْتِقَامَةِ بَعْدَ رَمَضَانَ

قال تعالى في كتابه العزيز : ﴿ إن الذين قـالوا ربنـا الله ثم استقـاموا تتنزل عليهم الملائكـة ألاّ تخـافوا ولا تحـزنـوا وأبشروا بـالجنـة التي كنتم تـوعـدون . نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم ولكم فيها ما تـدَّعون نزلاً من غفور رحيم ﴾ [فصلت : ٤١/٣٠ - ٣٢] .

أيها الناس : قد انقضى شهر رمضان ، وربح فيه العاملون ، وبـاء المقصرون بالخسران ، إن المؤمنين الذين اغتنموا فرصة العمل لا شك أن الله تعالى ضـاعف لهم الأجر ، ومحا عنهم الوزر ، ومنحهم المغفرة والرضوان .

إن المؤمنين الذين أدركوا سر الصوم ، وذاقوا حلاوة الطاعة ، لا بد أنهم أسفوا على انقضـاء رمضـان وتمنوا - كما تمنى لهم رسولهم عليـه الصلاة والسلام - أن تكـون السنة كلها رمضان ، لما كانوا يرون فيه من نعيم الطاعة ، ولـذة القرب ، والتغلب على الشهوات . إن هؤلاء المؤمنين استفادوا كثيراً من هذه المدرسة ، فخرجوا منهـا بنجاح باهر ، وحظ وافر ، وإذا هم يخوضون غمار الحياة بقوة وثبات واستقـامـة ، فهم على نور من ربهم ، ويقين من إيمانهم .

أما أولئـك الـذين كانوا يترقبون رمضـان بكره واشمئزاز ، ويتمنون انقضـاءه بفارغ الصبر ويجدونه عبئاً ثقيلاً على نفوسهم ، ويعتبرونـه وافـداً غريبـاً يحـد من شهواتهم ، ويكبح جماحهم ، أولئك لم يخرجوا من الصوم بنتيجة ، وآيـة ذلـك أنهم رجعوا بعد رمضان إلى ما كانوا عليه من شرور وفساد ، وتهاون واستهتار .

أيها المؤمنون : إن الصائمين المقبولين معهم آية قبولهم ونجاحهم ، ذلـك أنهم إذا استمروا بعـد رمضـان على الطـاعـة ، واستقـاموا على الحـق ، واستمسكـوا بـالخلـق الكريم ، وداوموا على أداء الفرائض والواجبـات ، واجتنبوا المخـازي والموبقـات ، إنهم

إذا فعلوا ذلك كان دليلاً قاطعاً ، وبرهاناً ساطعاً على قوة إيمانهم وقبول صيامهم ، وأنهم استفادوا من مدرسة رمضان ، فتغلبوا على الشيطان ، وأصبحوا من عباد الرحمن . وإن المؤمن الذي يقر بوحدانية الله عز وجل ، ويستقيم على امتثال أمره ، واجتناب نواهيه لهو المؤمن الفائز الذي يمده الله تعالى بالعون والنصر والقوة والثبات في الدنيا والآخرة .

أيها المؤمنون : إن أسلافكم آمنوا هذا الإيمان ، واستقاموا هذه الاستقامة ، فثبتوا للأحداث ، وتغلبوا على الصعاب ، ورزقهم الله تعالى جلداً في الحياة ، وثباتاً أمام العدو ، فلم يهنوا ولم يضعفوا ، ولم يستكينوا ، بل كانوا دائماً وأبداً جنود الحق صامدين صمود الجبال ، بعظمة الأبطال .

نعم ، إن الذين يثقون بربهم ، ويؤمنون بعدالة قضيتهم ، ويطالبون بحقهم ، كان حقاً على الله عز وجل أن يؤيدهم ويمدهم وينصرهم ، وقد عرفنا من دروس رمضان كيف خاض المؤمنون غمار المعارك في بدر وفي أحد وفي الخندق ، وخرجوا نتيجة الفتح الأكبر الذي عز الله به الدين ، وخذل به المعتدين .

أيها المؤمنون : لقد عرفنا أيضاً من حوادث السادس من تشرين من السنة الماضية كيف قهر جيشنا البطل وجنودنا البواسل ، كيف قهروا المعتدين ، وردوهم خائبين ، ولقنوهم دروساً في الشجاعة والإقدام ، جعلت الصهاينة يقولون كما قال أسلافهم من قبل : ﴿ ان فيها قوماً جبارين ﴾ [المائدة : ٢٢/٥] .

وهذه سنة الله في خلقه ، ووعده لعباده ، ما من أمة تثق بربها وتدافع عن حقها ، إلا أيدها الله بنصره ، وأمدها بالعون والتأييد .

أيها المؤمنون : إن هذا الوعد صريح وواضح في الآية الكريمة التي تلوت عليكم ، والله يقول فيها : ﴿ نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ﴾ [فصلت : ٣١/٤١] ، الله أكبر ما أجمل هذا الوعد ، إنه ليثلج صدور المؤمنين ويطمئن قلوب

المجاهدين المناضلين ، حيث يعتقدون أن الله وليهم ، ومعنى الولي الناصر والمعين والمثبت والمعز والمؤيد ، وإذا كان الجندي يعتقد أن الله معه وأنه وليه وناصره ، فإنه لا يهاب الموت ولا يخشى العدو .

أيها المؤمنون : نلاحظ في الآية الكريمة أن ولاية الله وملائكته للمؤمنين في الحياة الدنيا مقدمة على الحياة الآخرة كيلا يكون المؤمنون في ريب من ذلك ، وحتى لا يتوهموا أن النصر قد يكون بعيداً ، بلى إن الله مع الذين استقاموا على توحيده ، واستداموا على طاعته ، وحينما يتساءلون : متى نصر الله ؟ يأتيهم الجواب : ﴿ ألا إن نصر الله قريب ﴾ [البقرة : ٢١٤/٢] . نعم إن نصره قريب حاضر ، وملائكته على استعداد دائماً لينفذوا أمره ، ويؤيدوا جنده .

أيها الناس : نلاحظ كذلك أن هذا الوعد الصادق تكرر في عدة آيات من القرآن الكريم ، ففي قوله تعالى : ﴿ الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور ، والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات ﴾ [البقرة : ٢٥٧/٢] . وفي ﴿ إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا والله ولي المؤمنين ﴾ [آل عمران : ٦٨/٣] . وفي ﴿ والله أعلم بأعدائكم ، وكفى بالله ولياً ، وكفى بالله نصيراً ﴾ [النساء ٥٤/٤] . وفي سورة القتال التي هي سورة محمد ﴿ ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وأن الكافرين لا مولى لهم ﴾ [محمد : ١١/٤٧] . وفي : ﴿ وجاهدوا في الله حق جهاده ، هو اجتباكم ، وما جعل عليكم في الدين من حرج ، ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل وفي هذا ليكون الرسول شهيداً عليكم وتكونوا شهداء على الناس فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واعتصموا بالله ، هو مولاكم فنعم المولى ونعم النصير ﴾ [الحج : ٧٨/٢٢] . وفي : ﴿ بل الله مولاكم وهو خير الناصرين ﴾ [آل عمران : ١٥٠/٣] ، وفي القرآن آيات كثيرة من هذا النوع .

أيها المؤمنون : إننا إذا تأملنا هذه الآيات الكريمة نجد أن الرب عز وجل

يدعونا بحرارة وقوة ، وأساليب منوعة لنؤمن به ، ونستقيم على طاعته ، وعليه بعد ذلك أن ينصرنا ويعزنا ، ويثبت أقدامنا ويدمر عدونا ، ويجعل من دباباتنا وطائراتنا وصواريخنا قوة لا تخطىء الهدف ، ومدمرات لا تبقي ولا تذر .

أيها المؤمنون ، أيها المسلمون ، أيها العرب : إن الله لا يريد منكم إلا أن تلجؤوا إليه ، وتعتصموا به لينصركم ويؤيدكم ، ويدمر عدوكم ، ألا تستمعون إلى ندائه الصريح حيث يقول لكم : ﴿ واعتصموا بالله هو مولاكم فنعم المولى ونعم النصير ﴾ [الحج : ٧٨/٢٢] . نعم إنه نعم المولى ونعم النصير ، وهل هناك ناصر أقوى منه ، وهل يوجد إمداد أقوى من إمداده ، وهل في الوجود من يملك من القدرة والعظمة والسيطرة مثل ما يملك رب العالمين ، أليس هو مالك الملك ، أليس هو العزيز الجبار ، أليس هو القادر على كل شيء ، أليس هو الذي لا يعجزه شيء ، أليس هو سبحانه الذي إن شاء جعل عليكم الليل سرمداً إلى يوم القيامة ، فلا تجدون ليلاً تسكنون فيه ، أليس هو الذي في قبضته الأرض ، والسماوات مطويات بيمينه ؟

أيها المؤمنون : إن كنتم تريدون القوة فاطلبوها من القوي ، وإن كنتم تريدون العزة فاطلبوها من العزيز : ﴿ من كان يريد العزة فلّله العزة جميعاً ﴾ [فاطر : ١٠/٣٥] فهو الذي له الخلق ، وبيده الأمر ، وهو على كل شيء قدير .

أيها المسلمون : أيها العرب ، أيها الشباب : استقيموا على طاعة الله ، وتعاونوا على البر والتقوى ، وقاطعوا إخوان السوء ، وأصحاب الشرور ، وشقوا طريقكم في الحياة ، واعرفوا مكانكم في المجتمع ، ولا ترضوا من الأمور بالدون ، فإن المرء حيث يضع نفسه :

وما المرء إلا حيث يجعل نفسه   فكن طالباً في الناس أعلى المراتب

أيها المؤمنون : إنكم سمعتم في الآيات التي تلوت عليكم أن الله يقول : ﴿ الله

ولي الـذين آمنوا يخرجهم من الظلمـات إلى النور ﴾ [البقرة : ٢٥٧/٢] . ومعنى هـذا أن الله يخرج المؤمنين من ظلمات الجهل إلى نور العلم ، ومن ظلمات الحيرة والشـك إلى نور اليقين ، ومن ظلمات الخوف إلى نور الأمن ، ومن ظلمـات الـذلـة إلى نور العزة ، ومن ظلمات التردد إلى نور الإقدام ، فـالآيـة بليغـة وشـاملـة كغيرهـا من آيات الكتاب العظيم فهي تعبير واضح أن الله يرعى المؤمن ويعينـه ويهـديـه إلى كل خير وعزة وقوة ، فإذا خاض المؤمنون معركة ، فالله معهم يثبتهم ويربط على قلـوبهم ، وإذا أطلقـوا نيرانهم فـالله يحقـق أملهم ، ويـوقـع بعـدوهم ، وصـدق الله العظيم إذ يقول لرسوله الكريم ﷺ : ﴿ ومـا رميت إذ رميت ولكن الله رمى ﴾ [الأنفـال : ١٧/٨] ، وإذ يقول : ﴿ إذ يـوحي ربـك إلى المـلائكـة أني معكم فثبتـوا الـذين آمنوا ، سـألقي في قلوب الـذين كفروا الرعب ، فـاضربوا فوق الأعنـان ، واضربوا منهم كل بنان ﴾ [الأنفال : ١٢/٨] .

أيهـا المـؤمنـون : أخرج مسلم في صحيحـه من حـديث أبي عمرة سفيـان بن عبد الله رضي الله عنه قال : « قلت : يا رسول الله قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً غيرك ، قـال ـ عليـه الصلاة والسلام ـ : قل : آمنت بـالله ثم استقم » . وأنتم ترون حديث الرسول عليه الصلاة والسلام هذا مطابقاً تمـامـاً لقولـه تعـالى : ﴿ إن الـذين قـالـوا ربنـا الله ثم استقـامـوا ﴾ [فصلت : ٣٠/٤١ ، والأحقـاف ١٣/٤٦] . والاستقامة كلمة جامعة لأنواع التكاليف ، لهذا جـاء في قول للرسول عليـه الصلاة والسلام : « استقيموا ولن تحصوا ، واعملوا إن خير أعمالكم الصلاة ، ولا يحافـظ على الوضوء إلا مؤمن » .

أيها المؤمنون : هل تريدون أعظم ثواب للاستقامة من ذلك الذي وعدكم الله به في قوله ﴿ تتنزل عليهم الملائكة ألا تخـافوا ولا تحزنوا وأبشروا بـالجنـة التي كنتم توعدون ﴾ [فصلت : ٣٠/٤١] . وما أحوجنا إلى الملائكة يطمئنوننا في كل موطن .

في المولد النَّبوي الكريم أيضاً

قال تعالى في كتابه العزيز : ﴿ لقد منَّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلالٍ مبين ﴾ [آل عمران : ١٦٤/٣] .

أيها المسلمون ، أيها العرب : هذا هو شهر ربيع الأول الذي يذكر المسلمين بهذه المنة الكبرى بمولد الهادي محمد ﷺ . نعم ، إنها منة كبرى ـ ولله دائماً وأبداً المن والفضل ـ إذ منَّ الله على المؤمنين بهذا الرسول العظيم ، إنها منة بلغوا فيها الرفعة التي لا تطاول ، والمجد الذي لا يسامى ، والغاية التي ليست وراءها غاية ولا زيادة لمستزيد ، لأن النبي العظيم ﷺ رسم لهم الطريق المستقيم الذي يصلهم بالعزة والخلود .

أيها المسلمون ، أيها العرب : على مقربة من مقام إبراهيم ، وحجر إسماعيل ، ومهبط جبريل ، وتجاه البيت الحرام ، وفي الثاني عشر من ربيع الأول ، ولد الرسول العالمي ، والنبي الأمي ، محمد بن عبد الله ، رسول الإنسانية ، ورحمة العالمين ، وخاتم النبيين .

وإذا احتفل المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها بهذه الذكرى العزيزة ، فإنما يقومون بواجب أكيد لبعض ما يجب عليهم من حق هذا الرسول الكريم ﷺ ، محرر العقول ، ومزيل الأوهام ، ومنقذ الإنسانية .

وإذا أشرقت بهذه الذكرى العطرة نفوس ، وابتهجت قلوب ، وانشرحت صدور ، فإنما يكون ذلك ، لأن هذه الذكرى تعيد للنفوس اليائسة الأمل ، وتطرد عنها اليأس ، وتبعد عنها الكارثة .

ونحن ـ أمة العرب ـ على الخصوص ، ولا سيا في مثل هذه الظروف الحالكة

الدقيقة التي تمر بها أمتنا ، بأمس الحاجة إلى أن نعيد النظر بدقة وتأمل في تاريخ منقذ العرب ، ورسول الإنسانية ، لنأخذ هذه السيرة المشرفة العظة والعبرة ، ولنستلهم منها العزم والصمود ، ولنطرح اليأس والاستسلام .

فإن قائدنا الأعظم ﷺ لم يضعف ، ولم يستكن ، ولم ترهبه قريش كلها ، بل لم ترهبه دول الأرض إذ ذاك ، وقد وقفت من وراء قريش ، تناهض دعوته ، وتعارض رسالته ، وتؤذي المؤمنين به ، ولتصد عن أتباعه .

وفي مثل هذا الموقف الثابت الصامد ، تتميز الأمم والشعوب ، ويظهر سر العظمة في الزعماء والقادة ، وما أجدرنا ، نحن العرب والمسلمين ، أن نستمد العظمة ، والعزة ، والقوة من سيرة سيد الزعماء وبطل الأبطال ، وصانع القواد ، سيدنا محمد ﷺ الذي ترفرف روحانيته الكريمة علينا من عليائها ، في شهر ربيع الأول ، ذكرى مولده الكريم .

أيها المسلمون : لقد اختار الله تعالى للرسالة الخاتمة محمداً عليه الصلاة والسلام واصطفاه من خلقه ، ومن خيرة أنبيائه ، ليتحمل هذا العبء الثقيل ، و ﴿ الله أعلم حيث يجعل رسالته ﴾ [الأنعام : ١٢٤/٦] . وهيأه ربه منذ طفولته ، ورعاه منذ نشأته ، ولحظه تعالى بعين عنايته ، فكان عظيماً في مولده ، عظيماً في طفولته ، عظيماً في شبابه ، عظيماً في كل مراحل حياته .

أيها المسلمون : لقد هب عليه الصلاة والسلام يصدع بأمر ربه ، وينشر تعاليم دينه ، ويدعو إلى مكارم الأخلاق ، وقف هذا الموقف بكل صلابة وثبات وحده ، وأهله وعشيرته على خلاف ما جاء به ، والفرس والروم ، والهند والصين ، وكل شعوب الأرض لا يرون ما يرى ، ولا يشعرون له بوجود ، هذا هو موقف النبي الكريم عليه الصلاة والسلام إذ ذاك ، وهذا هو موقف العالم تجاه هذه الدعوة ، رجل خالٍ من كل قوة وسلاح ، إلا مضاء العزيمة وصلابة الإيمان ، والثقة بالنصر .

وكان عليه الصلاة والسلام يوقن بأنه لا بد لهذه الدعوة من رجـال مخلصين ، يؤمنون بهـا ، ويخلصون لهـا ، ويكافحون في سبيل نشرهـا وتبليغهـا ، ويحملـون السلاح من أجلها ، لذلك بذل كل ما في وسعه من جهـد في إقنـاع أهلـه الأدنين ، وعشيرته الأقربين ، بصدق دعوته ، وصحة رسالته .

وبدأت القلوب الصـافيـة تتفتح لهـذا الحق الأبلج ، وشعرت العقول السليمـة الهادئة بصحة هـذه التعـاليم السـاميـة ، أليس هو يـدعو إلى الإيمـان بـالله وحـده لا شريك له ؟ أليس هو يدعو إلى تحرير الإنسان من عبادة الإنسان ؟ إنها دعوة صادقة وبريئة أيضاً من كل مطمع ، بعيدة عن كل أنانيـة ، هـدفهـا المؤاخـاة بين النـاس دون تفريق بين أبيض وأسود ، وتحقيق العـدالـة بين الجميـع ، من غير تمييز بين أمير ومأمور وحاكم ومحكوم ، وغالب ومغلوب .

وما كاد العرب يستجيبون لهذا النـداء ، وينضوون تحت رايـة هـذا القـائـد حتى انتقلوا من حال إلى حال ، من غموض إلى نباهة ، ومن ضعف إلى قوة ، ومن ظلمات حالكة إلى أنوار هاديـة ، فعم الإشعـاع جميع الأرجـاء ، وأشرقت الـدولـة العربية الإسلامية ، فغمر علمها وعدلها ورحمتها نصف المعمورة .

لقد نظمهم الرسول الكريم ﷺ بسرعة ، وألف بين قلوبهم بإذن الله ، فوحد شملهم وجمع كلمتهم ، وانتزع منهم الضغائن والأحقـاد ، والشر والفسـاد ، وإذا بهم يخرجون للنـاس خير أمـة ﴿ يـأمرون بـالمعروف وينهـون عن المنكر ، ويقيمـون الصـلاة ﴾ [التـوبـة : ٩/٧١] . يتفـانـون في الجهـاد ، ويستبسلـون في مكافحـة الظالمين ، ورد المعتدين ، فمكن الله لهم في الأرض ، وملكهم قيادة أكثر المعمور .

ولكن ذلـك لم يكن لهم حتى تغلغلت هـذه التعـاليم في قلـوبهم ، وسرت في دمـائهم ، فعزفوا عن الـدنيـا وزخرفهـا ، ورغبوا في الآخرة وخلـودهـا ، وأحبـوا الموت في سبيل الله كما يحب أعداؤهم البقاء في الحياة .

جاء أعرابي إلى النبي عليه الصلاة والسلام فاستمع إلى هديه ، وأصغى إلى ندائه ، فسرعان ما دخل الإيمان قلبه ، وأعلن إيمانه ، وعاهد رسوله على أن يكون جندياً مخلصاً من جنوده . وبعد قليل نادى منادي الجهاد ، فكان الجندي المسلم الجديد في مقدمة الصفوف ، ونشبت المعركة حامية الوطيس بين الحق والباطل ، وبين الكفر والإيمان ، وانتصر الإيمان ، وهزم الباطل ، وغنم المسلمون ، واستدعى الرسول القائد ، الجندي المسلم الجديد ليعطيه حظه من الغنيمة ، وجاء الجندي وعرض عليه الرسول حصته فإذا به يقول : « يا رسول الله والله ما على هذا اتبعتك ، إنما اتبعتك لأقاتل في سبيل الله ، فأرمى ههنا ـ وأشار إلى حلقه ـ فأموت فأدخل الجنة ، فأعجب الرسول القائد بهذا الجندي المخلص ، وبشره بأن الله تعالى سيحقق له أمله ، ويبلغه مطلوبه .

وكان الجنود والقادة الذين سرت فيهم هذه التعاليم كانوا كلهم على هذا الطريق القيم ، والنهج الواضح تفان في الحق ، وإخلاص في الجهاد ، ونكران للذات ، يضحون بالدم والمال لا يبتغون إلا رضاء الله وحده .

خاض مسلمة بن عبد الملك أحد قواد بني أمية حرباً ضروساً ، واضطر أعداءه إلى التقهقر والتحصن بحصونهم المنيعة ، ودام حصار المسلمين لأعدائهم مدة طويلة ، ولم يجد المسلمون طريقاً ومنفذاً من هذه الحصون . وبعد بحث عن وسيلة لاختراق هذه التحصينات التي احتمى الأعداء داخلها ، وجدوا نقباً أي ثغرة إذا فتحت هذه الثغرة تمكن الجيش الإسلامي من الدخول واختراق هذه التحصينات كلها ، غير أن فتح هذه الثغرة يحتاج إلى فداء وتضحية ، وانتدب لهذه المهمة جندي من هؤلاء الجنود البواسل ، واندفع نحو النقب كالبركان ، وقتل ما حوله من جند العدو ، ومكن للجيش المسلم من الدخول ، وتم النصر على يد هذا الجندي الشجاع الذي فتح النقب فتم فتح سائر الحصون .

ولكن الشيء الذي يلفت النظر ، ويدهش الفكر أن الجندي اختفى ، ولم

يعلن عن هويته ، ولم يتقدم لطلب جائزة ، أو إحراز وسام ، بل على العكس ، طلبه القائد العام ليكافئه على عظيم صنعه فلم يعثر عليه ، وبالغ القائد في البحث عنه ، وبالغ الجندي في نكران ذاته ، حتى لجأ القائد إلى الأيمان المغلظة والتوسلات الحارة كي يعلن الجندي عن نفسه .

وجاء الجندي فاستأذن للدخول على القائد فدخل فسأله القائد : أأنت صاحب النقب ؟ قال : أنا أدلكم عليه بشروط ثلاثة ، وبعد أن استوثق بقبول الشروط قال : ألاّ تسألوه عن اسمه ، وألاّ تخبروا به الخليفة ، وألاّ تكافئوه بشيء . وعند انتهاء هذه الشروط ، قال : أنا هو . ثم ذهب وبقي رمزاً حياً للجندي المجهول .

ولقد أعجب القائد بهذه الروح العالية ، وهذه النفوس السامية ، وتصاغر أمام هذا الجندي العظيم ، وكان يدعو بعد كل صلاة قائلا : « اللهم اجعلني مع صاحب النقب » .

أيها المسلمون ، أيها العرب : إن الرسول محمداً عليه الصلاة والسلام الذي يحتفل العالم الإسلامي بإشراقة ذكراه هو الذي تمكن في ثلاث وعشرين سنة هلالية من أن يقدم للتاريخ أنموذجاً حياً للأمة المثالية ، يعرضه على الأجيال منذ أربعة عشر قرناً ، أنموذجاً مشرفاً للعلماء الأعلام ، والزعماء الصالحين ، والقادة المظفرين ، والجنود المخلصين ، فكان كل منهم مثلاً أعلى في كل خلق كريم .

أيها المسلمون : إن هذا المولود الكامل لم يكن بحاجة إلى تخليد ذكراه ، بعد أن شرح الله صدره ، ووضع عنه وزره الذي أنقض ظهره ، وأعلى في الخافقين ذكره ، وجعل اسمه يرتفع مع اسمه في كل يوم خمس مرات حينما تدوي أصوات المؤذنين مع الأثير أشهد أن لا إله إلا الله ، أشهد أن محمداً رسول الله ، ولكننا ، نحن المسلمين ، بحاجة إلى هذه الذكرى لنستمد منها الهداية والنور ، والقوة والثبات ، والعظمة والمجد .

التَّذْكِيرُ بِاليَوْمِ الآخِرِ

قال تعالى في كتابه العزيز : ﴿ ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ماقدمت لغد واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون ، ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم ، أولئك هم الفاسقون ، لا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة أصحاب الجنة هم الفائزون ﴾ [الحشر : ٥٩/ ١٨ ـ ٢٠] .

أخي المؤمن : إن من نعم الله على عباده أن جعل لهم مواسم للخير ، وتسوقاً للربح ينهض بها هممهم ، ويجدد بها عزمهم ، ويعيد نشاطهم ، كيلا يغفلوا عن ذكره ، ولا يفتروا عن عبادته ، ولا ينشغلوا عما خلقوا من أجله ، فإن الخلق جميعاً إنما خلقوا لعبادة الله ، وطاعته ، وامتثال أوامره : ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ، ماأريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون ، إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين ﴾ [الذاريات : ٥١/ ٥٦ ـ ٥٨] .

أيها المسلمون : أنتم الآن في بحبوحة من هذه المواسم التي تذكركم بربكم ، وتوقظكم من غفلتكم ، لتعملوا لآخرتكم أكثر مما تعملون لدنياكم ، فإن الدنيا دار ممر ، وإن الآخرة لهي المستقر .

فقد مرت بكم في شهر رجب ذكرى الإسراء والمعراج ، وأعادت هذه الذكرى إلى نفوسكم مالقيه رسولكم الكريم ﷺ من شدة وعنت ، ثم مالقيه ثانياً من نصر وعز وتكريم .

ومرت بكم في هذا الشهر شهر شعبان ليلة النصف منه التي تذكركم بالتوبة من الذنوب والإكثار من الدعاء ، والالتجاء إلى العلي القدير ، ليصرف الشدائد ، ويفرج الكروب ، ويقبل التائبين ، ويغفر للنادمين .

وها أنتم الآن على مقربة من شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن .

أيها المسلمون : إن هذه المواسم محطات في عمر الإنسان ، توقظ الهمم ، وتجدد النشاط ، فينبعث المؤمن لإصلاح الفاسد ، وتقويم المعوج ، والسير فيما يستقبل من الزمن بعزم وتصميم ، على كل ما يرضي مولاه ، ويزيد في قواه ضد عداه ، وبذلك يولد ولادة جديدة ، ويبدأ حياة سعيدة .

أخي المؤمن : ربما حاسبت نفسك ، ونظرت في ماضيك ، فإذا وجدت نفسك غارقة بالآثام ، ورأيت أعمالك لا تبشر بسلام فلا تيأس ، ولا تقنط ؛ فإن لك رباً رحيماً ، يغفر الذنوب ، ويقبل التائبين ، ويعفو عن السيئات ، فما عليك إلا أن تلجأ إليه ، وتقبل عليه ، لترى عظيم كرمه ، وسعة مغفرته ، ألم تسمع قوله سبحانه : ﴿ قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم ﴾ [الزمر : ٥٣/٣٩] . ألم تسمع طمأنته لك في الحديث القدسي حيث يقول : « يا ابن آدم إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على كل ما كان منك ولا أبالي ، يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك ولا أبالي .. » . ألم تعلم قول الرسول : « إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ،ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل ، حتى تطلع الشمس من مغربها » .

أيها المسلمون : إن التوبة لا تعني الضراعة باللسان ، والتذلل من غير دليل أو برهان . فحتى تكون التوبة صادقة فإنه لا بد معها من العمل الصالح ، وقوة اليقين . قال تعالى : ﴿ وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى ﴾ [طه : ٨٢/٢٠] .

أيها المسلمون : إن العمل الصالح الذي سمعتموه في الآية الكريمة لا يقف عند لون معين من صلاة أو حج أو زكاة ، فحسن الخلق عمل صالح يكفر الخطايا ، والجهاد في سبيل الله ومصابرة الأعداء في ميادين الدفاع والكفاح يمحو الذنوب

ويرفع الدرجات ، والصبر على الشدائد والنوائب مذهب للسيئات ، وتربية الأبناء على الفضيلة والخلق الكريم له أعظم المثوبة عند الله عز وجل ، وهو كذلك يشيد صرح الأمة ، ويعزز مستقبلها ، ويرفع من شأنها ، وهكذا كل عمل يعود بالخير والمصلحة على نفسك وعلى أمتك هو عمل صالح مستوجب لمغفرة الله ورضوانه .

أخي المؤمن : إنك حينما تألف عمل الخير ، وتستمسك بحبل الله فإن الشيطان لن يقوى عليك ، وإن نفسك الأمّارة لن تخدعك ، لأن الحسنات يذهبن السيئات ، فقد قال تعالى : ﴿ وأقم الصلاة طرفي النهار وزلفاً من الليل إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين ، واصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين ﴾ [هود : ١١/ ١١٤ - ١١٥] .

وقال رسول الله ﷺ : « اتق الله حيثما كنت ، وأتبع السيئة الحسنة تمحها ، وخالق الناس بخلق حسن » . وما أجمل هذا التصوير الذي صوره لنا النبي الكريم عليه الصلاة والسلام لانسلاخ المؤمن من ذنوبه ، حين يعمل الخير ، ويكثر من البر . فعن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن مثل الذي يعمل السيئات ثم يعمل الحسنات كمثل رجل كانت عليه درع ضيقة قد خنقته ، ثم عمل حسنة ، فانفكت حلقة ، ثم عمل حسنة أخرى فانفكت حلقة حتى يخرج إلى الأرض » .

أخي المؤمن : إن مما يعينك على طاعة الله ، ويقربك من رضاه أن تذكر نعمة الله عليك وإحسانه إليك ، حينئذ تخجل من نفسك أن تبارزه بالعصيان ، وتستخدم نعمه فيما يغضبه ، وأنت تعلم أنه تعالى قادر أن يحرمك منها ، وينزعها منك ، فاتق الله ، أيها المؤمن ، واعلم أن الناقد بصير وأنه : ﴿ ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا ﴾ [المجادلة : ٥٨/٧] .

أيها المؤمن : إن عنوان إيمانك ، وعلامة خشيتك من ربك أن تتصف بصفات المؤمنين ، التي أشار إليها القرآن الكريم بقوله تعالى : ﴿ إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون ، الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون ، أولئك هم المؤمنون حقاً لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم ﴾ [الأنفال : ٨/ ٢ ـ ٤] .

وحيث يكون المؤمن بهذه الصفات فإن الله سيكون معه بالعون والنصر والتأييد وسيمنحه من الصبر والثبات ما به يقهر أعداءه ويكبح عوامل الشر في نفسه وإن الإنسان بغير معونة الله له وتوفيقه إياه لا يمكن أن يصل إلى خير أو يمتنع عن ردى .

أيها المسلمون : إن سلفنا الصالح قد خلفوا لنا أروع الأمثلة وأعلاها ، في الورع والتقوى ومحاسبة النفس في الأمور الخاصة والعامة ، بل كانوا يوقنون أن تقوى الله تعالى هي خير معين لهم في أزماتهم وشدائدهم .

يروي لنا التاريخ أن القائد العظيم قتيبة بن مسلم فاتح الشرق ، تكاثرت عليه جموع الأعداء حينما توغل في بلادهم ورأى نفسه وجنده كأنهم أحيط بهم ، ووقعوا في حصار شديد ، فجمع القائد رؤساء الجيش وقادة الكتائب وبدأ يستشيرهم في الأمور ليجدوا مخرجاً من هذا الضيق ، ومنجاة من هذا المأزق ، وجعلوا يرسمون الخطة التي يرون أن فيها النجاة والتغلب على الأعداء ، وذكر القائد أن من أهم دعائم النجاة وأوثقها اللجوء إلى الله القادر على كل شيء ، فطلب القائد أحد جنوده المتقين ليجعله وسيلته إلى الله في دعائه وتضرعه ، وهذا الجندي هو محمد بن واسع الجندي التقي المجاهد في جيش قتيبة بن مسلم ، فلما فتشوا عنه وجدوه في ناحية يضرع إلى الله ويدعوه ويرفع إصبعه نحو السماء ، فرجعوا فأخبروا القائد بالحالة التي وجدوه عليها ، فاستبشر القائد وفرح وقال : أبشروا فقد نصرتم ،

والله لهذه الإصبع أحب إليَّ من مئة ألف سيف شهير ، وسنان طرير . وفعلاً فقد نصروا ، ورد الله كيد أعدائهم في نحورهم .

وكان يونس بن عبيد أحد التجار المشهورين بالصدق والأمانة فذهب في يوم جمعة إلى المسجد وترك ابن أخيه الصغير في دكانه وأعلمه بأسعار الأثواب التي يبيعها ، ولما عاد من صلاته وجده قد باع نوعاً من الأثواب بعشرة وسعره خمسة ، فقال له : أما أعلمتك أن هذا سعره خمسة فلم بعته بعشرة ؟ قال الغلام الصغير : إن المشتري قد رضيه بهذا السعر واستحسنه . فقال له : هلا رضيت له ما ترضاه لنفسك ؟ أما علمت أن من غش خرج من دائرة الإسلام ، أما اتقيت الله ، أما استحييت ؟ وجعل يكرر ذلك على الغلام ويشدد عليه ويؤنبه حتى أعطاه عهداً وثيقاً ألاَّ يعود إلى مثلها أبداً .

وهل اكتفى يونس بن عبيد التاجر الصدوق بهذا ؟ كلا ، بل ذهب يفتش في الأسواق والطرقات عن المشتري حتى وجده ودفع له الفرق ، وطلب منه المسامحة واعتذر إليه عما فعله الغلام .

أيها المسلمون : وإليكم هذه الحادثة الفريدة من عمل النساء العربيات المسلمات ، التي تدل بوضوح على مشاركتهن في عمل الخير ، ورغبتهن في ثواب الله .

روى عبد الله بن الزبير رضي الله عنه أنه بعث إلى خالته عائشة رضي الله عنها بثمانين ومئة ألف درهم ، فلما وصلها المبلغ أحضرت جاريتها ، وجعلت تتفقد الفقراء والمحتاجين وتبعث لهم من هذا المبلغ حتى نفد كله ولم يبق منه درهم واحد ، وأمسى المساء ، وكانت السيدة العربية المؤمنة صائمة ، فقالت لجاريتها هاتي فطوري ، فقالت الجارية : لو أبقيت لنا درهماً لاشترينا به لحماً نفطر عليه . فقالت : لو ذكَّرتني لفعلت !

أيها المسلمون : هـذه لمحـات خـاطفـة من سيرة أسلافنـا ، ومحـاسبتهم أنفسهم ورغبتهم في عمـل الخير ، ومشـاركتهم الـوجـدانيـة ، رغبـة فيما عنـد الله من حسن المثوبة وجزيل العطاء .

أيها المسلمون : إن الأمة التي أعزها الله بالإسلام لتجد لزاماً عليهـا الاعتصـام بمبادئه ، والخضوع لأحكامه ، وبذلـك تكفل سعـادتهـا ، وتجـدد سيرتهـا ، وتـدفع نهضتها إلى الأمام .

☆ ☆ ☆

دَلاَئِلُ قُدْرَةِ اللهِ عز وجلّ

قال تعالى : ﴿ ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ، ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ، ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة ، فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العظام لحماً ، ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين ، ثم إنكم بعد ذلك لميتون ، ثم إنكم يوم القيامة تبعثون ﴾ [المؤمنون : ١٢/٢٣ ـ ١٦] .

أيها المسلمون : آية محكمة من كتاب الله تلفت نظر الإنسان ، إلى عظيم قدرة الله ، وبديع صنعه ، ودقيق حكمته ليستدل بها الإنسان الجاحد ، على وجود الخالق الواحد ، وهذه الآية الكريمة من آلاف الأدلة التي تبرهن على وجود الصانع الحكيم ، والخالق العظيم ، الذي عنت الوجوه لعظمته ، وخضعت النفوس لحكمته ، ولقد أحسن من قال :

فيا عجباً كيف يُعصى الإله … أم كيف يجحده الجاحد

وفي كل شيء له آية … تدل على أنه الواحد

أيها الإنسان : يذكرك الخالق العظيم بهذه الآية الكريمة على تسعة أطوار تقلبت بها في أصل نشأتك : طين ، نطفة ، علقة ، مضغة ، عظام ، لحم ، بشر سوي بعد نفخ الروح ، موت ، بعث وحساب .

أيها الإنسان : من قلبك بهذه الأطوار ؟ ومن درجك بهذا الترتيب ؟ ومن أوجدك بهذا الخلق العجيب ؟ إنه الله ، إنه القادر ، إنه العظيم ، إنه الموجود ، إنه المحيي ، إنه المميت ، إنه القاهر فوق عباده وهو على كل شيء قدير .

وبعد هذه المرحلة الأولى من مراحل تكوينك ، ذكرك خالقك بمرحلة ثانية ، فقال عز من قائل : ﴿ الله الذي خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ، ثم جعل من بعد قوة ضعفاً وشيبة ﴾ [الروم : ٥٤/٣٠] .

وحينما أبرزك للوجود بقدرته ، تفضل عليك بعظيم نعمته ، وشملك بواسع رحمته ، فخلقو لك ما في الأرض من هذه النعم التي لا تعد ولا تحصى ، والتي تشاهدها بعينك في كل لحظة من لحظات حياتك ، والتي ذكرك ببعضها في قوله عز وجل : ﴿ الله الذي جعل لكم الأرض قراراً ، والسماء بناءً وصوركم فأحسن صوركم ورزقكم من الطيبات ذلكم الله ربكم فتبارك الله رب العالمين ، هو الحي لا إله إلا هو فادعوه مخلصين له الدين ﴾ [غافر : ٤٠/٦٤ - ٦٥] . وفي قوله تعالى : ﴿ ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق وما كنا عن الخلق غافلين ، وأنزلنا من السماء ماءً بقدر فأسكناه في الأرض وإنا على ذهاب به لقادرون ﴾ [المؤمنون : ٢٣/١٧ - ١٨] أي : سبع سموات لأنها من طرق الملائكة .

أيها المؤمن : إليك حديثاً صحيحاً عن نبيك الصادق يفسر هذه الآية ويوضحها :

روى الشيخان عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال : « إن الله عز وجل أنزل من الجنة خمسة أنهار ، سيحون ، وجيحون ، ودجلة ، والفرات ، والنيل ، أنزلها الله عز وجل من عين واحدة من عيون الجنة من أسفل درجة من درجاتها على جناحي جبريل ، استودعها الجبال ، وأجراها في الأرض ، وجعل فيها منافع للناس ، فذلك قوله تعالى : ﴿ وأنزلنا من السماء ماء بقدر فأسكناه في الأرض ﴾ [المؤمنون : ٢٣/١٨] . فإذا كان عند خروج يأجوج ومأجوج ؛ أرسل الله عز وجل جبريل فرفع من الأرض القرآن والعلم كله ، والحجر الأسود من ركن البيت ، ومقام إبراهيم ، وتابوت موسى بما فيه ، وهذه الأنهار الخمسة ، فيرفع ذلك إلى السماء ، فذلك قوله تعالى : ﴿ وإنا على ذهاب به لقادرون ﴾ [المؤمنون : ٢٣/١٨] . فإذا رفعت هذه الأشياء كلها من الأرض فقد أهلها خير الدنيا والدين .

أيها الإنسان : لقد أمرك خالقك العظيم أن تنظر فيما خلق الله لك من هذه النعم لتشكره ولا تكفره ، وتذكره ولا تنساه . قال عز وجل : ﴿ فلينظر

الإنسان إلى طعامه ، أنا صببنا الماء صباً ، ثم شققنا الأرض شقاً ، فأنبتنا فيها حباً ، وعنباً وقضباً ، وزيتوناً ونخلاً ، وحدائق غلباً ، وفاكهة وأبّاً ، متاعاً لكم ولأنعامكم ﴾ [عبس : ٢٤/٨ ـ ٣٢] .

أيها الإنسان لا يفتنك الجاحدون ، ولا يصدنك عن آيات الله الملحدون ، إن هذا الخلق السوي الذي تكونت منه ، فبرزت للوجود في أحسن تقويم ، لا يمكن أن يكون مصادفة ، ولا يمكن أن يكون من غير حكيم عليم قادر بل وهو الله اللطيف الخبير .

أيها الإنسان : تأمل في عينك التي تبصر بها ، من جعل لها هذه الطبقات المختلفة في الشكل والتركيب ، من الذي جعل لها هذه الصيانة فحاطها بتلك العظام الصلبة ، وهذا الغطاء الذي يشمل الجفن والهدب وفوق ذلك الحاجب الأعلى إلى آخر ما هنالك مما يطول شرحه ، وقد حيَّر الأطباء ترتيبه وتركيبه .

أيها الإنسان : ماذا يكون الحال لو كانت هذه العين في الرجل أو في الخلف مثلاً ؟ أيها الإنسان : من صنع لك الفم وجعل فيه الأسنان والأضراس مشكلة بأشكال مختلفة لحكمة جليلة ، وجعل لك الشفتين غطاء لفمك وجمالاً لوجهك ؟ من الذي خلق لك هذه النبعة اللطيفة تحت لسانك والتي تسمى الريق ؟ وركبها من العناصر التي تسهل حركة اللسان ، وتفيد في هضم الطعام ؟ من الذي جعل لك في حلقك منفذين : منفذاً للشراب والطعام ، ومنفذاً للنفس ، ثم جعل لك غطاء يغطي مجرى النفس عند البلع كيلا تدخل اللقمة في مجرى النفس فتموت ؟ من الذي جعل لك اللسان الذي لا تحصى عجائبه ؟ ولا تعد فوائده ، بل من هداك منذ أن هبطت إلى الأرض في حال ولادتك إلى ثديي أمك ، فأقبلت عليهما بشغف ونهم تمتصها وترضع الحليب الذي خلقه لك منها ؟ من خلق كل ذلك ومن رتبه ونظمه ؟ إنه الله خالق كل شيء وهو على كل شيء قدير . إنه الله الذي

يقول للإنسان الجاحد الغافل يقول له منذراً ومذكراً : ﴿ لقد خلقنا الإنسان في كبد ، أيحسب أن لن يقدر عليه أحد ، يقول : أهلكت مالاً لبداً ، أيحسب أن لم يره أحد ، ألم نجعل له عينين ، ولساناً وشفتين ، وهديناه النجدين ﴾ [البلد : ٩٠/٤ ـ ١٠] . ﴿ قتل الإنسان ما أكفره ، من أي شيء خلقه ، من نطفة خلقه فقدره ، ثم السبيل يسّره ، ثم أماته فأقبره ، ثم إذا شاء أنشره ﴾ [عبس : ٨٠/١٧ ـ ٢٢] .

أيها الإنسان : إنه لجدير بك أمام هذه الدلائل الواضحة والبراهين الساطعة أن تستعمل عقلك وتستنهض فكرك ، وتؤمن بربك ، وتخضع لجلاله ، وتذل لعظمته ، وتطلب منه الرحمة والمغفرة والإحسان . إنه لجدير بك أن تقرأ كتاب الله متأملاً متدبراً في آياته الحكيمة التي ترشدك إلى السبيل الأقوم والنهج المحكم . وأن تقتدي برسولك الكريم ﷺ الذي كان يتأمل في آيات ربه ويرشد إلى ما فيها من عظات وعبر .

عن عطاء قال : انطلقت يوماً أنا وعبيد بن عمير إلى عائشة رضي الله عنها ، فكلمتنا وبيننا وبينها حجاب ، فقالت : « يا عبيد ما يمنعك من زيارتنا ؟ قال : قول رسول الله ﷺ : « زُر غِبّاً تَزْددْ حباً » . قال ابن عمير : فأخبرينا بأعجب شيء رأيته من رسول الله ﷺ ؟ قال : فبكت وقالت : كل أمره كان عجباً . أتاني في ليلة حتى مسّ جلده جلدي ، ثم قال : « ذريني أتعبد لربي عز وجل » فقام إلى القربة فتوضأ منها ، ثم قام يصلي ، فبكى حتى بلَّ لحيته ، ثم سجد حتى بلَّ الأرض ، ثم اضطجع على جنبه حتى أتى بلال يؤذن بصلاة الصبح ، فقال : يا رسول الله ما يبكيك ؟ وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر . فقال : ويحك يا بلال ، وما يمنعني أن أبكي وقد أنزل الله علي في هذه الليلة : ﴿ إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب ﴾ [آل عمران : ٣/١٩٠] . ثم قال : ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها .

أيها المؤمن : هاك دليلاً آخر من آلاف الأدلة التي تثبت قدرة الله وعظمته وحكمته ، استمع إلى قوله تعالى : ﴿ وإن لكم في الأنعام لعبرة نسقيكم مما في بطونه من بين فرث ودم لبناً خالصاً سائغاً للشاربين ﴾ [النحل : ١٦/٦٦] .

تأمل أيها الإنسان وتفكر جيداً في هذه الآية الكريمة ، التي تبين مراحل استخلاص الحليب في بطن الحيوان ، فهو يخرج من بين الفرث أولاً ، ثم من بين الدم ثانياً ، ثم إلى أثداء الحيوان التي تستخلصه من الدم ، حيث يخرج منها لبناً خالصاً سائغاً للشاربين ، ليس فيه شيء من الفرث أو الدم .

إن العلم الحديث اعترف تماماً بما دلت عليه الآية الكريمة : يقول العلم الآن : إن الحيوان يدفع إلى معدته أنواع العلف التي يأكلها ، وتهضمها معدته ، وتتحول إلى مستحلب تمتص جدر الأمعاء الغذاء منه ، وتبقى البقايا التي هي (الفرث) ، وتوصل زغيبات الأمعاء الغذاء الممتص إلى الدم ، ثم تستخلص الأثداء من المواد الغذائية التي خرجت من الأمعاء ، وألقيت في الدم مادة ، وتجمعها في جيوبها ، ليخرجها الإنسان بعد ذلك من هذه الأثداء .

وهكذا كلما تقلب الزمن ، وتقدم العلم ، تظهر معجزة القرآن الكريم ، وتحقق دلالاته ، وتنكشف آياته .

أيها الإنسان : أية قدرة هذه التي صنعت هذا المعمل في جوف الحيوان ، وحولت الغذاء المختلف الألوان والأشكال إلى حليب سائل أبيض ناصع ، لذيذ الطعم جميل الشكل ، وافر الغذاء ؟!

إنه الله القادر ، إنه الله الحكيم ، إنه الله البديع الصنع ، إنه الله الذي إذا أراد شيئاً قال له : ﴿ كن فيكون ﴾ [البقرة : ٢/١١٧ ، ومواضع أخرى] .

أيها المؤمن : إن هذه الآية الكريمة دلت أولاً على عظمة الله وقدرته

وبديع صنعه ، ودلت ثانياً على أن هذا القرآن من عند الله ، وليس من عند محمد ﷺ ، كما يدعي المعاندون والمكابرون إذ أن محمداً ﷺ لم يكن يعلم عمليات الهضم والامتصاص ، وإلقاء الغذاء في الدم ، ثم تركيب الأثداء للحليب من الأغذية الممتصة من الأمعاء ، إن هذه العملية الدقيقة لم تكشف إلا منذ مدة يسيرة ، بعد أن نضج علم الفيزيولوجيا ، والتشريح ، والمخابر ، والمجاهر ، إلى ما هنالك من وسائل العلم الحديث .

ولا يصح أن يقول قائل : إن هذا قد يدرك بالفكرة الفذة ، والذكاء الخارق ، لأن مثل هذه العمليات الدقيقة لا تتعلق بدرجة الذكاء ، إنما تتعلق بمهنة الطب ، ووجود الأدوات اللازمة ، والمخابر الكافية ، لمراقبة هذه العمليات الدقيقة ، فتبين أن هذا القرآن من عند عالم وبدقة متناهية بالكون وما يجري فيه ألا وهو الله الواحد .

أيها الإنسان : هذه لقطات خاطفة من آلاف الأدلة على وجود الله وعظمته وقدرته وبديع حكمته ، فهل يشك بعد ذلك كله عاقل في إعادة الخلق بعد موتهم ، وبعثهم من قبورهم ، ومثولهم بين يدي ربهم للحساب والجزاء ؟!

إن كان هناك من يشك في هذا ويرتاب ، فقد أقيم عدد من الأدلة القاطعة ، والبراهين الناصعة في محكم الكتاب . منها قوله تعالى : ﴿ وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه ، قال : من يحيي العظام وهي رميم ، قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم ﴾ [يس : ٣٦/٧٨ - ٧٩] . هذا الدليل الذي قال فيه أبو نصر الفارابي - وهو من أكبر فلاسفة العالم - : كنت أشتهي أن يطلع أرسطاطاليس على ذلك القياس الجلي ، وهو قوله تعالى : ﴿ قل يحييها الذي أنشأها أول مرة ﴾ [يس : ٣٦/٧٩] . والقياس الذي أشار إليه هذا الفيلسوف : هو أن الله أنشأ الخلق أول مرة ، وكل من أنشأ شيئاً فهو قادر على إعادته ، بل هو أهون عليه .

أخرج البخـاري في صحيحـه عن أبي هريرة رضي الله عنـه ، أن رسـول الله ﷺ قال : « قال رجل لم يعمل خيراً قط ، فإذا مات فحرقوه ، وأذروا نصفه في البر ، ونصفه في البحر ، فوالله لئن قدر الله عليه ليعذبنه عذاباً شـديـداً ، فـأمر الله البحر فجمع ما فيه ، وأمر البر فجمع ما فيه ، ثم قـال : لم فعلت ؟ قـال : من خشيتك وأنت أعلم فغفر له » .

العِلْمُ وَالتَّعَلُّمْ وَمَحو الأُمِيَة

قال تعالى في كتابه العزيز : ﴿ اقرأ باسم ربك الـذي خلق ، خلق الإنسـان من علق ، اقرأ وربك الأكرم ، الذي علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم ﴾ [العلق : ١/٩٦ ـ ٥] .

أيها المسلمون : إن دين الإسلام دين الحق والعدل ، دين الإخاء والتعـاون ، دين المحبـة والتعـاطف ، دين العزة والقوة ، ثم هو ، إلى ذلـك كلـه دين الحضـارة والرقي والتقدم .

إنه الدين الذي يدفع المؤمن دائماً وأبـداً إلى أن يكون في المقـدمـة ، في الأوج في كل مجال من مجالات الدنيا والآخرة .

إنـه الـدين الحق الـذي رسم للإنسـان المنهـاج الصحيح ، والصراط المستقيم ، الـذي يسمو بـه إلى درجـات الكمـال . ولا شـك أن الإنسـان متى اتبع هـذا المنهج القويم ، الذي جاء به الرسول الكريم عليـه الصلاة والسلام ، يصبح إنسـانـاً كاملاً قوياً له عزته وكرامته وصدق الله العظيم إذ يقول : ﴿ إن هـذا القرآن يهـدي للتي هي أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصـالحـات أن لهم أجراً كبيراً وأن الـذين لا يؤمنون بالآخرة أعتدنا لهم عذاباً أليماً ﴾ [الإسراء : ٩/١٧ ـ ١٠] .

أيهـا المسلمون : إنني أريـد أن أتحـدث إليكم من نـاحيـة واحـدة من النواحي البارزة في تعاليم الإسلام ، وهي التي ترتكز عليهـا كل أسسـه وتوجيهـاتـه ، تلـك هي ناحية العلم والتعلم ومحو الأمية .

لقد اهتم الإسلام بهذه الناحية اهتماماً بالغاً ، وأولاها قسطـاً كبيراً من جهوده وإرشـاده ، ولا أدل على ذلـك من هـذا البـدء العظيم الـذي بـدأ بـه الـوحي على رسول الله ﷺ : فكان أول كلمة افتتح بها الوحي الإلهي هي كلمة ﴿ اقرأ ﴾ ، ثم

تتلوها كلمة القلم الذي هو واسطة العلم والتعلم ﴿ اقرأ باسم ربك الذي خلق ﴾ [العلق : ١/٩٦] .

إن بدء الوحي الكريم بالقراءة والتعليم والقلم لدلالة واضحة على أهمية العلم والعناية به والحض عليه . ثم تتابعت الآيات الكريمة بعد ذلك تؤكد هذا المعنى وتوضحه ، فيقول تعالى : ﴿ قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولوا الألباب ﴾ [الزمر : ٩/٣٩] . ويقول : ﴿ ...يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتو العلم درجات ﴾ [المجادلة ١١/٥٨] . ويقول سبحانه مبيناً رتبة أهل العلم وعلو منزلتهم : ﴿ شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم ﴾ [آل عمران : ١٨/٣] . ويقول جل من قائل داعياً إلى الرحلة في طلب العلم ، ولو في مكان بعيد : ﴿ فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون ﴾ [التوبة : ١٢٢/٩] . ويقول تعالى مرشداً نبيه الكريم ، وآمراً له بالاستكثار والازدياد من العلم : ﴿ وقل ربِّ زدني علماً ﴾ [طه : ١١٤/٢٠] . إلى غير ذلك من الآيات الكريمة التي تحض على العلم وتبين فضل العلماء .

وتمشياً مع هذه الآيات الكريمة جاءت أحاديث الرسول ﷺ شارحة وموضحة ومؤكدة ، فقد حض على طلب العلم وبيَّن منزلة العلماء فقال : « طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة » . وقال : « من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين » . وكما بيَّن منزلة العلماء بين منزلة طلاب العلم ، وما لهم من الأجر في طلبه ، فقال : « من غدا إلى المسجد لا يريد إلا أن يتعلم خيراً أو يعلمه كان له كأجر حاج تاماً حجه » . وقال عليه الصلاة والسلام : « ومن سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهَّل الله له به طريقاً إلى الجنة ، وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله ، يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم ، إلا نزلت عليهم السكينة ، وغشيتهم الرحمة ، وحفتهم الملائكة ، وذكرهم الله فيمن عنده » .

وقد حرص الرسول الله ﷺ على نشر العلم لتتسع المعارف ويعم الإشعاع فقال : « ليبلغ الشاهد الغائب ، ربّ مبلغ أوعى من سامع » . وقال : « نضَّر الله امرءاً سمع منا حديثاً فحفظه حتى يبلغه ، فربَّ مبلِّغ أحفظ له من سامع » .

وأوصى عليه الصلاة والسلام بطلاب العلم خيراً ، ورغب في تعليمهم والإحسان إليهم . وروى أبو هارون العبدي قال : « كنا إذا اتبعنا أبا سعيد الخدري قال : مرحباً بوصية رسول الله . فقلنا : وما وصية رسول الله ؟ قال : إنهم طلاب العلم سيأتونكم من أقطار الأرض ، فإذا جاؤوكم فالطفوا بهم ، وحدثوهم ، واستوصوا بهم خيراً » .

وقد كان المعلم الأكبر ﷺ يفتح صدره ، ويهيئ مجالسه لتلقي العلم عنه ، وكانت هذه المجالس في بادئ الأمر مقصورة على دار الأرقم حين كانت الدعوة إلى الإسلام سرية أول عهدها ، ثم انطلقت بعد ذلك ، فلم يكن التعليم محصوراً في مكان محدود ، ولا مقصوراً على مناسبات معينة ، فقد كان عليه الصلاة والسلام يستفتى في الطريق فيفتي ، ويسأل في المناسبات فيجيب ، ويبلغ الإسلام ، وينشر تعاليمه في كل فرصة تسنح لذلك ، وفي كل مكان يتسع لأصحابه وطلاب العلم .

عن أنس رضي الله عنه قال : كان أصحاب محمد ﷺ إذا صلوا الغداة قعدوا حلقاً حلقاً ، يقرؤون القرآن ، ويتعلمون الفرائض والسنن . وطبيعي بعد هذا أن يسألوا معلمهم ومرشدهم ورسولهم عما جهلوا ، وعما أشكل عليهم .

وقد علمنا الرسول الكريم ﷺ آداباً ينبغي مراعاتها في التعلم والتعليم .

فقد أثر عنه أنه قال : « لينوا لمن تعلّمون ، ولمن تعلمون منه » ، وكان هو مثلاً حياً في ذلك ، ليكون قدوة لأتباعه ، فكان مثال المربي المخلص ، والناصح الأمين ، والأب الرحيم ، بل أثر عنه أنه قال : « إنما أنا لكم مثل الوالد » .

لـذا فقـد كان حريصاً أن يفهم عليـه سـامعوه كل مـا يقول ، ويحفظـوا كل ما يتلوه عليهم ، فكان يتمهل في كلامه ولا يعجل .

عن السيدة عـائشـة أنـه عليـه الصلاة والسلام كان لا يسرد الكلام كسردكم ، ولكن كان إذ تكلم تكلم بكلام فصـل ، يحفظـه من سمعـه . وفي روايـة : إنمـا كان يتحدث حديثاً لو عدّه العادُّ لأحصاه . وكان يجيب السائل بأكثر مما سأله .

ومن الأساليب المفيـدة في التعليم أنـه كان لا يستمر في التعليم خشيـة السـآمـة والملل ، بل كان يلقي العلم بين وقت وآخر .

عن عبد الله بن مسعود قال : « كان رسول الله يتخولنا بـالموعظـة في الأيـام كراهة السآمة علينـا » . وهـذا السلوك الـذي سلكـه رسول الله ﷺ هو الطريق الذي تعتمده اليوم المؤسسات التربوية في مناهجها التعليمية .

ومن تحريضه ﷺ على العلم وترغيبه فيـه قولـه : « قليل العلم خير من كثير العبادة » ، رواه الطبراني ، ولا أدل على ذلك مما فعلـه ﷺ في أسرى بـدر ، فقـد جعل فداء الأسير أن يعلم عشرة القراءة والكتابة .

ولم يقتصر هذا النشاط والدعوة إلى العلم والتعلم على الرجال وحدهم ، بل كان الرجال والنساء في ذلك سواء .

« جاء نسوة فقلن : يا رسول الله ، غلبنا عليك الرجال ، أو ما نقـدر عليـك في مجلسك من الرجال . فاجعل لنا منك حظاً ، وواعدنا يوماً نأتيك فيـه . قـال موعدكن بيت فلان ، وحضر في الموعد وعلّمهن » .

وكان النساء يسألنه فيجيبهن عن أمور دينهن . قالت السيـدة عـائشـة رضي الله عنها : « نعم النساء نساء الأنصار ، لم يمنعهن الحيـاء أن يتفقهن في الـدين » . وكان منهن من دعيت خطيبة النساء لفصاحتها وبلاغتها .

وحين كان يدعو إلى التعلم والكتابة ، كان كذلك يرغب في تحسين الخط وزخرفته ، فقد أثر عنه أنه طلب (الشفاء) الصحابية الكاتبة لتعلم زوجه حفصة تحسين الخط وزخرفته .

أرأيتم - أيها الناس - كيف كانت دعوة الإسلام قوية وجادة إلى التعلم والتعليم ومحو الأمية ؟ وما ذلك إلا لأن العلم قوام الحياة ، وأساس النهضات ، وعماد الحضارات ، ووسيلة التقدم للأفراد والجماعات . والإسلام دين الحياة الصالح لكل عصر ومكان ، وهو دين ودنيا ، عبادة وحياة ، لا يقتصر على العبادة والزهادة وربط الإنسان بالعالم الآخر فحسب ، بل هو دين جامع يتغلغل في صميم الحياة ، ويضع القواعد التي تكفل السعادة للبشر على ظهر هذه الأرض ، ودستور الإسلام يعلن ذلك بصراحة ووضوح ، فيقول سبحانه وتعالى : ﴿ وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ﴾ [القصص : ٢٨/٧٧] .

إن الرسول عليه الصلاة والسلام أوجب على الأمة كافة أن تتخذ الوسائل الكافية لنشر العلم ومحو الأمية ، فحتم على العلماء أن يعلموا ولا يدخروا من العلم شيئاً ، وحتم على الناس أن يسعوا إلى العلماء ليتعلموا منهم .

خطب رسول الله ﷺ ذات يوم فأثنى على طوائف من المسلمين خيراً ، ثم قال : ما بال أقوام لا يفقهون جيرانهم ، ولا يعظونهم ، ولا ينبهونهم ؟! وما بال أقوام لا يتعلمون من جيرانهم ، ولا يتفقهون ، ولا يتعظون ؟! ثم يقسم رسول الله ويؤكد فيقول : « والله ليعلمن قوم جيرانهم ، ويعظونهم ، ويأمرونهم ، وينهونهم ، وليتعلمن قوم من جيرانهم ، ويتفقهون ، أو لأعاجلنهم بالعقوبة » .

والإسلام حين يرغب في العلم ويدعو إليه ، يدعو كذلك إلى تفهم ما يعلم ، ويحذر من الوقوع في الخطأ ومن الفتوى بغير علم ، يظهر لنا هذا فيما رواه

عبد الله بن عباس « أن رجلاً أصابه جرح في عهد الرسول ﷺ ، وأصابه احتلام ، فسأل أصحابه قائلاً : هل تجدون لي رخصة في التيمم ؟ فقالوا : ما نجد لك رخصة ، وأنت تقدر على الماء ! فاغتسل فمات ، فلما سئل رسول الله عن ذلك قال : « قتلوه قتلهم الله !! ألا سألوا إذا لم يعلموا ، فإنما شفاء العيّ السؤال ، إنما كان يكفيه أن يتيمم ، ويعصب على جرحه خرقة ، ثم يمسح عليها ويغسل جسده » .

وهذا يبين لنا أن خطر الجهل جسيم ، وعواقبه وخيمة ، لذلك كانت العبادة التي لم تكن على أساس من العلم من كتاب أو سنة لا خير فيها ، ولا قيمة لها عند الله عز وجل .

ومن هنا قال رسول الله ﷺ : « فقيه واحد أشد على الشيطان من ألف عابد » .

وإلى هذا يشير النبي الكريم ﷺ بقوله : « وإنما أنا قاسم والله يعطي » . رواه البخاري . ومعنى هذا أن الفهم الصحيح ، والفقه الكامل ، إنما هو من الله وحده ، فهو سبحانه الذي يجعل لكل مستمع نصيباً من الفقه والفهم بقدر استعداد فطرته ، وذكاء عقله ، وصفاء نفسه .

ومثل هذا العلم الناضج المخلص كمثل الزارع الخبير المجد ، يهيئ الأسباب ، ويعد الوسائل ، ويمهد المزرعة ، ثم ينذر الحب ، وينثره فيها بالتساوي والقسطاس ، ثم يسلم الأمر ، ويفوض العاقبة إلى الله الذي جعل لكل شي قدراً ، وخص من فضله من شاء بما شاء ، وهو العليم الحكيم .

أيها المسلمون : على هذا النهج النبوي الكريم سار الأصحاب ، والأتباع ، والسلف ، يوجهون النشء إلى التعليم ، لينشؤوا صالحين لأمتهم التي يعيشون بينها .

يقول مصعب بن الزبير لابنه : « تعلم العلم فإن يكن لـك مـال كان لـك جمـالاً ، وإن لم يكن لك مال كان لك مالاً » .

ويقول عبـد الملـك بن مروان لبنيـه : « يـابني تعلموا العلم فـإن كنتم سـادة فقتم ، وإن كنتم وسطاً سدتم ، وإن كنتم سوقة عشتم » .

هكذا كانوا حريصين على العلم يوصون به أبنـاءهم ، ويحضونهم على اكتسـابـه في كل حال من أحوالهم لأن الأمة التي لم تحظ بالعلم المثمر في كل ميدان من ميادين حياتها لا مكان لها بين الأمم .

أيها المسلمون ، أيها العرب : إن الإسلام يرفعكم بكلتا يديـه لتكونوا من بعـد كما كنتم من قبل خير أمـة أخرجت للنـاس فـاستجيبـوا لنـدائـه تفـوزوا وتسعـدوا وتهتدوا .

☆ ☆ ☆

كيفَ عَالَجَ الإسلاَمُ الفَقْرَ ؟

أيها المسلمون في كل مكان ، تعالوا نعش لحظات قصيرة في رياض الإسلام الزاهرة ، لنقتطف من تعاليمه المثلى ، ونرشف من معينه الذي لا ينضب .

تعالوا ننظر في بعض هذه التعاليم ، التي جاءت محققة لأعظم أماني البشر ، التي أنفق المصلحون والفلاسفة آلافاً من السنين ، وعجزوا عن الوصول إلى مثلها ، فجاء الإسلام بالدواء الناجع والحل الموفق .

وإن المشكلة الكبرى التي عالجها المصلحون منذ قرون ، هي كيف يسعد البشر وكيف يعيش الناس في هذه الحياة وادعين مطمئنين ؟

ومما لا شك فيه أنه ليس إلى الحياة الوادعة ، والعيش الرغيد إلا إذا قضي على أعداء الإنسان الثلاثة : الفقر والجهل والمرض .

فاسمعوا أيها المسلمون كيف عالج الإسلام هذه النواحي :

حارب الإسلام الفقر بالتشريع المتين الذي يشتمل على فريضة في الإنفاق ، وعلى إيقاظ الضمير . أما الفريضة فهي الزكاة التي جعلها الإسلام ركناً من أركان الدين ، ودعامة من دعائمه ، وكل مسلم لا يتم إسلامه إلا إذا أدى هذه الفريضة طيبة بها نفسه ، والزكاة قدر مخصوص في مال مخصوص يجب إخراجه في وقته المحدد له .

والامتناع عن أداة الزكاة شرك بالله وكفر بالآخرة ، قال تعالى :

﴿ ويل للمشركين ، الذين لا يؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم كافرون ﴾ [فصلت : ٤١/٦ ـ ٧] .

وأداء الزكاة سبب لنيل الرحمة من الله تعالى . قال تعـالى : ﴿ وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأطيعوا الرسول لعلكم ترحمون ﴾ [النور : ٢٤/٥٦] .

وقـد وعـد الله النصر من عنـده لمن يـؤدون هـذا الحـق ويقـومـون بـواجبهم للمجتمع ، فيستحقون التمكين لهم في الأرض . قال تعالى :

﴿ ولينصرنّ اللهُ من ينصره إن الله لقـوي عـزيـز ، الـذين إن مكنّـاهم في الأرض أقـاموا الصلاة وآتـوا الـزكاة وأمروا بـالمعروف ونهَـوا عن المنكر ﴾ [الحج : ٢٢/٤٠ ـ ٤١] .

وهنـا يجب أن نـلاحـظ أن الإسـلام دعـا كل مسلم لأن يكـون مليء اليـد ، موفور النعمة يستطيع إخراج الزكاة ليسهم في كل خير .

دعا إلى ذلك بصراحة ووضوح : إذ حض على العمل ورغب فيـه ، ونهى عن الكسل وحـذر منـه ، وأجـزل ثـواب العـاملين ورفـع من شـأنهم ، فقـال تعـالى : ﴿ وقُل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون ﴾ [التوبة : ٩/١٠٥] .

وفي هذا إغراء بتجويد العمل وإتقانه ، كما أن فيه تعظيمـاً للعـامل والعمل ، إذ جعلهما موضع النظر والترقب ، وقال تعالى : ﴿ فـامشوا في منـاكبهـا وكلوا من رزقه وإليه النشور ﴾ [الملك : ٦٧/١٥] . بل إن الإسلام أمر بالسعي فوراً بعـد أداء الصلاة المحتومـة فقـال : ﴿ يـا أيهـا الـذين آمنوا إذا نودي للصلاة من يـوم الجمعـة فـاسعَـوا إلى ذكر الله وذروا البيـع ذلـك خير لكم إن كنتم تعلمـون ، فـإذا قضيت الصـلاة فـانتشروا في الأرض وابتغـوا من فضـل الله واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون ﴾ [الجمعة : ٦٢/٩ ـ ١٠] . « وقد كان الرسول عليـه الصلاة والسلام جـالسـاً مع أصحـابـه فمر عليهم رجل طويل البنيـة مـوفـور النشـاط ، فجعـل الصحـابـة يتحدثون فيـه قـالوا يـا رسول الله لو كان هـذا في سبيل الله ، فقـال ﷺ إن كان خرج يسعى على ولـده صغـاراً فهـو في سبيـل الله ، وإن كان خرج يسعى على

أبوين شيخين كبيرين فهو في سبيل الله ، وإن كان خرج يسعى رياء ومفاخرة فهو في سبيل الشيطان » .

وإليكم حادثتين قاطعتين في الدلالة على روح الإسلام ، وأنه دين العمل والكسب لا دين البطالة والتواكل . عن أنس قال : « كنا مع النبي في سفر ، فمنا الصائم ومنا المفطر ، قال : فنزلنا منزلاً في يوم حار أكثرنا ظلاً صاحب الكساء ، فمنا من يتقي الشمس بيده ، قال فسقط الصوام وقام المفطرون فضربوا الأبنية وسقوا الركاب ، فقال الرسول ﷺ ذهب المفطرون اليوم بالأجر كله » .

« وذكر النبي رجل كثير العبادة ، فقال : من يقوم به ؟ قالوا : أخوه . قال : أخوه أعبد منه » .

ولم يكن ذلك من محمد عليه الصلاة والسلام استهانة بأمر الصوم والصلاة ، ولكن إدراكاً لحقيقة روح هذا الدين الذي يعمل للحياة ، كما يعمل للعقيدة ، فيمزج العقيدة بالحياة ، ولا يقف بها في معزل وجداني في عالم الضمير . بل لقد بلغ من تقديس الرسول ﷺ للعامل ، والإشارة إلى عظيم مكانته أن « قبّل يد عامل ظهر فيها آثار العمل وقال : هذه يد يحبها الله ورسوله » ، وقال عليه الصلاة والسلام : « من بات كالاً من عمل يده بات مغفوراً له » .. ويقول : « ما أكل أحد طعاماً قط خيراً من أن يأكل من عمل يده وإن نبي الله داود كان يأكل من عمل يده » .

ويقول : « اليد العليا خير من اليد السفلى » . وقد فهم المسلمون الأولون هذا « فقد روي أن إبراهيم بن أدهم ، وهو من أئمة التصوف ، اجتمع في مكة بشقيق البلخي الزاهد المشهور ، فقال له إبراهيم : ما بدو أمرك الذي بلغك هذا ؟ قال شقيق : سرت في بعض الفلوات يوماً ، فرأيت طائراً مكسور الجناحين في فلاة من الأرض ، فقلت : انظر من أين يرزق . فجلست حذاءه ، فإذا أنا بطائر قد

أقبل وفي منقاره جرادة فوضعها في منقار الطير المكسور الجناحين ، فقلت في نفسي يا نفس إن الذي قيض هذا الطائر الصحيح لهذا الطائر المكسور الجناحين في فلاة من الأرض هو قادر على أن يرزقني حيثما كنت ، فتركت الكسب واشتغلت بالعبادة ، فقال إبراهيم : يا شقيق ولم لا تكون أنت الطائر الصحيح الذي أطعم العليل حتى تكون أفضل منه ؟ أما سمعت عن النبي ﷺ أنه قال : « اليد العليا خير من اليد السفلى » .

هذه لمحة خاطفة في بيان الترغيب في العمل والحض عليه . ولا شك أن المسلم حين يرى هذه الدعوة إلى الكسب سيقبل عليه بكل جد ونشاط ، فإذا هو اكتسب المال من طريق المشروع جعله الإسلام حراً في ماله حراً في ملكيته ، ليس لأحد سلطة في أن يقتطع جزءاً من ماله قل أو كثر ، مادام قد أخرج حق الله فيه ، على أن الإسلام قد جعل إلى جانب الزكاة المفروضة بقوة القانون الصدقة الموكولة إلى ضمير الفرد ، بوحي الوجدان والشعور ، تحقيقاً للإخاء الإسلامي وتثبيتاً للترابط الإنساني .

فقد رغب الإسلام في البذل والإنفاق زيادة على الزكاة المفروضة ، فجعل الصدقة قرضاً لله تعالى نفسه ، مضمون الوفاء ، فقال تعالى : ﴿ من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له أضعافاً كثيرة والله يقبض ويبسط وإليه ترجعون ﴾ [البقرة : ٢/٢٤٥] . ووعد تعالى بأن الإنفاق تجارة رابحة فقال : ﴿ إن الذين يتلون كتاب الله وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية يرجون تجارة لن تبور ، ليوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله ﴾ [فاطر : ٢٩/٣٥ ـ ٣٠] . وقد جعل الإسلام منع الخير اعتداء وإثماً ، فقال تعالى : ﴿ ألقيا في جهنم كل كفار عنيد مناع للخير معتد مريب ﴾ [ق : ٢٤/٥٠] . وقال تعالى : ﴿ ولا تطع كل حلاّف مهين ، همّاز مشّاء بنميم ، مناع للخير معتد أثيم ﴾ [القلم : ١٠/٦٨ ـ ١٢] . والبر يؤدي إلى الجنة ويجتاز بالبار عقبة كؤوداً لا يقطعها ، وينجو من شدتها إلا

من له باع طويل في الإنفاق ، ويد سمحة في البذل . قال تعالى : ﴿ وما أدراك ما العقبة فكُّ رقبة ، أو إطعام في يوم ذي مسغبة ، يتيماً ذا مقربة ، أو مسكيناً ذا متربة ﴾ [البلد : ٩٠/١٢ ـ ١٦] .

والإسلام يدعو إلى التسرع في البر والإحسان قبل فوات الأوان . قال تعالى : ﴿ قل لعبادي الذين آمنوا يقيموا الصلاة وينفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلال ﴾ [إبراهيم : ١٤/٣١] .

وقال تعالى : ﴿ وأنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي أحَدَكُمُ الموتُ فيقول ربي لولا أخرتني إلى أجل قريب فأصدَّق وأكن من الصالحين ، ولن يؤخر الله نفساً إذا جاء أجلها ﴾ [المنافقون : ٦٣/١٠ ـ ١١] .

وقد توسع الإسلام في هذه الناحية ناحية البر والإحسان ، فلم يجعل البر مقصوراً على الأخوة الدينية ، بل جعلها عامة للمواطنين جميعاً عطفاً إنسانياً شاملاً ، فقال تعالى : ﴿ لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين ﴾ [الممتحنة : ٦٠/٨] .

ويقول الرسول عليه الصلاة والسلام : « لن تؤمنوا حتى ترحموا . قالوا يا رسول الله كلنا رحيم قال : إنه ليس برحمة أحدكم صاحبه . ولكن رحمة عامة الناس » .

بهذا وأمثاله ، أيها المؤمنون ، عالج الإسلام الفقر فأيقظ ضمير الفرد وأخذ بيده إلى مستوى رفيع من تحقيق العدالة والإخاء الإنساني ، وأرهف شعوره إرهافاً تشرف به الإنسانية في أعصارها جميعاً ، وتفخر به في الماضي والحاضر والمستقبل . وحين يقوم الإنسان بهذه الآداب الكريمة فإن له كرامته وحريته المصونة في نظر الإسلام والتي لا يجوز أن نستذل ، لأن هذا الإنسان مكرم عند الله ، مفضَّل على غيره من المخلوقات . قال تعالى : ﴿ ولقد كرَّمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر

ورزقنـاهم من الطيبـات وفضلنـاهم على كثير ممن خلقنـا تفضيـلاً ﴾ [الإسراء : ٧٠/١٧] .

أيهـا المسلمـون : كرم الله بني آدم بجنسهم لا بـأشخـاصهم ولا بعنـاصرهم ولا بقبـائلهم ولا بوظـائفهم ، ولا برتبهم ، فـالكرامـة للجميـع على سبيـل المسـاواة المطلقـة ، فكلهم لآدم وآدم من تراب . هـذه الكرامـة لـلإنسـان لا يجـوز أن تلمـز ولا أن يسخر منهـا أحـد ﴿ يـا أيهـا الـذين آمنـوا لا يسخر قـوم من قـوم عسى أن يكونـوا خيراً منهم ولا نسـاءٌ من نسـاءٍ عسى أن يكنَّ خيراً منهن ولا تلمـزوا أنفسكم ولا تنـابزوا بـالألقـاب بئس الاسم الفسـوق بعـد الإيمـان ومن لم يتب فـأولئـك هم الظالمون ﴾ [الحجرات : ١١/٤٩] .

وللناس جميعاً حرياتهم وحرماتهم التي لا يجوز انتهاكهـا ولا التعـدي عليهـا . قـال تعـالى : ﴿ يـا أيهـا الَّـذين آمنوا لا تـدخلوا بيوتـاً غير بيوتكم حتى تستـأنسوا وتسلِّمـوا على أهلهـا ذلكم خير لكم لعلكم تـذكرون ، فـإن لم تجـدوا فيهـا أحـداً فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم وإن قيل لكم ارجعوا فـارجعوا هو أزكى لكم ﴾ [النور : ٢٧/٢٤ ـ ٢٨] .

وقال تعـالى : ﴿ ولا تجسَّسوا ولا يغتب بعضكم بعضـاً ﴾ [الحجرات : ١٢/٤٩] . وهـذا النص الحكيم إشعـار لكل فرد بـأن لـه حرمـة لا يجـوز أن ينتهكهـا أحـد ، ولا تقلُّ حرمة إنسان عن حرمة آخر فهم فيها سواء .

هذا طرف من تعـاليم الإسلام الحنيف الـذي يقوم على حريـة الفرد واحترام دمه وماله وعرضه . يقول الرسول الكريم : « كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه » ، ويقول : « المسلم أخ المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره » .

أيها المسلمون : أرأيتم ديناً خيراً من هذا الـدين ؟ أرأيتم تشريعـاً أسمى وأمتن من هذا التشريع ؟

أيها المسلمون : يروي لنا التاريخ أن عبد الله بن عمرو بن العاص فاتح مصر وأميرها ضرب قبطياً بغير حق ، فشكاه إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، فاستحضره عمر بصورة مهينة ومكن القبطي من أن يقتصَّ منه ، ووجه لابن أمير مصر قولته الخالدة : « متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً ؟ » .

يا أيها المسلمون في كل مكان ، إن الله أنزل لنا كتاباً فيه هدايتنا ، وفيه تشريعنا وفيه عزتنا وقوتنا ، وفيه انتصارنا ، فمتى استمسكنا به فقد استمسكنا بعروة وثقى ترتفع بنا إلى أسمى درجات الكمال وتبوَّأنا مكانتنا اللائقة بنا في المجتمع البشري ، كما تبوأ ذلك أجدادنا من قبل .

وإن المسلمين الأولين لم يكن لهم هذه العظمة في التاريخ وهذا الدوي في الدنيا إلا بتمسكهم بكتاب الله وعملهم بمقتضاه ، وإن الضال متى أدمت قدميه وعورة الطريق ، وأنهكت قواه مشقة السفر فليس له مخلص إلا أن يعود إلى مصدره الأول الذي بدأ منه ، يسلك الجادة من جديد ، ولن يصلح أمر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها .

ولعل الفرصة تتاح لي مرة أخرى لأتحدث إليكم عن تنمية النواحي التي بها سعادة الجميع ، ولأبين لكم ما رسمه الإسلام لتحقيق رفاهية البشر .

مَحَبَّةُ النَّبِي مُحمد ﷺ

احتفل العالم الإسلامي بالأمس القريب بذكرى عزيزة على كل مسلم ، عظيمة في قلب كل مؤمن ، تلك هي ذكرى هجرة رسول الإنسانية ، ورحمة الخلق ، محمد عليه الصلاة والسلام .

وفي هذه الذكرى العزيزة ، إيحاءات ودروس وعبر . وما يليق بالمسلم أن تمر به هذه الذكرى دون أن يفكر بها ، ويستفيد منها ، فيتخذ من هداها نوراً مشعاً ينير له حوالك الظلم .

أيها المستمعون الكرام : توحي لنا هذه الذكرى بناحية لها أهميتها ، وجدير بنا أن نبحث فيها ، ونقف عندها ممعنين بالنظر والتأمل . هذه الناحية هي التي يفصح عنها هذا السؤال :

ما هو سر نجاح المؤمنين الأولين ؟ هذا النجاح الباهر الذي أكسبهم نصراً مؤزراً ، وذكراً خالداً ، وسعادة في الدارين ؟ وجعل لهم قصب السبق في كل نواحي الحياة السياسية والعسكرية والاجتماعية وغيرها ؟

ومهما أمعنا النظر لا نجدْ إلا جواباً واحداً هو حبهم الشديد لرسول الله ﷺ ، حباً حقيقياً تغلغل في نفوسهم ، واختلط بدمائهم ، فلا يمكن لأحد منهم أن يتخلى عنه حتى آخر لحظة من حياته ، هذا الحب الذي يتمثل واضحاً جلياً باتباع أوامره ، واجتناب نواهيه ، والتمسك بسنته ، والاهتداء بهديه والمحافظة بعد هذا كله على شريعته ، والدفاع عنها ، والاستماتة دونها ، تحقيقاً لهذا الحب وعملاً بقول الله عز وجل : ﴿ وما آتاكم الرسول فخذوه ، وما نهاكم عنه فانتهوا ﴾ [الحشر : ٥٩/٧] .

وهكذا فالمؤمن لا يكون كامل الإيمان ، ولا يجد له حلاوة ومتعة ، إلا إذا

كان الله ورسوله لهما عنده من الحب والإجلال والتعظيم ما لا يعادله شيء ، وهذا ما تطلبه الآية الكريمة بصراحة ووضوح : ﴿ قل إن آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارةٌ تخشون كسادها ومساكنٌ ترضونها ، أحبُّ إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين ﴾ [التوبة : ٢٤/٩] . ﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم ﴾ [آل عمران : ٣١/٣] .

بل هناك آيات كريمة تأمر المؤمن بإطاعة الرسول ﷺ ، والاستجابة لدعوته والنصح له ، تأمر بهذا كله بصراحة لا لبس فيها ولا غموض ، يقول تعالى في كتابه العزيز : ﴿ يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله ورسوله ولا تولوا عنه وأنتم تسمعون ﴾ [الأنفال : ٢٠/٨] أي لا تخالفوا أمره وأنتم تسمعون قوله وتزعمون أنكم منه . ﴿ ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون ﴾ [الأنفال : ٢١/٨] أي المنافقين الذين يظهرون الطاعة ، ويسرون المعصية . ﴿ إن شر الدواب عند الله الصمُّ البكم الذين لا يعقلون ﴾ [الأنفال : ٢٢/٨] أي المنافقون الذين نهيتكم أن تكونوا مثلهم : بكم عن الخير ، صم عن الحق ، لا يعرفون ما عليهم في ذلك من النقم والتبعة . ويقول تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه وأنه إليه تحشرون ﴾ [الأنفال : ٢٤/٨] . ويقول تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون ﴾ [الأنفال : ٢٧/٨] .

عرف المؤمنون الأولون هذه الآيات الكريمة وعقلوا ما تنطوي عليه من حض على اتباع النبي ﷺ ، ووعيد شديد لمن يخالف عن أمره ، فأحبوه بعد أن آمنوا برسالته ، وطبقوا فعلاً كل ما تتطلبه منهم الآيات التي تلوت على أسماعكم .

يقول الرسول ﷺ : « لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحبَّ إليه من والده وولده

والناس أجمعين ، فيقول عمر : لأنت يا رسول الله أحبُّ إلي من كل أولئك إلا من نفسي . فيجيبه الرسول : إنه لا يتم إيمانك حتى أكون أحبَّ إليك من نفسك . فيقول عمر : لأنت أحب إليَّ من نفسي يا رسول الله . فيقول الرسول ﷺ : الآن أي تم إيمانك » .

ولم يكن هذا الحب ادعاء ، بل كانت الحقائق والوقائع والحوادث تظهره كأقوى ما يكون وأصدق ما يكون . « هذا أبو بكر الصديق رضي الله عنه ، حينما هاجر مع النبي عليه الصلاة والسلام وأرادا دخول الغار ليختفيا عن أعين المشركين ، نظر أبو بكر في الغار فإذا فيه أجحار : أثقاب متعددة ، فخشي أن يخرج منها شيء يؤذي رسول الله ﷺ ، فصار يقطع ثوبه ويسد به الأجحار ، حتى نفِدَ ثوبه وبقي جحر واحد ، فجلس قريباً منه وسده بعقب رجله ، فجعلت الحيات والأفاعي تلسعه وهو يتجلد ويصبر حتى لا يوقظ النبي ﷺ . وكان قد نام وجعل رأسه في حجره ، فلما استيقظ الرسول ﷺ وعلم ما أصابه دعا له أن يكون معه في الجنة ، وقد استجيب له » .

وهذا أبو دجانة في معركة أحد يرى المشركين يتكاثرون على النبي ﷺ ، وينهالون عليه بنبالهم ، فيترَّس بنفسه دون رسول الله ﷺ ، أي يجعل جسمه كالترس يعرضه لتقع به نبال المشركين ، ويحنى ظهره على الرسول ﷺ كيلا يناله شيء من النبال .

وكذلك وقف سعد بن أبي وقاص إلى جانب النبي ﷺ يرمي بالنبل دونه ليدفع عنه المشركين .

وهذه أم عمارة الأنصارية خرجت في إحدى المعارك مع الجيش ومعها سقاء تدور به على المجاهدين تسقي منهم من به حاجة إلى الماء ، فلما انهزم المسلمون وبقي الرسول ﷺ في الميدان ومعه نفر قليل ، ألقت سقاها واستلت سيفاً ، وقامت تباشر القتال تذبُّ عن الرسول ﷺ بالسيف ، وترمي عن القوس حتى أثخنت بالجراح .

وهذا أنس بن النضر ، يقف في معركة أحد بعد أن أشيع أن محمداً قتل . يقف

أنس وينادي : يا أيها الناس ما تصنعون بالحياة بعد محمد ﷺ ؟ قوموا فموتوا على ما مات عليه ، ثم استقبل القوم فقاتل قتالاً شديداً ، وأبلى بلاء منقطع النظير حتى إنه لم يقتل إلا بعد أن ضرب سبعين ضربة في جسمه وحتى لم يعرفه أحد من كثرة الجراح إلا أخته عرفته ببنانه .

هذا من حيث الفداء والتضحية ، يفدونه بأنفسهم ودمائهم ، حتى يود أحدهم لو مات مئة مرة ولم يُشَك رسول الله ﷺ بشوكة ، ولم يصب بقليل من أذى .

أما حبهم له من حيث تنفيذ أوامره والعمل بشرعته ، فقد بلغوا في ذلك الغاية .

« هذا شاب من الشباب المؤمنين ينظر الرسول ﷺ إليه فيجد في أصبعه خاتماً من ذهب فينزعه الرسول ﷺ من يده ثم يرمي به في الأرض ويقول : يعمد أحدكم إلى جمرة من جهنم ، فيضعها في يده ، ثم يخرج الرسول ﷺ من المجلس فيقول بعض الناس للشاب : خذ خاتمك فانتفع به . أي بغير التختم ، فقال الشاب : لا والله لا آخذه بعد أن رماه الرسول عليه الصلاة والسلام » .

أرأيتم ، كيف تقبل الشاب عمل الرسول ﷺ بكل رضى واطمئنان ؟

وما أدري ماذا يكون موقف شبابنا اليوم لو أن أحداً من العلماء صنع معهم ما يشابه ذلك العمل ، أيتقبلون ذلك منه باعتباره شرعاً إسلامياً ، أم يتهمونه بالغلظة والجمود ؟

وبعد يا أيها السادة الكرام ، هل أحببتم رسول الله ﷺ ؟ وإذا كان الجواب نعم طبعاً ، فأين الدليل على حبه ؟ .

إن الدليل على حبه ، حب شريعته ، حب سنته ، حب أخلاقه ، طاعته في جميع ما يريد منا ، فبرهنوا على حبكم ، وأعلنوا حقيقة إيمانكم ، وتخلقوا بأخلاق نبيكم ﷺ ، يكن لكم ما كان لأسلافكم من نجاح باهر ونصر مبين ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

أَثَرُ العَقِيدةِ في حَيَاةِ الإنسَانِ

في حيـاة الأفراد ، كما في حيـاة الأمم ، فترات خـاصـة ، ترتفع فيهـا على نفسها ، وتسمو فيها على مألوفها فتأتي بالخوارق والمعجزات ، حتى إنك لتتـأمل فيما صنعه الأفراد ، وما قاموا به من إقـدام وتضحيـات ، فلا تكاد تصـدق ، ولا تـدري كيف تأتى لهم أن يأتوا بذلك العجب العُجاب .

ولكنـك حينمـا تفكر في الصبغـة الخـاصـة التي تفعلهـا العقيـدة الحقـة في الإنسان ، تجد أن ما أتى بـه الإنسـان من خوارق ومعجزات هو قليل بـالنسبـة لما تفرضه عليه هذه العقيدة التي امتزجت بقلبه ودمه . إذ أن صاحب العقيـدة يشعر بإشعاعات وطاقات عجيبة ، تتخطى اللـذائـذ والمنـافع الشخصيـة المنظورة ، إلى لذائذ ومنافع أخرى غير منظورة ، يساق إليها سوقاً بـدوافع خفيـة كامنـة ، يهون في سبيلها كل شيء .

والملاحظ في هذه الحياة العليا للأفراد ، أنهم يوجهون من قبل قيادة روحيـة سـاميـة ، قيـادة تهتف للجماهير والأفراد بنسيـان الـذات الفـانيـة ، والتضحيـة بالرغبات القريبة ، قيادة تدفع بهم نحو هدف أبعد ، وأفق أرفع ، وحياة أفضل .

وكلمـا بعـد الهـدف ، وسمت الغـايـة ، وطهرت الفكرة ، كانت الاستجـابـة أكبر ، والتلبية أسرع ، والصدى أبعد ، والامتداد أقوى .

لذلك فإننا نجد في حيـاة الرسول ﷺ ، وحيـاة صحبـه المؤمنين بعقيـدتـه ، مثلاً عليا ، تظهر لنا بوضوح كل ما أشرنا إليه في تمهيدنا القصير هذا .

هذا علي بن أبي طالب يـأتي بـأجل مـا عرف التـاريخ من المغـامرة في سبيل الحق والعقيدة ، في الليلة التي اعتزم الرسول ﷺ أن يهاجر فيهـا ، كان عـدد كبير من شبان قريش الأبطال يحاصرون داره مخافـة أن يفر ، وفي هـذا الظرف الخطر

أسرَّ النبي ﷺ إلى علي بن أبي طـالب رضي الله عنـه أن يتسجى برده الحضرمي الأخضر ، وأن ينام في فراشه ليوهم المحاصرين بأنه لا يزال في بيته وفي فراشه ، فلم يتردد علي في الاستجابة ، ولم تخفه هـذه السيوف المتلهفة إلى الـدمـاء ، ورقـد في فراش النبي عليه الصلاة والسلام كما أمره .

وقد شكر الله له تضحيته هذه وباهى به ملائكتـه ، فقـد ورد أن الله أوحى إلى جبريـل وميكائيـل أني آخيت بينكـا ، وجعلت عمر أحـدكما أطـول من الآخر فأيكما يؤثر صاحبه بالحياة ؟ فاختار كلاهمـا الحيـاة فـأوحى الله تعـالى إليهما أفلا كنتما مثل علي بن أبي طـالب ، آخيت بينـه وبين محمـد ﷺ فبـات على فراشـه ، يفديه بنفسه ، ويؤثره بالحياة ؟ اهبطا إلى الأرض فـاحفظـاه من عـدوه ، فكان جبريل عنـد رأسـه ، وميكائيل عنـد رجليـه ينـادي ويقول : بخٍ بخٍ من مثلـك يا ابن أبي طالب يباهي الله بك الملائكة . ثم نزل قوله عز وجل : ﴿ ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله والله رؤوف بالعباد ﴾ [البقرة : ٢٠٧/٢] أي يبيعها .

أيها المستمعون الكرام : إن من يحصل على هذه التزكية العظيمـة ، وعلى هـذه الشهادة العليا التي لم تأت من قبل رئيس جامعة ، أو عميد كلية ، إنمـا جـاءت من قبل مالك الملك ورب العالمين ، إن من يحصل على مثل هذه يجد نفسه ودمه وكل ما يملك في الحياة قليلاً ، رخيصاً تجاه ما جنى من مجد وعظمة وخلود

وفي غزوة خيبر اعتصم اليهود بآطامهم وحصونهم وصيـاصيهم ، وتـأخر الفتح على المسلمين . ويلتفت الرسول ﷺ إلى أصحابه المجـاهـدين ويقول لهم : لأعطين الرايـة غـداً رجلاً يحب الله ورسولـه ، ويحبـه الله ورسولـه ، وسيكون الفتـح على يديه ، ويستشرف لهذه الشهادة كل القوم ، ويقول أسماهم نفساً ، وأصفاهم خلقـاً : ما أحببت الرئاسـة إلا اليوم ، وينتظرون الغـد بفـارغ الصبر ، وإذا بـالرسول الكريم ﷺ يدفع الراية إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، ويمضي علي بالراية ، وقـد

شعر بخطر المهمة التي وكلت إليه ، ويدنو من الحصن الذي اعتصم به اليهود فيقاتل قتال البطل المستميت ، ويصطدم برجل من اليهود فيتلقى علي منه ضربة قاسية أطاحت بترسه إلى الأرض ، فيتناول علي باباً كان عند الحصن فيتّرس به ، فلم يزل يقاتل متترساً بالباب حتى فتح الحصن ، وقتل زعيم الحصن اليهودي الحارث ابن أبي زينب ، ثم جعل علي الباب قنطرة اجتاز المسلمون عليها إلى داخل أبنية الحصن ، وتم الفتح .

وهذا مصعب بن عمير رضي الله عنه ، يحمل لواء النبي ﷺ يوم أحد ، ويختل موقفه في ميدان القتال ، فيثبت فيه ، وتشتد صدمة قريش للمسلمين ، فينكشفون بسبب مخالفتهم أمر القائد العظيم ، ويتفرقون عن اللواء ، ولكن مصعباً أثبت قدمه في الأرض ، محتفظاً بلواء رسول الله ﷺ ، مدافعاً عنه جهد الاستطاعة ، ويقبل عليه فارس من فرسان قريش ، فيضرب يده بالسيف ، فيقطعها ويسقط اللواء ، فيسرع مصعب ويتناول اللواء بيده الأخرى ، ويرفعه عالياً ، ولكن فرسان قريش تتكاثر عليه ، ويضربه أحدهم على يده الأخرى فيقطعها ، ولكن قدم مصعب ثابتة ، لا يزول ولا يميل ، وما زال اللواء مرفوعاً يضم عليه عضديه ، ويغيظ ذلك فرسان قريش فيكرون على مصعب ، وينفذون رماحهم في صدره فيسقط ويسقط معه اللواء ، فيتلقى اللواء أخوه أبو الروم ، وما يزال لواء رسول الله ﷺ مرفوعاً حتى يبلغ المدينة .

ويرى النبي ﷺ مصعباً في ميدان القتال مضرجاً بدمه ، فيتلو قول الله عز وجل : ﴿ من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلاً ﴾ [الأحزاب : ٢٣/٣٣] . ثم يقول : « إن رسول الله يشهد أنكم الشهداء عند الله يوم القيامة » .

ويتأخر فتح مصر بزمن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فيرسل إليه القائد عمرو بن العاص رضي الله عنه ، يطلب منه أن يرسل إليه النجدة فأمده عمر

بأربعة آلاف رجل ، على كل ألف منهم قائد ، وكتب عمر إلى عمرو يقول :

« إني قد أمددتك بأربعة آلاف رجل ، منهم رجال الواحد مقام الألف : الزبير بن العوام ، والمقداد بن الأسود ، وعبادة بن الصامت ، ومسلمة بن مخلد رضي الله عنهم واعلم أن معك اثني عشر ألفاً ، ولا يغلب اثنا عشر ألفاً من قلة » .

أيها المستمعون الكرام : لمَ كان كل رجل من هؤلاء بمقام الألف ، ولمَ صابر مصعب هذه المصابرة ، ولمَ ضحى علي هذه التضحية ، ولمَ فعل كثير من غيرهم ما لا يقل عن فعلهم إقداماً وبسالة ؟

أليست هي العقيدة الصحيحة المشرفة ، والإيمان الراسخ الثابت ، جعلهم ينطلقون في الأرض كالشعلة في الهشيم ، تحيله ناراً ونوراً ، وتنهض بالبشرية وتنير لها الطريق ؟

وإذا العقيدة لامست قلب امرئٍ   كانت له في التضحيات روائع

أليست هي العقيدة ، جعلتهم يندفعون عبر الصحاري والجبال والبحار ، حتى وصلوا إلى سد الصين شرقاً ، وإلى بحر الظلمات غرباً ، في مثل لمح البصر بالقياس إلى عمر الدهر ؟.

أليست هي العقيدة ، ارتفعت بهم عن أوهام الحياة المادية المجسمة ، وعشقوا فكرة روحية مجردة ، وصار لقاء الله في سبيل مبادئه أحبَّ إليهم من لقاء أهلهم وأبنائهم ، ورغبوا في النعيم الموعود عن النعيم العاجل ؟

فيا أيها المسؤولون ، ويا قادة ، ويا جنود الحق ، ويا حماة الثغور ، إن دينكم أسمى دين ، وإن عقيدتكم أرسخ عقيدة ، وإن جندكم خير جند ، وإن بلدكم أقدس بلد ، فاحرصوا على مبادئكم ، واثبتوا على عقائدكم يكن لكم النصر على أعدائكم في كل مكان . ﴿ ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز ﴾ [الحج : ٢٢/٤٠] .

العَدْلُ في الإسلامِ

أشرقت شمس الإسـلام على الأمـة العربيـة ، وهي لا تكاد تسمى أمـة إلا على تساهل في التعبير ، وضرب من المجاز ، قبائل متنافرة ، ليس عندهم أثارة من دين وازع ، ولا سلطان رادع ، يعيشون عيش البداءة الأولى ، والجـاهليـة الجهلاء ، هم أبـداً على ترصـد وتحفز ، ومخـافـة ومحـاذرة ، لا تنتهي بينهم الغـارات ، ولا يرون العزة والكرامة والمجد إلا في العدوان والتظالم ، وفي الصيال وسفك الدماء .

فأي روح ذلك الروح الذي نفخ في هذه الأمة ، حتى أصبحت في استقامتهـا وهديها ، وخيرها وبرها ، وعدالتها وإحسانها ، وصلاحها وإصلاحهـا ، خير أمـة أخرجت للناس !.

أي روح ذلك الذي أحال أمـة تفـاخر بـالإثم والعـدوان ، وتعتز بـالفحشـاء والمنكر ، وتحيا على البـاطل وتموت في سبيلـه ، أحـالهـا إلى أمـة تتنزه عن صغـائر اللمم ، وتـدعو إلى الهـدايـة والاستقـامـة والفضيلـة ، وتقـدس الحـق وتجـاهـد في سبيله ، ثم يكون أبرز صفاتها ، وأسمى عقائدها ، وأحب شيء إلى زعمائها وقادتهـا إنما هو العـدل . نعم العـدل الـذي ملكت بـه في أقل زمن ، مـا بين مشرق الشمس ومغربها ، ثم هي لا تعيا بحمله ، ولا يَحِلُّ في دنياها الفسيحـة هـذه ظلم إلا اقتص به ، ولا يسلب حق إلا رد على صاحبه ، شعار خليفتها : « إذا عدلت فأيـدوني ، وإذا اعـوججت فقـومـوني ، أطيعـوني مـا أطعت الله ورسـولـه ، فـإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم » .

ولا عجب أن يقـول الخليفـة المسلم هـذا القـول ؛ لأنـه كان يـؤمن بـالقرآن ، ويعمل بهديه ، ويستنير بضيائه ، ولا يخفى على كل مسلم متبصر بـالقرآن الكريم تلك المكانة السامية للعدل ، أليس هو الذي يقول في محكم آياتـه : ﴿ ولاَ يَجرِمنَّكم شَنَـآن قومٍ على ألاَّ تعـدلوا اعـدلـو هُـو أقرب للتقـوى واتقُـوا اللهِ إنَّ الله خبيرٌ بمـا

تعملون ﴾ [المائدة : ٥/٨] . ويقول : ﴿ يَاأَيُّها الَّذين آمنُوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين ، إنْ يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا ﴾ [النساء : ٤/١٣٥] .

ويقول : ﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي ﴾ [النحل : ١٦/٩٠] .

فلا عجب أن يتقيد الخلفاء بهذه الآيات الكريمة ، ويطبقوا فعلاً ما تدعو إليه من العدل بين جميع أفراد الأمة على السواء . وقد بلغ من تأثير هذه الآيات والدعوة إلى العدل أن كان عامة الناس يقاضون الخلفاء والأمراء والقواد أمام قضاة المسلمين ، فلا يستنكف أحد من هؤلاء ، مهما عظم شأنه وامتد سلطانه ، أن يحضر مجلس القضاء ، ولا يستكبر أحد من هؤلاء أن ينفذ ما يلزمه به القضاء من حقوق .

ولقد ضرب المشرع الأول والزعيم الأول والقائد الأول محمد ﷺ ، ضرب لمن يأتي بعده من أفراد أمته ، ومن زعماء الدنيا ، وقادة الشعوب ، المثل الأعلى في تحقيق هذا المبدأ القرآني النبيل ، وفي تطبيق العدالة والمساواة بين جميع الأفراد .

روي أن امرأة من بني مخزوم سرقت ، فقالت قريش من يكلم فيها رسول الله ﷺ أي ليضع عنها الحد ، إذ أن قبيلة بني مخزوم شريفة عظيمة لها مكانتها بين العرب ، وإذا أقيم الحدُّ على هذه المرأة ، ربما عيَّرتهم العرب في ذلك . ومن يجترئ أن يكلم النبي ﷺ في مثل هذا الموضوع ؟ وتوسل القوم بأسامة بن زيد حِبِّ رسول الله أن يكلمه في هذا الشأن ، فكلم أسامة رسول الله .

ماذا كان من الرسول ﷺ ؟ إنه غضب . وبدا الغضب في وجهه ، ثم قال لأسامة يا أسامة أتشفع في حدّ من حدود الله ؟ ثم قام فخطب فقال : « يا أيها الناس ، إنما ضلَّ من كان قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإذا

سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحدّ ، وايم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها » .

أرأيتم يا أيها السامعون إلى هذه العدالة والمساواة بين الشرفاء والضعفاء في الحدود ؟ أرأيتم إلى بيان الرسول الكريم ﷺ ؟ إن التفرقة وعدم العدل كانت سبباً في ضلال الأمم السالفة .

وعلى هذا الأساس المتين من العدل والمساواة ، الذي وضعه رسول الإنسانية محمد عليه الصلاة والسلام ، سار خلفاؤه من بعده ، يحققون العدالة ، ويطبقونها فعلاً على الناس وعلى أنفسهم دون أي تفريق .

يروي لنا التاريخ أن جَبَلة بن الأيهم الغساني ، وكان من ملوك آل جفنة ، كتب إلى عمر رضي الله عنه يستأذنه في القدوم عليه ، فأذن له عمر ، وخرج إلى لقائه ، وأحسن استقباله ، وأدنى مجلسه ، ثم خرج عمر إلى الحج فخرج جَبَلة معه ، وبينما جبلة يطوف بالبيت الحرام إذ وطئ إزاره رجل أعرابي من بني فزاره ، فامتلأ قلب جبلة غيظاً ، ثم رفع يده ، ولطم الأعرابي على وجهه فهشم أنفه ، فاستعدى عليه عمر بن الخطاب ، أي شكا الأعرابي جبلة إلى عمر ، فبعث عمر إليه . فقال له : ما هذا ؟ قال : يا أمير المؤمنين إنه تعمد وطء ردائي ، ولولا حرمة الكعبة لضربت بين عينيه بالسيف ، فقال عمر : قد أقررت وحكم عليه بأن يقتص الأعرابي منه ، ويضربه كما ضربه ، فعظم الأمر على جبلة ، وقال : كيف ذلك يا أمير المؤمنين ، وأنا ملك وهو سوقه ؟ فقال عمر : إن الإسلام قد سوّى بينكما ، فلما رأى جبلة إصرار عمر على القصاص ، استمهل إلى الغد ، ثم فر ليلاً من وجه العدالة .

فأي عدل وراء هذا العدل ؟ وأية مساواة بعد هذه المساواة ؟ يحمل جبلة بن الأيهم الكبير عدم احترام الناس على لطم الأعرابي الذي لم يجن ذنباً

يؤاخذ عليه ، وينظر أمير المؤمنين في القضية ، فيأخذ بحق الضعيف وينصر المظلوم ، ولا يحابي رئيساً لرئاسته ، ولا يهمل فقيراً لفقره ، وينصف الأعرابي من ملك ، غير ناظر إلى ما هو فيه من جلال الملك ، وأبهة الحكم ، وقوة الحاشية .

وإليكم هذه الحادثة التي جرت مع عمر رضي الله عنه نفسه لتستدلوا منها على مبلغ إقامة الحق وتحقيق العدالة : ولي زيد بن ثابت القضاء في عهد عمر ، وعرضت عليه قضية بين عمر وبين أبيّ بن كعب ، وأقبلا إلى زيد بن ثابت ليحكم بينهما ، ولما رأى زيد بن ثابت أمير المؤمنين عمر ، قام من مجلسه وتخلى له عن أحسن مكان في حجرة القضاء ، فغضب عمر ، وقال : هذا أول جور في حكمك ، الواجب أن أجلس بجانب خصمي ، وألاّ أتميز عليه بشيء ، فأجلسه زيد بجوار أبيّ ، ونظر في قضيتهما ، ولما انتهى زيد من الحكم ، قال له عمر : يا زيد لا يكون القاضي عادلاً إلا إذا تساوى عنده الرئيس والمرؤوس .

وحادثة عمر رضي الله عنه مع المرأة مشهورة : حينما راجعته بأمر من الأمور ، وأتت إليه بدليلها القاطع من كتاب الله عز وجل ، فلم يستنكف عن الرجوع إلى الحق ، وأعلنها مدوية صريحة من فوق المنبر فقال : « أصابت امرأة وأخطأ عمر » .

فيا أيها الإخوة والأخوات : هذه مثل عليا من عمل المؤمنين الصادقين الذين استمسكوا بتعاليم دينهم ، واستنوا بسنة نبيهم ، فطبعهم الله على العدالة ، وصيرهم أكبر مثل للمساواة ، وجعلهم خير أمة أخرجت للناس .

وإليكم هذه الحادثة الفذة في تاريخ العدل ، والتي ترفع رأسنا عالياً ، نحن المسلمين ، بما فعله أسلافنا مع أعدائهم ، والمعركة لا يزال أثرها حياً متوثباً :

« لما افتتح المسلمون دمشق ، كان موضع المسجد الأموي الكبير كنيسة ، فدخل خالد بن الوليد من إحدى جهات المدينة بالسيف ، فانتهى إلى نصف

الكنيسة ، ودخل أبو عبيدة بن الجراح من الجهة الغربية صلحاً ، فانتهى إلى نصف الكنيسة ، فصنع المسلمون من نصف الكنيسة الذي دخلوه عنوة مسجداً ، وبقي النصف الذي صالحوا عليه كنيسة ، فلما عزم الوليد بن عبد الملك على زيادة الكنيسة في المسجد طلب من الروم أن يبيعوا منه كنيستهم تلك بما شاؤوا من عوض ، واشتراها منهم » .

ولعلهم اغتنموها فرصة فغالوا في الثمن ، وتحكموا في الأمر ، ولكن الخليفة نزل عند إرادتهم وأعطاهم ما طلبوا ، وكان باستطاعته أن يضم الكنيسة إلى المسجد رغم أنوفهم ، وقهراً عنهم ، كما كان باستطاعة الفاتحين الأول ، أن يجعلوا الكنيسة كلها مسجداً لأول وهلة ، وإنهم لو فعلوا ذلك ، لما استطاع أحد أن يقف في طريقهم ، أو يثنيهم عن عزمهم ، ولكن إسلامهم أبى عليهم إلا أن يمشوا حسب نظمه ، وطبق تعاليمه ، وأراد لهم أن يكونوا حتى في حروبهم وفتوحاتهم مثلاً عليا للعدل والنصفة .

ومما يستطرف ذكره أن الروم كانوا يعتقدون أن من يهدم كنيستهم أو جانباً منها يُجَن ، فذكروا ذلك للوليد بعد أن اشتراها ، فقال : « أنا أول من يجنُّ في سبيل الله » . وأخذ الفأس وجعل يهدم بنفسه ، وتتابع المسلمون يهدمون ، فلم يصب أحد بسوء ، وأكذب الله زعم الروم .

وهذا عمر بن عبد العزيز ، يبلغه أن أحد أبنائه اشترى خاتماً بألف درهم ، فكتب إليه : « أما بعد فقد بلغني أنك اشتريت خاتماً بألف درهم ، فبعه وأشبع به ألف جائع ، واتخذ خاتماً من حديد ، واكتب عليه : « رحم الله امرءاً عرف قدر نفسه » .

بل إليكم هذه الدقة النادرة ، والحرص العظيم على أموال الأمة وخزينة الدولة ، أن تمتد إليها يد السرف ، وعوامل التبذير ، إليكم هذه الحادثة في هذا الموضوع .

كتب بعض الولاة إلى الخليفة عمر بن عبد العزيز ، يطلب منه أن يبعث إليه مبلغاً من المال لشراء القراطيس (الورق) لحوائج المسلمين ، فكتب عمر إليه : « قد جاءني كتابك وفهمت ما تريد ، ولكن لا حاجة إلى كل ما طلبت ، فإذا جاءك كتابي ، فأرقّ القلم ، واجمع الخط ، واجمع الحوائج الكثيرة في الصحيفة الواحدة ، فإنه لا حاجة للمسلمين في فضل قول أضر ببيت مالهم والسلام عليك » . فليتأمل في هذا موظفونا اليوم ، وينظروا كم يصرفون من الورق بغير حساب .

والأمثلة في هذا الموضوع لا تكاد تحصى ، فإلى الحديث القادم إن شاء الله والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

☆ ☆ ☆

نَظْرَةُ الإسْلاَمِ إلى الفَسَادِ وَالْمُفْسِدِينَ

قال تعالى في كتابه العزيز : ﴿ ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على ما في قلبه وهو ألدُّ الخصام وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد ، وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم فحسبه جهنم ولبئس المهاد ﴾ [البقرة : ٢٠٤/٢ ـ ٢٠٦] .

تلحظ أيها الأخ المؤمن من الآية الكريمة أن الله سبحانه وتعالى يطلب من الإنسان أن يكون صريحاً ، باطنه كظاهره ، يقول ما يضمر ، ويصرح بما يعتقد ، وأن يكون بعيداً عن الفساد وعن المفسدين ، وأن يكون فسيح الصدر لموعظة تأتيه ، ونصيحة توجه إليه ، وأن يكون شاكراً لكل من يرشده إلى موضع الخطأ في سيره أو عمله ، فإذا كان عاملاً بكل ذلك ، فهو المؤمن الحق الذي ينفع نفسه ، وينفع أمته ، ويصبح عضواً صالحاً في بناء مجتمعه ووطنه ، ويستوجب رضاء الله وثوابه والخلود في جنات النعيم .

وإن كان على العكس مما تقدم ، فإن الله لا يحبه ، وأعد له جهنم وبئس المصير .

حرَّم الإسلام الفساد في الأرض ، واعتبره من الجنايات الاجتماعية الكبرى ، ووصف مرتكبيه من الأفراد والجماعات بأوصاف لا تدع لمن في قلبه أثارة من الإنسانية ، ميلاً إلى ارتكابه ، مهما تخيل وراء ارتكابه له من الفوائد .

وإليكم بعض ما ورد في القرآن الكريم في وصف هؤلاء :

قال تعالى في وصف الفاسقين الذين أعد لهم سوء العذاب يوم الدين ، وصفهم بقوله :

﴿ الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ، ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض أولئك هم الخاسرون ﴾ [البقرة : ٢٧/٢] .

ويتوعدهم سبحانه وتعالى مبيناً عقابهم في الدنيا ، وجزاءهم في الآخرة ، بقوله : ﴿ إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً أن يقتّلوا أو يصلّبوا أو تقطّع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفَوا من الأرض ذلك لهم خزي في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم ﴾ [المائدة : ٣٣/٥] .

وقال تعالى يذم قساة الفاتحين ، ويصفهم بأنهم : ﴿ إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة ، وكذلك يفعلون ﴾ [النمل : ٣٤/٢٧] ، فهو ينبه المؤمنين بأن الفتح الذي تقضي به سنة الوجود لا يقتضي إفساد المدن وتحطيم عمرانها ، وإذلال أهلها ، والسيطرة عليها بالشدة والتجبر والوحشية والقسوة .

وقد وجه سبحانه الخطاب إلى هذه الأمة فقال : ﴿ فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطّعوا أرحامكم ﴾ [محمد : ٢٢/٤٧] ، أي فهل يتوقع منكم أيها المسلمون ـ وأنتم أصحاب الدين العالمي العام ـ إن ولاّكم الله خلافة الأرض أن تفسدوا فيها وتقطّعوا صلات القرابة الإنسانية بينكم ؟ ثم وجه سبحانه وتعالى إلى الذين يجرؤون على ذلك أشد ما يوجه إلى الجناة الطاغين من الزجر فقال : ﴿ أولئك الذين لعنهم الله فأصمّهم وأعمى أبصارهم ﴾ [محمد : ٢٣/٤٧] .

إن هؤلاء المفسدين لا يخلو منهم زمان ، ولا تسلم منهم أمة ، وربما تظاهروا بأنهم الأصدقاء والإخوان ، وأنهم الحريصون على مصلحة الأمة والأوطان ، وأنهم عون لأبناء وطنهم في الشدائد والملمات ، ولكن حقيقتهم بخلاف ذلك ، وواقع عملهم يكذب ما يدّعون ، فهم لا يبغون إلا الفتنة ، ولا يسعون إلا إلى الهدم والتدمير ، أولئك الذين يصدق عليهم قوله تعالى : ﴿ لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالاً ، ولأوضعوا خلالكم ، يبغونكم الفتنة وفيكم سمّاعون لهم والله عليم

بالظالمين ﴾ [التوبة : ٤٧/٩] . ﴿ لقد ابتغوا الفتنة من قبل وقلّبوا لـك الأمور حتى جاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون ﴾ [التوبة : ٤٨/٩] .

فيجب على الأمة اليقظة ، أن تحـذر من أمثـال هؤلاء المفسـدين أن يتسربوا إلى صفوفها ، وأن يشعلوا نار الفتنة بين أبنائها .

يجب على الأمة الناهضة أن تعرف المفسدين المخربين بسيماهم ، لتسلم من شرهم وأذاهم ، وأن يصفهم من عرفهم إلى من لم يعرفهم حتى يكونوا معروفين لـدى جميع المواطنين ، كي ينفَـوا وينبـذوا ، وأن من الخير معرفـة الشر حتى يبتعـد الإنسـان عنه .

روى حـذيفـة بن اليمان قـال : « كان النـاس يسـألـون رسـول الله ﷺ عن الخير ، وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني ، فقلت : يا رسول الله ، إنـا كنـا في جاهلية وشر ، فجاءنا الله بهذا الخير ، فهل بعد هذا الخير من شر ؟ قال : نعم . قلت : فهل بعد ذلك الشر من خير ؟ قال : نعم . وفيـه دخَن (الـدَّخَن هو الشر والفساد) . فقلت : ومادخَنـه ؟ قـال : قوم يستنُّون بغير سنتي ، ويهتـدون بغير هـديي ، تعرف منهم وتنكر . قلت : فهـل بعـد ذلـك الخير من شر ؟ قـال نعم ، دعاة على أبواب جهنم ، من أجابهم إليها قـذفوه فيهـا ، قلت : يـا رسول الله ، فما تأمرني إن أدركني ذلك ؟ قـال : تلزم جمـاعـة المسلمين وإمـامهم ، قلت : فـإن لم يكن جمـاعـة ولا إمـام ؟ قـال : فـاعتزل تلـك الفرق كلهـا ، ولو أن تعض بـأصل شجرة ، حتى يدركك الموت وأنت على ذلك » . أخرج هـذا الحـديث : البخـاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنَّسائي . وحذيفة راوي هـذا الحـديث هو من كبـار الصحابة شهد الخندق ومـا بعـدهـا ولـه ذكر حسن ، روى عنـه بعض الصحـابـة ، واستعملـه عمر بن الخطـاب ولم يـزل عـامـلاً لـه حتى مـات ، وهـو معروف بين الصحابة بصاحب سر رسول الله ﷺ ، وكان عمر بن الخطاب يسـألـه عن الفتنـة

وعن المنافقين ، وإذا امتنع حذيفة عن الصلاة على جنازة أحد ، لم يصلِّ عليها عمر بن الخطاب .

وقد سئل حذيفة ، أي الفتن أشد ؟ فقال : أن يعرض عليك الخير والشر فلا تدري أيهما تركب . أخرج البخاري في صحيحه أن رسول الله ﷺ قال : « يأتي في آخر الزمان قوم ، حدثاء الأسنان ، سفهاء الأحلام ، يقولون من قول خير البرية ، يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرَّمية ، لا يجاوز إيمانهم حناجرهم » .

وروى البيهقي والترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « يخرج في آخر الزمان رجال يختلون الدنيا بالدين ، ألسنتهم أحلى من العسل ، وقلوبهم قلوب الذئاب ، يلبسون للناس جلود الضأن من اللين ، يشترون الدنيا بالدين ، يقول الله تعالى : أبي يغترون ، أم عليَّ يجترئون ؟ فبي حلفت لأقيضن لهم فتنة تدع الحليم منهم حيران » .

لقد أصبحنا في زمن لا نكاد نميز فيه بين الخير والشر ، ولا بين المصلح ، والمفسد ، ولا بين الحريصين على عقائدهم وتقاليدهم وأوطانهم ، وبين الهدامين المخربين الذين يسيئون إلى الأمة ، ويكيدون للوطن ، فانتبهوا لأمركم ، وخذوا حذركم ، وضعوا المكبرات على أعينكم ، ليتبين لكم الناصح من الغاشّ ، والمخلص من الخادع ، والضار من النافع .

أيها المستمعون الكرام ، أيها المواطنون الأعزاء ، أجمعوا أمركم ، ووحدوا صفوفكم ، وأطيعوا أولي الأمر منكم ، واعملوا بتوجيههم ونصحهم ، ولا تدَعوا مجالاً للمفسدين والمخربين ، و ﴿ اعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرَّقوا ﴾ [آل عمران : ١٠٣/٣] .

الشّجَاعَةُ

أيها المستمعون الأكارم : أتحدث إليكم اليوم عن موضوع هام تتوقف عليه حياة الأمة التي تريد أن تعيش حياة كريمة ، وأن يكون لها المكان المرموق بين أمم الأرض ، وقد كان هذا الموضوع من أبرز الصفات التي يتحلى بها العربي قبل الإسلام ، ثم جاء الإسلام فأقرّ هذه الصفة ، ومدح المتصفين بها ، بل رفع من شأنها ، وجعلها أمراً لازماً لكل مؤمن يحرص على عقيدته ، ويسعى لنبيل هدفه . ذلك الموضوع الذي أتحدث عنه ، إنما هو : الشجاعة .

أيها الإخوة والأخوات : الشجاعة هي شدة القلب وثباته عند الخطر واليأس ، وفي ميادين الشرف والدفاع ، وهي صفة عالية من صفات النفس ، تحمل الإنسان على مواجهة الأخطار ، وتحمُّل الآلام .

وهي تنقسم إلى قسمين : شجاعة جسدية أو مادية ، وشجاعة أدبية . ومما لا شك فيه أن الشجاعة بنوعيها ، كان لها الأثر الكبير في تبليغ الرسالة المحمدية ، وانتشار الإسلام ، بل نستطيع أن نقول : إنها الدعامة التي قام عليها الإسلام ، وبفضلها انبثق نوره في سائر الأرجاء .

وقد بلغ العرب في الشجاعة الغاية ، حتى إنه اشتهر عنهم أنهم كانوا يفضلون الموت في العز ، على الحياة في الذل ، ويكرمون الشجاع ، ويفتخرون به ، ويعدّون الإحجام عن الموت ذلاً وعاراً ، والإقدام فضيلة ومكرمة ، وفي هذا يقول السموءل :

وما مات منا سيد حتفَ أنفه ... ولا طُلَّ منّا حيث كان قتيلُ

تسيل على حدّ الظُّباة نفوسنا ... وليست على غير الظباة تسيل

فهو يفخر بأنه لم يمت أحد منهم على فراشه . إنما يموتون في ميادين القتال ، وتخرج أرواحهم على شفرات السيوف ، ولا تذهب دماء قتلاهم هدراً .

وهذ عربي آخر يقول :

فيا رب لا تجعل حياتي ذميمة ولا موتتي بين النساء النوائح
ولكنْ قتيلاً تدرج الطير حوله وتشرب غربان الفلا من جوانحي

والعقيدة الراسخة في نفوسهم هي التي يعبر عنها شاعرهم بقوله :

وإذا لم يكن من الموت بدٌّ فمن العار أن تموت جبانا

وإنهم ليفاخرون بكثرة قتلاهم في ميادين النضال فيقول قائلهم :

إنا لمن معشر أفنى أوائلهم قيل الكماة : ألا أين المحامونا ؟

أما في الإسلام فقد تطورت هذه الصفة فأصبح رسوخها أشد ، والتمسك بها أفضل ، حيث يعتقد المسلم أن موته في سبيل الله ، دفاعاً عن عقيدته ، ونصرة لحق مهيض ، وقمعاً لباطل عرم ، إنما هو أعظم قربة لله ، توجب له الخلود في جنات النعيم .

وقد قوّى هذه الصفة في نفوس المؤمنين اعتقادهم الراسخ بأن الأجل محتوم ، يعبر عن هذا بصراحة ووضوح القرآن الكريم حيث يقول :

﴿ فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون ﴾ [الأعراف : ٧/٣٤] ، وحيث يقول : ﴿ أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيَّدة ﴾ [النساء : ٤/٧٨] .

فما دام الأجل محتوماً ، والموت لا بد مدركاً الإنسان ، ولو تحصن منه في البروج المشيدة والأماكن الحصينة ، فلا مكان للجبن والخوف عند المؤمنين .

زد على هذا أن كثيراً من الآيات الكريمة جاءت تحض المؤمنين على القتال ، لـدفع المعتـدين ورد الظـالمين ، وقمع المـدمرين المخربين ، الـذين يبغون الفتنـة ، ويتصيدون في الماء العكر ، أمثال قوله تعالى :

﴿ فليقاتل في سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة ومن يقـاتل في سبيل الله فيُقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجراً عظيماً ﴾ [النساء : ٧٤/٤] .

وقولـه تعـالى : ﴿ وقـاتلوهم حتى لا تكون فتنـة ﴾ [البقرة : ١٩٣/٢ ، الأنفال : ٣٩/٨] .

وقوله تعالى : ﴿ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون بـه عـدو الله وعـدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمـونهم الله يعلمهم ومـا تنفقـوا من شيء في سبيل الله يوفَّ إليكم وأنتم لا تظلمون ﴾ [الأنفال : ٦٠/٨] . لذلك كله كانت البسالة والشجاعة والإقـدام في نصرة الحق ، ودفع الظلم ، وفي سبيل العزة والكرامـة ، من أبرز الصفات الراسخة في نفوس المؤمنين .

ولقـد كان رسول الإسلام محمـد ﷺ ، أعظم مثـل في هـذه النـاحيـة ، فكان البطـل الـذي لا يـذل ولا يستكين مهما تكاثفت الأعـداء ، وتجهّمت الخطـوب ، واشتـدت الأزمـات ، بـل كان بطـل الأبطـال ، وسيـد الشجعـان جميعـاً بشهـادة أعدائه ، والفضل ما شهدت به الأعداء .

وإن موقفه حينما تـآمرت عليـه قريش وطلبوا منـه أن يتخلى عن دعوتـه ، وهددوا عمـه أبـا طـالب الـذي كان نصيره ، وكاد عمـه أمـام تهـديـد قريش ، أن يتخاذل عن نصرته . إن موقفـه وثبـاتـه في هـذا الظرف الخطير الـذي أصبح فيـه واقفاً وحده في ناحية ، معه عقيدته ورسالته ، والدنيا كلها مناهضة له تكيد له ، وتمكر به ، وتتآمر عليه ومع هـذا فقـد قـال كلمتـه الفـاصلـة : « والله يـا عمّ ، لو

وضعوا الشمس في يميني ، والقمر في يساري ، على أن أترك الأمر ما تركته ، حتى يظهره الله أو أهلك دونه » .

وسرت روح الشجاعة هذه من بطل الأبطال محمد عليه الصلاة والسلام ، إلى أصحابه من بعده ، فكانوا مُثلاً عليا ، وأمثالاً مردّدة .

قطعت يد جندي[1] من جنود محمد ﷺ في ميدان الشرف والبطولة وبقيت معلقة في عضده ورأى أنها في هذه الحال تعوقه عن الاستمرار في النضال فوضعها تحت رجله ونزعها من عضده ، وألقاها في الأرض واندفع يتم مهمته في الميدان .

« وهذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، حينما اعتزم الهجرة ـ وكانت قريش تقف في صد المهاجرين عن هجرتهم بكل قواها وقسوتها ـ تدجَّج بسلاحه ووقف على مجتمع قريش ، وأعلن لهم أنه مهاجر ، ثم قال : من أراد منكم أن تثكله أمه فليتبعني . فلم يتبعه منهم أحد » .

« وروي عن أنس رضي الله عنه قال : خرج علينا رسول الله ﷺ إلى الخندق ، فإذا المهاجرون والأنصار يحفرون في غداة باردة ، فلما رأى ما بهم من النصب والجوع ، قال :

اللهم إن العيش عيش الآخرة   فاغفر للأنصار والمهاجرة

فقاموا مجيبين له :

نحن الذين بايعوا محمدا   على الجهاد ما بقينا أبدا

هؤلاء أصحاب رسول الله ﷺ الذين لا يصدهم عن الدفاع عن دينهم حر ولا برد ، ولا يفتر عزائمهم جهاد ولا عطش ، ولا يزعزع عقيدتهم تعب ولا نصب ،

---

(١) هو قاتل أبي جهل ، والذي قطع يده هو عكرمة بن أبي جهل ، حصل هذا في غزوة بدر ، انظر سيرة ابن هشام .

ولا تثنيهم عن المشاق رفاهية ولا ترف ، يجيبونه بما يضاعف ثقته بهم ، ويطمئنه على إيمانهم ، ويعلنون أنهم بايعوه على الموت ، ولن يقف في سبيل وفائهم لنبيهم كل مصاعب الحياة .

ولقد أثنى الله على من أوفى منهم بعهده في كتابه الكريم بقوله : ﴿ من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدّلوا تبديلاً ﴾ [الأحزاب : ٢٣/٣٣] .

أيها المستمعون الكرام : لقد كان من أكثر هذه الشجاعة التي نشأ المسلمون عليها ، أن عز الإسلام والمسلمون ، وصاروا أمنع من عقاب الجو ، وجبهة الغضنفر ، لا تلين قناتهم ، ولا يسلمون لأعدائهم ، ولم تضعفهم قلتهم ، وكثرة أعدائهم ، وكانت لهم العزة والتمكين في الأرض .

أيها المسلمون في كل مكان : إذا رأيتم أنفسكم متخلفين عن ركب الحضارة والمدنية ، فاعلموا أنكم تركتم أبرز صفة فيكم ، هي صفة الشجاعة ، فعودوا إليها لتنتقلوا من فساد إلى صلاح ، ومن ضعف إلى قوة في جميع مرافق الحياة ، ويومئذ تسيرون مع ركب الإنسانية للعمل لخير الإنسانية .

☆ ☆ ☆

هكذا كانوا

ذكر رجاء بن حيوة الكندي أنه بات ليلة عند عمر بن عبد العزيز ـ وكان رجاء من جلسائه ـ فهمّ السراج أن يخمد ، فقام إليه ليصلحه ، فأقسم عليه عمر بن عبد العزيز ليقعدنّ ، وقام هو فأصلحه ، قال رجاء : فقلت له : تقوم أنت يا أمير المؤمنين ؟ فقال : قمت وأنا عمر ، ورجعت وأنا عمر .

وقال رجاء بن حيوة أيضاً : أمرني عمر بن عبد العزيز أن أشتري له ثوباً بستة دراهم ، فأتيته به فجسّه (أي لمسه) وقال : هو على ما أحب ، لولا أن فيه ليناً . قال رجاء فبكيت . قال عمر : ما يبكيك ؟ قال : أتيتك وأنت أمير بثوب بست مئة درهم فجسسته وقلت : هو على ما أحب ، لولا أن فيه خشونة ، وأتيتك وأنت أمير المؤمنين بثوب بستة دراهم ، فجسسته وقلت : هو على ما أحب ، لولا أن فيه ليناً ، فقال : يا رجاء ، إن لي نفساً تواقة ، تاقت إلى فاطمة بنة عبد الملك فتزوجتها ، وتاقت إلى الإمارة فوليتها ، وتاقت إلى الخلافة فأدركتها ، وقد تاقت إلى الجنة ، فأرجو أن أدركها إن شاء الله عز وجل .

أيها الإخوة الأكارم : من صفات المؤمن العظيمة التي يستحق عليها الثناء والتكريم ألا يغتر بالحياة الدنيا ، ولا يلهيه نعيمها وزخرفها وزينتها ، وكل ما فيها من عظمة وجاه ، عن التوجه لآخرته ، والعمل للقاء ربه ، فالإسلام لا يمنع الإنسان من التمتع بطيبات الحياة ، والتنعم بملذاتها ، إلا أنه يحذره من التوغل فيها ، والحرص عليها ، والتكالب على طلبها من أي الطرق ، وبأية وسيلة ، وينبه المسلم دائماً أن يكون حذراً من غرورها ومفاتنها ، فيقول تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون ، وأنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي أحدكُم الموتُ فيقول

ربّ لولا أخرتني إلى أجل قريب فأصّدق وأكن من الصالحين ، ولن يؤخر الله نفساً إذا جاء أجلها والله خبير بما تعملون ﴾ [المنافقون : ٩/٦٣ ـ ١١] . ويقول : ﴿ رجال لا تلهيهم تجارةٌ ولا بيعٌ عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة يخافون يوماً تتقلَّب فيه القلوب والأبصار ، ليجزيهم الله أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله والله يرزق من يشاء بغير حساب ﴾ [النور : ٣٧/٢٤ ـ ٣٨] .

لذلك كان المؤمنون السابقون يتطلعون دائماً إلى الدار الآخرة ، ويتحرّون في أعمالهم وجميع تصرفاتهم كل ما يرضي الله عز وجل ويستوجب ثوابه ، فقد يكون المؤمن غنياً يرتع في بحبوحة من المال والمتاع لكن ذلك لا يصرفه عن طاعة ربه ، وعن التقرب به إليه ، وقد يكون صاحب وظيفة مرموقة وجاه عريض ، ولكن ذلك لا يحول بينه وبين رضاء ربه وطلب ثوابه ، بل يجعل من وظيفته وجاهه طريقاً لإظهار الحق ، ومساعدة ذوي الحاجة ، وإغاثة الملهوف ، فيكون قد فاز بعز الدنيا ورضاء الله ، وقد يكون ذا سلطان عريض وأمر مطاع ، وكلمة نافذة ، ولكن ذلك كله لا يصرفه عن آخرته ، ولا يصده عن العمل ليوم الحساب .

من هنا كان المؤمنون الصادقون يحاسبون أنفسهم قبل أن يحاسبوا ، ويمهدون لها سبيل النجاة قبل أن يعذبوا ، ومن هنا كان عمر بن عبد العزيز وأمثاله يزهدون بما في أيديهم من متاع الحياة ، ويترفعون عن مباهجها وزينتها ، متطلعين إلى دار البقاء ، راغبين بما أعد لهم فيها من نعيم مقيم هم فيه خالدون .

قال أبو جعفر المنصور يوماً للربيع بن يونس ـ وكان وزيراً له ـ ويحك يا ربيع ، ما أطيب الدنيا لولا الموت ، فقال له الربيع : ما طابت الدنيا إلا بالموت ، قال : وكيف ذلك ؟ قال : لولا الموت لم تقعد هذا المقعد ـ وكان المنصور قد جلس للنظر في المظالم ـ فقال : صدقت .

وهكذا نجد رجالاً من المؤمنين صدقوا ما عاهدوا الله عليه يتواضعون وهم ملوك ، ويزهدون والدنيا تحت أيديهم ، ويصدقون ولو أدى ذلك إلى الخطر ، يعملون لدنياهم ولا ينسون آخرتهم ، شجعان في النهار ، ورهبان في الليل .

اشتهر رِبعيٌ بن حراش الكوفي بالصدق ، وعهد عنه أنه لم يكذب قط ، وكان له ابنان عاصيان زمن الحجاج ، فقيل للحجاج : إن أباهما لا يكذب قطٌ لو أرسلت إليه فسألته عنهما ـ وكانت شرطة الحجاج قد يئست من العثور عليهما ـ فأرسل إليه فقال : أين ابناك ؟ قال : هما في البيت . قال : قد عفونا عنهما لصدقك .

روى ابن أبي الدنيا بسنده عن طاوس أنه قال : بينما أنا بمكة ، استدعاني الحجاج فأتيته ، فأجلسني إلى جانبه ، وأتكأني على وسادة ، فبينما نحن نتحدث ، إذ سمع صوتاً عالياً بالتلبية ، فقال : عليّ بالرجل ، فأحضر ، فقال له الحجاج : ممن الرجل ؟ قال : من المسلمين . فقال : إنما سألتك عن البلد والقوم قال : من أهل اليمن . فقال : كيف تركت محمد بن يوسف ؟ ـ يعني أخاه وكان والياً على اليمن ـ فقال : تركته جسيماً وسيماً ، لباساً حريراً ، ركاباً خراجاً ولاّجاً ، فقال : إنما سألتك عن سيرته ، فقال : تركته غشوماً ظلوماً ، مطيعاً للمخلوق ، عاصياً للخالق . قال : أتقول فيه هذا وقد علمت مكانه مني ؟ فقال الرجل : أتراه بمكانه منك أعزّ من مكاني من ربي ، وأنا مصدق نبيه ﷺ ، ووافد بيته ؟ فسكت الحجاج ، وذهب الرجل من غير إذن . قال طاوس فتبعته وقلت الصحبة ، فقال : لا حبّاً ولا كرامة ، ألست صاحب الوسادة الآن ، وقد رأيت الناس يستفتونك في دين الله ، قلت : إنه أمير مسلّط ، أرسل إليّ فأتيته ، كما فعلت أنت ، قال : فما ذاك الاتكاء على الوسادة في رخاء بال ، هلاّ كان لك من واجب نصحه ، وقضاء حق رعيته بوعظه ، والحذر من بوائق عسفه ما يكدر عليك تلك الطمأنينة ؟ قلت : أستغفر الله وأتوب إليه ، ثم أسألك الصحبة ، فقال : غفر الله

لـك ، إن لي مصحـوبـاً شـديـد الغيرة عليَّ فلـو أنِست بغيره رفضني ، ثم تركني وذهب .

وهكذا نرى المؤمنين الصادقين يقفون تلك المواقف الجريئة المشرفة لا يخشون في الله أحداً فينظر أحدهم إلى من هو فوقه إيماناً وخلقاً وثبـاتـاً على الحق فيقتـدي به ، ويرغب في صحبتـه ، ويحرص على نصيحتـه ، فهل فينـا من هـذه الصفـات شيء ؟

مرَّ إبراهيم بن أدهم في أسواق البصرة ، فـاجتمع عليـه النـاس ، وقـالـوا : يا أبا إسحاق ، إن الله عز وجل يقول في كتـابـه العزيز ﴿ ادعوني أستجب لكم ﴾ [غافر : ٤٠/٦٠] . ونحن نـدعـو دهراً فـلا يستجيب لنـا ، فقـال إبراهيم : يـا أهـل البصرة ، ماتت قلوبكم من عشرة أشيـاء : أولهـا عرفتم الله ولم تؤدوا حقـه ، الثـاني قرأتم القرآن ولم تعملـوا بـه ، الثـالث ادعيتم حب رسـول الله ﷺ وتركتم سنتـه ، الرابع ادَّعيتم عداوة الشيطان ووافقتموه ، الخامس قلتم نحب الجنـة ولم تعملوا لهـا ، السادس قلتم نخاف النار ورهنتم أنفسكم بها ، السابع قلتم إن الموت حق ولم تستعدوا لـه ، الثـامن اشتغلتم بعيوب إخوانكم ونبـذتم عيـوبكم ، التـاسع أكلتم نعمـة الله ولم تشكروها ، العاشر دفنتم موتاكم ولم تعتبروا بهم .

☆ ☆ ☆

كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ

قال تعالى في كتابه العزيز :

﴿ إن هـذا القرآن يهـدي للتي هي أقـوم ويبشّر المؤمنين الـذين يعملـون الصالحات أن لهم أجراً كبيراً ، وأن الـذين لا يؤمنون بـالآخرة أعتـدنـا لهم عـذابـاً أليماً ﴾ [الإسراء : ٩/١٧ ـ ١٠] .

لقد مضى على الإنسان قرون وآماد ، كان فيها فريسة الجهل والوثنية ، يعبد الشمس والقمر والنجوم ، بل يعبـد الأحجـار والأشجـار والحيوان ، لا يتمتع بلـذة المعرفة وإدراك الحقائق ، ولا تتصل روحه ، ولا يسمو عقله إلى خالق هـذا الكون العجيب .

نعم مرت عليـه قرون وآمـاد ، وهـو فريسـة هينـة مستسلمـة لعـوامـل الشر والفساد ، فالقانون قانون القوة ، كما هو الشأن بين وحوش الغاب ، ليس للأخلاق موازين ، ولا للفضائل مقاييس ، ولا للحياة مثل عليا تحتذى أو تراد .

يؤيد ما ذكرنا كله ، قوله تعالى : ﴿ هل أتى على الإنسان حين من الـدهر لم يكن شيئاً مذكوراً ﴾ [الإنسان : ١/٧٦] ، وما لهذا خلق الإنسان ، ولا بهـذا استحق خلافـة الله في الأرض ، والتكريم على سـائر المخلـوقـات ، فكان لا بـد لـلإنسـانيـة السـائرة في طريق التقـدم من أهـداف ثلاثـة ، إذا وصلت إليهـا فقـد وصلت إلى القمة ، وحققت خلافة الله في الأرض .

هذه الأهداف الثلاثة هي : الحق ، والخير ، والمساواة ، وكل واحد منها لا بد منه ، ما دمنا نريد الخير والسعادة الشاملة للجنس البشري ، وننشد الكمـال الـذي به يكون الإنسان إنساناً .

فلم يكن بد حينئذ من قانون سماوي ، يهذب الإنسـان ، ويرسم لـه الصراط المستقيم ، ويخرجه من الظلمات إلى النور ، وبذلك كانت الرسالات الإلهيـة ، التي تطورت ، وتركزت ، وانتهت برسالة محمد ﷺ ، وختمت بها ، ثم ضمن لهـا منزلهـا سبحانه وتعالى بقاءها ، وتكفل بحفظهـا إلى أن يرث الله الأرض ومن عليهـا وهو خير الوارثين .

ومن هنا يتوجب على الإنسان ، أن يعترف بالهداية الإلهية خاضعاً خاشعاً ، كما يعترف للقدرة الإلهية بالخلق والتكوين .

ومن هنا يتوجب على الإنسان ألاَّ يغتر بعقله ، ولا تخدعه علومه ومعارفـه ، ويوقن دائماً بـأنـه محـدود ، وأنـه محتـاج ، وأنـه ضعيف ، وأنـه موضع فضل إلهي وفيض ربّاني ، بها قوامه ، وبها سموه ، ولولاهما ما كان شيئاً مذكوراً .

وإلى هذا يشير قوله تعالى : ﴿ ياأيها الإنسان ماغرّك بربّك الكريم ، الذي خلقك فسوّاك فعدلك ، في أي صورة ماشاء ركبك ﴾ [الانفطار : ٦/٨٢ ـ ٨] .

أيها الإنسـان : لقـد رأيت بعينيـك هـذه الأمم الحـديثـة ، يعتنق كل منهـا فكرة ، ويجعلها مذهباً له في الحيـاة ، ويحـاول حمل النـاس عليهـا تـارة بـالقوة ، وتـارة بـالـدعـايـة ، وليس أصحـابهـا من المـلائكـة المقربين ، ولا من الأنبيـاء المعصومين ، لذلك اختلفوا وتصـادموا ، وتعـاركوا ، ولا تزال الإنسـانيـة في خوف وقلق مما قد ينتج عن هذا الصراع .

أيها الإنسـان المنصف : إنـك لن تجـد بغيتـك في كل مـا وضع في الأرض من نظم ، وما أحدث فيها من مذاهب ، إنك لن تجد بغيتـك إلا في قرآن محمـد ﷺ ، ودين محمد ، وشريعة محمد ، هذا الدين الذي كمله الله ، ورضيـه للبشريـة دينـاً ، وأعلن سبحانه عن ذلك بقوله :

﴿ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً ﴾ [المائدة : ٣/٥] .

فإذن ، تعال معي ، يا أيها الإنسان ، ننظر في القرآن الكريم قانون محمد نظرة سريعة ، لنطلع على بعض ما فيه من إرشادات وعظات وحكم ، تهدي للطريقة المثلى ، وتسمو بالخلق ، وتقود إلى السعادة .

استمع إليه يأمر بحفظ الأمانة وأدائها ، ويحض على العدل ، فيقول :

﴿ إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل ﴾ [النساء : ٥٨/٤] .

واستمع إليه يحذرك من الطغيان والعدوان ، وأن تؤثر الفانية على الباقية ، ويحضك على خوفه ومراقبته ، ويذكرك بوقوفك بين يديه فيقول جل شأنه :

﴿ فأمّا من طغى ، وآثر الحياة الدنيا ، فإن الجحيم هي المأوى ، وأمّا من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى ، فإن الجنة هي المأوى ﴾ [النازعات : ٣٧/٧٩ ـ ٤١] .

وانظر إليه ينذرك من عاقبة الظلم الوخيمة ، ومصاحبة إخوان السوء ، ويصور لك حالة الظالم المؤلمة ، حينما يقف يوم القيامة ذليلاً نادماً ، يتمنى أنه لم يكن ظلم أحداً ، ولا استصحب شرّيراً فاسقاً ، ويتبرأ منه من حيث لا ينفعه كل ذلك ، يقول القرآن الكريم :

﴿ ويوم يعضُّ الظالم على يديه يقول ياليتني اتخذت مع الرسول سبيلاً ، يا ويلتى ليتني لم أتخذ فلاناً خليلاً ، لقد أضلّني عن الذكر بعد إذ جاءني وكان الشيطان للإنسان خذولاً ﴾ [الفرقان : ٢٧/٢٥ ـ ٢٩] .

انظر أيها الإنسان إلى قرآن محمد ﷺ ، كيف يضع الشواهد أمام عينيك ،

ويضرب لك الأمثال ، بمن تقدم من الأمم التي طغت ، وعتت عن أمر ربها ، وأفسدت في الأرض ، لتعتبر ، وتتعظ ، وتستيقظ ، فيقول :

﴿ ألم تر كيف فعل ربك بعاد ، إرم ذات العماد ، التي لم يخلق مثلها في البلاد ، وثمود الذين جابوا الصخر بالواد ، وفرعون ذي الأوتاد ، الذين طغوا في البلاد ، فأكثروا فيها الفساد ، فصبَّ عليهم ربك سوط عذاب ، إن ربك لبالمرصاد ﴾ [الفجر : ٨٩/٦ - ١٤] .

وهكذا سيكون مصير كل أمة طاغية متكبرة ، تريد استعباد الشعوب ، وتسخير الضعفاء ، والتوسع في الأرض بغير الحق ، سيكون مآلها إلى لعن الله وغضبه ، مهما امتد بها الزمن ، وواتاها الحظ ، وابتسمت لها الدنيا .

أيها الإنسان العاقل ، استمع إلى قرآن محمد ﷺ ينبهك على أنك لن تترك سدى ، ولم تخلق عبثاً ، وأن الله سبحانه رقيب عليك ، بصير بأعمالك ، عليم بخطرات نفسك ، فيقول : ﴿ أيحسب الإنسان أن يترك سدًى ، ألم يكُ نطفةً من منيٍّ يُمنى ، ثم كان علقة فخلق فسوّى ، فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى ، أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى ﴾ ؟ [القيامة : ٧٥/٣٦ - ٤٠] .

ويقول : ﴿ أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون ﴾ [المؤمنون : ٢٣/١١٥] . ويقول : ﴿ ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد ﴾ [ق : ٥٠/١٦] .

أيها الإنسان : استمع إلى قرآن محمد كيف يقرر أن الإنسان أخو الإنسان ، وأنه يوجد على هذه الأرض ليعيش بهناء وتعارف وإخاء ، لا في عداء وتناكر وشقاء ، فيقول :

﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبثَّ منهما رجالاً كثيراً ونساءً ﴾ [النساء : ٤/١] ، ويقول : ﴿ يا أيها الناس إنّا

خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ [الحجرات : ١٣/٤٩] . ويقرر قرآن محمد ﷺ هذا التضامن والبر ، حتى مع المخالفين في العقيدة فيقول : ﴿ لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبرّوهم وتقسطوا إليهم إن الله يحبُّ المقسطين ﴾ [الممتحنة : ٨/٦٠] .

وهكذا استمر أيها الإنسان في استعراض لقرآن محمد ﷺ تجده يهدي لكل بر وخير ، ويدعو إلى كل إخاء وحب وسلام ، فاستمسك بحبله تكن من المهتدين .

☆ ☆ ☆

حَاجَةُ الحَضَارةِ إلى حياةٍ رُوحِيَّة

قال تعالى في كتابه العزيز : ﴿ من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوفّ إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون ، أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطلٌ ما كانوا يعملون ﴾ [هود : ١١/١٥ ـ ١٦] .

وقال تعالى : ﴿ ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن ، فأولئك كان سعيهم مشكوراً ﴾ .

خلق الله الإنسان مركباً من شيئين : روح وجسد ، ولكل منهما مطالب ، لا يتم أمره ، ولا يصفو عيشه ، ولا تحصل راحته إلا بها ، ويجب عليه أن يسلك من هذين الطريق الوسط ، فإذا فرط في مطالب البدن عاش ذليلاً عليلاً ، وإذا فرط في مطالب الروح عاش عيشة البهائم ، ولم يكن له من الإنسانية نصيب ، اللهم إلا في صورته الظاهرية ، وتخاطيطه الجسمية ، بل ربما كانت عاقبته أسوأ من البهائم ، إذ أنها تكون يوم القيامة تراباً ، أما من أسرف في مطالب الجسد ، وأهمل مطالب الروح فعاقبته وخيمة ، وعذابه شديد .

قال تعالى : ﴿ والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم ﴾ [محمد : ٤٧/١٢] . فإذا أهمل الإنسان حياته الروحية ، ولم يلتفت إلى كمالات نفسه الخلقية ، كان شراً من البهائم ، وأحطَّ من كل ذي روح . هذا بالنسبة إلى نفسه .

وأما بالنسبة إلى المجتمع العام ، فهو وبال عليه ، لأنه لا يلقى منه إلا صنوف البلاء وأنواع الشقاء ، فإن الرجل العاري من مكارم الأخلاق ، الذي لم تهذب عواطفه ، ولم تصف معارفه ، هو وحش ضار يفتك بكل من قدر عليه ، وعقرب يلدغ كل من يلتصق به ، وهو بعد ذلك شيطان متفنن في ضروب الشر ،

لا يعرف إلا نفسه المجرمة وشهوته الفاجرة ، ولو هلكت الأمة ، وخرب العالم ، وجدير به ذلك ، لأنه لا يؤمن بالجزاء على ما اقترف ، ولا بالحساب على ما جنى ، فهو لا يرغب في جنة ، ولا يخاف من نار ، وكأن العالم في نظره لعبة لاعب ، يفوز فيها من كان أكثر تهويشاً وشعوذة ، ولا حياة في نظره غير هذه الحياة . وهؤلاء هم الذين خاطبهم الله تعالى بقوله : ﴿ أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون ﴾ [المؤمنون : ١١٥/٢٣] . وقوله : ﴿ وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلاً ذلك ظنُّ الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار ﴾ [ص : ٢٧/٣٨] .

لذلك عنيت تعاليم الإسلام العناية الكبرى بتهذيب نفس المؤمن ، وتثقيفها ، وتقرير الصلة بين الإنسان وخالقه ، صلة تقوم على الإيمان به ، والتفاني في محبته ، والجهاد فيما يرضيه ، والحرص كل الحرص ، على هذه العقيدة ، قال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا من يرتدَّ منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ﴾ [المائدة : ٤٥/٥] .

بل إن القرآن الكريم جعل الحياة الهانئة والعيش الرغيد في هذه الحياة ، متسببة عن الإيمان المصحوب بالعمل الصالح . قال تعالى : ﴿ من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينّه حياة طيّبة ولنجزينّهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ﴾ [النحل : ٩٧/١٦] . ومتى وجد الإيمان بالإنسان ، ارتفع بنفسه عن قيودها المادية ، وأصبح عاملاً خيراً ، لنفسه ، ولأمته ، وللإنسانية جمعاء .

وإن أكبر مقومات الضمير ـ الذي هو الوازع النفسي المرشد للإنسان ، والمذكر بعواقب فعاله ـ هو الاعتقاد بإله قادر ، يحاسب على الكبائر والصغائر ، ويطلع على ما تكنّه السرائر ، وقد صدق أحد الفلاسفة بقوله : (إن ضميراً بلا عقيدة بالله كمحكمة بلا قاض) .

ولما نمت هذه العقيدة في نفوس المسلمين ، وعقلوا كل هذه التوجيهات القرآنية الحكيمة ، أصبحوا مصدر خير وسعادة لأنفسهم وللإنسانية كلها ، لأنهم آمنوا بأنهم محاسبون على أعمالهم ، ومجزيون عليها : ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ﴾ [الزلزلة : ٩٩/٧ ـ ٨] . لذلك نجد المؤمن هانئاً مطمئناً حتى في أحرج ظروف البلاء والعناء ، يكون في غاية الرضى ، لأنه يعتقد أنه ما يشاكُ بشوكة فما فوقها ، إلا كان له بها أجر .

نقل عن أويس القرني أنه كان يبكي من السرور إذا اشتد به الحال ، ونزلت به المصائب ، ويقول : « إن هذه حالة المحبوبين ، ومنزلة المقربين ، ولست فيهم ، فبأي شيء نلت هذه المنزلة عند ربي ؟ » . بل كانوا يفرحون بالموت ، ثقة بما يلاقونه عند ربهم من إحسان وتكريم ، وقد ابتسم بلال رضي الله عنه عند الموت ، ونهى أهله عن البكاء ، وطلب إليهم أن يفرحوا وقال : غداً ألقى الأحبة محمداً وحزبه .

ولما أسر خبيب بن عدي ، وأراد المشركون قتله ، قابل ذلك بكل هدوء واطمئنان ، وأنشد :

ولست أبالي حين أقتل مسلماً ... على أي جنب كان في الله مصرعي
وذلك في ذات الإله وإن يشأ ... يبارك على أوصال شلو ممزَّع

على أن الإسلام الذي هذب النفس ، وسما بها إلى عالم الطهر والكمال ، لم يحرم على متبعية الأخذ بشيء من متاع الدنيا ، والتمتع بالطيبات من الرزق ، بل سلك طريقاً وسطاً بين مطالب الروح ، ومطالب الجسم ، يقول تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا لله إن كنتم إيّاه تعبدون ﴾ [البقرة : ١٧٢/٢] . ويقول تعالى : ﴿ قل من حرَّم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق ، قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم

القيامة ﴾ [الأعراف ٣٢/٧] ويقول تعالى : ﴿ يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين ﴾ [الأعراف : ٣١/٧] .

وقد كان النبي ﷺ يكره أن يرى أصحابه منهمكين في العبادة ، غير مراعين حقوق أجسادهم ، لأن الحدث الجلل الذي أرسل لتحقيقه في العالم يتطلب أجساداً قوية ، وإرادات حديدية ، وكان يحثُّهم على المحاولات الرياضية : كركوب الخيل ، والسباحة ، والرماية ، والمماصعة بالسيوف .

وقد جاء في الحديث أنه لحق به في تهجده رجال كانوا يصلون خلفه ، ثم رآهم يكثرون ليلة بعد أخرى ، فمنعهم خشية أن يفرض التهجد عليهم ، فيضعفهم .

وجاء في الحديث أنه ﷺ قال لعبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما : « ألم أخبر أنك تصوم النهار ، وتقوم الليل ؟ قال : نعم يا رسول الله ، وإني على ذلك لقادر . فقال له النبي ﷺ : لا . بل قم ونم ، وصم وأفطر ، فإن لبدنك عليك حقاً ، وإن لزوجك عليك حقاً ، وإن لزوْرك (أي لزائريك) عليك حقاً » .

ولما كان الروح والجسم أمرين متلازمين ، ينعمان معاً ، ويعذبان معاً ، جاءت تعاليم الإسلام تُعنى بهما معاً ، ولهذا التلازم بينهما أشارت الآية الكريمة وهي قوله تعالى : ﴿ يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها ، وتوفّى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون ﴾ [النحل : ١١١/١٦] .

روي عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال : ما تزال الخصومة بين الناس يوم القيامة ، حتى يخاصم الروح الجسد ، فيقول الروح : يا رب لم يكن لي يد أبطش بها ، ولا رجل أمشي بها ، ولا عين أبصر بها ، فضعف عليه العذاب . فيقول الجسد : يا رب أنت خلقتني كالخشبة ليس لي يد أبطش بها ، ولا رجل أمشي بها ،

ولا عين أبصر بها . فجاء هذا الروح كشعاع النور ، فيه نطق لساني ، وبه أبصرت عيناي وبه مشت رجلاي .

فيضرب الله لهما مثلاً ، أعمى ومقعداً دخلا حائطا (أي بستاناً) فيه ثمار ، فالأعمى لا يبصر الثمر ، والمقعد لا يتناوله ، فحمل الأعمى المقعد على كتفيه ، وتناول الثمر ، وأكلا معاً ، فعلى من يكون العقاب ؟ قالا عليهما : قال وعليكما جميعاً العذاب .

يا أيها الناس : تعالوا إلى تعاليم الإسلام ، التي تهذب النفس ، وتزكيها وتسمو بها إلى قمة الخلق والفضيلة ، وتحول بينها وبين الشعور والآثام .

فالرقيّ المادي الذي وصلنا إليه في هذا القرن ، لم يؤت ثمرته الفعلية ، من إسعاد الناس ، واستقرار الأمن ، ورخاء البال ، بل على العكس جلب التعاسة والخراب الناجمين عن الحروب المتلاحقة والتهديد بالدمار والهلاك .

وإننا لا نزال نرى القوي يفترس الضعيف ، وشريعة الغاب هي الحكم الفصل ، ولا زال الاستعمار ينشب مخالبه في صدور الدول الضعيفة ، ولا زالت الفوارق بين الأجناس على أشدها ، حتى عند الدول الراقية ، وهذا كله يدلنا على إفلاس الحضارة المادية الخالية من القيم الروحية .

فإذن ، تعاليم الإسلام هي الكفيلة بسعادة المجتمع واستقراره ، فإلى تعاليم الإسلام وإرشاداته ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

البِنَاءُ الشَامخ عَلَى الأَسَاسِ المتين

إن الأمة العربية في هذه الظروف ، تتطلع إلى الكمال ، وتسير إلى المجد ، وتسعى في جميع طبقاتها ، حكومات وشعوباً ، وأفراداً وجماعات ، إلى جمع الكلمة ، ووحدة الصف ، وتوحيد الهدف والغاية ، وليس من شك بأن كل فرد من أفراد هذه الأمة يرحب بهذه النهضة ، ويتمنى لها التوفيق والنجاح ، إذ أن توحيد الأمة يقوي في صفوفها العزة والمنعة ويبعث النصر ، كتوحيد الله عز وجل يبعث في القلب الإيمان ، وينمي العقيدة ، وينتج رضاء الله في جنات الخلود .

وإننا لنودُّ من صميم قلوبنا ، أن تكون نهضتنا راسخة البناء ، رائعة الطلاء ، محمودة العواقب ، ولا يرسخ بناؤها ، ويروع طلاؤها ، وتحمد عاقبتها إلا أن تكون موصولة بنظم الدين ، مصبوغة بآدابه . ومما لا شك فيه أن المصلحين في هذه الأمة ، الذين يحاولون استرداد ما فقدت من عزة ، وما خسرت من مجد ، لن يصلوا إلى بغيتهم ، ولن تتحقق آمالهم إلا إذا استضاؤوا بنور دينهم ، واهتدوا بهدي نبيهم ﷺ .

وإن التاريخ يشهد بكل فخر واعتزاز ، أن الإسلام بتعاليمه السمحة ، ونظمه القيمة ، هو الذي أصلح شأن العرب ، وهذب طباعهم وقوّم أخلاقهم وجعلهم ، بعد أن تثقفوا بثقافته ، وتخرجوا من مدرسته ، جعلهم خير أمة أخرجت للناس ، ولن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها .

إن الذين تخرجوا من هذه المدرسة الإسلامية ، كانوا صالحين لكل نواحي الحياة ، للدين والدنيا والسلم والحرب ، والعبادة والتجارة ، للجهاد والكسب ، لكل ما يرفع شأنهم في الدنيا ، ويعلي منزلتهم في الآخرة ، لا كما يقول الجاحدون والمتحاملون ، أن الإسلام للصلاة والعبادة فقط .

وإننا لنذكر كيف كان قادة الإسلام يعرفون في طائفة من الذين رسخت في نفوسهم تعاليم الدين ، وفهموا روح الإسلام ، يعرفون فيهم رجاحة الرأي ، وصراحة العزم ، وخلوص السريرة ، فيلقون إليهم بقيادة الجيوش ، فيكفون بأس أعدائهم الأشداء ، ويكللون بغار العزة والنصر .

وما كان أسد بن الفرات قائد الجيش الذي فتح صقلية ، إلا أحد الفقهاء الذين أخذوا عن مالك بالمدينة ، ومحمد بن الحسن في بغداد ، وعبد الرحمن بن القاسم في القاهرة .

ذلك أن الإسلام يجعل من المسلم رجلاً كاملاً ، ويشعره بأنه بالنسبة إلى كل فرد من مجتمعه كأسرة واحدة ، يوحد بينهم شعور واحد ، وتنتظمهم رابطة واحدة ، مهما اختلفت أنسابهم ، وتناءت ديارهم ، وتعددت لغاتهم ، فهم إخوة في الدين ، وأشقاء في العقيدة ، يجمعهم الحب في الله ، ويربطهم هذا التعاطف والمرحمة . ولا تزال هذه الأمة بخير ما رحم كبيرهم صغيرهم ، ووقّر صغيرهم كبيرهم ، هذا هو القانون الذي فرضه الإسلام على أتباعه وجعله شعارهم ، وعلامة على إيمانهم ، وشاهداً على إسلامهم .

ولم يكتف الإسلام بذلك ، بل حمَّل كل مسلم مسؤولية المسلمين جميعاً ، كل على حسب طاقته ، ووجاهته ، وزعامته ، ومواهبه ، وفقره ، ويساره .

فهو مسؤول عن نفسه في إصلاحها واستقامتها ، ومسؤول عن أهله وولده في إصلاحهم واستقامتهم ، ومسؤول عن جيرانه ، وبلده ، وعن مسلمي الأقطار الأخرى ، بل وعن مواطنيه ، مهما كانت عقائدهم وأديانهم ، وإلى هذا كله يشير النبي الكريم صلوات الله عليه وسلامه بقوله : « كلكم راع ، وكلٌّ راع مسؤول عن رعيته » . رواه البخاري ومسلم .

وقد يستغرب الإنسان ، لأول وهلة ، أن يحافظ الإسلام على حقوق المواطنين ، وإن خالفوه في العقيدة ، لكنه حينما يطلع على تعاليمه ، وعلى ما فعله المسلمون وولاة الأمور منهم مع المخالفين في العقيدة ، يجد أن الإسلام بسماحته وسعة صدره ، وسع الناس جميعهم ، وحقق العدل والمساواة بين جميع أفراد رعاياه .

يروي لناالتاريخ أن التتار لما اكتسحوا بلاد الشام ، وساقوا معهم أسرى من المسلمين ، وغير المسلمين ، عاد الجيش الإسلامي يستعيد قوته من جديد ، ويركز خططه حتى تغلّب على التتار ، وقهرهم . وعندما طلب المسلمون من التتار أن يردوا لهم الأسرى ، فسمح التتار لهم بالمسلمين ، وأبَوا أن يردوا الأسرى من غير المسلمين ، وقالوا : إنهم ليسوا من أهل دينكم ، فلا حاجة لكم بهم . واستفتي في هذا الشأن شيخ الإسلام ابن تيمية ، فأجاب رحمه الله بقوله : لا بد من افتكاك جميع من معكم من اليهود والنصارى الذين هم أهل ذمتنا ، فلا ندع في أيديكم أسيراً لا من أهل الملة ، ولا من أهل الذمة . واضطر التتار إلى إطلاق الأسرى جميعاً .

ومن الأحاديث التي لها علاقة بالموضوع أن رسول الله ﷺ قال : « من ظلم معاهداً ، أو انتقصه ، أو كلفه فوق طاقته ، أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفسه ، فأنا حجيجه » رواه أبو داود ، والنّسائي .

وقالت السيدة عائشة أم المؤمنين ، قلت يا رسول الله : « إن لي جارين فإلى أيها أهوى ؟ قال : إلى أقربها منك باباً » رواه البخاري .

وفسر هذا ابن عمر حينما ذبح شاة وقال لأهله : « هل أهديتم منها لجارنا اليهودي ؟ قالوا : لا . قال : ابعثوا إليه منها ، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورّثه » . أخرجه أبو داود والترمذي .

وقد جاء نصراني إلى عمر رضي الله عنه ، وهو في طريقه إلى بيت المقدس ، وكان للنصراني بستان عنب ، فقال لعمر : كرمي هذا تعرضوا له وأنا رجل ذمة وعهد ، فركب عمر برذوناً ، وسار مسرعاً ، فرأى أبا هريرة يحمل عنباً ، فقال له عمر : وأنت أيضاً يا أبا هريرة ؟ ينكر عليه ويزجره . فقال : يا أمير المؤمنين ، أصابتنا مخمصة ـ أي مجاعة ـ شديدة ، فكان أحق من أكلنا من ماله من جارنا ، فتركه عمر ، ثم جاء البستان ، فوجد الناس فيه . فطلب عمر الذمي ، وقال له : بكم تستغله ؟ قال : بكذا . فدفع له الثمن كاملاً ، كما طلب ، وترضّاه حتى رضي .

هذه قطرات يسيره من خضم الإسلام الزاخر المتلاطم ، الذي يُعنى بالمواطنين عناية شاملة ، بدون تعصب ولا تحيُّز ، وهذا هو الدين الحنيف الذي جمع العرب بعد فرقة ، وألف بينهم بعد عداوة ، وساروا تحت لوائه ، يحملون تعاليه ، ويطبقون نظمه ، ففتحوا البلدان ، وأشادوا العمران ، ورفعوا البنيان ، وشادوا العواصم ، فكانت لهم بغداد ومصر ، والفسطاط والقيروان ، وكانت لهم إشبيلية ، وطليطلة والحمراء ، وما كل ذلك إلا بفضل ذلك النور الذي حلَّ في قلوبهم ، فأحالهم إلى عالم جديد ، وجعلهم خلقاً آخر ﴿ فتبارك الله أحسن الخالقين ﴾ [المؤمنون : ١٤/٢٣] . اللهمَّ افتح قلوب قادتنا لهذا النور ، وألهمهم العمل به ليعودوا كما كان أسلافهم .

مَنْ يُبَايِعُني على الموت ؟

هناك عدد كبير من أصحاب رسول الله ﷺ ، لهم أعمال خالدة ، وبطولات فذة ، وقد كانوا أبطالاً شجعاناً في جاهليتهم ، كما كانوا أبطالاً ومخلصين صادقين في إسلامهم .

وقد جهلهم كثير من الناس ، فلم يذكروا بطولاتهم ، ولم تردّد أسماؤهم على ألسنتهم ، غير أن التاريخ الذي ينظر دائماً بعين واعية ، قد سجل جميع أعمالهم ، وأحصى عليهم كل حركاتهم .

وإني أتحدث إليكم اليوم عن أحد هؤلاء الأبطال : عكرمة بن أبي جهل المخزومي .

كان عكرمة كأبيه من أشد الناس عداوة لرسول الله ﷺ ، وشهد غزوة بدر الكبرى مع المشركين ، ورأى بعينيه مصرع والده في هذه المعركة ، بعد أن دافع عنه دفاع المستميت ، وضرب قاتل والده على عاتقه ، فطوح يده ، فكانت معلقة بجلدة في جنبه ، وكاد يقضي عليه ، لولا أن أسعفه عدد من الجنود المسلمين ، فردّوه عنه .

وشهد غزوة (أحُد) مع المشركين أيضاً ، وكان قائداً لميسرة الجيش .

وشهد كذلك غزوة (الخندق) وكان أحد أبطال قريش الذين حاولوا اقتحام الخندق بخيولهم ، إلا أن أبطال المسلمين تصدّوا له ولكل من حاول اقتحام الخندق فردُّوهم على أعقابهم ، منهزمين ، وحينما فتح المسلمون مكة لم يكن فيها قتال إلا ما كان من عكرمة فإنه قد جمع أناساً من الفتيان ، وحرضهم على قتال المسلمين ليصدُّوهم عن فتح مكة ، ولكن خالد بن الوليد رضي الله عنه ، الذي

كان في الجيش الإسلامي ، قضى على هذه المحاولة بسرعة خاطفة ففر عكرمة إلى اليمن ، لأنه كان من بين النفر الذين أهدر الرسول ﷺ دماءهم ، باعتبار أن عليه تبعات أخرى غير القتال ، وهم الذين يسمون في لغة العصر الحديث (مجرمي حرب) .

وهكذا كانت حياة عكرمة في جاهليته ، وقبل إسلامه ، عداء سافر للرسول عليه الصلاة والسلام ، ونضال مستمر ضد الدعوة الإسلامية ، فلننظر كيف أسلم ، وماذا كان منه بعد أن هداه الله إلى هذا الدين .

كانت امرأته أم حكيم قد سبقته إلى الإسلام ، ولما عرفت خلق الرسول ﷺ ، وسعة صدره ، طمعت في أن يعفو عن زوجها إذا هي كلمته في شأنه ، فأتت رسول الله ﷺ واستأمنت منه لزوجها فأمّنه ، وعفا عنه ، فخرجت في طلبه إلى اليمن ، وأتت به الرسول ﷺ في المدينة ، فلما رآه رسول الله ﷺ ، قال : « مرحباً بالراكب المهاجر » فأسلم عكرمة ، بعد فتح مكة سنة ثمان للهجرة ، وحسن إسلامه وأصبح من صالحي المسلمين .

وعرف النبي ﷺ صدقه في إسلامه ، وإخلاصه لدينه ، فكان يقول لأصحابه : « إن عكرمة يأتيكم ، فإذا رأيتموه فلا تسبّوا أباه ، فإن سبَّ الميت يؤذي الحي » .

وإنما قال الرسول عليه الصلاة والسلام ذلك ليكفَّ المسلمين عن إيذاء عكرمة وليعلمهم مكارم الأخلاق . فإنهم كانوا يقولون ، حين يرون عكرمة : هذا ابن عدو الله أبي جهل . فنهاهم الرسول ﷺ أن يقولوا : عكرمة بن أبي جهل ، وقال : « لا تؤذوا الأحياء بسبِّ الأموات » .

وقد ذكر ابن الأثير في كتابه المعروف (أسد الغابة في معرفة الصحابة) : « إن عكرمة قد ركب البحر في طريقه من الحجاز إلى اليمن ، فأصابتهم عاصفة ،

فقال أصحاب السفينة لأهل السفينة : أخلصوا ، فإن آلهتكم لا تغني عنكم شيئاً ههنا ، فقال عكرمة : إن لم ينجني في البحر إلا الإخلاص ، ما ينجيني في البر غيره ، اللهمّ لك علي عهد إن أنت عافيتني مما أنا فيه ، أن آتي محمداً حتى أضع يدي في يده ، فلأجدنه عفواً كريماً » .

وهكذا أسلم عكرمة ، وكان إسلامه نوعاً من التسليم ، ولكنه تسليم النفس في معركة نفسية ، لا تسليم القائد في معركة حربية ، وشتان بين التسليمين ، لأن تسليم النفس يكون بنتيجة اقتناع وإيمان ، وتسليم الحرب يكون بنتيجة إكراه وخوف .

ولما أسلم عكرمة قال : « يا رسول الله علّمني خير شيء أتعلمه حتى أقوله » فقال ﷺ : « شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله » فقال عكرمة : « أنا أشهد بهذا ، وأشهد بذلك من حضرني ، وأسألك يا رسول الله أن تستغفر لي » . فاستغفر له رسول الله ﷺ ، فقال عكرمة : « والله لا أدع نفقة كنت أنفقتها في صد عن سبيل الله ، إلا أنفقت ضعفها في سبيل الله ، ولا قتالاً قاتلته إلا قاتلت ضعفه ، وأشهدك يا رسول الله » .

هذا هو الإيمان الحق يحول الرجل فجأة من الشر إلى الخير ، ومن الفساد إلى الصلاح ، ومن الفجور إلى التقوى ، ويشعره بعظم الجرائم التي كان يقترفها ، فيهيؤه للتكفير عنها ، والاستغفار منها .

استعمله رسول الله ﷺ على صدقات هوازن عام وفاته ، وهذا دليل قاطع على حسن إسلامه وأمانته ، وإلا لما ولاه النبي ﷺ نفسه على عمل لا يقوم به إلا القوي الأمين .

وعقد له أبو بكر الصديق رضي الله عنه لواء ، وأمره بمحاربة مسيلمة الكذاب في اليمامة ، وقاتل المرتدين في ناحية عُمان ، ومهرة ، وحضرموت ،

وكندة ، وبذل جهوداً مشرفة ، كان من آثارها توطيد أركان الإسلام في هذه المناطق ، وإعادة وحدتها القوية بالبلاد العربية الأخرى في شبه الجزيرة العربية .

لما فرغ عكرمة من قتال أهل الردَّة ، سار مجاهداً إلى أرض الشام أيام أبي بكر الصديق ، مع جيوش المسلمين ، فعسكر بالجُرُف على ميلين من المدينة ، فخرج أبو بكر يطوف في معسكر المسلمين ، فبصر بخباء عظيم ، حوله ثمانية أفراس ورماح وعدة ظاهرة ، فانتهى إليه فإذا هو خباء عكرمة ، فسلم عليه أبو بكر ، وجزاه خيراً ، وعرض عليه المعونة ، فقال : لا حاجة لي فيها ، معي ألفا دينار فدعا له أبو بكر بخير ، ذكر ذلك ابن الأثير .

وإن أهم المعارك التي خاضها عكرمة في الإسلام ، واختتم بها حياته ، هي معركة اليرموك ، فقد كان مع عكرمة في هذه المعركة ستة آلاف رجل ، وكان قائداً لأحد الكراديس ، فأمر القائد العام خالد بن الوليد ، عكرمة ، والقعقاع ، فأنشبا القتال ، والتحم الناس . وحملت الروم حملة أزالوا المسلمين عن مواقعهم . فقال عكرمة : « قاتلت رسول الله في كل موطن ، وأفر منكم اليوم ؟ » ثم نادى : « من يبايعني على الموت ؟ » ، فبايعه عمه الحارث بن هشام ، وضرار بن الأزور ، في أربع مئة من وجوه المسلمين وفرسانهم ، فقاتلوا أمام فسطاط خالد بن الوليد ، حتى أثبتوا جميعاً جراحاً ، فمنهم من برئ ، ومنهم من قتل ، وكان عكرمة أعظم الناس بلاء ، فكان يستقبل الأسنَّة ، ويتلقى الهجمات حتى جرح صدره ووجهه ، فقيل له : « اتق الله وارفق بنفسك » ، فقال : « كنت أجاهد بنفسي عن اللات والعُزى ، فأبذلها لها ، أفأستبقيها الآن عن الله ورسوله ؟ لا والله أبداً » . فلم يزدد إلا إقداماً . ويذكر ابن الأثير في كتابه (أسد الغابة) أن خالداً أتى بعكرمة جريحاً ، فوضع رأسه على فخده ، وأتى أيضاً

بعمرو بن عكرمة ، فجعل رأسه على ساقه ، ومسح وجهيها وقطر في حلقيهما الماء .

وذكر صاحب الاستيعاب أنه استشهد باليرموك ، الحارث بن هشام ، وعكرمة وسهيل بن عمرو ، فأتوا بماء وهم صرعى ، فتدافعوه ، كلما دفع إلى رجل منهم قال : اسْقِ فلاناً حتى ماتوا ولم يشربوه ، فقد طلب عكرمة الماء ، فلما أتاه نظر إلى رفيقه سهيل ، فرآه يتطلع إلى الماء ، فقال : ادفعوه إليه ، فلما وصل الماء إلى سهيل ، نظر إلى الحارث فوجده ينظر إلى الماء ، فقال : ادفعه إليه ، فلم يصل إليه حتى ماتوا جميعاً . وقد وجد في عكرمة بضع وسبعون جرحاً بين طعنة برمح وضربة بسيف ، ورمية بسهم .

رحم الله عكرمة . لقد كان من سادات قريش وقادتها في الجاهلية ، فأصبح من سادات المسلمين وقادتهم في الإسلام ، وكان مجدّاً في العداوة لرسول الله ﷺ في الجاهلية ، ولكنه أسلم إسلاماً حقيقياً ، فأصبح مجداً في قتال المشركين ، في مقدمة المسلمين ، فلقي ربه مضرَّجاً بالدماء في قوافل الشهداء .

☆ ☆ ☆

حِبُّ رَسُولِ الله ﷺ

ذكرت لكم في حديث سابق صحابياً جليلاً ، وشجاعاً مقداماً ، هو عكرمة بن أبي جهل . وهأنذا الآن أذكر لكم صحابياً آخر ، من أولئك الصحابة الكثر الذين قادوا الفتح الإسلامي ، وكان لهم في إعلاء كلمة الله ، ونشر دينه ، ما نراه حتى الآن في شرق الأرض وغربها .

والصحابة ـ يا أيها الإخوة ـ ليسوا فقط بأبي بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلي ، وسعد ، وخالد ، وأبي عبيدة رضي الله عنهم ، وأمثال هؤلاء الذين يترددون على الألسنة كثيراً ، في الندوات والمحافل ، فحينما حج رسول الله ﷺ حجة الوداع ، ووقف خطيباً في عرفات ، يلقي خطبته الجامعة ، كان حوله من الصحابة المستمعين له ، المؤمنين به ما يزيد على عشرة آلاف ، وما منهم إلا من له مواقف مشرفة ، وأعمال خالدة ، في تأييد الدعوة الإسلامية ، والدفاع عنها .

والصحابي الذي أذكره لكم الآن هو (أسامة بن زيد) حِبُّ رسول الله ﷺ .

ولا بد لي قبل الخوض في ترجمة أسامة من أن أعرفكم باختصار بأبيه زيد وما وقع له ، ويتلخص هذا في أن زيداً جرى عليه الرق في الجاهلية ، واشتراه حكيم بن حزام لعمته خديجة بنت خويلد ، فأصبح زيد من عبيدها ، فلما تزوجها النبي ﷺ ، وهبته له ، ولما علم أبوه حارثة بذلك ، قدم مكة مع أخيه كعب ، ودخلا على محمد بن عبد الله ﷺ يسألانه أن يرد عليهما زيداً ، وقال حارثة والد زيد : « يا ابن عبد المطلب ، يا ابن سيد قومه ، أنتم أهل حرم الله ، تفكون العاني ، وتطعمون الأسير وقد جئناك في ولدنا ، فامنن علينا ، وأحسن في فدائه ، فإننا سنرفع لك في الفداء ، فقال لهما محمد : فهل لغير لذلك ؟ قالوا :

وما هو ؟ قال : ادعوه فخيروه فإن اختاركم فهو لكم بغير فداء ، وإن اختارني ، فوالله ما أنا بالذي أختار على من اختارني أحداً . قالا : قد زدتنا في النصف وأحسنت » .

وجاء زيد فعرف أباه وعمه ، فقال محمد ﷺ يخاطبه : يا زيد ، أنا من قد علمت ورأيت صحبتي لك ، فاخترني أو اخترهما . فقال زيد ما أنا بالذي أختار عليك أحداً ، أنت مني بمكان الأب والأم » . فعجب أبوه وقال : ويحك يا زيد ، أتختار العبودية على الحرية وعلى أبيك وعمك وأهل بيتك ؟ فقال زيد : نعم ، إني قد رأيت من هذا الرجل شيئاً ما أنا بالذي أختار عليه أحداً أبداً . فلما رأى محمد ﷺ ذلك أخرجه إلى الحِجْر في البيت الحرام ، وقال : اشهدوا أن زيداً ابني يرثني وأرثه ، فلما سمع أبوه وعمه طابت نفساهما وانصرفا . كل ذلك كان قبل الإسلام حيث كان التبني من عادات العرب ، فلما جاء الإسلام ونزلت الآية الكريمة : ﴿ ادعوهم لآبائهم ﴾ [الأحزاب : ٥/٣٣] أصبح زيد يدعى زيد بن حارثة ، بدلاً من زيد بن محمد » .

وكان لزيد شرف السبق إلى الإسلام ، وشهد كثيراً من المشاهد الحربية ، ثم استشهد في غزوة (مؤتة) بعد أن قاتل قتال الأبطال ، ورأى الروم منه ما أدهشهم .

هذه لمحة خاطفة عن زيد والد أسامة ، أما أمه فهي أم أيمن حاضنة رسول الله ﷺ ، والتي قال الرسول ﷺ في شأنها : « أم أيمن أمي بعد أمي » .

من هذين الأصلين الكريمين تحدَّر أسامة ، وعاش في كنف النبي ﷺ وفي رعايته ، وكان الصحابة يطلقون عليه لقب (حِبّ رسول الله وابن حِبّه) . ويصف أسامة حُبَّ رسول الله ﷺ له بقوله : كان يأخذني رسول الله والحسن بن علي ، ثم يقول : « اللهم إني أحبُّهما فأحبَّهما » . وفي فتح الباري بشرح البخاري :

أنـه بلـغ من حب النبي ﷺ لأسـامـة رضي الله عنـه أن كان يردفـه وراءه مرات عديدة ، دخل مكة يوم الفتح ورديفه أسامة . وأناخ في ظل الكعبـة ودخلها مع بلال وأسامة ، وشوهد أسامة وهو رديف رسول الله ﷺ حين أفاض من عرفه .

ولد أسامة بمكـة ، ولم يعرف غير الإسلام دينـاً ، وتلقى تعـاليم الإسلام منـذ نعومـة أظفـاره من نبي الإسلام ، فلا عجب أن يـؤمن إيمـانـاً عميقـاً برسـالـة النبي ﷺ ، ويتحمس في الدفاع عنها .

خرج مع المجاهـدين في غزوة (أحـد) ولكن النبي ﷺ ردّه لصغر سنـه ، ثم أجازه في غزوة الخندق بعـد أن أصبح عمره خمسـة عشر عـامـاً ، كما شهـد الغزوات الأخرى تحت لواء الرسول القائد عليه الصلاة والسلام .

يقول ابن هشام في سيرته : إن أسامة كان إلى جانب شجـاعتـه النـادرة يتمتع بذكاء خـارق واتزان في التفكير ، ونضج عقلي مبكِّر ، مما جعلـه موضع ثقـة النبي ﷺ ، وأحد مستشـاريه ، يدلنا على عقيلتـه الراجحـة استشـارة النبي ﷺ لـه في قضية عائلية هامة ، هي قضية حديث الإفك ، قـالت عـائشـة أم المؤمنين : دعـا الرسول ﷺ عليّ بن أبي طالـب رضي الله عنه ، وأسامة بن زيـد رضي الله عنهما ، فاستشارهما ، فـأمـا أسـامـة فـأثنى عليّ خيراً ، ثم قـال : « يـا رسول الله أهلـك ، ولا نعلم إلا خيراً ، وهذا الكذب والباطل » .

ومع تقدير الرسول ﷺ له ، وحبه إياه . كان عليـه الصلاة والسلام يسـارع إلى لومه وإرشاده حين يرى منه بادرة تخـالف تعـاليم الإسلام . جـاء في طبقـات ابن سعـد أن رسول الله ﷺ ، أرسل أسـامـة على رأس قـوة من المسلمين ، ليلقـوا عدواً . ويحدث أسامة نفسـه عن نتيجـة هـذا البعث فيقول : « أتيت النبي ﷺ - وقد أتاه البشير بالنصر - فإذا هو متهلل وجهه ، فأدنـاني منـه ، ثم قـال : حـدثني فجعلت أحدثه ، فقلت : فلما انهزم القوم ، أدركت رجلاً وأهويت إليه بـالرمح :

فقال : لا إله إلا الله ، فطعنته فقتلته ، قال أسامة : فتغيَّر وجه رسول الله ، وقال : ويحك يا أسامة ، فكيف لك بلا إله إلا الله ؟ ويحك يا أسامة فكيف لك بلا إله إلا الله ؟ يردِّدها عليَّ ، حتى لوددت أني انسلخت من كل عمل عملته ، واستقبلت الإسلام يومئذ جديداً ، فلا والله لا أقاتل أحداً قال لا إله إلا الله ، بعد الذي سمعت من الرسول » . هذه التربية النبوية الكريمة العالية ، جعلت أسامة يرعى تعاليم الإسلام في كل أحواله وشؤونه .

أمر النبي ﷺ بتجهيز جيش صخم ، فيه أبو بكر ، وعمر ، وسعد بن أبي وقاص ، وأبو عبيدة بن الجراح رضي الله عنهم ، وجعل أسامة رضي الله عنه أمير هذا الجيش ، فتجهَّز الناس ، وأمر النبي ﷺ أسامة قائده ، أن يتوجه نحو فلسطين ، فيوطئ خيله تخوم البلقاء ، والداروم قرب مدينة غزة ، وكان النبي عليه الصلاة والسلام ، يقصد من ذلك إظهار قوة المسلمين حتى لا يطمع أحد في الاعتداء عليهم أو تعدي حدودهم .

وصادف أن مرض الرسول عليه الصلاة والسلام ، قبل مسيرة الجيش ، وكان مرضه مدعاة لتأخره ، فخرج عليه الصلاة والسلام ، عاصباً رأسه ، حتى جلس على المنبر ، ثم قال : « يا أيها الناس ، أنفذوا بعث أسامة ، فلعمري لئن قلتم في إمارته ، لقد قلتم في إمارة أبيه من قبله ، وإنه لخليق للإمارة ، وإن كان أبوه لخليقاً لها » ، ثم نزل النبي ، فأسرع الناس في جهازهم ، وخرج أسامة في جيشه ، وعسكر بالجُرف على مقربة من المدينة ، ينتظرون نتيجة مرض الرسول ﷺ ، وقد تخوَّفوا عليه .

وقد جاء في طبقات ابن سعد أن أسامة قال : « لما ثقل رسول الله ﷺ ، هبطت إلى المدينة ، وهبط معي الناس ، فدخلت على رسول الله ، وقد أصمت فلا يتكلم ، فجعل يرفع يده إلى السماء ، ثم يضعها عليَّ ، فأعرف أنه يدعو لي » .

وانتقل الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى ، وتولى الخلافة أبو بكر رضي الله عنه ، فكان أول أمر أصدره بعد أن تمت له البيعة ، أن قال : « أنفذوا بعث أسامة » .

وجعل همس يدور بين المسلمين ، مفاده تأخير الجيش عن المسير ، وتأمير من هو أكبر سناً من أسامة ، وينقل عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى الخليفة ما سمعه من الناس ، فلما سمع الصديق من عمر ذلك وثب وكان جالساً ، فأخذ بلحية عمر ، وقال مُغْضَباً : « ثكلتك أمك وعدمتْك يا ابن الخطاب ، استعمله الرسول الله ﷺ ، وأعزله أنا ، والذي نفسي بيده ، لو ظننت أن السِّباع تخطفني ، لأنفذت جيش أسامة ، كما أمر النبي ﷺ » .

وتم تجهيز الجيش وخرج أبو بكر رضي الله عنه في وداعه ماشياً وأسامة راكب ، وقبل أن يعود الصديق إلى المدينة ، وقف في جيش أسامة خطيباً ، وزوّد القائد بهذه الوصايا الإنسانية فقال : « يا أيها الناس ، أوصيكم بعشر فاحفظوها عني ، لا تخونوا ، ولا تغلّوا ، ولا تغدروا ، ولا تمثِّلوا ، ولا تقتلوا طفلاً صغيراً ، ولا شيخاً كبيراً ، ولا امرأة ، ولا تعقروا نخلاً ، ولا تُحرقوه ، ولا تقطعوا شجرة مثمرة ، ولا تذبحوا شاة ولا بعيراً إلا لمأكلة ، وسوف تمرون بأقوام ، قد فرغوا أنفسهم في الصوامع ، فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له ، اندفعوا باسم الله » .

ولعمر الحق ، إن قوانين الحرب في القرن العشرين لم تستطع أن تصل إلى الهدف الإنساني الرفيع الذي عبر عنه أبو بكر رضي الله عنه بهذه الكلمات القليلة .

وعاد أسامة من مهمته منصوراً ظافراً ، ودخل المدينة مكللاً بعزة الإسلام ، وفخار النصر .

الإسلامُ دِينُ القُوَّةِ

يقول تعالى في كتابه العزيز ﴿ من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن ، فلنحيينَّه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ﴾ [النحل : ٩٧/١٦] .

الإيمان هو محور السعادة في الدنيا والآخرة ، متى أتبع بالعمل الصالح ، والناس متفاوتون في الإيمان ، فمنهم قوي تدفعه عزيمته إلى الأعمال الصالحة ، والأمور الخيِّرة ، بما يعود على نفسه وأمته بالخير والإسعاد في الدنيا والآخرة ، فتراه مقداماً في ميادين الجهاد على اختلاف أنواعها ، يأمر بالمعروف ، وينهى عن المنكر ، ويدعو إلى كل خير ، ويسهم في كل عمل إنساني نبيل ، لا تفتر همته ، ولا تلين عزيمته ولا يجد الخَوَر إلى نفسه سبيلاً .

ومن اتصف بهذه الصفات ، فذلك هو المؤمن القوي الذي أراده الإسلام وحرضه على أن يكون كذلك ، تمشياً مع تعاليمه التي تدعو دائماً إلى القوة والعزة والشجاعة ﴿ ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ﴾ [المنافقون : ٨/٦٣] .

أما ضعيف الإيمان فتراه بعكس سابقه ، لا يقدم على خير ، ولا يحض على بِر ، ولا يسهم في بناء ، فبقي إشعاع الإيمان خافتاً في نفسه ، لم يقوّه بالعمل ، ولم يغذه بفعل الخير .

وهذان الصنفان من المؤمنين ، هما اللذان أشار إليهما النبي الكريم صلوات الله عليه وسلامه بقوله : « المؤمن القوي خير وأحبُّ إلى الله من المؤمن الضعيف ، وفي كلٍّ خير ، احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز ... » الحديث ، أخرجه مسلم عن أبي هريرة .

والقوة التي أشار إليها الرسول الكريم ﷺ ، والتي دعا المؤمن إلى الاتصاف بها ، والعمل على اكتسابها ، هي عامة شاملة لجميع أفراد القوة ، ولكل نواحيها .

فالمؤمن يجب أن يكون قوياً في إيمانه ، قوياً في عزيمته ، قوياً في عقيدته ، قوياً في إرادته ، قوياً في نفسه ، قوياً في بأسه ، قوياً في عدته ، قوياً في إنسانيته ، قوياً في أمله ، قوياً في بدنه ، قوياً في عقله وتفكيره . وكل هذه الصفات يفرضها عليه إسلامه ، وتوجبها عليه عروبته ، فمن تخلى عنها ، فهو مسلم من غير إسلام ، وعربي من غير عروبة .

وإن قوة البدن وصحة الجسم بسلامته من العلل والأمراض ، هي الأساس للاتصاف بكل تلك القوى المتقدمة ، لذلك وضع الإسلام تشريعات خاصة للأبدان تقيها من العلل ، وتحفظها من الأمراض ، لأن صاحب الجسد العليل ، لاتتاح له الفرصة للسير في مضمار الحياة ، والقيام بواجبه الإنساني كعضو في الهيئة الاجتماعية .

ذلك لأن الإنسان المريض ، ضعيف الإرادة ، واهي الأعضاء ، مضطرب التفكير ، عصبي المزاج ، لا يستفيد منه المجتمع الإنساني ، كما يستفيد من الأصحاء الأقوياء ، ولذلك مدح الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم قوة البدن ، مع سلامة النفس ، ومتانة الخلق ، في قوله على لسان ابنة شعيب ، عن موسى على نبينا وعليه الصلاة والسلام : ﴿ يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القويُّ الأمين ﴾ [القصص : ٢٦/٢٨] . كما أشارت آية أخرى إلى أن القوة الجسمية مزية محمودة ، وهي قوله تعالى : ﴿ إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة في العلم والجسم والله يؤتي ملكه من يشاء والله واسع عليم ﴾ [البقرة : ٢٤٧/٢] .

والخطاب في هذه الآية لبني إسرائيل في شأن طالوت ، فقد بينت الآية الكريمة أن اختيار طالوت كان لسببين ، هما بسطة العلم ، وهو الاطلاع الواسع في

العلم الـذي يكون فيـه حسن التـدبير ، وجودة الفكر في تصريف شـؤون الأمـة ، وبسطة الجسم وهو الكمال الجسماني المستلزم لكمال العقل وصحة الفكر .

والـذي يتتبع التشريعات الإسلاميـة المتعلقـة بصحـة الأجسام يلاحـظ أن الإسلام فرض على متبعيه كثيراً من الأصول التي يعتبرها الطلب اليوم من القواعد الأولية ، التي تصلح لدفع أكثر الأمراض قبل وقوعها ، وللتخفيف من حـدَّتهـا إذا وقعت .

من هذه الأصول التي وضعهـا الإسلام ، النهي عن الشراهـة ، والاستزادة من تناول الأطعمـة ، لأن الإسراف في تنـاول المـآكل يعرض الجهـاز الهضمي للأمراض والخلـل . قـال تعـالى : ﴿ وكلـوا واشربـوا ولا تسرفـوا ، إنــه لا يحب المسرفين ﴾ [الأعراف : ٣١/٧] .

إنك إذا تأملت بهـذه الكلمـات القليلـة ، وجـدتهـا قـانونـاً عظيمـاً من قوانين الصحة ، متى سـار الإنسـان على حكمهـا ، ضمن لنفسـه الصحـة ، ولجسـده القوة ، وكان بعيداً عن الأمراض . وللنبي ﷺ حديث في هذا المعنى ، إذ يقول : « ما ملأ ابن آدم وعـاء شراً من بطنـه ، بحسب ابن آدم لقيمـات يقمن صلبــه ، فـإن كان لا بد ، فثلث لطعامه ، وثلث لشرابه ، وثلث لنَفَسه » . يـأمر النبي عليـه الصلاة والسلام بأن يبقى ثلث المعدة خالياً حتى يترك مجـالاً للتنفس بسهولـة ، وفي هـذا حكمة واضحة في راحة المعدة ، والانتفاع بالطعام .

وقـد ثبت أن الإنسـان إذا أكثر من الطعـام لم يستطـع لـه هضماً ، ويصــاب بالتُّخمة وعسر الهضم ، وقـد يحـدث أن تصـاب المعـدة بـالاتسـاع والتمـدد بنتيجـة الإفراط ، فيفقـد الإنسـان الشهيـة بتنـاول الطعـام ، وإن تنـاولـه لم يستطـع لـه هضماً ، ويتسبب عن ذلك القيء أو الإسهال أو الإمساك أو الصـداع ، ومـا شـاكل ذلك من الأمراض والآلام .

ولأن الإسلام حريص كل الحرص على أن يكون المسلم قوياً في جسمه ليكون قوياً في جميع مرافق حياته ، وليستطيع أن يؤدي رسالته في الحياة كاملة على أحسن وجه ، أمر المسلم بالاعتدال في تناول طعامه ، ونهاه عن الإسراف ، ولعمر الحق ، إن كل ما بحثه الباحثون ، وقرره الأطباء وأشار إليه الفلاسفة والمصلحون في هذا الموضوع ؛ إن كل ذلك ينطوي تحت ما تشتمل عليه هذه الكلمات القليلة في الآية الكريمة : ﴿ وكلوا واشربوا ولا تسرفوا ﴾ [الأعراف : ٣١/٧] .

بعد أن يكون الجسم صحيحاً ، والعقل سليماً ، يتمكن المسلم من أداء رسالته نحو أمته ، ونحو مجتمعه ، ورسالة المؤمن شاقة قوية ، تتطلب أجساداً صحيحة ، وإرادات حديدية .

نعم ، إن المسلمين مكلفون بتحقيق العدالة في الأرض ، وهذا التكليف يقتضي أن يكافحوا الظلم والعدوان حيث كان ، ويزيلوا أسبابه ، إنهم مكلفون بذلك لا ليملكوا الأرض ، ويستولوا على المرافق ويستذلوا الأنفس ، بل لإعلاء كلمة الله في الأرض ، خالصة من كل غرض ، وبذلك يتحقق النظام الصالح الذي يسعد البشرية كافة ، بقطع النظر عن ألوانهم وأجناسهم وأديانهم .

ولتكليف الأمة الإسلامية بهذه المهمة الكبرى أشارت الآية الكريمة : ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً ﴾ [البقرة : ١٤٣/٢] .

وقد حرم الإسلام الدار الآخرة ، والنعيم المقيم ، على الذين يبتغون العلو في الأرض ، والإفساد في المجتمع . قال تعالى : ﴿ تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوّاً في الأرض ولا فساداً ، والعاقبة للمتقين ﴾ [القصص : ٨٣/٢٨] .

وهذه الدعوة الصادقة التي كلف المسلم بنشرها في الأرض ، قد تجد في طريقها عقبات ، من عصبيات وزعامات لا تقبل الحق ، ولا ترغب في إقامة

العدل ، لذلك أمر الإسلام بالاستعداد لمواجهة هؤلاء ، وأخذ الأهبة للحرب ، فقال : ﴿ وأعدّوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يوفّ إليكم وأنتم لا تظلمون ﴾ [الأنفال : ٨/٦٠] .

أمر الله المسلمين في هذه الآية الكريمة ، بأن يستعدوا لأعدائهم بكل ما لديهم من قوة ، وهو أمر لا يختص بزمان ولا بفريق من الناس ، ولفظ القوة عام في كل ما يتقوّى به على حرب العدو ، وكل ما هو آلة للحرب من الحصون ، وأسلحة البر والبحر والجو ، على اختلاف أنواعها وأشكالها ، بحسب الأزمنة والأمكنة المختلفة ، ومصانع الذخيرة ، وإنشاء معاهد لتعليم فنون الحرب ، وقيادة الجيوش ، وغير ذلك من الأسباب التي تجعل الأمة شديدة القوة مرهوبة الجانب .

والقصد من إعداد هذه القوى إرهاب أعداء الإسلام ، وتحذيرهم من عاقبة التعدي على الإسلام والعرب وعقائدهم ومصالحهم ، ولتكون الأمة آمنة مستقرة في عقر دارها ، وهذا ما يسمى في عرف العصر الحديث بالسلم المسلح ، فقد أوجبه الإسلام قبل أن تعرفه أوربا بزمن طويل . وهذا معنى قوله تعالى : ﴿ ترهبون به عدو الله وعدوكم ﴾ [الأنفال : ٨/٦٠] .

وقد أشار القرآن الكريم إلى مادة عظيمة من أهم المواد التي تتكون منها وسائل الدفاع ، وهي الحديد . فقال تعالى في سورة سمّيت بهذا الاسم الحديد : ﴿ ... وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب إن الله قوي عزيز ﴾ [الحديد : ٥٧/٢٥] .

ثم حض الإسلام المؤمنين على إنفاق المال في سبيل الله لإعداد القوى العسكرية التي أقر بها ، فقال تعالى : ﴿ وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يوفّ إليكم وأنتم لا تظلمون ﴾ [الأنفال : ٨/٦٠] .

وقـد بينت آيـة أخرى في القرآن الكريم ، أن ترك الإنفـاق في سبيل الله من أسباب التهلكة : ﴿ وأنفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة ﴾ [البقرة : ١٩٥/٢] والمعنى لا تهلكوا أنفسكم بـأيـديكم بترك الإنفـاق ، فيغلبكم العـدو ، ويتمكن من قهركم وإذلالكم واستعماركم .

أيها المسلمون : هذا هو دينكم يدعوكم إلى العزة والقوة ، ويحـذركم من الضعف والذلّـة ، ويرسم لكم الأسبـاب التي تنهض بكم ، وتـأخـذ بـأيـديكم إلى قمـة المجـد ، وتجعلكم دائماً وأبداً سادة الناس ، وقادة الدنيـا ، ومعلمي الخير . فقوموا بواجبكم في الأرض ، واعرفوا مكانكم في الوجود ﴿ ولا تهنوا ولا تحـزنـوا وأنتم الأعلـون إن كنتم مؤمنين ﴾ [آل عمران : ١٣٩/٣] . ﴿ والله معكم ولن يَتِرَكم أعمالكم ﴾ [محمد : ٣٥/٤٧] .

اغتِنَامُ الوَقْتِ

جـاء في الحـديث عن أبي هريرة رضي الله عنـه أن رسول الله ﷺ قـال : « بادروا بالأعمال سبعاً ، هل تنتظرون إلا فقراً منسياً ، أو غنى مطغياً ، أو مرضاً مفسـداً ، أو هرمـاً مفنّـداً ، أو موتـاً مجهـزاً ، أو الـدجـال فشر غـائب ينتظر ، أو الساعة ، فالساعة أدهى وأمر » . رواه الترمذي .

لقد وجهنا رسول الله ﷺ إلى قيمـة الوقت وأهميتـه ، وحضنـا على اكتسـاب العمل الطيب النافع قبل فوات الأوان ، وقبل أن ينـدم الإنسـان حيث لا ينفعـه الندم ، وإذا كانت الطبيعة لم تهبنا حياة طويلـة ، وأعمـاراً مـديـدة كأعمـار الأمم المـاضيـة ، فـالواجب علينـا أن نغتنم العمل الصـالح في هـذه المـدة القليلـة ، وألاّ نضيعها عبثاً ونفرط فيها .

هـذا يقضي عمره في جمع المـال وادخـاره ، فينظم عقود الآلاف في خزائنـه ، وينثر عقود السنين من عمره ، وقـد كان يبخـل في الإنفـاق حتى على نفسـه فضـلاً عن مؤاسـاة البؤسـاء والتعسـاء ، والإسهـام في مشـاريع الخير والبر ، ولو أنـه فعل شيئاً من ذلك ، لكان له فيما يجـده عنـد الله تعـالى من الثواب ، عوض عن الوقت الـذي بـذلـه في جمع هـذه الأموال ، ولكنـه لم يفعل حتى بغتـه الأجل ، ووقع بـه الموت ، فترك المال لغيره ، وبقي الحساب عليه .

وهذا يصرف أوقاته في التلهي بـالملاذّ والشهوات في غفلـة مسترسلـة ، فتحل ببدنه الأمراض والأسقام ، حتى يوقظه الأجل ، وكأنه كان في حلم أو منام .

وهذا لم يرزق القناعـة بمـا عنـده ، بل هو دائمـاً يتطلع إلى مـا في يـد الغير ، ويطمع في أشياء كثيرة ، ليس أمرهـا بيـده ، وليس الحصول عليهـا ميسوراً لـه ، فتذهب حياته ضياعاً في الكدر والشقاء ، والهم والغم .

وهذا يخاطر بنفسه ، ويلقي بها في المهالك لربح يربحه ، أو غنية يحصل عليها ، ليشبع نهم نفسه في حب المال واقتنائه ، وهو غني عن ذلك كله ، ولا حاجة به إلى الوقوع في شيء من هذه المخاطر ، فيموت ذاهلاً بين الأهوال والمخاوف والمتاعب .

وهذا يسلم نفسه إلى الكسل والدعة ، والاسترخاء والخمول ، فيذهب عمره سدى ، وكأنه لم يعش في هذه الحياة .

وتجد آخرين من الناس ليس لهم مقصد معين ، ولا مسلك مألوف ، ولا غرض مقصود ، ولا هدف واضح ، ولا سبيل بيّن ، فهم يسيرون مع كل ريح ، ويندفعون مع كل تيار ، وينتقلون من عمل إلى عمل ، بدون إتمامه ، ولا اجتناء فائدة منه ، فتراهم حيارى بأنفسهم يقضون الحياة بين التردد والتذبذب ، وفتور الهمم ، وانحلال العزائم .

إلى كل هذا يشير الرسول الكريم صلوات الله عليه وسلامه في كلماته الجزلة الجامعة « بادروا » أي سارعوا وسابقوا واحرصوا على وقتكم ، وقدروه قدره ، ولا تدعوا دقيقة واحدة منه تذهب بغير عمل صالح يعود عليكم بالنفع المشروع في دنياكم ، وتكسبون به رضاء ربكم في آخرتكم ، فليس أمامك ـ يا أيها الإنسان ـ إلا فقر يذهلك وينسيك ، أو غنى يهلكك ويطغيك ، أو مرض يقعدك ، أو هرم يعجزك ، أو موت فيه نهايتك من هذه الحياة وانتقالك إلى الدار الآخرة ، ثم بعد ذلك كله البعث والحساب .

وهنالك ﴿ تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء تودُّ لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً ﴾ [آل عمران : ٣/٣٠] ، هنالك ﴿ يوم يفر المرء من أخيه ، وأمه وأبيه ، وصاحبته وبنيه ، لكل امرئٍ منهم يومئذ شأن يغنيه ﴾ [عبس : ٨٠/٣٤ ـ ٣٧] ، هنالك يوم يندم من قتل وقته ، وأضاع عمره ، وانغمس في

الشهوات ، وتمادى في الإجرام على نفسه وعلى أمته ، هنالك يودّ هذا المجرم ﴿ لو يفتدي من عذاب يومئذ ببنيه ، وصاحبته وأخيه ، وفصيلته التي تؤويه ، ومن في الأرض جميعاً ثم ينجيه ﴾ [المعارج : ٧٠/١١ - ١٤] ولكنه بائس تعس من أين تأتيه النجاة وقد استهزأ بالموعظة ، واستخف بالنذر ، فليس له هنالك إلا ﴿ لظى ، نزاعة للشّوى ، تدعو من أدبر وتولّى ، وجمع فأوعى ﴾ [المعارج : ٧٠/١٥-١٨] .

أيها الأخ المسلم حذار أن تكون من الغافلين الذين عرضوا أنفسهم للخسارة والإخفاق وقتلوا أوقاتهم بسفساف الأخلاق ، أولئك هم الذين تعنيهم الآية الكريمة في قوله عز وجل : ﴿ ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضلّ أولئك هم الغافلون ﴾ [الأعراف : ٧/١٧٩] .

ولقد كان من دعاء الصدّيق رضي الله تعالى عنه : « اللهمّ لا تدعنا في غمرة ، ولا تأخذنا على غرّة ، ولا تجعلنا من الغافلين » .

وكان عمر رضي الله عنه يدعو بأن يرزقه الله البركة في الأوقات ، وإصلاح الساعات .

ومن أروع الصور التي عرض فيها رسول الله ﷺ إلى قيمة الموت قوله : « لن تزول قدما عبد يوم القيامة ، حتى يُسأل عن أربع خصال : عن عمره فيم أفناه ، وعن شبابه فيم أبلاه ، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه ، وعن علمه ماذا عمل فيه ؟ » .

رواه البزار والطبراني بإسناد صحيح ، واللفظ له عن معاذ بن جبل .

وقوله : « ما من يوم ينشق فجره إلا وينادي : يا ابن آدم أنا خلق جديد ، وعلى عملك شهيد ، فتزوّد مني فإني لا أعود إلى يوم القيامة » .

إذن ليس في الوجود أغلى من الوقت ، وإذا كانت الحكمة تقول : (الوقت من ذهب) فإن هذا صحيح من حيث القيم المادية للذين لا يقيسون الوجود إلا بها ، أما إذا نظرنا إلى أبعد من ذلك وجدنا أن الوقت هو الحياة ذاتها .

وهل حياتك ، أيها الإنسان ، في هذا الوجود شيء غير الوقت الذي يمضي بين الوفاة والميلاد ؟ وقد يذهب الذهب وينفد ، ولكنك تستطيع الحصول عليه مرة أخرى ، وتستطيع أن يكون معك أضعاف ما فقدت ، ولكن الوقت الذاهب والزمن الفائت لا تستطيع له إعادة ، أو إرجاعاً . فالوقت إذن أغلى من الذهب ، وأغلى من الماس ، وأغلى من كل جوهر وعرض لأنه هو الحياة .

وإن الأوقات لتتفاوت في يمنها وبركتها ، وكثرة الخير فيها ، فساعة أعظم من ساعة ، ويوم أفضل عند الله تعالى من يوم ، وشهر أكرم من شهر ﴿ وربك يخلق ما يشاء ويختار ﴾ [القصص : ٦٨/٢٨] .

هو الجد حتى تفضل العين أختها　　　وحتى يكون اليوم لليوم سيدا

وتلك فرصة أتاحها الله لنا نحن المؤمنين ، لنطرد فيها شبح الغفلة ، ولنعود فيها إلى التذكرة واليقظة ، ولنغتنم من نفحات الفضل حين تهب نسمات القبول ، فإن بعض الأوقات تتضاعف فيها الحسنات ، وترفع فيها الدرجات ، ويفتح باب المتاب على مصراعيه ، ليدخل من أراد الله به الخير من التائبين المنيبين .

ولقد جاءت الآيات الكريمة تشير إلى هذه الأوقات اليومية والأسبوعية ، والسنوية ، كما أكدت ذلك التوجيهات النبوية . فالله سبحانه وتعالى يقول : ﴿ فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون ، وله الحمد في السماوات والأرض وعشياً وحين تظهرون ﴾ [الروم : ١٧/٣٠ ـ ١٨] . ويقول : ﴿ واذكر ربَّك في نفسك تضرعاً وخيفةً ودون الجهر من القول بالغدو والآصال.ولا تكن من الغافلين ﴾ [الأعراف : ٢٠٥/٧] . ويقول : ﴿ والفجر وليال عشر ﴾ [الفجر : ١/٨٩ ـ ٢] يعني عشر ذي الحجة كما جاء في الصحيح عن ابن عباس . ويقول : ﴿ ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله في أيام معلومات ﴾ [الحج : ٢٨/٢٢] .

ويقول : ﴿ واذكروا الله في أيام معدودات ﴾ [البقرة : ٢٠٣/٢] هي أيام

التشريق ، كما قال ابن عباس . ويقول الرسول ﷺ : « خير يوم طلعت عليه الشمس يوم الجمعة ، فيه خلق آدم ، وفيه دخل الجنة ، وفيه أخرج منها » رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه .

فيا أيها الأخ المسلم ، هذه توجيهات من الله ورسوله تنبهنا إلى قيمة الوقت وطريقة الانتفاع به ، ثم استمع إلى قول النبي عليه الصلاة والسلام : « إن المؤمن بين مخافتين : بين عاجل قد مضى لا يدري ما الله صانع فيه ، وبين آجل قد بقي لا يدري ما الله قاضٍ فيه ، فليأخذ العبد من نفسه لنفسه ، ومن دنياه لآخرته ، ومن الشبيبة قبل الهرم ، ومن الحياة قبل الموت .

أيها الأخ الكريم : أمامك كل يوم لحظة بالغداة ، ولحظة بالعشي ، ولحظة بالسحر ، تستطيع أن تسمو فيها بنفسك وتحلّق بروحك الطهور إلا الملأ الأعلى فتظفر بخير الدنيا والآخرة ، أمامك يوم الجمعة وليلتها ، أمامك مواسم الطاعات وأيام العبادات ، وليالي القربات ، التي وجّهك إليها كتابك الكريم ورسولك العظيم ، فاحرص على أن تكون فيها من الذاكرين لا من الغافلين ، ومن العاملين لا من الخاملين ، واغتنم الوقت فالوقت كالسيف ، ودع التسويف .

وكن صارماً كالوقت فالمقت في (عسى) وخلِّ (لعلَّ) فهي أكبر علة

أيها الأخ الكريم : اغتنم الوقت ما دام في ملكك وتصرفك ، ويمكنك أن تنتفع به في وجوه المنافع ، ولا تكن كمن يتذكر عند ضياع الفرصة وقرب الأجل حيث لا يجدي التمني والترجي ، وحيث تصبح (لو) و (ليت) حرفين يجرانه إلى الندم والأسف ويؤكدان له الهلاك والتلف .

اللهم اهدنا إلى سواء السبيل ، واجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، إنك رؤوف رحيم .

الاحتِكَارُ وَالشُّح

أوحى إليَّ هذا الحديث ، ودعاني إلى الخوض في هذا الموضوع ، هـذه الأزمـة التي وقعت بشعبنـا العزيـز ، وهـذه الضـائقـة التي مستـه في حـاجـاتـه ورزقـه ، وما كانت هذه الأزمة تقع لو أن المواطنين استفتوا ضميرهم ، واستأذنوا إيمانهم ، لأن الإيمان الحق يحول بين الناس وبين الإضرار ببعضهم ، والضمير الحي يـأبى أن يفعل المواطن ما يضر مواطنه ، أو يؤذي أحداً من الناس .

نعم ما كانت هذه الأزمة لتقع بالشعب ، لو أن الناس تأملوا بما يفرضه عليهم دينهم وما يتطلبه منهم ضميرهم وإنسانيتهم وأخوتهم .

أما وقد طغى على الناس حب المال ، وكثرة الربح ، وجمع الثروات الطائلـة على حساب الشعب البائس ، والمستهلـك المسكين ، فقـد أصبح من الواجب ، أن يـذكر النـاس تعـاليم دينهم ، وإرشـادات رسولهم عليـه الصلاة والسلام ، ليعلمـوا موقف الدين الذي نسوه ، من عملهم الذي ارتكبوه .

وهأنذا أضع بين يديكم برنـامج الإسلام في معـالجـة هـذا الشـأن من نواحيـه المختلفـة ، لتروا كيف تشتمل تعـاليم الرسول ﷺ على الحلول الإيجـابيـة الفعـالـة ، لمشكلات الحياة .

ولما كان أهم ما يسبب الاضطراب في الأسواق ، ويحمل الناس ألوان العنـاء ، هو الاحتكار ، وإغلاء الأسعار ، عالجتها الشريعـة الإسلاميـة علاجـاً نـاجعـاً من شـأنـه أن يخفف من ضررهـا ، بـل يقضي عليها ، ليبقى الشعب هـانئـاً هـادئـاً مطمئناً على رزقه وقوته .

يروي أبو هريرة رضي الله عنـه أن الرسول ﷺ قـال : « من احتكر حكرة يريد أن يغلي بها على المسلمين فهو خاطئ » . والحكرة حبس السلع عن البيع .

وعن عمر رضي الله تعالى عنـه قـال : سمعت النبي ﷺ يقول : « من احتكر على المسلمين طعامهم ضربه الله بالجذام والإفلاس » .

وعن معقل بن يسار رضي الله عنه قال : قـال رسول الله ﷺ : « من دخل في شيء من أسعـار المسلمين ليغليـه عليهم كان حقـاً على الله أن يقعـده بعظم من النار يوم القيامة » أي بمكان عظيم منها .

فهذه أحاديث ثلاثة ، يبين أولها أن الاحتكار جريمة ، وذلك هو مـا يعبرون عنه الآن بالتكييف القـانوني للفعل ، إذ يقول عليـه الصلاة والسلام عن المحتكر : إنه خاطئ . وفي الحديث الثاني يذكر أن الله يعجل بعقوبة المحتكر في الدنيـا ، إذ يبشره بالجذام والإفلاس . أما الحديث الثالث فيـذكر عقوبـة المحتكر في الآخرة ، وهي ليست النار فحسب ، وإنما « مقعد عظيم منها » أعده الله له .

بهـذا استـوفت المسـألـة جـانب الـوازع الـديني ، وأيقظت شعلـة الإيمـان في النفس ، ليكـون المـؤمن حــذراً من الـوقـوع فيما يـؤدي إلى أي نـوع من أنــواع العقوبات الثلاث التي نصت عليها أحاديث الرسول الكريم ﷺ .

ومن ذا الذي يرضى لنفسه أن يكون في نظر الشارع خاطئاً ، معرضاً للبلاء والفقر في الدنيا ، والعذاب الشديد في الآخرة ؟

وحقـاً إن للـوازع الـديني لأثراً في نفـوس كثير من النـاس ، وإنـه إحسـاس شريف يخالج المؤمن في جميع حالاته ويجعل من نفسـه رقيبـاً على نفسـه ، فيريح المجتمع من كثير من ألوان المخالفات والمظـالم ، وقـد أدركت الحكومـات الإسلاميـة قيمته وآثاره ، فانتفعت به في تقويم اعوجاج الأفراد ، وابتعادهم عن تعـاليم الإسلام القيمة العادلة .

ولكن الشارع لم يقف عنـد هـذا الحـد من العلاج ، ولم يكتف بـالثمرات التي يجنيها المجتمع من هذا الوازع الديني ، لأن الناس ـ ولا سيما في زماننا هذا المـادي ،

الـذي ضعف فيـه الـدين ، ومـات فيـه الضمير ـ قـد تطغى عليهم المـادة والشغف بالاستكثـار منهـا وجمعهـا بشتى الوسـائل ، فتنسيهم أمر الـدين ، وتعـاليم الرسول ﷺ ، وحقوق المواطنين فتدفعهم إلى التمرد عليها ، والاستهانة بها .

ولأمثـال هـؤلاء الجشعين ، وللحـد من طمعهم ونـزواتهم ، خطّت تعـاليم الإسلام خطـوة أخرى ، فجعلت من حـق ولي الأمر أن يكره المحتكرين على بيـع ما عندهم بقيمة المثل عند ضرورة الناس إليه .

روى مالك في الموطأ أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قـال : « لا حكرة في سوقنا ، لا يعمِد رجال بأيـديهم فضول من أذهـاب (أي أموال ذهبيـة) إلى رزق من أرزاق الله نزل بساحتنا فيحتكرونه علينا .. ».

أيها الناس ، أيها المواطنون ، أيها المسلمون : إن الإسلام دين يقوم على البذل والإنفاق ، ويضيع على الشح والإمسـاك ، ولـذا حبب إلى بنيـه أن تكون نفوسهم سخية ، وأكفهم ندية ، ووصاهم بـالمسـارعة إلى دواعي الإحسـان ، ووجوه البر ، وأن يجعلوا تقديم الخير إلى الناس شغلهم الدائم ، لا ينفكون عنه صباح مساء .

قال تعالى : ﴿ الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سراً وعلانية فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ [البقرة : ٢٧٤/٢] .

وإن من واجب المسلم أن يقتصد في مطـالب نفسـه ، حتى لا يستنفـد مـالـه كله ، ليستطيع أن يشرك غيره فيما آتـاه الله من فضلـه ، بل ليـدخل فيمن ينطبق عليهم قول الله تعالى : ﴿ ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصـاصـة ﴾ [الحشر : ٩/٥٩] .

وفي الحـديث أن الرسول عليـه الصلاة والسـلام قـال : « السخيُّ قريب من الله ، قريب من الناس ، قريب من الجنة ، بعيـد عن النـار . والبخيل بعيـد من

الله ، بعيد من الناس ، بعيد من الجنة ، قريب من النار . والجاهل سخيّ أحبُّ إلى الله من عابد بخيل » .

ورحم الله المسلمين الأولين ورضي عنهم ، فقد سمعوا هذه التعاليم الحكيمة فعملوا بها ، وساروا عليها . وعاشوا من أجلها ، فكان مجتمعهم مجتمع إخاء ووئام ومحبة . عرفوا أن الدنيا خادعة فحذروا منها ، وأنها زائلة فأعرضوا عنها ، وأن المال متاع فأنفقوا منه ، وقدموه بين أيديهم ليجدوا ثوابه عند مليك مقتدر .

يروي لنا التاريخ أن سيدنا عثمان رضي الله عنه ، شعر أن في الناس حاجة ، وفي الأسعار غلاء ، وكانت له تجارة ضخمة فيها صنوف من الغذاء والكساء وأنواع السلع ، ولما قدمت من الشام ، واقتربت من المدينة ، جاءه التجار يساومونه ويربحونه ، حتى دفعوا له ربحاً بالعشرة خمسة ، وهو يقول : جاءني أكثر ، فقالوا له : نحن تجار المدينة ، فمن دفع لك أكثر ؟ فقال : إن الله وعد بالحسنة عشرة أمثالها . وإني أشهدكم أن جميع هذه التجارة صدقة على أهل المدينة ، وما جاء المساء حتى كانت كلها موزعة على المحتاجين ولم يبت منها شيء .

وقد كان الليث بن سعد ، الفقيه العالم المشهور ، غنياً ذا سعة وميسرة ، فكان يقوم بحق هذه النعمة ، ويؤدي لله شكرها ، وهي تنمو وتزداد ، وكان من إحسانه وبره ، أن لا يتكلم كل يوم حتى يتصدق على ثلاث مئة وستين مسكيناً .

وروي أن مجاعة وغلاء وقع في مصر ، وأميرها عبد الحميد بن سعد فقال : والله لأعلمن الشيطان أني عدوه ، فتكفل بإعالة محاويجهم ، وكفاية فقرائهم إلى أن رخصت الأسعار ، ثم عزل عنهم ، فرحل وعليه ألف ألف درهم ، فرهن بها حلي نسائه ، وقيمتها خمس مئة ألف ألف ، فلما تعذر عليه ارتجاعها ، كتب إليهم ببيعها ، ودفع الفاضل منها عن حقوقهم ، إلى من لم تنله صلاته .

هكذا كان حال المسلمين أصحاب الإيمان المشع والضمير الحي ، يتسابقون

بالإحسان إلى الناس ، ويفخرون بالتوسعة عليهم ، راجين بذلك أن يدخلوا تحت قول الرسول ﷺ : « من نفَّس عن مسلم كربة من كرب الدنيا ، نفَّس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة ، ومن يسَّر على معسر ، يسَّر الله عليه في الدنيا والآخرة ، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه » .

أما أولئك الذين يحرصون على المال ، ويتهالكون على جمعه وتكثيره ، ولو بالتضييق على مواطنيهم واحتكار أرزاقهم ، هؤلاء سيندمون حينما يأتيهم الأجل بغتة ، ويذهبون إلى مقرهم الأخير فرادى ، قد تركوا وراءهم كل شيء يتمتع به ورثتهم ، وحسابه عليهم .

جاء في الحديث : « يقول العبد مالي مالي ، وليس له من ماله إلا ما أكل فأفنى ، أو لبس فأبلى ، أو تصدق فأبقى ، وما سوى ذلك ، فهو ذاهب وتاركه للناس » .

وعجيب أن يشقى امرؤ في جمع ما يتركه لغيره ، وإذا لم يستفد المسلم من ماله فيما يصلح معاشه ، ويحفظ معاده فمم يستفيد بعد ؟ وقد أماط الرسول ﷺ اللثام عن هذه الحقيقة فقال : « أيكم مال وارثه أحب إليه من ماله ؟ قالوا : يا رسول الله ما منا أحد إلا ماله أحب إليه . قال : فإن ماله ما قدم ، ومال وارثه ما أخرَّ » . رواه البخاري .

إن الحرص على المال ، والرغبة في جمعه بطريق الاحتكار وغلاء الأسعار ، والتضييق على المواطنين ، إن هذا شح وجريمة متى لصقت بالإنسان ، أذلته في الدنيا ، وأشقته في الآخرة .

﴿ فاتقوا الله ما استطعتم واسمعوا وأطيعوا وأنفقوا خيراً لأنفسكم ومن يوقَ شحَّ نفسه فأولئك هم المفلحون ﴾ [التغابن : ٦٤/١٦] .

أَدَبُ الخُصُومَةِ

الخصومة من طبيعة البشر في هذه الحياة الدنيا ، لا معدى لهم عنها ، ولا محيص لهم منها ، ما داموا يختلفون ويتجادلون ، ﴿ ولا يزالون مختلفين ، إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم ﴾ [هود : ١١/١١٨ ـ ١١٩] . ﴿ وكان الإنسان أكثر شيء جدلاً ﴾ [الكهف : ١٨/٥٤] صدق الله العظيم .

بيد أنها تختلف قوة وضعفاً ، ورفقاً وعنفاً ، تبعاً لاختلاف الطبائع والميول ، والآراء والعقول ، وكبر النفوس وصغرها ، وعلو الهمم وقصرها .

وإن من الدناءة بمكان ، أن ينزل الإنسان إلى هذه الهوة السحيقة من الكذب والافتراء ، حينما يكون بينه وبين آخر عداوة أو نزاع على شيء ما ، فيعمد إلى إشاعة الكذب ، وإلصاق التهم ، واختلاق كل ما يشين ليحطم سمعته ، ويشوه سيرته ، ويثلم كرامته ، إن من يهبط في خصومته إلى هذا المستوى الرخيص لا شك أنه فاقد الرجولة ، عديم المروءة ، دنيء الهمة ، وهو إلى ذلك قد استحق من الله العذاب الأليم . قال تعالى : ﴿ إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب أليم في الدنيا والآخرة .. ﴾ [النور : ٢٤/١٩] .

فالافتراء على الأبرياء ، أو التزيد في النزاع ، بحيث يخرج عن الحقائق ، ويشوه وجه الحق ، ليشفي حقده ، ويمضي غيظه ، كل هذا من أقبح الزور وأشد الجرائم ، ومقترف هذا يعبر عما انطوت عليه نفسه من خبث ودناءة .

روت عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه : « تدرون أربى الربا عند الله ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : فإن أربى الربا عند الله استحلال عرض امرئ مسلم ، ثم قرأ رسول الله : ﴿ والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتاناً وإثماً مبيناً ﴾ [الأحزاب : ٣٣/٥٨] .

وقد رتب الإسلام عقوبات عاجلة لبعض جرائم الافتراء ، ينفذها الحاكم المسلم في الدنيا ، ثم له في الآخرة صنوف من العذاب ، ولعذاب الآخرة أشد وأبقى .

قال رسول الله : « من ذكر امرءاً بشيء ليس فيه ليعيبه به ، حبسه الله في نار جهنم ، حتى يأتي بنفاد ما قال » ، وفي رواية : « أيما رجل أشاع على رجل مسلم كلمة وهو منها بريء ، يشينه بها في الدنيا ، كان حقاً على الله أن يذيبه يوم القيامة في النار حتى يأتي بنفاد ما قال » . أي حتى يثبت عند الله صحة قوله بأخيه ، وما دام الذي قاله بهتاناً وافتراء ، فكيف يستطيع أن يثبته ، ولا سيا أمام المحكمة الإلهية العادلة !

وروى البخاري ومسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن النبي ﷺ قال : « أربع من كنّ فيه كان منافقاً خالصاً ، ومن كانت فيه خصلة منهن كان فيه خصلة من النفاق حتى يدعها : إذا اؤتمن خان ، وإذا حدث كذب ، وإذا عاهد غدر ، وإذا خاصم فجر » .

فأنت ترى أيها الأخ الكريم ، أن الرسول عليه الصلاة والسلام ، لم ينف الخصومة ، لأنها لا بد تعرض أحياناً ، إنما نهى عن الفجور فيها إذا وقعت ، ودعا إلى الاعتدال والتزام الصدق ، ليحق الحق ويزهق الباطل .

وما أكثر الخصومات في زماننا ، وما أبشع الفجور في هذه الخصومات ، فإن المتخاصمين ينبذان الدين ويهجران الشرف ، ويقذفان بالمروءة والرجولة في مكان سحيق ، ويجرد كل واحد ضد الآخر ، سيفاً من الباطل ، وسيلاً من الأراجيف والأضاليل ، ويلصق به ما شاء له حقده ، من تهم وجرائم لا علم له بها ، ولا عهد له بمثلها ، وإن خصومة كهذه لجديرة أن توسع شقة الخلاف ، وأن تؤدي إلى التقاطع المشين ، والتباغض المهلك ، والنهاية الأليمة .

وإليك أيها القارئ العزيز أمثلة واقعية ، عن بعض الخصومات التي تظهر على مسرح الحياة في مجتمعنا الذي نعيش فيه .

يظهر مشروع إصلاحي لعلاج أمراض الأفراد والأسر ، فبدل أن يبين كل مفكر نقص المشروع ، وما يحتاج إليه لإتمام ذلك النقص ، تراه يحط من قيمة المشروع الذي أبرزه زميله ، وينتقصه بذكر ما فيه من عيوب وأغلاط ، ويبرز مشروعه هو ، وإذا بزميله يقوم بدور المنتقم ، وبرد الفعل ، فيموت المشروع ، ويستأصل المرض .

يتخاصم مرشحان في دائرة انتخابية ، فبدل أن يتقدم المرشح ببيان أعماله وخدماته ، وما ينوي أن يقوم به من إصلاح لأمته ومواطنيه ، بدلاً عن هذا كله ، تراه يلوح بمثالب منافسه ، ويلمح بكثرة نقائصه ، ويتظاهر بأنه وحده الكامل .

ويتبارى تاجران في استيراد صنف ، أو عرض نوع مما يتجران به ، فتجد كلاًّ منهما يمدح سلعته ، ويرفع بضاعته ، ويعلي من شأنها ، ليصل إلى الزيادة في ثمنها ، بينما تجده يغمز من شأن بضاعة الآخر ، ويضع بها كل العيوب ، وهكذا في جميع شؤوننا الخاصة والعامة ، وفي جميع مرافق حياتنا نجد خصومتنا ، لا تقف عند حد الاعتدال .

وإن أروع مثال على أدب الخصومة ، ومراعاة الخلق الكريم فيها ، هو ما وقع بين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما .

أخرج البخاري عن أبي الدرداء رضي الله عنه ، قال : « كنت جالساً عند النبي ﷺ ، إذ أقبل أبو بكر آخذاً بطرف ثوبه ، حتى أبدى عن ركبته ، فقال النبي : أما صاحبكم فقد غامر (أي دخل في غمرة الخصومة) فسلم وقال : يا رسول الله ، إنه كان بيني وبين ابن الخطاب شيء ، فأسرعت إليه ثم ندمت ، فسألته أن يغفر لي فأبى عليّ ! فأقبلت إليك . فقال : يغفر الله لك يا أبا بكر (ثلاثاً) . ثم

إن عمر ندم فأتى منزل أبي بكر ، فسأل : أثم أبو بكر ؟ فقالوا : لا . فأتى إلى النبي ﷺ ، فجعل وجه النبي يتمعّر ! حتى أشفق أبو بكر فجثا على ركبتيه فقال : يا رسول الله ! أنا كنت أظلم مرتين . فقال النبي : إن الله بعثني إليكم فقلتم : كذبت ! وقال أبو بكر : صدق ، وواساني بنفسه وماله ، فهل أنتم تاركو لي صاحبي ؟ مرتين . فما أوذي بعدها » .

إن هذا الحديث يضرب لنا مثلاً من أروع الأمثال على نبل الخصومة ، وشرفها ، فنرى فيه من أعاجيب الفضل والسؤدد ، ثم من أساليب التربية والتزكية والتعليم ، والاعتراف بالفضل والجميل لأهله ، ما يفوق وصف الواصفين ، ولا بد لي من إيضاح الحادثة التي تضمنها هذا الحديث بقدر ما لديَّ من وقت .

كان بين الصاحبين رضي الله عنهما مقاولة في شأن من الشؤون ، أسرع فيها الصديق إلى إغضاب الفاروق ، فانصرعمر غضبان أسفاً ، وتبعه أبو بكر من فوره نادماً معتذراً ! يسأله أن يتقبل عذره فلم يقبل ، ويرجوه أن يغفر له فلم يفعل ، بل دخل عمر داره ، وأغلق بابه في وجهه ، وتأثر أبو بكر من هذا العمل ، ورأى أن يرفعه إلى الشفيع المشفع ﷺ .

فأقبل على الرسول ﷺ وقصَّ عليه ما حدث بينهما ، فلما فرغ من شكاته طمأنه الرسول الكريم ﷺ ودعا له .

أما الفاروق فقد ندم على عدم قبول المعذرة ، وأنب نفسه على هذه الشدة ، التي قابل بها أحب الناس إليه بعد رسول الله ﷺ ، فأسرع إلى بيت الصديق ، ليسامحه ويتقبل معذرته ، ظناً منه أنه عاد إلى بيته . ولما لم يجده بمنزله أسرع إلى النبي ﷺ ، وعند المربي الأعظم التقى الخصمان ، ليتلقى كل منهما درساً عظيم النفع ، حميد العاقبة .

ويجلس عمر رضي الله عنه من الرسول ﷺ مجلس التلميذ من معلمه ، ويعرض عنه النبي صلوات الله عليه مراراً ، ليلقنه درساً فيه شيء من القسوة ،

وفيه نوع من الشدة ، ولكنه مع ذلك فيه الكثير من التربية والموعظة .

فعمر كان صاحب حق فأضاعه بتصلبه وتشدده وأصبح مديناً لخصمه ، حيث تبعه على الفور ، يستغفره ويستسمحه ، فلم يقبل منه ، وتعاليم الرسول عليه الصلاة والسلام تطلب ممن له الحق أن يلين ويسمح ، وأن يقبل معذرة أخيه عندما يجيئه معتذراً مستغفراً ، ورفض الاعتذار خطأ كبير .

جاء في الحديث : « من اعتذر إلى أخيه المسلم فلم يقبل منه ، كان عليه مثل خطيئة صاحب مكس » . رواه ابن ماجه . وروى الطبراني : « من تُنُصِّل إليه فلم يقبل لم يرد عليَّ الحوض » .

لذلك كان عمر رضي الله عنه مستحقاً لإعراض الرسول ﷺ عنه ، وتأنيبه له ، والعتب عليه ، وما كاد الصديق رضي الله عنه ، يرى كل هذا من الرسول عليه الصلاة والسلام ، حتى أشفق على عمر رضي الله عنه ، وخشي أن يناله من الرسول ﷺ ما يكره ، فجثا على ركبتيه أمام الرسول ﷺ معتذراً آسفاً ، ويقسم للنبي ﷺ مرتين أنه كان أظلم ، لأنه هو الذي بدأ صاحبه بالإساءة ! وهنا يكف النبي عليه الصلاة والسلام عن تأنيب عمر رضي الله عنه وتوبيخه ، ثم يذكر بعض مآثر أبي بكر رضي الله عنه ومناقبه ، وسبقه إلى التصديق برسالته ، ومؤاساته له بنفسه وماله .

وهناك درس إلهي أجل وأعظم ، وتأديب رباني للناس كافة ، ولأولي الأمر منهم خاصة ، يرشدهم إلى أدب الخصومة ، وما يجب عليهم إذا هم خاضوا لجتها ، ودخلوا غمارها .

روى البخاري في صحيحه أنه (لما قدم على النبي ركب من بني تميم ، قال له أبو بكر رضي الله عنه : يا رسول الله أمِّر عليهم القعقاع بن معبد ، وقال عمر رضي الله عنه : بل أمِّر عليهم الأقرع بن حابس . فقال أبو بكر لعمر : ما أردت إلا خلافي ، وقال عمر : ما أردت خلافك فتماريا حتى ارتفعت أصواتها في حضرة النبي عليه الصلاة والسلام ، فنزل قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين

يدي الله ورسوله واتقوا الله إن الله سميع عليم ، يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون ﴾ [الحجرات : ١/٤٩ ـ ٢] .

لقد اختصما في الخير ، واجتهد كل منهما بما فيه المصلحة للأمة ، ولكنهما نسيا أنهما في مجلس الرسول ﷺ وعزب عنهما أن مجلسه أجلُّ وأرفع من أن يكون فيه تنازع أو صخب ، وهما الأسوة الحسنة بعد رسول الله ﷺ ، فكان في هذه الآية التأديب الإلهي الرائع ، الذي يملأ النفوس إجلالاً وإكباراً للرسول الأكرم عليه أفضل الصلاة والسلام ، وينفي المراجعة أو المجادلة مما يشوبها من كدر الخصومة ولجاجها .

وعلى هذا النحو كانت جميع الخصومات التي تحدث بين المسلمين الأولين لا يقصد منها إلا رضاء الله ، وإصلاح الأمة ، وتحقيق المصالح العامة .

وإن من أحق الناس في مراعاة هذه الآداب في الخصومات والمجادلات ، والرفق فيها ، إنما هم العلماء ، والأدباء والكاتبون ، والزعماء السياسيون ؛ لأن الناس ينتظرون من العلماء والأدباء النتيجة العلمية النافعة ، التي تنبثق من خلال مجادلاتهم ومناقشاتهم ، التي يترتب عليها إظهار الحقائق العلمية والأدبية والتاريخية ، وكذلك الزعماء والسياسيون ، فإن الناس يترقبون أن يتفقوا بعد اختلافهم ، وخصوماتهم ، على تحقيق الهدف الأسمى ، والصالح العام لأنهم ومواطنيهم ، ينبغي ألاّ يختلفوا ، لينتصر أحد على الآخر ، ويتغلب حزب على حزب ، لأن هدفهم معروف واضح ، فهم لا يختلفون في الجوهر ، إنما يختلفون في سلوك الطريق الموصلة إلى الهدف ، والمحققة للغاية المنشودة .

وقد أمرنا الله بمراعاة هذه الآداب الكريمة حتى مع المخالفين لنا في العقيدة ، فقال تعالى : ﴿ ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن ﴾ [العنكبوت : ٤٦/٢٩] . فما أعظم هذه الإشارات الإلهية ، والتوجيهات النبوية التي لو اتبعناها لكانت أعمالنا كلها خيراً ونفعاً لصالحنا وتحقيق أهدافنا .

طَاعَةُ اللهِ وَرَسُولِهِ طَرِيقٌ إلى الجَنَّة

قال تعالى في كتابه العزيز : ﴿ قل أطيعوا الله وأطيعوا الرسول فإن تولَّوا فإنما عليه ما حمِّل وعليكم ما حمِّلتم وإن تطيعوه تهتدوا وما على الرسول إلا البلاغ المبين ﴾ [النور : ٥٤/٢٤] .

طاعة الله ورسوله ﷺ أمران واجبان على كل من يؤمن بالله ورسوله ، إذ أن الطاعة حصيلة الإيمان . وطاعة الله ورسوله أمران متلازمان ، لا ينفك أحدهما عن الآخر ، فمن أدى الطاعة لله تعالى ، كان عليه أن يؤدي الطاعة للرسول ﷺ ، ومن أحب الله عز وجل ، كان عليه أن يحب رسوله الكريم ﷺ ، قال تعالى : ﴿ من يطع الرسول فقد أطاع الله ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفيظاً ﴾ [النساء : ٨٠/٤] . وقال تعالى : ﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ﴾ [آل عمران : ٣١/٣] . وطاعة الله ورسوله تتمثل واضحة في فعل ما أمرا به ، واجتناب ما نهيا عنه ، والله تعالى يقول : ﴿ وما آتاكم الرسول فخذوه ، وما نهاكم عنه فانتهوا ﴾ [الحشر : ٧/٥٩] . والرسول عليه الصلاة والسلام يقول : « كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى ، قالوا : ومن يأبى يا رسول الله ؟! قال : من أطاعني دخل الجنة ، ومن عصاني فقد أبى » .

هذه نصوص تدعو ـ بلا شك ولا مواربة ـ إلى طاعة الله ورسوله ، ثم تبين الآية الأولى بأن الناس إذا تولوا عن الإطاعة ، فما على الرسول ﷺ إلا البلاغ ، وقد أدى الرسالة ، وبلغ الأمانة ، ونصح الأمة ، وخرج من عهدة ما حمله ، وما كلف به .

وإنما يبقى على الأمة وزر الإعراض عن شرعه ، وإثم الترك لهديه ، ومن ثم التخبط في دياجير الظلام ، والحيرة فيما يأتون وما يدعون من الأمر ، إذ لا يمكن

لأمة جاءها النور فأعرضت عنه ، ووضح لها السبيل فتنكبته ، وجاءها من الله كتاب مبين فهجرته ، ودعيت إلى طاعة الله ورسوله فردت على العصيان والمخالفة ، لا يمكن لأمة ارتكبت مثل هذه المخاطر ، أن تنجح في حياتها ، أو تنجو في آخرتها ، ومن أين لها النجاح والنجاة وقد تركت الجادة ، واتبعت البنيات ؟! وقد علقت الهداية على طاعة الرسول ﷺ حيث يقول تعالى : ﴿ وإن تطيعوه تهتدوا ﴾ [النور : ٥٤/٢٤] ، أي لأنه يدعوكم إلى الصراط المستقيم ، فإن أطعتموه فقد أحرزتم حظاً وافراً من الخروج عن الضلالة إلى الهدى ، وإن لم تفعلوا أو توليتم فقد عرضتم نفوسكم لسخط الله وعذابه . قال تعالى : ﴿ ومن يعص الله ورسوله و يتعدَّ حدوده يدخله ناراً خالداً فيها وله عذاب مهين ﴾ [النساء : ١٤/٤] .

ونحن حينما نفكر قليلاً في الأسباب التي ارتقى بها أجدادنا ، وفاز من أجلها أسلافنا ، وكان لهم هذا التاريخ المشرف ، نجد أنها ترجع كلها إلى سبب واحد ، هو تفانيهم في طاعة الله وطاعة رسوله عليه الصلاة والسلام ، طاعة تجعلهم يسارعون إلى امتثال الأوامر واجتناب النواهي .

وقد تركوا لنا مثلاً رائعة ، وحوادث مشرقة ، من عجائب الانقياد والطاعة ، ما لو فعلنا بعضه نحن اليوم ، لكان لنا ما نريد من المجد والسؤدد والخلود .

وإني ذاكر لكم بعض هذه المثل ، لتعلموا أن الطاعة ليست مجرد دعوى يدعيها الإنسان ، دون أن يقيم عليها الدليل العلمي ، لامتثال الأوامر واجتناب النواهي .

روى ابن جرير بسنده عن ابن زيد قال : « دعا رسول الله ﷺ عبد الله بن عبد الله بن أبي ، فقال : ألا ترى ما يقول أبوك ؟ قال : ما يقول أبي ؟ بأبي أنت وأمي يا رسول الله . قال : يقول لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجنَّ الأعز منها الأذل . فقال : فقد صدق والله يا رسول الله ، أنت والله الأعزُّ وهو الأذلُّ ، أما والله لقد قدمت المدينة يا رسول الله ، وإن أهل يثرب ليعلمون ما بها

أحد أبرّ مني ، ولئن كان يرضى الله ورسوله أن آتيها برأسه لأتيتها به . فقال رسول الله ﷺ : لا . ولما قدموا المدينة وقف عبد الله بالسيف في وجه أبيه ، ومنعه من دخول البيت إلا بإذن من رسول الله ﷺ ، وبلغ الخبر الرسول ﷺ فأذن له أن يدخل بيته ، فتركه عندئذ » .

أرأيتم إلى هذه الطاعة التي لا يقف في سبيل تنفيذها أقرب آصرة وأقوى رحم ؟!

وهذا مثل آخر من غرائب الطاعة وسرعة الانقياد ، ما حدث عند نزول النهي عن الخمر ، كما رواه البخاري عن أنس رضي الله عنه قال : « كنت ساقي القوم في منزل أبي طلحة ، وكان خمرهم يومئذ الفضيخ ، فأمر رسول الله ﷺ منادياً ينادي : ألا إن الخمر قد حرمت . قال : فقال لي أبو طلحة : اخرج فأهرقها ، فخرجت فهرقتها فجرت في سكك المدينة ، فقال بعض القوم : قد قتل قوم وهي في بطونهم ، فأنزل الله : ﴿ ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا .. ﴾ [المائدة : ٥/٩٣] .

هذه هي الطاعة ، سمعوا منادي الرسول ﷺ يعلن تحريم الخمر ، فما ترددوا في الكف عنها ، وفي إراقتها ، حتى جرت في طرق المدينة . وقد جاء في رواية أبي بريدة أنه قال : جئت أصحابي فقرأت عليهم : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجسٌ من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون ، إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدّكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون ﴾ [المائدة : ٥/٩٠ ـ ٩١] ؟ قال : وبعض القوم شربته في يده ، شرب بعضاً وبقي في الإناء ، فقال بالإناء تحت شفته العليا أي أراقه ولم يتم ما فيه ، ثم قالوا انتهينا ربنا . انتهينا ربنا . هكذا كانت طاعة المسلمين الصادقين وامتثالهم لأمر الله ورسوله فمتى نلحق بالقوم ، ونعمل مثل ما عملوا ، لنسود كما سادوا ، ونشيد كما شادوا ؟

حكمة العيدَينِ

أيها الإخوة المستمعون : لقد انقضى شهر رمضان المبارك ، الذي فرض علينا ليطهِّر نفوسنا ويثقف عقولنا ، ويقوي إرادتنا ، ويرقق شعورنا ؛ ويجعلنا نتحقق بمعنى إسلامنا وإيماننا ، وها هي أيام العيد قد أشرقت بابتساماتها ومباهجها وسرورها .

وإن لكل أمة أعياداً تبتهج فيها ، وتعتز بمعانيها ، وإننا نحن المسلمين من أعظم الأمم أعياداً إذ أن في أعيادنا ذكريات عظيمة ، ومعاني ، إذا نحن استعدناها ولاحظناها ، أعادت إلى نفوسنا العزة ، والعظمة والهداية والنور .

أخرج أبو داود عن أنس رضي الله عنه قال : « قدم رسول الله ﷺ المدينة ، ولهم يومان يلعبون فيهما ، فقال : ما هذان اليومان ؟ قالوا : كنا نلعب فيهما في الجاهلية . فقال رسول الله ﷺ : إن الله قد أبدلكما خيراً منهما يوم الأضحى ويوم الفطر » .

وإذ جعل الله لنا هذين العيدين فيجب أن نعرف ما فيهما من ذكريات عظيمة ، وأمجاد خالدة ، وحكم رفيعة سامية .

فليس الفرح والسرور في العيدين مقصودين لذاتهما ، وإنما كان ذلك لأن عيد الفطر هو احتفال بالنصر ، وعيد الأضحى هو احتفال بوحدة المسلمين .

إن صيام شهر رمضان جهاد للنفس ، ومقاومة للشهوات ، وسمو بالروح ، وجهاد النفس هو الجهاد الأكبر ، ومعنى ذلك أن مطالب النفس قوية ، ورغباتها محبوبة ، فالوقوف في وجه هذه المطالب ، والتصدي للرغبات هو جهاد أكبر من جهاد العدو الظاهر ، ولما كان الصائمون قد انتصروا على نفوسهم طوال رمضان

فكبحوا جماحها ، وحدوا من رغباتها ، وغيروا عاداتها ، جعلت الشريعة الإسلامية عقب هذا الجهاد عيداً يحتفل فيه المسلمون بنصرهم على العدو الخفي الذي يكمن بين الجوانح ، ونأخذ من هذه اللمحة الكريمة في الشريعة الإسلامية أن كل أمة تنتصر على عدوها بجهادها ، وتتغلب عليه بكفاحها ، من حقها أن تجعل لها عيداً تحتفل به ، وتفرح به .

وفي رمضان كانت غزوة بدر الكبرى ، التي انتصر فيها الحق على الباطل ، والإيمان على الشرك ، تلك المعركة الحاسمة التي انتصرت فيها الفئة القليلة على الفئة الكثيرة ، والتي كانت فرقاناً فرق الله بها بين عهدين للدعوة الإسلامية : عهد الصبر على اعتداء المشركين وتحمل أذاهم وغطرستهم ، وعهد القوة ودفع الظلم وإعداد العدة ، وفي تحقيق هذا النصر الكبير أكبر فرحة تطمئن النفوس ، وتشرح الصدور ، وهذا هو العيد عيد النصر على العدو الظاهر بعد النصر على العدو الخفي .

وقد كان في رمضان حادث أكبر ، ونعمة أجلّ ، ومنة من الله تعالى على المسلمين ، تلك المنة التي يعجز المسلمون عن شكرها مهما بذلوا من جهد ، ومهما قدموا من صالح العمل .

ذلك بأن القرآن العظيم ، كتاب الله الخالد ، ودستور الأمة الإسلامية القيم ، قد نزل على قلب محمد ﷺ في هذا الشهر ﴿ شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدًى للناس وبيناتٍ من الهدى والفرقان ﴾ [البقرة : ١٨٥/٢] .

وهل كان للعرب مجد وعزة وسلطان ، أخضع لهم إيوان كسرى وتاج قيصر ، لولا قرآن محمد ﷺ الذي هداهم السبيل ، وأنار لهم الطريق ، ومشوا تحت لوائه ، يحملون إلى الدنيا الحرية والعدالة والمساواة ، فكانوا به خلقاً آخر ، وخير أمة .

أليست هذه كلها نعماً كبرى تستحق الابتهاج ، وتستوجب الشكر ؟

وأما في عيد الأضحى ، ففي وقوف الناس بعرفات ، واتجاههم إلى ربهم الواحد الأحد ، بشعائر واحدة ، متجردين من مظاهر الفرقة على اختلاف ألسنتهم وألوانهم وتعدد بلدانهم وجهاتهم ، ما يدل على وحدة رائعة ، تشعر المسلمين بوجوب وحدتهم دائماً ، إذ بها يعتزون ، وبسببها ينتصرون ويفوزون ، وإعزازاً لهذا المقصد الأسمى ، جعلت الشريعة الإسلامية اليوم الذي يعقب الوقوف بعرفات عيداً هو عيد الأضحى تقديراً لما فيه من رمز للوحدة المؤدية إلى القوة والنصر العظيم .

أيها المستمع الكريم : إذا أيقنت بهذه النعم الكبرى ، واعترفت بهذه المنن الجلى ، فمن واجبك أن تقوم بشكر الله عز وجل الذي منحك هذه النعم ، وتفضل عليك بهذه المنن .

وشكر هذه النعم إنما يكون بمد يد المعونة إلى البائسين والمعوزين ليتحقق معنى الإخاء والمساواة الذي أشار إليه القرآن الكريم في كثير من آياته ، لهذا فرض الله تعالى على المسلمين زكاة الفطر ، وجعل صيام رمضان معلقاً بين السماء والأرض ، لا يقبل إلا بدفع هذه الزكاة .

أيها المستمعون الكرام : إذا كنتم في شهر رمضان قد درستم كثيراً من الأخلاق وتعلمتم كثيراً من حميد الخصال ، فتعلمتم الأمانة والصدق ، والصبر والإخلاص ، وشعرتم بألم الجوع ، ومرارة الحاجة ، إلى غير ذلك من النتائج الحسنة ، التي خرجتم بها من هذه المدرسة الرمضانية ، أو مدرسة الثلاثين يوماً ، كما يقول الرافعي رحمه الله ، فإن يوم العيد هو يوم الامتحان ، هو اليوم الذي تقيم فيه برهاناً من عملك على أنك ناجح في دراستك ، موفق في صيامك ، متقبل منك عملك .

أيها الأخ الكريم : لا تظن أن يوم العيد انطلاق من القيود ، وانهاك في الشهوات ، وانغماس في الآثام ، كلا ، إن من يفعل هذا ليس هو في عيد ، بل هو في غم وحزن ، وخسارة وانتكاس . إن يوم العيد هو يوم طاعة ونعمة وشكر والدليل على ذلك هذه الصلاة الزائدة على الصلوات الخمس التي تعبِّر بما فيها من ذكر وتكبير ، على الاعتراف بكبير الفضل ، وجميل النعم .

أيها المستمعون الكرام : لقد أباح الإسلام أنواعاً من اللهو إظهاراً للفرح وإشعاراً بالبهجة ، كركوب الخيل ، والتمرن على السلاح ، والتدرب على الرماية ، وما شابه ذلك من كل ما فيه تمكين للرجولة وتدريب على الحرب ، ليعدَّ الناشئة إعداداً قوياً متيناً ، لا مائعاً مهلهلاً . وأما الغناء ، فلم يبح منه إلا ما كان له صلة بالخلق القويم والتربية المتينة .

فقد روى الشيخان عن عائشة رضي الله عنها قالت : دخل عليَّ أبو بكر ، تعني أباها ، وعندي جاريتان من جواري الأنصار تغنيان بما تقاولت به الأنصار يوم بعاث ، قالت وليستا بمغنيتين . فقال أبو بكر : أمزامير الشيطان في بيت رسول الله ، وذلك في يوم عيد . فقال رسول الله : يا أبا بكر ، إن لكل قوم عيداً ، وهذا عيدنا . ومما تقدم يعلم أن غناء الجاريتين كان بأشعار فيها إظهار الشجاعة ، والمفاخرة بالنصر والغلبة ، ولم تكونا من المغنيات المحترفات ذوات الهوى ، إنما كان غناؤهما مما يشبه الأناشيد الحماسية الآن .

أيها الأخ الكريم : إن من أحب الأعمال إلى الله في مثل هذه الأيام أيام الأعياد ، صلة الأرحام ، وتفريج الكرب ، ومواساة الفقراء ، والعطف على المحتاجين .

روى الفخر الرازي رحمه الله ، أن امرأة جاءت إلى بعض الصالحين بزيت وقالت له : أسرجه في المسجد ، فقال لها : أيما أحب إليك نور يصعد إلى

السقف ، أو نور يصعد إلى العرش ؟ قالت : بل نور يصعد إلى العرش ، فقال لها : إذا صبّ الزيت في القنديل وأضيء في المسجد صعد نوره إلى السقف ، وإذا صبّ في طعام فقير جائع ، صعد نوره إلى العرش ، ثم أطعم الزيت إلى الفقراء .

وورد عن أبي سعيد الخدري ، أن رسول الله ﷺ قال : « من أغاث مكروباً أعتقه الله من النار يوم الفزع الأكبر » .

نسأل الله الكريم أن يعيده على المسلمين ، وقد تحققت وحدتهم ، وبلغوا أمانيهم من العزة والمنعة والنصر ، إنه سميع مجيب .

التثبت في الأخبار

قال تعالى في كتابه العزيز : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسقٌ بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين ﴾ [الحجرات : ٤٩/٦] .

يحرص الإسلام كل الحرص على دوام الألفة بين المسلمين ، وتوطيد عرى المحبة والإخاء ، لذلك جاءت هذه الآية الكريمة تحذر المسلمين من التسرع في الأمور ، والعمل بمقتضى الخبر الشائع ، وتدعوهم إلى التريث في الأمر ، والتثبت في الخبر ، حرصاً على دوام الألفة ، واستمرار المحبة .

وجدير بالإنسان العاقل ، بعد أن خاطبه المولى عز وجل بهذا الخطاب اللطيف : ﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ ، جدير به أن يُعمل الروية في كل ما يسمع ، وأن يكون بعيد النظر ، عميق التفكير ، لا يستخفه خبر ، ولا يثيره حديث ، ولا يليق به بعد أن اتصف بالإيمان ، أن يجعل للشيطان عليه سبيلاً ، فيحركه لغاياته ، ليصدق كل قول يقال ، أو رواية تنقل .

والكذب في الناس ما خلا منه زمان ، والاختلاق بين البشر قديم ، فمنذ أن وجدوا وجدت معهم هذه الطبائع ، ولكنه يقل هذا الوصف الذميم بانتشار الهدى وكثرة النصح .

والعاقل الذي ينظر إلى عواقب الأمور ، يتحتم عليه أن يتروى ويتأنى ، حتى لا تصيبه الندامة ، ويقع في الغم ، فيما لو عمل عملاً ، أو قال قولاً ، استناداً على تصديق ذلك الخبر ، الذي كان خبيث القصد ، سيء النية ، لا يقصد من نقله الأخبار الكاذبة إلا التشويش على الناس ، وإثارة الأحقاد ، وتعكير الصفو .

فإذا تأنى المؤمن وتثبت ، سرعان ما يظهر له كذب الناقل ، وعدم صحة

الخبر ، فإذا به يحصل على نتيجة طيبة ، وربح وفير ، لقاء تثبته وتأمله . ولله در القائل :

قد يدرك المتأني بعض حاجته ... وقد يكون مع المستعجل الزلل

وإنه لجدير بي في هذا الصدد ، أن أبين سبب نزول الآية الكريمة ، لتكون أيها الأخ المؤمن ، على بصيرة من الأمر تضيء لك الطريق ، وترسم لك سبل النجاة .

قال ابن كثير : ذكر كثير من المفسرين أن هذه الآية نزلت في الوليد بن عقبة بن أبي معيط ، حين بعثه رسول الله ﷺ على صدقات بني المصطلق .

« بعثه الرسول ليجمع الزكاة فلما أن كان ببعض الطريق ، أصابه خوف ، فرجع إلى الرسول ﷺ ، وقال : إن القوم منعوني الزكاة ، وأرادوا قتلي ، فثار فريق من الصحابة حينما سمعوا هذا الخبر ، وأخذتهم الغيرة ، واستفزهم الغضب ، وأخذوا يحرضون الرسول ﷺ على إرسال جيش ، ومحاربة تلك الجماعة ، التي زعم الوليد أنها منعت الزكاة ، وهموا بقتله ، ولكن الرسول ﷺ ، وهو العاقل البصير ، لم يكن ليطيعهم ، ولم يقبل الخبر على أنه لا يحتمل الشك ، فتريّث في الأمر حتى حضر رئيس تلك القبيلة ، وقد راعه ما سمع وما نقل عنه ، ولم يكن عنده علم بشيء من ذلك ، فلما دخل على الرسول ﷺ قال له : منعت الزكاة ، وأردت قتل رسولي ؟!! » . قال : لا والذي بعثك بالحق ما رأيته ولا رآني .

وتبين للرسول وأصحابه ، أن ما قاله الوليد بن عقبة ، إنما كان حديثاً مفترى ، وندم الصحابة على ما بدر منهم من تصديق ، وساءهم ما كان من تحريضهم للرسول ﷺ على قتال هذه القبيلة .

وهنا ظهر لهم كم يكون خجلهم عظيماً ، وإثمهم كبيراً فيما لو حققوا ظن

الشيطان ، فأطاعوه وقاتلوا إخوانهم ، ووقعت الإساءة بمن لا يستحقها ، وإلى هذا أشارت الآية الكريمة بقوله تعالى :

﴿ واعلموا أن فيكم رسول الله ، لو يطيعكم في كثير من الأمر لعنتُّم ﴾ [الحجرات : ٧/٤٩] ، أي لأصابكم العسر والمشقة . فكانت هذه الحادثة تعليماً وإرشاداً لنا ، وقد كان الرسول عليه الصلاة والسلام يقول : « التثبت من الله ، والعجلة من الشيطان » .

ويلاحظ أن الله سبحانه وتعالى سمى هذا الناقل للخبر (فاسقاً) خارجاً عن الطاعة ، وأمر المؤمنين أن يتثبتوا عند كل قول ، وعند كل خبر ، وأن يدققوا فيما يسمعون من الأخبار . ومعلوم أن الخطاب كان لأصحاب النبي ﷺ ، وهم المعروفون بالتقوى والصلاح وزمانهم زمان الدين والورع ، فنحن اليوم في هذا الزمان الذي تشابكت فيه الأمور ، والذي يعمل فيه الأعداء والمخربون هدماً وتخريباً للعقول والنفوس ، أولى وأحرى أن نكون أكثر تثبتاً واحتياطاً ، ولكن مع الأسف ، انقلبت هذه الآية أيضاً ، فما من كلمة تقال ، صحيحة أو غير صحيحة ، إلا وتجد لها انتشاراً ورواجاً بسرعة البرق الخاطف ، ثم تستقر في القلوب ، وتستكنُّ في الأفئدة ، فتعمل عملها فتقطع الروابط ، وتثير الأحقاد وتذكي نار الخلاف بين طبقات الأمة .

كم من حادثة أليمة وقعت ، وكم من أمور كريهة حدثت ، ولم يكن سببها إلا كلمة قالها قائل ، فنقلها ناقل ، فاغتر بها جاهل ، فكان من جراء ذلك أسوأ الأثر في تآلف الأمة .

هذه أسرة كريمة عاشت دهراً طويلاً ، اجتمعت فيه على الحب والوفاء ، وشملها الهدوء والصفاء ، فجاء الشيطان وألقى تهمة شنيعة في أذن رب العائلة ، فلم يتحققها ، ولم يبحث عنها ، ولم يتبين صدقها أو كذبها ، وتعجل في الأمر ، فلم

يكن منه إلا أن ثار وغضب ، فماذا كانت النتيجة ؟ تقوض البيت ، وتهدم البنيان ، وتعكر الصفاء ، وطلقت المرأة ، وتشتت الأولاد ، وضاعت الأسرة .

وهذان شريكان مخلصان ، تعبا زمناً طويلاً ، وائتلفا من أيام الصغر ، وتقاسما حلو الحياة ومرها ، وصارا كأخوين شقيقين ، فدخل بينهما أفّاك أثيم ، وألقى كلمة شر ، ونقل خبراً زوّره ولفقه ، وطوّله وعرّضه ، ووجد له أذناً صاغية ، فكانت النتيجة أن افترقا بعد أن اشتد بينهما الخلاف ، وحل الخصام محل الوئام ، والبغضاء مكان الألفة والمحبة ، وربما كانت النهاية زيادة على الفشل والخيبة أن كان أحدهما في السجن والآخر في القبر .

وهذه أمة واحدة جمعها دين واحد ، ولسان واحد ، ووحدت بينها الآمال والآلام ، فجاء المستعمر البغيض ، والعميل الدخيل ، فأخذ يلمز هذا ، ويشير إلى ذاك ، ويلقي في أذن سادتها وقادتها ، وأولي الأمر فيها من هذه الأخبار المفتراة ، وكانت العاقبة أن تفككت بعد تجمع ، وأدبرت بعد إقبال ، وذلت بعد عز ، وخسرت بعد ربح ، وتمكن العدو من القضاء عليها .

وما أجمل الآية الكريمة التي تحذرنا من الوقوع في شيء من ذلك : ﴿ فتبيّنوا أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين ﴾ [الحجرات : ٦/٤٩] ، فإنها تهيب بنا إلى التأني وعدم التسرع ، حتى لا نقع في الندامة والأسف .

وما أجمل قول الرسول عليه الصلاة والسلام للأشج : « إن فيك خصلتين يحبها الله ورسوله : الحلم والأناة » . وقوله : « ليس الشديد بالصرعة ، وإنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب » .

وصدق رسول الله فإنه ما تأنى شخص في أمر ، وما ملك أحد نفسه إلا وجد حسن العاقبة ، فإن أقدم ، أقدم على بصيرة ، وإن أحجم ، أحجم عن علم ، فهو لا يؤاخذ في إقدامه ، ولا يعاب على إحجامه ، ولا تلحقه الندامة ، ولا تصيبه

الحسرة ، فهو رضي البال ، مطمئن القلب ، هادئ الضمير ، أما ذلك الذي تعجل في قوله أو فعله ، فهو في خصام مع نفسه ، يدبر الحيلة ليخرج من المأزق الذي وقع فيه ، وهيهات أن يرتفع ما وقع ، أو يلتئم ما انصدع ، فينام على الحسرة ، ويصحو على الندامة والأسف .

وإذا كانت الأخبار الكاذبة تؤدي إلى هذه النتائج الوخيمة ، بالنسبة إلى الأفراد والأسر ، فإنها تكون أشد ضرراً ، وأسوأ عاقبة ، وأكثر إثماً ، إذا كانت تتعلق بمصالح الأمة وأمن الشعب ، والتغلب على العدو ، كمن يذيع أخباراً ملفقة مزوَّرة تتعلق بسياسة البلاد ، أو تحركات الجيش ، أو أماكن الجنود ، مما يفيد العدو ، ويورث البلبلة والذعر في أفراد الشعب ، فواجب كل مواطن أن يتريث ويتثبت ويتأمل ، فلا يقبل أي خبر يسمعه ، ولا ينقل أي نبأ يصل إليه ، بل ربما كان مصدر هذه الأنباء من العدو المتربص ، أو الموتور المتآمر ، اختلقها ورتبها ليصل إلى أغراضه الخسيسة ، من إضعاف معنوية الشعب ، أو إثارة القلاقل والاضطراب فيه ، ولن يصل العدو إلى غايته إلا إذا تلقى المواطنون هذه الأنباء بالقبول ، وأذاعوها بينهم بسرعة ، حينئذ يتحقق للعدو ما يريد .

وقد جاءت الآية الكريمة ، تلفت أنظار المؤمنين إلى هذه الناحية ، وتحذرهم من الوقوع في هذا الخطر . قال تعالى : ﴿ وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به ولو ردُّوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم ولولا فضل الله عليكم ورحمته لاتبعتم الشيطان إلا قليلاً ﴾ [النساء : ٨٣/٤] .

قال الناصر في (الانتصاف) : « في هذه الآية تأديب لكل من يحدث بكل ما يسمع ، وكفى به كذباً ، وخصوصاً عن مثل السرايا والمناصبين الأعداء ، والمقيمين في نحر العدو ، وما أعظم المفسدة في لهج العامة بكل ما يسمعون من أخبارهم خيراً أو غيره » .

وروى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال : « كفى بالمرء كذباً أن يحدث بكل ما يسمع » . وعند أبي داود والحاكم : « كفى بالمرء إثماً » .

وإجمال القول إن هؤلاء الذين يتسرعون بتلقي الأخبار وإذاعتها صنفان : صنف حمله على ذلك خيانته لأمته وممالأته العدو عليها ، فهو قد خان الله ورسوله وأمته ، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين .

وصنف يقصد من إشاعه الأخبار الكاذبة ، الانتقام من إنسان معين ، ليشوه سمعته ، ويحطَّ من شأنه ، وينال من كرامته ، وهذا الصنف من الناس هم الذين دعتهم الآية الكريمة بقوله عز وجل : ﴿ إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب أليم في الدنيا والآخرة والله يعلم وأنتم لا تعلمون ﴾ [النور : ١٩/٢٤] .

كُفَّ عَليكَ هَذا

إن في الإنسان عضواً من هذه الأعضاء الكثيرة التي ركب الله تعالى منها هذا الهيكل الإنساني العجيب ، له أهميته ، وله خطره .

هذا العضو إن اتجه به الإنسان وجهة خيرة وسلك بـه سبيلاً وسطاً ، وكفه عن جماحه ونزواته ، أنقذ الأعضاء كلها من الخسران والخيبة ، ونجا الإنسان كله من عذاب الله تعالى ، وفاز برضوانه .

ذلك العضو الخطير ، إنما هو اللسان ، اللسان الذي يستهين الإنسان بخطره ، ولا يأبه لشأنه ، ولا يحذر من جنايته . نعم إن اللسان قد ينطق بالكلمة التي تورد صاحبها إلى السجن ، أو تودي به إلى القبر ، ثم من بعد ذلك كله عذاب مقيم ، وشقاء أبدي ، والإنسان غافل عن كل هذا ، غير آبه له ، ولا مفكر فيه .

ما أكثر كلامنا كل يوم ، ولو أن أحد منا عدّ كلامه منذ أن يستيقظ في الصباح ، حتى يأوي إلى فراشه في المساء ، وحاسب نفسه على كل كلمة ، وما تؤدي إليه من شر وبذاءة وفحش ، وما ينتج عن هذه الكلمات من عداء وبغضاء ، وتقاطع وإثم ، لو أن أحداً منا فكر في هذا لخجل من نفسه ، ولحكم عليها بالشطط والتمادي ، ثم يجد من الخير كل الخير أن يكف هذا اللسان ، ويقلل من الكلام ، ويفكر قبل النطق في كل ما يقول .

وما أروع نصيحة الرسول عليه الصلاة والسلام ، التي وجهها إلى الصحابي الجليل معاذ بن جبل رضي الله عنه ، وأوضحها حيث أخرجها مخرج التمثيل في الشيء المحسوس المشاهد ، وذلك حينما أخذ عليه الصلاة والسلام بلسانه ، وقال : « كفّ عليك هذا » .

ويقول معاذ مستوضحاً مستثبتاً : « يا نبي الله ، وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به ؟ فيجيبه عليه الصلاة والسلام : « ثكلتك أمك . وهل يكبُّ الناس في النار على وجوههم (أو قال على مناخرهم) إلا حصائد ألسنتهم ؟ » .

أسمعت أيها الأخ الكريم ، إن هذا اللسان يكبُّ صاحبه في النار ، ويقذفه في عذاب جهنم ، إذا هو أطلق له العنان ، وتكلم بكل ما ينحط عليه من بذاءة وفحش وهذيان .

أخي المؤمن إن أردت النجاة في الدنيا والآخرة ، فاحذر من لسانك ، وزن كلامك ، وتأمل في عاقبة قولك ، قبل أن تلفظ به ، فإن الكلمة متى خرجت من فمك لا يمكن استردادها ، وقد يصعب جداً تدارك خطرها ، فالملائكة سجلوا ، والناس سمعوا ، والمرجفون والمتزيدون والذين يصطادون في الماء العكر ، علقوا ، وشرحوا ، وزادوا ، وأنت وحدك الذي تتحمل كل هذه التبعات والمسؤوليات ، لذلك يقول الرسول الكريم الناصح صلوات الله عليه وسلامه : « إن العبد ليتكلم بالكلمة ، ما يتبين فيها ـ أي ما يتفكر هل هي خير أم شر ؟ ـ يزل بها في النار ، أبعد ما بين المشرق والمغرب » رواه البخاري ومسلم .

إننا قد ابتلينا في هذا الزمان بملايين من كلمات السوء والفحش المناهضة للأخلاق ، المجانبة للآداب ، نسمعها في مجتمعنا من كثير من الناس ، في الأسواق والمتاجر ، والمعامل والمصانع ، والنوادي والمقاهي وما شاكل ذلك . تجد كثيراً من المواطنين يقذفون من أفواههم هذه الكلمات البذيئة ، والبسمة ترتسم على شفاههم ، والبشر يلوح على قسمات وجوههم ، كأنهم تكلموا بما ينهض الأمة ، أو يخدم الوطن ، أو يستوجب ثواب الله في جنات النعيم ، وإذا وجهت لأحد نصيحة ، أو نهيته عن هذا المنكر ، اتهمك بالجمود والرجعية ، وقال : لا تشددوا علينا ، إن الله غفور رحيم .

أيها الأخ الكريم ، ما نريد ـ والله ـ أن نشدد على الناس ، وما نشك في سعة رحمة الله تعالى ، وعظيم غفرانه ، ولكننا نريد أن يترفع أبناؤنا وشبابنا وجميع مواطنينا عن هذه الكلمات المقوتة التي تهبط بهم إلى مستوى غير لائق ، وتؤدي أخيراً إلى عداوة وتقاطع وبغضاء ، ولا يجني منها المتكلم خيراً ، لا لنفسه ، ولا لأمته ، وما دام كلام الإنسان معدوداً عليه ، فمن الحكمة ألاّ ينطق إلا بخير .

وإن إطلاق اللسان في مثل هذه الكلمات قد يؤدي إلى وقوع حوادث مؤلمة ، نسمع الكثير منها في مجتمعنا ، نتيجة للفحش في القول ، والاسترسال في السباب واللعن والشتائم ، لذلك جاءت أحاديث النبي ﷺ ، تحذر من ذلك وتنهى عن الوقوع فيه .

روى الترمذي قال : قال رسول الله ﷺ : « ليس المؤمن بالطعّان ولا اللعّان ، ولا الفاحش ، ولا البذيء » .

والطعّان هو الذي يطعن في أعراض الناس بالقدح والذم والاغتياب ونحو ذلك ، واللعّان هو الذي يدأب على لعن الناس ، وقد ثبت من تعاليم الرسول ﷺ ، أنه لا يجوز لعن الأشخاص الذين ثبت موتهم على الكفر ، إذا ترتب على ذلك إساءة أحد من أهلهم وأقاربهم من المسلمين ، أو نجم عن ذلك فتنة .

قال عليه الصلاة والسلام : « لا تسبُّوا الأموات فتؤذوا الأحياء » .

وقال : « لا تلاعنوا بلعنة الله ، ولا بغضبه ، ولا بجهنم » .

أي لا يلعن بعضكم بعضاً ، سواء أكان ذلك بلفظ اللعن كأن يقول : لعن الله فلاناً ، أو هو ملعون ، أو جعله الله من أهل النار ، أو غضب عليه ، ونحو ذلك ، وكما لا يجوز لعن الإنسان ، لا يجوز لعن الحيوان والجماد .

عن أبي الدرداء ، قال قال رسول الله ﷺ : « إن العبد إذا لعن شيئاً صعدت

اللعنة إلى السماء فتغلق أبواب السماء دونها ، ثم تهبط إلى الأرض فتغلق أبوابها دونها ، ثم تأخذ يميناً وشمالاً ، فإن لم تجد مساغاً رجعت إلى الذي لُعن ، فإن كان أهلاً ، وإلا رجعت إلى قائلها » .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن رجلاً لعن الريح عند رسول الله ﷺ ، فقال : « لا تلعن الريح ، فإنها مأمورة ، من لعن شيئاً ليس له بأهل ، رجعت اللعنة عليه » .

وإذا كانت تعاليم الإسلام ـ كما رأيتم ـ تعلمنا الأدب الرفيع ، والخلق السامي حتى مع الحيوان والجماد ، فهل يليق بنا ـ ونحن ندعي الإسلام ـ أن نتبارى بكلمات السوء ، ونتباهى بالفحش من القول ، ونعد ذلك خفة روح ، ووداعة نفس .

كلا ، أيها الإخوة المؤمنون ، لا تغيروا المفاهيم ، وتستهينوا بالأخلاق ، فإن الرذيلة رذيلة ، وإن ألبست ثوب المزاح والدعابة وغير اسمها ، فهل ينتهي بعد ذلك أولئك الذين يلتقون في حفل أو ناد ، أو على قارعة الطريق ، فيتراشقون السباب والشتائم ، ويتبادلون كلمات السوء والدناءة ، باسم المزح والمباسطة ، وليحذروا من اعتياد ذلك ، وليفكروا فيما يجر عليهم من عواقب وخيمة في الدنيا والآخرة .

ولا يحسبن إنسان أن الإسلام يريد من الناس أن يعيشوا في هذه الحياة بوجوه مقطبة ، وأسارير كالحة ، وأنه دين يحول بين متبعيه وبين مباهج الحياة وسرورها ، إن من يظن ذلك في الإسلام فقد تجنى على الحقيقة ، وابتعد عن الصواب .

لقد كان رسول الإسلام ﷺ بادي البشر يلاطف أصحابه ، ويمازحهم ويسري عن نفوسهم ، ولكن ضمن نطاق الحشمة والأدب ، كان يمزح ولا يقول إلاَّ حقاً .

إن الذي ينهى عنه الإسلام ، إنما هو هذا الكلام الرخيص المنحط الذي

ينتج أوخم العواقب ويجر إلى كثير من المشاكل ، والناس في غنى عن كل هذه المآزق والترهات الباطلة .

ولقد أبدع الشاعر في تصوير فاحشيْن يلتقيان في ميدان السباب والشتائم ، بشكل ينفر منه كل ذي عقل وفكر ، يقول :

وإذا الفاحش لاقى فاحشاً	فهناكم (وافق الشن الطبق)
إنما الفحش ومن يعتاده	كغراب السوء ما شاء نعق
أو حمار السوء إن أشبعته	رمح الناس وإن جاع نهق
أو غلام السوء إن جوعته	سرق الجار وإن يشبعْ فسق

هذا ، وقد أمر الإسلام بالإعراض عن أولئك الذين يؤذون بالسيء من القول ، ودعا إلى الترفع عن النزول إلى مستواهم الرخيص ، قال تعالى في وصف هؤلاء المؤمنين : ﴿ وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً ﴾ [الفرقان : ٦٣/٢٥] . وقال تعالى : ﴿ خذ العفو وأمر بالعُرف وأعرض عن الجاهلين ﴾ [الأعراف : ١٩٩/٧] .

قال مالك بن دينار : « أشد ما على السفيه الإعراض عن جوابه ، وإظهار عدم التأثر به » وقال الشاعر :

إذا سب عرضي ناقص القدر جاهل	فليس له إلا السكوت جوابُ
ألم ترَ أن الليث ليس يضره	إذا نبحت يوماً عليه كلاب

وبعد ، فإن نصيحة الرسول الكريم ﷺ لمعاذ رضي الله عنه من محاسن الإسلام الكثيرة ، ومكارمه التي لا تحصى ، فهو يعلم الناس الأدب ، ويأمرهم بصيانة ألسنتهم ، عن كل ما يثير غضباً ، أو يولد حقداً ، أو يؤذي حياً ، ويهين ميتاً ، فما أجدرنا أن نتأمل في عظات الرسول ﷺ ، ونعض عليها بالنواجذ ، لنكوِّن مجتمعنا راقياً ، وحياة مثلى .

دَعَوةٌ عَامَّة

قال تعالى في كتابه العزيز : ﴿ والله يدعو إلى دار السلام ويهدي من يشاء إلى صراط مستقيم ، للذين أحسنوا الحسنى وزيادةٌ ولا يرهق وجوههم قترٌ ولا ذلَّةٌ أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون ﴾ [يونس : ١٠/٢٥ - ٢٦] .

أخي المؤمن : حينما توجه إليك بطاقة دعوة من زعيم من الزعماء ، أو رئيس من الرؤساء ، أو عظيم من العظماء ، فإنك تعتز بهذه الدعوة ، وتفاخر بها ، وتترقب موعدها ، وتتهيأ لحضورها ، وتصلح من شأنك ، وتحسن هندامك ، وتلبس أفخر ما عندك من الثياب . وربما ذكرت هذه الدعوة ، وتغنيت بها ، ورددت ما كان فيها ، وما احتوت عليه أمام رفقائك وأقرانك مدة طويلة ، مع أنها دعوة مهما عظمت ، ومأدبة مهما رتبت ونظمت ، وحشر فيها من أنواع التكريم لا بد أنها انقضت من فورها ، وستمحو الأيام ذكرها ، بل سيزول من الوجود الداعي إليها ، والمجيبون لها ، بل ربما كان في هذه الدعوة قصد سيء ، يترتب عليه إثم كبير ، وعقاب أليم ، وكم رأينا كثيراً من الحفلات والدعوات يقصد الداعي من ورائها تألف الجماهير ، وكسب القلوب ، ليصل إلى تأييد في مطلب ، أو فوز في حاجة .

أخي المؤمن : إن هناك دعوة عظيمة ، مبرأة من كل عيب وغمز ، صادرة من أكرم الكرماء ، ومن أرحم الرحماء ، ومن أعظم العظماء ، صادرة من رب العالمين على لسان سيد المرسلين ، سجلت في القرآن الكريم ، تكرر هذه الدعوة كل يوم عامة شاملة ، في كتاب لا يمحى ولا يبدل ، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

أخي المؤمن : هل انتبهت إلى هذه الدعوة ، وهل فكرت في إجابتها ، وهل عملت الأسباب التي توصلك إليها ؟ لا شك أنك عرفت الداعي ، وأيقنت أنه رب

العالمين ، فهل عرفت مكان الدعوة وموضع التكريم ؟ إنها الجنة دار السلام ، دار الاطمئنان ، دار النعيم الخالد ، دار الهناء المقيم ، دار السعادة الأبدية ، التي فيها ما تشتهيه نفسك ، وتلذ عينك ، بل التي فيها ما لا يخطر في بالك ، ولا يتوهمه خيالك ، ولا رأته من قبل عينك ، ولا سمعته أذنك ، ولا خطر على قلب بشر .

دار الإعزاز والإكرام ، بنيت لقوام كرام ، من يسكنها فهو في تكريم واحترام ، نعيمها دائم وحورها في الخيام .

وسأترك الكلام الآن في وصف هذا المكان لرسول الله ﷺ فهو أحق من يصغى إليه ، ويستمع لكلامه .

« روى أبو هريرة قال : يا رسول الله حدثنا عن الجنة ، ما بناؤها ؟ قال : لبنة ذهب ، ولبنة فضة ، وملاطها المسك الأذفر - أي أن جدرانها مطيَّنة بالمسك - وحصباؤها اللؤلؤ والياقوت ، وترابها الزعفران ، من يدخلها ينعم لا ييأس ، ويخلد لا يموت ، ولا يفنى شبابه » .

هذه هي الدار التي دعيت إليها ، لتكون فيها من المكرمين ، وتصبح فيها من الخالدين .

أيها الأخ الكريم : لعل الشيطان يوسوس إليك ، ويصدك عن الحق والخير ، ويشككك في كل ما قدمت إليك من وصف هذه الدار ، بل لعل الخبيث عدوك الأكبر يجعلك ترتاب في وجودها ، وتشك في كل أمرها . إذن فاستمع إلى كتاب الله قرآنه العظيم ، يصف لك دار السلام ، دار الدعوة الإلهية ، استمع إلى ذلك من القرآن نفسه الذي من ارتاب فيه ، أو شك في آية منه كان من الخاسرين ، وخرج من ربقة الدين ، وانمحى من سجل المسلمين ، واستحق سخط الله ، وعذابه الأليم .

يقول تعالى في وصف هؤلاء المؤمنين الذين أجابوا الدعوة ، ودخلوا الدار ، وأشرقت على وجوههم علائم البشر والسرور ، يقول فيهم : ﴿ وجوه يومئذ

ناعمة ، لسعيها راضية ، في جنة عالية ، لا تسمع فيها لاغية ، فيها عين جارية ، فيها سرر مرفوعة ، وأكواب موضوعة ، ونمارق مصفوفة ، وزرابيٌّ مبثوثة ﴾ [الغاشية : ٨٨/٨-١٦] .

ويصفهم أيضاً بقوله عز وجل : ﴿ .. متكئين فيها على الأرائك لا يرون فيها شمساً ولا زمهريراً ، ودانية عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليلاً ، ويطاف عليهم بآنية من فضة وأكواب كانت قواريراً ، قواريرا من فضة قدروها تقديراً ، ويسقون فيها كأساً كان مزاجها زنجبيلاً ، عيناً فيها تسمى سلسبيلاً ، ويطوف عليهم ولدان مخلدون إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤاً منثوراً ، وإذا رأيت ثَمَّ رأيت نعيماً وملكاً كبيراً ، عاليهم ثياب سندس خضرٌ واستبرقٌ وحُلُّوا أساور من فضةٍ وسقاهم ربهم شراباً طهوراً ، إن هذا كان لكم جزاءً وكان سعيكم مشكوراً ﴾ [الإنسان : ١٣/٧٦ ـ ٢٢] . وفي القرآن الكريم أوصاف كثيرة لدار السلام هذه .

هذه الدار التي هي مكان تكريم الله لعباده المؤمنين عرفها المؤمنون السابقون ، فأخذوا بوصفها وما أعد فيها ، فطاروا إليها رغبة ، وشغفوا بها حباً ، فما يكادون يستمعون إلى ذكرها ، أو يشوقون إليها حتى يهيموا بها ، ويستهينوا بالحياة من أجل الوصول إليها ، ويستعذبوا الموت المُدْني منها .

لهذا حينما كان النبي ﷺ يقوّم الصفوف يوم بدر استعداداً للمعركة ، ويستعرض الجند ، قال حاضاً على القتال ومذكراً بالجنة : « والذي نفسي بيده ما بين أحدكم وبين الجنة إلا أن يموت » . فلما سمع جندي ذلك رغب في القتال واشتاقت نفسه إلى الجنة ، وكان بيده تمرات يأكلها فألقاها من يده وقال : لئن انتظرت حتى آكل هذه التمرات إنها لحياة طويلة ، ثم حمل على العدو فما زال يمعن فيهم قتلاً حتى استشهد واستقر في دار السلام .

أيها المسلمون في كل مكان ، إن كل عاقل لبيب يرغب في إجابة هذه الدعوة العظيمة ، ولا يعرض عنها ويستهين بها إلا كل جهول خاسر . والوسيلة الوحيدة التي تجعلك من المجيبين للدعوة ، والمسجلين من أهلها هي طاعة الله ورسوله

وامتثال أمرهما ، واجتناب نهيهما . إن المسلمين والعرب في كل مكان مكلفون بهذا بنص الأمر الإلهي الكريم :

﴿ يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم ﴾ [الأنفال : ٢٤/٨] .

ورد عن جابر قال : « جاءت ملائكة إلى النبي ﷺ وهو نائم فقال بعضهم : إنه نائم ، وقال بعضهم : العين نائمة والقلب يقظان . فقالوا : إن لصاحبكم مثلاً فاضربوا له مثلاً . فقالوا : مثله كمثل رجل بنى داراً ، وجعل فيها مأدبة ، وبعث داعياً فمن أجاب الداعي دخل الدار وأكل من المائدة ، ومن لم يجب الداعي لم يدخل الدار ، ولم يأكل من المائدة . فقالوا : أولوها ليفقهها فإن العين نائمة والقلب يقظان . فقال بعضهم : الدار الجنة ، والداعي محمد ، فمن أطاع محمداً فقد أطاع الله ، ومن عصى محمداً فقد عصى الله » .

أخي المؤمن : قرأت في بعض كتب الأدب ، أن رجلاً دعاه الخليفة ليأكل معه ، فأبى وقال : إني شبعان ، فأعرض عنه الخليفة ، وكان موضع سخرية الناس وازدرائهم ، وجعلوا يلومونه ، ويؤنبونه قائلين : هلاّ أجبت الخليفة ، وجلست معه ، لتكسب هذا الشرف العظيم ، شرف مجالسة الخليفة ، ومؤاكلته على مائدته . وظل إعراضه هذا وسوء تصرفه سبة له على مدى الأيام ، ودليلاً على قصور عقله ، وتبلد طبعه ، وبعده عن المكارم ، فكيف بمن يعرض عن دعوة رب العالمين إلى جنات النعيم .

إخوتي المؤمنين : ردّدوا دائماً هذا الدعاء الذي أرشدكم إليه القرآن الكريم : ﴿ ربنا إننا سمعنا منادياً ينادي للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنا ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفّر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار .. ﴾ [آل عمران : ١٩٣/٣] .

مَا هُوَ الدِّينُ ؟

أتكلم اليوم تحت عنوان (ما هو الدين) وهو سؤال تتنوع الإجابة عليه ، حسب علم الإنسان وثقافته ، فقد يكون الجواب على هذا السؤال أن الدين هو الطاعة والعبادة ، والجزاء والحساب ، وإلى هذا المعنى يشير القرآن الكريم في قوله عز وجل : ﴿ أرأيت الذي يكذب بالدين .. ﴾ [الماعون : ١/١٠٧] وقد يكون الجواب أن الدين هو ما شرعه الله تعالى على لسان نبيه من الأحكام ، وقد يكون الجواب أن الدين وازع إلهي يقذفه الله في القلب فيهدي صاحبه إلى عمل الخير ، وفعل البر ، والتقرب إلى الله بهما ، ويصبح على نور وصراط مستقيم ، وإلى هذا المعنى يشير قوله تعالى : ﴿ فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ، ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصّعّد في السماء ﴾ [الأنعام : ١٢٥/٦] . وقوله : ﴿ أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله أولئك في ضلال مبين ﴾ [الزمر : ٢٢/٣٩] . والدين كذلك هو الإسلام ﴿ إن الدين عند الله الإسلام ﴾ [آل عمران : ١٩/٣] وكل هذه الأجوبة حق وصدق .

ولكن الرسول ﷺ يرشد في بعض أحاديثه الكريمة إلى ناحية عملية هامة ، يحدد فيها الدين ، ويبين الدعامة الكبرى التي يرتكز عليها ، ويلفت نظر أمته إلى أن الدين عمل صالح يبرز للوجود ، ويظهر أثره على الرجل في سلوكه ومعاملته .

« جاء رجل إلى النبي ﷺ مرة من بين يديه وسأله : ما الدين يا رسول الله ؟ فأجابه الرسول بقوله : الدين حسن الخلق ، فأتاه من قبل يمينه وسأله : ما الدين يا رسول الله ؟ فأجابه : الدين حسن الخلق ، ثم أتاه من قبل شماله وسأله : ما الدين يا رسول الله ؟ فأجابه : الدين حسن الخلق ، ثم أتاه من ورائه

وسأله : ما الدين يا رسول الله ؟ فالتفت إليه الرسول ﷺ وقال له : أما تفقه ؟ هو ألاّ تغضب » .

وعن أسامة بن شريك قال : « كنا جلوساً عند النبي ﷺ كأنما على رؤوسنا الطير ، ما يتكلم منا متكلم ، إذ جاءه أناس فقالوا : من أحبُّ عباد الله إلى الله تعالى ؟ قال : أحسنهم خلقاً ، وفي رواية ما خير ما أعطي الإنسان ؟ قال : خلق حسن » . وعن أنس قال : « قال رسول الله ﷺ : إن العبد ليبلغ بحسن خلقه عظيم درجات الآخرة ، وأشرف المنازل وإنه عند الله لضعيف العبادة ، وإنه ليبلغ بسوء خلقه أسفل درجة في جهنم » .

فقد تبين من إرشادات الرسول الكريم ﷺ أن الدين هو حسن الخلق ، وأنه ما أعطي عبد شيئاً خيراً من حسن الخلق ، وقد دعا النبي ﷺ إلى عبادات شتى ، وأخلاق فاضلة كثيرة ، فإذا كان مع سعة تعاليمه ، وتشعب نواحي العمل أمام أتباعه ، يرشدهم إلى أن أرجح ما في موازينهم يوم الحساب إنما هو الخلق الحسن ، فإن في ذلك دلالة واضحة على منزلة الخلق الحسن وعظيم فضل من تخلق به ، حتى كأنه أحرز الدين كله ، وأحاطه بجميع شعبه .

وإذا كان الدين خلقاً حسناً بين إنسان وإنسان ، فهو في طبيعته السماوية صلة حسنة بين الإنسان وربه ، وكلا الأمرين يرجع إلى حقيقة واحدة . فصاحب الخلق الحسن أمين لا يخون ، وناصح لا يغُش ، وصادق لا يكذب ، ورحيم بالناس لا يقسو ، ومحب لعباد الله لا يبغض ولا يحسد ولا يغلُّ ، متواضع لا يتكبر ، قانع بما رزقه الله لا يطمع في أخذ مال الآخرين بغير حق ، عادل لا يظلم ، قوي لا يستكين لأحد ، ولا يخشى إلا الله ، حليم لا يغضب ، وهكذا كل فضيلة دعا إليها الإسلام ، وجاء بها الأنبياء الكرام تجدها في صاحب الخلق الحسن ، إذن فهو المؤمن الكامل ، صاحب الدين الكامل ، الذي أصبح قدوة

حسنة لأهله ، وأصدقائه ومواطنيه ، لأنه عمل بمقتضى دينه ، واستمسك بسيرة نبيه ﷺ فهو من عباد الرحمن الصادقين الذين وصفهم سبحانه بقوله : ﴿ وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً .. ﴾ اقرأها في [الفرقان : ٦٣/٢٥] . أما من يدعي التدين ، ويتظاهر بالنسك ، وهو بعيد عن هذه الأخلاق الفاضلة ، فهو في خطر من عذاب الله ، ويخشى أن يكون من المنافقين . ذلك لأن الإسلام لا يُعنى بالظواهر ، بل هو لا يقيم لهذه المظاهر وزناً ، إذا لم يكن لها حقيقة راسخة في النفس « إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أجسامكم ولكن ينظر إلى قلوبكم » . والإسلام لا يكتفي من المؤمن بالعبادة الفارغة الجوفاء التي لم يكن فيها خشوع يشعره بعظمة المعبود ، ولم يكن لها أثر من خلق حسن يلمسه الناس ، وإلى هذا كله تشير الآية الكريمة : ﴿ ليس البرَّ أن تولُّوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب .. ﴾ [البقرة : ١٧٧/٢] .

فليس القصد من العبادة إلا تزكية النفس ، وتطهير القلب ، وحب الخير ، وحسن الصلة بين الإنسان وأخيه الإنسان . لذلك نفى النبي الكريم الدين عمَّن يخون أمانته . عن علي رضي الله عنه قال : « كنا جلوساً عند رسول الله ﷺ ، فأقبل علينا رجل من أهل البادية ، فقال : يا محمد أخبرني عن أشد شيء في هذا الدين وألينه ، فقال له الرسول ﷺ : يا أخا العالية ، ألين شيء في هذا الدين شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وأشده يا أخا العالية الأمانة . ألا إنه لا دين لمن لا أمانة له ، وإن صام وصلى » .

كما أنه ﷺ أصدر حكمه على امرأة بأنها من أهل النار لإيذائها جيرانها ، « فقد جاء رجل فذكر لرسول الله ﷺ امرأة تكثر من الصلاة والصيام والصدقة ، غير أنها تؤذي جيرانها بلسانها ، فقال : هي في النار . وزف بشارته لامرأة ذكرت عنده بقلة صومها وصلاتها وعبادتها ، غير أنها تحسن إلى جيرانها فقال : إنها من أهل الجنة » . وهكذا يتضح أن التدين الحق هو معاملة الناس معاملة حسنة ،

ومنع الأذى عنهم ، وأن الصلاة المتقبلة ، هي التي تنهى عن الأذى والسوء ، وصدق الله إذ يقول : ﴿ إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ﴾ [العنكبوت : ٤٥/٢٩] . وقد فهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه الدين على هذا الوجه الصحيح ، فلم يغتر بالمظهر ، ولم يخدع به . شهد عنده شاهد في قضية فقال له : ائتني بمن يزكيك ، فأتاه برجل أثنى عليه خيراً ، فقال له عمر : أنت جاره الأدنى الذي يعرف مدخله ومخرجه ؟ قال : لا . قال : كنت رفيقه في السفر الذي يستدل به على مكارم الأخلاق ؟ قال : لا . قال : فعاملته بالدينار والدرهم اللذين يستبين بهما ورع الرجل ؟ قال : لا . قال : أظنك رأيته قائماً في المسجد يهمهم بالقرآن ، اذهب فلست تعرفه .

إن بُعد الأكثرين في زماننا هذا عن روح التدين وحقيقته ، جعل الناس يشكون في فائدة العبادة ، ويسيئون الظن في تعاليم الإسلام ، لأنهم يرون ممن يتظاهرون بالعبادة والتدين انحرافاً عن الخلق الكريم .

وليس الذنب في هذا ذنب الإسلام ، إنما التبعة على هؤلاء الذين لم يؤدوا العبادات على الوجه الذي أراده الله منهم ، فلم تجاوز عباداتهم رؤوسهم ، ولم يتقبلها الله منهم ، وقد أغلقت دونها أبواب السماء ، وضربت بها وجوههم . إن العبادة المقبولة هي التي يظهر أثرها طيباً صالحاً في المجتمع . ورحم الله القائل :

توهمت يا مغرور أنك ديِّن ... عليَّ يمين الله ما لك دين
تحج إلى البيت الحرام تنسكاً ... ويشكوك جار بائس وخدين

نسأل الله أن يلهمنا العمل بحقيقة الدين وروح الإسلام .

الوِشَاية الجَائِزَةُ

في مجتمعنا أمراض فاشية شائعة ، وقد أصبحت معروفة بين الناس مألوفة لا يستنكرونها ولا يحذرون منها ، بل هي لهوهم في مجالسهم ، وفكاهتهم في أحاديثهم . من تلك الأمراض الوشاية والغيبة والنميمة . وهي ألفاظ مختلفة ومؤداها متقارب ، إذ إن نتيجتها إيذاء الغير ، والسعي به إلى السلطان ، وتحقيره ، وإهانته ، وهذا هو الذي يفتك بالأمة ، فيفرق شملها ، ويمزق الروابط الأخوية بينها ، ويغرس في أسرها وهيئاتها ، وجمعياتها ومؤسساتها ، بذور الحقد والبغض والكراهية ، وقد يلتبس الأمر على بعض الناس الذين ألفوا الغيبة والنميمة والوشاية ، فيزعمون أن قصدهم حسن ، وأنهم يتكلمون على هذا ، ويذكرون معايب ذاك ، ليحذر الناس منه ، ولكيلا يقعوا في حبائله ، وقد يكون في بعض الاحوال والظروف مبرر للإخبار عن شخص فيما قال أو فعل . والإخبار عنه في هذه الظروف الاستثنائية أمر سهل ، ولكن الصعب جداً أن يكون المخبر صادقاً لا يتزيد في حديثه ، مخلصاً لا يقصد تشفياً أو تحقيراً لأخيه ، وأن يقصد بذلك إنقاذه أو إرشاده ، أو إنقاذ الغير من خطر ما تكلم به ، حيث يضر بالعقيدة أو بالأمة أو بالأخلاق .

إنني سأقدم لكم مثالاً يوضح ما ذكرت ، ويجعل الناس على بصيرة من أمرهم ، لا يلبس عليهم الشيطان أعمالهم ، فيعملون الشر ، ويقعون في الإثم ، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً .

روى البخاري ومسلم عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : « لما كان يوم حنين آثر النبي ﷺ أناساً في القسمة ، فأعطى الأقرع بن حابس مئة من الإبل ، وأعطى عيينة بن حصن مثل ذلك ، وأعطى أناساً من أشراف العرب ،

فآثرهم يومئذ في القسمة . قال رجل : والله إن هذه القسمة ما عدل فيها ، وما أريد بها وجه الله ! فقلت : والله لأخبرنّ رسول الله ، فأتيته فأخبرته ، فقال عليه الصلاة والسلام : فمن يعدلُ إذا لم يعدل اللهُ ورسوله ؟ رحم الله أخي موسى ! قد أوذي بأكثر من هذا فصبر » .

كانت هذه الحادثة يوم حنين ، وغزوة حنين من أعظم الغزوات شأناً في الإسلام ، وأكثرها بركة وخيراً على المسلمين ، على الرغم مما تخللها من هزيمة وأذى . فقد تغلب المسلمون أخيراً على أعدائهم ، وبلغت غنائمهم من العظم والكثرة ما لم يقدر أو يضبط بحساب . من أجل ذلك اشرأبت الأعناق إليها ، ومالت النفوس إلى ما فيها ، وتعلق الأعراب برسول الله ﷺ يسألونه من هذه الغنائم ، على وفق ما أراه الله ، وحسب ما تقتضيه المصلحة العامة . فأعطى قوماً ومنع آخرين . وميز أشراف العرب ورؤساءهم في العطية ، فأعطاهم مئة مئة من الإبل ، تأليفاً لقلوبهم ، وتثبيتاً لإيمانهم ، ورغبة في إسلام أشياعهم وأتباعهم ، ومن هؤلاء الرؤساء والزعماء ، الأقرع بن حابس ، وعيينة بن حصن ، وحكيم بن حزام ، وغيرهم .

وكان من حكمته ﷺ أن يعلن عن وجهة نظره في هذا التفاضل بين الناس في القسمة ، خشية أن تزل قدم بعد ثبوتها ، أو تزيغ قلوب بعد اطمئنانها ، فقال : «إني لأعطي الرجل ، وأدع الرجل ، والذي أدع أحبُّ إليَّ من الذي أعطي ، ولكني إنما أعطي أقواماً لما أرى في قلوبهم من الجزع والهلع ، وأكل أقواماً إلى ما جعل الله في قلوبهم من الغنى والخير ، ثم خص الرسول ﷺ واحداً من هؤلاء المؤمنين الذين امتلأت قلوبهم إيماناً وقناعة ورضىً وسماه فقال : منهم عمرو بن تغلب . قال عمرو حينما سمع ثناء الرسول ﷺ عليه : فوالله ما أحبُّ أن لي بكلمة رسول الله حمر النّعم » .

لم تعجب هذه القسمة الحكيمة من آمن بلسانه ، ولم يدخل الإيمان قلبه ، ممن اندس في الأنصار ولبس لباسهم ، ولم يتمالك هذا المنافق غيظاً وحنقاً أن قال تلك الكلمة الفاجرة ، التي ازداد بها كفراً على كفره ، وهي قوله : إنها قسمة ما عدل فيها ، وما أريد بها وجه الله . وسمعها خادم رسول الله ابن مسعود ، فرأى فرضاً عليه أن يبلغ رسول الله ﷺ ، ما سمع ، ليأخذ الرسول ﷺ حذره من هؤلاء الذين يظهرون الإسلام ، ويبطنون الكفر ، ويتربصون بالمسلمين السوء ، وكان عبد الله موفقاً كل التوفيق في رأيه هذا وفي إبلاغ الرسول ﷺ ما قاله هذا المنافق ، لأن الطعن في رسول الله ﷺ ليس كطعن في غيره ، بل إن الطعن في رسول الله ﷺ وفيما يصدره من أحكام ، إنما هو طعن في رسالته ودينه ، ومن ثم فهو طعن في الله جل جلاله ، وتكذيب له سبحانه ، ومن فعل ذلك في حق الأنبياء فقد حل دمه ، ومع ذلك فقد تحمل الرسول ﷺ ذلك لعظيم خُلُقه ، ورفعة شأنه ، ولحكم بالغة لا يتسع المقام لبسطها ، وما زاد على أن اقتدى بمن سبقه من إخوانه النبيين الذين أوذوا فصبروا .

وقد استنبط العلماء من نقل عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ، وإقرار النبي ﷺ له ، أن إبلاغ الحديث على وجه الإصلاح جائز ، ولا سيما إذا كان فيه حذر من ضرر عام ، أو لمصلحة عامة للأمة والدين ، على شرط صدق النية ، وتمييز المصلحة من المفسدة ، وطهر النفس من الهوى والتشفي ، أما من التبس عليه الأمر ، أو قصد بالإخبار النيل من كرامة المخبر عنه ، فطريق السلامة أن يمسك خشية أن يزل ، ونادر جداً أن نجد مبلِّغاً مخلصاً كعبد الله بن مسعود رضي الله عنه علماً وفهماً وورعاً ، كما يستحيل أن نجد مبلِّغاً كرسول الله ﷺ أناة وحلماً وصفحاً وكرماً . فليتأمل الذين يتخذون من هذا الحديث وأمثاله دليلاً على نقل الأخبار ، وترويج الشائعات ، والتفكه في أعراض الناس ، نتيجة بغضهم والحقد عليهم .

فقد أخبرنا الرسول الكريم صلوات الله عليه أن من أعظم الأعمال التي تقرب العبد إلى الله ، وتستوجب جنته ورضاه ، سلامة الصدر من الحقد ، وطهارة النفس من الحسد والبغض ، وأن يصبح الإنسان ويمسي خالياً من هذه الصفات المقوتة ، محباً للناس ، يرغب لهم في الخير ، كما يريده لنفسه ، وفي ذلك صلاح الأمة ، وسعادة المواطنين ، ورضاء الله .

عن أنس بن مالك قال : « كنا جلوساً عند النبي ﷺ فقال : يطلعُ الآن عليكم رجل من أهل الجنة ، فطلع رجلٌ من الأنصار تنطُف لحيته من وضوئه ، قد علق نعليه بيده الشمال ، فلما كان الغد قال النبي ﷺ مثل ذلك ، فطلع ذلك الرجل مثل المرة الأولى ، فلما كان اليوم الثالث ، قال النبي ﷺ مثل مقالته أيضاً ، فطلع الرجل مثل حالته الأولى . فلما انصرف الرجل ، تبعه عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما وتلطف له بكلام ، وبات عنده ثلاث ليال ليرى عمل الرجل وعبادته التي استوجبت شهادة النبي ﷺ له ثلاث مرات بأنه من أهل الجنة ، ولم ير منه عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما كبير عمل ، فسأله عبد الله عن العمل الطيب الذي بلغ به ما قال رسول الله ﷺ . فقال الرجل : ما هو إلا ما رأيت إلا أني لا أجد في نفسي لأحد من المسلمين غشاً ، ولا أحسد أحداً على خير أعطاه الله إياه ، ولم أبت ضاغناً على مسلم » .

ما أجدرنا أن نطهر قلوبنا ، ونجلو صدورنا من هذه الأمراض الخبيثة التي تمزق الوحدة ، وتشتت الجميع ، وتقطع الأواصر ، وتقضي على كيان الأمة وقوتها ، وتشمت بها أعداءها وتمكن لهم منها ، ما أجدرنا أن نفعل ذلك لتجتمع القلوب ، وتتوثق الروابط ، ويسود السلام والإخاء والمحبة .

وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ

قال تعالى في كتابه العزيز : ﴿ ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشّر الصابرين .. ﴾ [البقرة : ٢/١٥٥] .

أيها المؤمنون لقد خلق الإنسان هدفاً للبلايا ، عرضة للنوازل والمصائب ، وما سمعنا بأحد من الناس أخذ على الدهر عهداً أن يكون كما يريد ، وأن يسير معه حسب ما يرغب ، وأن يكون من حوادثه في أمان واطمئنان ، والله تعالى يقول : ﴿ لقد خلقنا الإنسان في كبد ﴾ [البلد : ٩٠/٤] ، أي في شدائد وآلام متتابعة ، يكابد الأمور ، ويعالجها في أطواره كلها ، من حمله إلى أن يستقر به القرار في نهايته المحتمة .

تلك هي الحالة الطبيعية التي خلق عليها الإنسان ، تعب لا راحة معه ، وكدر لا صفاء فيه ، ومن ابتغى من أيامه خلاف ذلك فقد حاول المستحيل ، وطلب ما لا يكون . ورحم الله القائل :

طبعتْ على كدر وأنت تريدها   صفواً من الأقذار والأكدار
ومكلف الأيام ضد طباعها   كملتمس في الماء جذوة نار

ومما ينبغي أن يعلم أن المصائب والنوازل التي تصيب الأفراد أو الأسرة أو الأمة ، لا تدل أبداً على سخط الله عليها ، أو بغضه لها ، أو هوانها عنده ، كما يتوهم ذلك كثير من الناس ؛ بل إن الأمر على العكس من ذلك ، فكلما انهالت المصائب ، وتوالت الرزايا ، عظم الثواب ، وعلت المنزلة متى تسلح الإنسان بالصبر ، وتجمل بالرضا ، وشحذ العزم على متابعة السير في الكفاح والنضال .

قال تعالى : ﴿ ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم ﴾ [محمد : ٤٧/٣١] .

رواه ابن ماجه عن مصعب بن سعد عن أبيه قال : « قلت : يا رسول الله أي الناس أشد بلاء ؟ قال : الأنبياء ، ثم الأمثل فالأمثل : يبتلى الرجل على حسب دينه ، فإن كان دينه صلباً اشتد بلاؤه ، وإن كان في دينه رقة ابتلاه الله على حسب دينه ، فما يبرح البلاء بالعبد حتى يمشي على الأرض وما عليه خطيئة » .

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ، « أنه دخل على رسول الله ﷺ ، وهو موعوك عليه قطيفة ، فوضع يده فوق القطيفة ، فقال : ما أشد حمَّاك يا رسول الله ؟! » قال : إنا كذلك يشدد علينا البلاء ، ويضاعف لنا الأجر . ثم قال : يا رسول الله من أشد الناس بلاء ؟ قال : الأنبياء . قال : ثم من ؟ قال : العلماء : قال : ثم من ؟ قال : الصالحون ، وكان أحدهم يبتلى بالفقر ، حتى ما يجد العباءة يلبسها ، ولأحدهم كان أشد فرحاً بالبلاء ، من أحدكم بالعطاء » .

لذلك يخاطب الله تعالى عباده المؤمنين بقوله : ﴿ أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل ... ﴾ [البقرة : ٢/٢١٤] .

وقد أصيب الرسول ﷺ وأصحابه بأنواع البلايا والمحن ، وهم كانوا يحملون رسالة الله ، ويجاهدون في سبيله ، ومع هذا فقد أخرجوا من ديارهم ، وتغربوا عن أوطانهم ، وكثر عناهم ، واشتد بلاهم ، وتكاثر عليهم أعداؤهم ، وقتل منهم بأحد وبئر معونة من قتل ، وجرح رسول الله ﷺ فشجَّ وجهه الشريف ، وكسرت رباعيته ، وهشمت البيضة على رأسه ، وقتل أعزاؤه وعمه حمزة ومثِّل بهم ، وابتلوا يوم الخندق وزلزلوا زلزالاً شديداً ، وزاغت الأبصار ، وبلغت القلوب الحناجر ، ثم يصاب الرسول ﷺ نفسه بآخر حياته بموت ولده الوحيد فيتألم ويحزن ، وتدمع عينه كأب رحيم ، ويستغرب بعض أصحابه أن يبكي رسول الله ﷺ على ولد يفقده ، فيسأله قائلاً : « وأنت يا رسول الله تبكي ؟ » فيقول : « نعم ، إن القلب يحزن ، والعين تدمع ولكننا لا نقول ما يغضب الله ، إنا لله وإنا إليه راجعون » .

هكذا يعلمنـا الرسول ﷺ ، أن الرحمـة في القلب هي من صفـات المؤمنين ، ومن لا يرحم لا يُرحم ، غير أن الرحمة والعطف والحنـان ينبغي ألاَّ تخرج بنـا عن حدود الأدب مع الخالق العظيم .

ولكن الأمـة الحيـة والمـؤمنين الصـادقين ، لا تفـل المصـائب ، من عـزمهم ، ولا تحد من جهادهم ومضائهم ، بل يثبتون أمـام الأحـداث ، ويصمـدون صـابرين مطمئنين أمام النوازل ، حتى إذا نفـذ أمر الله ، ومضى قضـاؤه ، استـأنفوا السير ، وتابعوا الجهاد ، وهكذا كلما مات سيـد قـام سيـد ، وكلمـا ذهبت جمـاعـة قـامت أخرى ، حتى يصلوا إلى الغاية المنشودة ، ويحققوا لأمتهم العزة والكرامة .

وعلى هذا الشكل يصف الله تعالى المؤمنين بقوله : ﴿ فما وهنوا لما أصـابهم في سبيل الله ومـا ضعُفوا ومـا استكانـوا والله يحب الصـابرين ، ومـا كان قـولهم إلا أن قالوا ربنا اغفر لنـا ذنوبنـا وإسرافنـا في أمرنـا وثبِّت أقـدامنـا وانصرنـا على القوم الكافرين ، فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة والله يحب المحسنين ﴾ [آل عمران : ١٤٦/٣ ـ ١٤٨] .

هكذا يصف الله المؤمنين الأولين ليكونوا قدوة للآخرين .

وبعد ، أيها الأخ المؤمن لقد أعطاك الله سلاحين ماضيين قويين ، لهما أثرهما الطيب ونتائجها الحسنة ، تستعين بها على نكبات الدهر ومشاق الحياة ، وتواجـه بها الشـدائـد ، وتـذلـل بها الصعـاب . فهـل عرفت مستمعي الكريم هـذين السلاحين ؟ إنها الصبر والصلاة ، يرشدنا الرب عز وجل إليهما بقوله : ﴿ يـاأيهـا الذين آمنوا استعينوا .. ﴾ [البقرة : ١٥٣/٢] .

القسم الثاني

قبسات هادفات

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

أحمدك ربي على آلائك ، وأشكرك على نعمائك ، وأسألك المزيد من عطائك ، فأنت الجواد الكريم ، وأنت البر الرحيم .

لقد رغبتنا في فضلك ، وأطمعتنا في رحمتك ، فنحن فقراء إلى غناك ، وبأشد الاحتياج إلى رحمتك .

سبحانك لطفت بنا صغاراً ، ورحمتنا كباراً ، فنسألك دوام اللطف ، واستمرار الرحمة ، فنحن بحاجة إليك حتى تُؤَمِّنَّا بلقائك وحينئذ تتم الرحمة ، وتُسبغ النعمة .

إلهي ! إن ظهرت المحاسن منا فبفضلك ، ولك المنة علينا ، وإن ظهرت المساوئ فبعدلك ولك الحجة علينا .

إلهي ! هذا ذلنا ظاهر بين يديك ، وهذا حالنا لايخفى عليك ، بك نستدل عليك ، ومنك نطلب الوصول إليك ، فاهدنا بنورك إليك ، وأقمنا بصدق العبودية بين يديك .

إلهي ! أَجِبْ دعائي بحقك عليك .

اللهم صلِّ وسلم وبارك على أشرف خلقك ، وخاتم أنبيائك ، مقدمة الوجود الأول ، وروح الحياة الأفضل ، ونور العلم الأكمل ، وبساط الرحمة في الأزل ،

وسماء الخُلُق الأجل ، نور الهداية ، وعلم البيان : محمد المصطفى والرسول المجتبى ، الصادق الأمين ، إمام المتقين وشفيع المذنبين ، مَنِ انْفَجَر الماءُ من أصابعه وهَمَع ، وانشق له القمر ثم اجتَمع .

اللهم صلِّ وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه وأحبابه وأتباعه صلاةً وسلاماً دائمين متلازمين إلى يوم الدين .

وبعد ، فإن من واجب الشكر للمولى عز وجل ، والتحدث بنعمته ، أن أذكر أن الطائفة الأولى من هذه الأحاديث ، التي صدرت في كتاب « من وحي المنبر » ، قد نالت إعجاب الكثيرين من الإخوة القراء ، وحظيت بتقدير الزملاء المدرسين والخطباء ، لما وجدوا في ثناياها من أبحاث ومواضيع تفتح لهم الباب ، وتسهل لهم الطريق .

حيث وجدوا فيها غذاء عقولهم ، وشفاء صدورهم ، وبغيتهم فيما يعينهم من أمر الخطابة والتدريس والوعظ والإرشاد .

لذلك فقد بدت الرغبة واضحة في الاستزادة من هذه الأحاديث ،والإكثار من تلك المباحث المتنوعة التي تسهل لهم المهمة ، وتوفر عليهم الجهد .

فكان لزاماً علي أن أسارع في تقديم المجموعة الثانية لحضراتهم ، شاكراً لهم ماأولوني من ثقة ، وما منحوني من تقدير .

هذا مع اعتقادي بأنهم أقدر مني على صياغة هذه الأحاديث ، وعلى إنشاء الكثير من أمثالها ؛ غير أنه قد لايكون لديهم الفراغ لمثل هذا العمل .

وإن القراء الأعزاء لواجدون في هذه المجموعة الثانية ـ إضافة إلى الخطب المنبرية ، والأحاديث الوعظية ـ بعض المقالات الأدبية التي لها صلة وثيقة بالنصح والإرشاد ، وبعض التراجم الهادفة التي تكون كتطبيقٍ عَمَليٍ حيٍّ لما يطلب فعلهُ من المؤمنين ، من مكارم الأفعال ، وكريم الخصال .

وماهذه الأحاديث التي ذكرت ، والمواضيع التي قدمت إلا نقطةٌ من بحور توجيهات الإسلام وتعاليمه ، وتشريعاته التي أحاطت بكل نواحي الحياة ، ورسمت النهج الواضح لكل مشاكل المجتمع .

وكفانا ـ نحن المسلمين ـ فخراً ، أن نستمد كل هذه التوجيهات والتشريعات والتعاليم من كتاب ربنا العظيم ، الذي لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، كما وصفه منزله عز وجل بقوله : ﴿ وإنه لكتابٌ عزيزٌ ، لايأتيه الباطلُ من بين يديْهِ ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ﴾ [فصلت / ٤٢] .

والذي يقوله فيه سبحانه : ﴿ إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقْوَمُ ويُبَشِّرُ المؤمنين الذين يعملونَ الصالحاتِ أنَّ لهم أجراً كبيراً . وأن الذين لايؤمنون بالآخرةِ أعتدنا لهم عذاباً أليماً ﴾ . [الإسراء / ١٠] .

وإن من يتأمل في الشريعة الإسلامية ، ويطلع على نصوصها وأحكامها ، يجد أنها قد تضمنت مصالح العباد في المعاش والمعاد ، مع العدل الكامل ، واليسر المُحَبَّب .

كما يخرج بنتيجة حتمية أنها الشريعة الكاملة التي تصلح لكل زمان ، ولكل مكان ، ولكل أمة ، ولكل عصر ، حتى يرث الله الأرض ومن عليها .

ولما كان الإسلام دينَ البشرية إلى قيام الساعة ، وكان رسولُه خاتمَ النبين ، كانت تعاليمه سمحة مَرِنة ، تساير العصور ، ولاتعارض التطور ، وتتمشى مع تقدم الحياة وازدهارها .

ومن الغريب أن المتجنين على الإسلام يعتبرون هذه المرونة عيباً فيه ، لأنها ـ على زعمهم ـ تورث الغموض والإبهام !!

وإلى هؤلاء يوجه الإسلام قول القائل :

إذا محـــاسني الــلاتي عرفتُ بهــــا   كانت عيوبي فقـل لي كيف أعتـذر ؟

أيها الإخوة المؤمنون ! إن علينا واجباً أكيداً ـ نحن المسلمين ـ أن نفهم حقيقة ديننا ، وروح شريعتنا لنجد فيها النور الـذي يهـدينـا ، والقـدرة التي تجمعنـا ، والقوة التي تدفعنا ، وبذلك نعيد أمجاد آبائنا الذين عملوا بها فكانوا من الخالدين .

ومن الواضح الذي لاريب فيه أننا كلما ابتعدنا عن تعاليم هـذا الـدين حلت بنـا الكوارث ، وتوالت علينـا الخطوب ، وتـألبت علينـا الأمم ، وتـآمرت علينـا الأعداء ، وصدق رسول الله ﷺ إذ يقول :

« يوشك الأمم أن تداعى عليكم من كل أفق كما تداعى الأكلة على قصعتها .

قال ـ يعني ثوبان راوي الحديث ـ:قلنا : يارسول الله أمن قلةٍ بنا يومئذ ؟

قال : أنتم يومئذ كثير ، ولكن تكونون غُثاءً كغثاء السيل ، ينزع المهابـة من قلوب عدوكم ، ويجعل في قلوبكم الوهْنَ .

قال : قلنا : ومāالوهْنُ .

قال : حب الحياة وكراهية الموت » .

رواه الإمام أحمد جـ ٥ / ص ٢٧٨ وأبو داود في الملاحم .

☆ ☆ ☆

أخي المؤمن نحن قوم أعزنا الله بالإسلام ، ولن نُعز بغيره ، ومهما ابتغينـا العز بغير الإسلام أذلنا الله ، كما أوضح ذلك الفاروق عمر رضي الله عنه بكلمته الـذائعـة المشهورة .

ولكننا حينما ابتعدنا عن تعاليم ديننا ، ونبذناها وراءنا ظهرياً تداعت علينا الأمم ، وطمعت بنا الشعوب .

لقد آن لنا أن نستيقظ من سباتنا ، وأن نفكر في الأسباب التي أغرقتنا في أوحالنا ، فنرجع إلى الله تعالى بالتوبة والندم ، ونرجع إلى تعاليم ديننا بالتمسك والعمل .

وإذا نحن لم نفعل فستظل الكوارث تنزل ، وَبُغَاثُ الأمَمِ تَسْتَنْسِر ، والرياح تعصف ، وصدق الله العظيم إذ يقول :

﴿ إن اللهَ لا يُغَيِّرُ مابقومٍ حتى يُغَيِّرُوا مابأنفسِهِم ﴾ [الرعد / ١٢]

☆ ☆ ☆

أخي المؤمن ! لقد استهدفت من نشر هذه الأحاديث ، التي تقيم القلوب والعقول معاً على أسُسٍ رصينة من الإيمان العميق ، أن أضَعَ أمَام القارئ الكريم بعضاً من تعاليم الإسلام تدل على كلها .

وأن أذكر بالعمل للآخرة ، كما نعمل للدنيا ، وللحياة الباقية كما نعمل للفانية .

وإذا كانت الحقيقة الأزلية للإنسان هي الموت ، فما أجدره أن يعد له من العمل الصالح ، ويتخذ له عند ربه رصيداً من الخير ، ليحصل على الثمر ، يوم تجد كل نفس ماعملت ...

ربنا إننا نحسن الظن بك وقد وعدتنا أن تكون عند حسن ظننا .

فنسألك ياخير مسؤول أن تجعل أعمالنا خالصة لوجهك الكريم لننال عندك بها درجة القبول ، ونحصل بها على رضاك الذي هو غاية المطلوب ، ونهاية المأمول .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

أحمد نصيب المحاميد

من فلسفة الإسراء والمعراج

قال تعالى في كتابه العزيز : ﴿ سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا ، إنه هو السميع البصير ﴾ .

أيها المسلمون ! في السابع والعشرين من شهر رجب العظيم ، يستقبل العالم الإسلامي يوماً تتجلى فيه روحانية الرسول الأعظم ﷺ ، وتعود ذكرى إسرائه ومعراجه ، لتبعث من جديد في قلوب المؤمنين الصبر والتحمل ، والعزيمة والثبات ، لينالوا بعد ذلك الدرجات العلا ، ويحلقوا في مدارج الكمال والرقي والأخلاق .

أيها المسلمون ! إن من واجب كل مسلم ألا يدع هذه الذكرى تمر دون أن يستعرض في قلبه ذكريات الإسراء والمعراج ، ويتفهم معانيها ، ويتذوق ثمراتها ، لتجلو الغمام الذي ران على القلوب ، وتبدد اليأس الذي يكاد يستولي على النفوس ، فينطلق من جديد بعزيمة ثابتة ، وقوة حديدية ، يجابه بها الأخطار ، ويقارع بها الحوادث ، إلى أمل كبير في مستقبل باسم .

إن هذه الحادثة بمقدماتها ونتائجها تهيب بالمؤمن صائحة مدوية : ياأيها المؤمن أنت لست شخصاً عادياً في هذه الدنيا ، إنك لست كائناً كبقية الكائنات في هذا الوجود ، إن الله عز وجل قد ميزك عن سائر الكائنات بما أودع فيك من هذا الإيمان ، فجعل لك روحاً دونها كل روح ، وهمة عالية دونها قمم الجبال ، وأبراج السماء ، إنك خلقت لتحلق في الآفاق .

كأني بهذه الذكرى المجيدة تنادي المسلمين : إنكم أتباع محمد سيد العالم الذي أُسري به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى في لحظات ، وعُرِج به إلى السموات العلا في لمحات ، فقد عبَّدَ لكم رسولكم الطريق ، وفتح لكم العوالم ، وأراكم آفاق المجد واسعة فسيحة .

أيها المسلمون ! لم يكن لنبي إسراء إلا لمحمد ، ولم يكن لرسول معراج إلا لمحمد ، مما يدل على عظمة نبيكم ، وسمو مكانته عند ربه ، وبالتالي يدل على عظمة أمته ، ومكانتها بين الأمم لأن نبيها فتح أمامها الأبواب ودلها على طريق المجد ، وعلمها بناء الفضيلة ، وجعل علو الهمة من الإيمان .

إن حادثة الإسراء والمعراج تحريك لأصحاب الهمم العالية ، والنفوس الأبية الشامخة ليرتفعوا إلى مواطن الخلود ، ومواضع الرفعة والسمو ، والله سبحانه يقول : ﴿ ولكم في رسول الله أسوة حسنة ﴾ .

إنه لجدير بكل مسلم أن يتأمل في هذه الذكرى الخالدة ، وما لابسها من أسباب ، وما سبقها من أحداث خطيرة في حياة الرسول الكريم ، كانت السبب في إبراز حقيقته ، وإظهار منزلته .

أما إذا قصرنا جهدنا في هذه الذكرى العظيمة على الاحتفالات والزينات فما أصبنا الغرض . فقد ثبت في تاريخ النبي الكريم أنه ضاق ذرعاً بقريش ، وكثرت مساءاتهم إليه ، واعتداءاتهم عليه ، ولاسيا بعد أن توفي عمه أبو طالب الذي كان له درعاً حصينة يقيه الأشرار والمعتدين . لذلك فكر عليه الصلاة والسلام أن يذهب إلى الطائف لعله يجد من أهلها قبولاً لدعوته ، ومجالاً لنصرته ، ولكن لم يلق منهم إذ ذاك إلا صداً وقسوة وإعراضاً ، بل تمادوا في ذلك حتى أغروا به سفهاءهم ، وعبيدهم ، يسبونه ويقذفونه بالحجارة ، حتى أدموا قدميه الشريفتين ...

ولو علموا على من يقـذفـون ، وبمن يسخرون ، لـذابـوا خجـلا من أنفسهم ، ولفضلوا أن تقطع منهم هذه الأيدي التي يقـاومون بها سيـد العـالم ، الـذي وقف حياته على إسعادهم ، وبذل جهده من أجل عزهم وسيادتهم .

ولقـد عز على رسول الله أن يـأتي قومـه برسـالـة السماء ، وبسيـادة الأرض ، وبمفاتيح العالم ، وبكنوز الـدنيـا ، وسعـادة الآخرة ، ثم لايلقى منهم إلا كما يلقى الطبيب الرحيم من المريض الطفـل ، أو الجـــاهـل السقيم ،من كره ، وشتم وإسـاءة .. عـز عليـه ذلـك ، وأهمـه أمر أمتـه ، فـالتجـأ إلى الله تعـالى بضراعـة وخشوع ، يشكو إليه ضعف قوته ، وقلة حيلته ، وهوانه على النـاس ، ويسـألـه أن يهدي قومه فإنهم لايعلمون .

وهنا أراد الحق تعالى أن يستجيب لنبيـه دعـاءه ، ويعرفـه قـدره ، ويظهر للدنيا كلها منزلته ، ومكانته عند ربه .. أراد ، سبحانه ، أن يبين لرسولـه أنـه إن هـان أمره عنـد النـاس ، فهـو عظيم عنـد رب النـاس ، وإن لم يعرف الجـاهلـون والجاحدون قدره فإن رسل الله ، وأنبياءه وملائكته وأصفياءه كل أولئـك يعرفون قدره ، ويعترفون بفضله ، وكفى بهم عارفين .

لذلك أسرى به تعالى من المسجد الحرام إلى المسجـد الأقصى بـاحتفـال مهيب رهيب ، قـام بــه النبيـون والمرسلـون ، والمـلائكـة المقربون على أرض المسجـد الأقصى ، صفوفاً صفوفاً يستقبلون القـادم العظيم ، ويحيطون بـه إحـاطـة الشهب بالبدر ، أو الجند بالعلم ، كلهم يود أن يجتلي طلعته ، وينال صحبته .

وهناك نصب له المعراج فارتقى السموات العلا ، إلى سدرة المنتهى ، عندهـا جنة المأوى ، حيث رأى من آيات ربه الكبرى ، وشاهد مالم يشاهـد غيره ، وبلغ مـالم يبلغـه سـواه ، فكان عليـه الصلاة والسـلام في هـذه الليلـة سفير الأرض إلى السماء ، فأكرمه الله أيما تكريم ، وأجزل له العطاء .

هذه هي القدرة الإلٓهية التي لايشك بها إلا الجاحدون والملحدون ، هـذه هي القدرة تقف بجانب الرسول وكأنها تخاطبه في رحلته السماوية قائلة : يامحمـد سوف تجتـاز الصعـاب برعـايتنـا ورحمتنـا ، وسوف يستقر دينـك في الأرض بمعونتنـا ، وسوف تظهر على أعداء الإنسانيـة مهما تـآمروا ومكروا ، وسوف يتم ربـك عليـك النعم ، ويكمـل لـك الـدين ، وإن الـذي جعلـك تتخطى الأرض والسماوات لهـو الذي يذلل الصعاب .

أيهـا المسلمـون ! هـذه معجـزة نبيكم التي تخـاطب العقـل دائمـاً ، إنهـا ليست كمعجزات الأنبيـاء التي تخـاطب الجوارح ؛ فمعجزة موسى عليـه السـلام حين ألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين ، ونزع يده فإذا هي بيضـاء للنـاظرين ، هي معجزة بصرية ، يرى المشاهد حدوثهـا فتبهرهم ، وتؤدي إلى الإيمـان أو العنـاد ، ومعجزة عيسى عليه السلام في إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص هي أيضاً معجزة بصرية تؤدي بالناس إلى الاقتناع أو إلى الإنكار ...

أما معجزة محمد ﷺ فهي ليست بهذا المستوى المادي ، إنمـا أراد الله تعـالى أن تكـون خـالـدةً تخـاطب العقـل ، وتثير الفكر ، فكانت آيــات القرآن العظيم في إعجـازهـا الخـالـد لكل الأجيـال من البشر هي أعظم مصـداق لنبـوة محـمد عليــه السلام ، وهي لاتنتهي بمجرد حدوثها ، ولكنها مستمرة إلى يوم الدين .

وكانت معجزة الإسراء والمعراج اختباراً لإيمان المؤمنين ، وإظهاراً لتصـديقهم ويقينهم ، وفتنة للمعاندين والجاحدين ، وفي ذلك يقول الحق عز وجل : ﴿ ومـا جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس ﴾ .

أيها المسلمون لقد عاد النبي من رحلته السماويـة إلى الأرض ، ونـال من ربـه مانال من التكريم والتعظيم ، وركب البراق من المسجد الأقصى عائداً إلى أم القرى ليتابع دعوته ، ويتم رسالته .

وكان لابد من أن يخبر قومه بهذه الرحلة ، وهنا ظهر إيمان المؤمنين الصادقين ، فإن أبا بكر رضي الله عنه ماكاد يبلغه الخبر حتى سارع إلى التصديق به ، والإيمان بكل حوادثه ، أما المعاندون فنظروا إلى ذلك نظرة مادية ، واستبعدوا أن يقطع إنسان هذه المسافات الشاسعة بزمن يسير .

لكن الرسول عليه أن يقول الحق ، ويبلغ عما شاهد ، ومن شاء فليؤمن ، ومن شاء فليكفر .

لذلك كان من جملة ماأخبر به قوله : جاءني جبريل بإناء من خمر ، وإناء من ماء ، وإناء من لبن ، فأخذت اللبن ، فقال جبريل : أخذت الفطرة ، وأنه مر على قوم يزرعون ويحصدون في كل يوم ، كلما حصدوا عاد كما كان ، فسأل : ماهذا ؟ فقال جبريل : هؤلاء المجاهدون في سبيل الله تضاعف لهم الحسنة بسبع مئة ضعف .

ثم أخبر عليه السلام أنه أتى على قوم ترضخ رؤوسهم بالصخر ، كلما رضخت عادت كما كانت ولايفتر عنهم من ذلك شيء ، فقال : ماهذا ؟ قال جبريل : هؤلاء الذين تتثاقل رؤوسهم عن الصلاة . ثم أتى على قوم بين أيديهم لحم نضيج طيب ، ولحم نيء خبيث منتن ، فهم يأكلون من الخبيث ويدعون الطيب فقال : ماهؤلاء ؟ قال : جبريل : هؤلاء الذين يتركون ماأحل الله لهم من نسائهم ويرتكبون الزنا ، ثم أتى على رجل قد جمع حزمة عظيمة لايستطيع حملها ، وهو يزيد عليها . فقال : ماهذا ؟ فقال جبريل : هذا الرجل تكون عنده أمانات الناس ولا يؤديها لهم ، ثم رأى نساءً معلقات بثديهن ، فسأل : ماهذا ؟ فقال جبريل : هؤلاء اللاتي أدخلهن على الرجال من ليس من أولادهم .

ثم ذكر النبي الكريم صوراً من مشاهداته على هذا الشكل للمرابين ، والمغتابين ، وخطباء الفتنة ، وآكلي أموال اليتامى ظلماً ، والغمازين ،

واللمازين ، وغيرهم من أصحاب الجرائم التي تؤذي المجتمع ...

أيها المسلمون ! إن إيحاءات هذه الذكرى لاتكاد تحصى ؛ وإن من أبرزها مايجب لفلسطين على المسلمين فإن بين المسجد الحرام في مكة ، والمسجد الأقصى في فلسطين ، رابطة قوية متينة ، فالمسجد الأقصى أولى القبلتين وثالث الحرمين ، ومسرى محمد ، فالمسلم الذي يحافظ على المسجد الحرام يجب عليه أن يحافظ على المسجد الأقصى ، وإذا كانت العواصم الإسلامية في أنحاء الأرض فتحها خلفاء محمد من بعده ، فإن القدس فتحها محمد بذاته فيجب أن تظل طاهرة نقية من رجس الصهاينة المعتدين ، وأن ترفرف عليها دائماً وأبداً راية محمد سيد المرسلين ، وهذا واجب أكيد على كل مسلم في هذه الأرض ، وفق الله المسلمين إلى العمل على تحقيق ذلك ...

☆ ☆ ☆

موقف المسلمين من القرآن الكريم

لما نزل القرآن الكريم تلقاه المسلمون الأولون بصدور منشرحة ، ونفوس مطمئنة ، وقلوب مؤمنة ، وجعلوه إماماً له يقتدون به ، ودستوراً يعملون بأحكامه ، ويسيرون في الحياة على ضوء تعاليمه .

كانوا يتلونه بألسنتهم فترتسم صور معانيه الجميلة على صفحات قلوبهم ، منقوشة بيد التوفيق والهداية والإخلاص لله ولرسوله وللمؤمنين . يقرؤونه فيجاوز حناجرهم إلى قلوبهم التي عمرت بالإيمان ، وملئت باليقين ، وأفعمت بالشجاعة .

كانوا يرتلونه ترتيلاً ليفهموا معانيه السامية ، ومراميه الواعظة ، وإشاراته الدقيقة ، واستلزم هذا أنهم كانوا يؤدونه بطريقة الأداء العربي الفصيح ، الخالية من التلحين الموسيقي ، والنغم الغنائي ، الفاشِيَيْن الآن في قراءة الكثيرين من قرائنا ، وطريقة المسلمين الأولين في أداء القرآن على النحو الذي ذكرنا هي التي أشار إليها القرآن الكريم حاثاً عليها الرسول ﷺ بقوله : ﴿ ورتل القرآن ترتيلاً ﴾ .

وقد فطنوا رضي الله عنهم لما في القرآن من هداية وإرشاد ، فأحلوا حلاله ، وحرموا حرامه ، ووقفوا عند الحدود التي رسمها لهم ، لذلك أثنى عليهم المولى عز وجل . فقال : ﴿ فبشر عباد الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، أولئك الذين هداهم الله ، وأولئك هم أولو الألباب ﴾ .

وكان قدوتهم في ذلك كله هو رسول الله ﷺ استمعوا إليه يقول لحبه أسامة بن زيد حينما استشفع عنده في حد سرقة على إحدى العظيمات من نساء قريش يقول له : « ياأسامة أتشفع في حد من حدود الله ؟! وايم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها » .

فكان الرسول عليه السلام يربيهم هذه التربية الدقيقة على ضوء تعاليم القرآن السامية ، حتى ازدادوا رسوخاً في الدين ، وعزوفاً عن الشهوات ، وتفانياً في امتثال الأوامر ، واجتناب النواهي ، والحرص على طاعة الله ورسوله في المنشط والمكره .

أمرهم القرآن بالأمانة ، ونهاهم عن الخيانة ، ودعاهم إلى التخلق بهذا الخلق أمام المطامع والشهوات وفي الخلوة والوحدة حيث لايراه أحد فكانت أمانتهم وعفتهم ، مضرب المثل في ذلك .

حدث الطبري قال : لما هبط المسلمون المدائن وجمعوا الأقباض (الغنائم) ، أقبل رجل بحق معه ، فدفعه إلى صاحب الأقباض ، فقال هو والذين معه : مارأينا مثل هذا قط ، مايعدله ماعندنا ولايقاربه فقالوا : هل أخذت منه شيئاً ؟ فقال : أما والله لولا الله ماأتيتكم به . فعرفوا أن للرجل شأناً فقالوا : من أنت ؟ فقال : لاوالله ، لاأخبركم لتحمدوني . ولكني أحمد الله وأرضى بثوابه ، فأتبعوه رجلاً حتى انتهى إلى أصحابه فسأل عنه فإذا هو عامر بن عبد قيس .

أرأيتم إلى هذه الأمانة ! رجل ينفرد بجرة من ذهب خالص لايراه أحد ، وليس عليه شاهد ، يردها لبيت مال المسلمين ، ولايأخذ منها شيئاً ، بل ولايعرف بنفسه ليشكره الناس ويثنوا عليه .

وماأريد أن أجاوز عامر بن عبد قيس هذا إلى غيره دون أن أذكر لكم بعض

ما كان فيه من خلال حميدة ، ومزايا رفيعة ، ومن واجب كل مسلم أن ينطوي عليها ، ويتخلق بها ، ليكون مؤمناً حقاً .

ذكر ابن الأثير في كتابه « أسد الغابة » في معرفة الصحابة أن عامراً هذا كان إذا خرج للجهاد يتوسم الناس ، فإذا رأى رفقة توافقه قال : أريد أن أصحبكم على ثلاث خلال فإذا قالوا : ما هي ؟ قال : أكون لكم خادماً لاينازعني أحد الخدمة ، وأكون لكم مؤذناً ، وأنفق عليكم بقدر طاقتي . فإذا قالوا : نعم صحبهم ، فإذا نازعه أحد من ذلك شيئاً فارقهم ، وكان ورده كل يوم ألف ركعة ، ويقول لنفسه : بهذا أمرت ، ولهذا خلقت .

وقيل لعامر هذا : أتحدث نفسك بشيء وأنت في الصلاة ؟ قال : نعم . أحدث نفسي بالوقوف بين يدي الله عز وجل ، ومنصرفي من بين يديه .

وقال : لقد أحببت الله تعالى حباً سهل عليَّ كل مصيبة ، ورضاني بكل قضية ، فما أبالي مع حبي إياه ماأصبحت عليه وماأمسيت ، وكان إذا رأى الناس في حوائجهم يقول : يارب غدا الغادون في حوائجهم ، وغدوت إليك أسألك المغفرة . ولما نزل به الموت بكى وقال : لمثل هذا المصرع فليعمل العاملون ، اللهم إني أستغفرك من تقصيري وتفريطي ، وأتوب إليك من جميع ذنوبي ، لاإلّه إلا أنت ومازال يرددها حتى مات .

أمرهم بالجهاد فباعوا أنفسهم لله ، وأقبلوا يتسابقون إلى ميادين النضال والتضحية ، بنفوس راضية مطمئنة غير ملتفتين إلى مال ولا ولد ، لا يصدهم عن ذلك كل مافي هذه الحياة الدنيا من شهوات وزخارف .

كان عمرو بن الجموح أعرج شديد العرج ، وكان له أربع بنين شباب يغزون مع رسول ﷺ إذا غزا ، فلما توجه إلى أحد أراد أن يتوجه معه ، فقال له بنوه : إن الله قد جعل لك رخصة فلو قعدت ، ونحن نكفيك وقد وضع الله عنك

الجهاد ؟ فأتى عمرو بن الجموح رسول الله ﷺ فقال : يارسول الله ، إن بني هؤلاء يمنعونني أن أخرج معك . ووالله إني لأرجو أن أستشهد فأطأ بعرجتي هذه الجنة ، فقال رسول الله : أما أنت فقد وضع الله عنك الجهاد ، وقال لبنيه : وماعليكم أن تدعوه لعل الله عز وجل أن يرزقه الشهادة ؟ فخرج مع رسول الله يوم أحد فقتل شهيداً .

هذه بعض نماذج من أعمال المسلمين الأولين ، التي تدل بوضوح على أنهم صدقوا بكل ماجاء في هذا القرآن الكريم ، وآمنوا به إيماناً راسخاً ، فبعث في قلوبهم حنيناً إلى الجنة ، واستهانة نادرة بالحياة ، وتمثلوا الدار الآخرة وقد تجلت لهم بنعمائهم كأنهم يرونها رأي العين فطاروا إليها سراعاً لايلوون على شيء .

هذا موقفهم هم من القرآن ، فما موقفنا نحن ؟ إننا ندعي أننا مؤمنون مثلهم ، وأننا مصدقون بهذا القرآن ، ولكن هل ينفعنا هذا الادعاء وهذا التصديق بدون عمل ؟

إننا نعلم يقيناً أن أحدنا إذا كان مصاباً بالملاريا مثلاً ، ووصف له الطبيب الكينا فإنه لن يبرأ من مرضه بمجرد أن يشتري الكينا قبل أن يتناولها فعلاً ، لتعمل عملها في جسمه ، ومما لاشك فيه أنه لن ينتفع كذلك بمجرد النطق بلسانه ، ولو نطق مليون مرة كينا ... كينا فإن ذلك لايجدي عليه نفعاً .

وكذلك نحن فإن مجرد إيماننا بهذا القرآن ، واحترامنا له . ووضعه في أحسن مكان من غرفنا وبيوتنا ، من غير أن نعمل بتعاليه . ونقف عند حدوده ، فإن ذلك لايصل بنا إلى النتيجة المطلوبة .

بل إن ذلك لن يحول بيننا وبين الدخول تحت تضجر الرسول منا ، وضراعته إلى ربه من عملنا بقوله : ﴿ يارب إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجوراً ﴾ وحقيقة هجره نبذ العمل بما فيه .

ولو أن قائداً من القواد أرسل إلى بعض جنوده كتاباً يأمره فيه باتخاذ خطة معينة وإجراء عملية حربية عسكرية ، فتلقى الجندي الكتاب بكل احترام وتقدير ، وقبله ووضعه على رأسه ثم احتفظ به في أكرم مكان عنده غير أنه اكتفى بذلك ولم يعمل بمحتوياته ، ولم ينفذ الأوامر التي تضمنها الكتاب ، فهل يكون هذا الجندي ممتثلاً طائعاً قائماً بواجبه يستحق المكافأة والتقدير ؟! أم يكون عاصياً مهملاً مفرطاً يستحق العقاب والتنكيل ؟!!

اللهم ألهمنا العمل بكتابنا ليعود لنا مجدنا وعزتنا وسلطاننا ...

☆ ☆ ☆

شفاء الصدور

روى الترمذي بسنده عن الحارث عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ألا إنها ستكون فتنة ، قلت : ماالمخرج منها يارسول الله ؟ قال : كتاب الله ، فيه نبأ من قبلكم ، وخبر مابعدكم ، وحكم مابينكم ، وهو الفصل ليس بالهزل ، من تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله ، وهو حبل الله المتين ، وهو الذكر الحكيم ، وهو الصراط المستقيم ، وهو الذي لاتزيغ به الأهواء ، ولاتلتبس به الألسنة ، ولايشبع منه العلماء ، ولايخلق على كثرة الترداد ، ولاتنقضي عجائبه ، وهو الذي لم تنته الجن إذا سمعته أن قالوا : إنا سمعنا قرآنا عجباً ، يهدي إلى الرشد فآمنا به ، من قال به صدق ، ومن عمل به أجر ، ومن حكم به عدل ، ومن دعا إليه هدي إلى صراط مستقيم » .

ذلكم هو القرآن الكريم ، إن لم تعرفوا قدره ، وتقفوا على حقيقته ، فقد وصفه لكم الرسول الكريم ﷺ بهذه الصفات المجملة البليغة ، وليتأمل المسلمون حق التأمل ، وليعلموا بعد أن كتابهم هو ذلك النور العظيم ، الذي فك العقول من إسارها ، وحرر الأفكار من أغلالها ، وقضى الله تعالى به على العصبية والطغيان والجبروت ، وأمات به النعرة والقبلية والأنانية ، وأقام به أمة هي مضرب الأمثال في الإيمان والإخاء والعدل والمساواة .

وقد انتظم هذا القانون السماوي من العقائد الصحيحة ، والآداب الحميدة ،والأخلاق الفاضلة ، والمعاملات النافعة ، والسياسة الشريفة العالية ،

ماهو كفيل بسعادة الإنسانية في الدارين ، فيه العلاج النافع للمشاكل الاجتماعية ، والبلسم الشافي للأمراض الخلقية ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد .

هذا القرآن هو الذي صلحت به الدنيا في عهد الرسول والخلفاء الراشدين ، أزال الجهل ، ومحق الظلم وحقق العدل ، وحول مجرى التاريخ ، وجعل من رعاة الإبل والشاء علماء حكماء رحماء ، وسادة عقمت الدنيا عن أن تجود بمثلهم في القيادة والسياسة والحرب والحكم .

أليس القرآن الكريم الذي كان له كل هذا الأثر في صدر الإسلام ، هو القرآن نفسه الذي لا يزال حتى الآن بين أيدينا لم يتغير ، ولم يتحرف ؟ نعم إنه هو ، وإن تعاليمه وإرشاداته هي هي لاتزال تعطى أكلها ، وتوالي ثمارها لمن حاول قطف هذه الثمار ، وتناول هذا الجنى الشهي . غير أن المسلمين اليوم ، مع الأسف الشديد ، قد ابتعدوا عن تعاليم القرآن ، وأصبح رصيدهم في بنك الآخرة قليلاً ، حتى إن الكثيرين منهم قد أعرضوا عن قراءة القرآن ، وهجروا هذا الكتاب العظيم ، الأمر الذي جعلهم يندرجون في شكوى الرسول عليه السلام ، حيث قال :« يارب إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجوراً » .

ونظم الآية الكريمة فيه ترهيب لكل من يهمل الكتاب الكريم ، ويعرض عن العمل به ، والأخذ بآدابه ، الذي هو حقيقة الهجر ، لأن الناس إنما تعبدوا منه بذلك ، إذ لاتؤثر تلاوته إلا لمن تدبرها ، ولا يتدبرها إلا من يقوم بها ، ويتمسك بأحكامها . ولكي يحذر المسلمون من هجر القرآن ، ويعلموا مافيه من أثر سيئ في دنياهم وآخرتهم ، أذكر في هذه المناسبة ماقاله الإمام ابن القيم رحمه الله في هذه الآية الكريمة .

قال : هجر القرآن أنواع :

أحدها هجر سماعه ، والإيمان به ، والإصغاء إليه .

الثاني هجر العمل به ، والوقوف عند حلاله وحرامه ، وإن قرأه وآمن به . أي إن المؤمن إذا لم يقف عند حلاله وحرامه يعد هاجراً له وإن قرأه وآمن به .

الثالث هجر تحكيمه ، والتحاكم إليه في أصول الدين وفروعه .

والرابع هجر تدبره وتفهمه ومعرفة ماأراد المتكلم به منه .

الخامس هجر الاستشفاء والتداوي به في جميع أمراض القلوب وأدوائها فيطلب شفاء دائه من غيره ، ويهجر التداوي به .

قال وكل هذا داخل في هذه الآية ، وإن كان بعض الهجر أهون من بعض .

وقال في الإكليل : إن في الآية إشارة إلى التحذير من هجر المصحف وعدم تعاهده بالقراءة فيه ، وكذا قال أبو السعود : فيه تلويح بأن من حق المؤمن أن يكون كثير التعاهد للقرآن كيلا يندرج تحت ظاهر النظم الكريم ، ثم قال وفيه من التحذير مالا يخفى فإن الأنبياء إذا شكوا إلى الله تعالى قومهم ، عجل لهم العذاب ولم ينظروا .

أيها المستمعون إن هجر كتاب الله ، والإعراض عنه هو السبب الوحيد لكل مافي العالم من خلافات وتناحر ومشاكل ، وهو السبب الوحيد كذلك في مرض هذه القلوب التي أصبحت أسيرة المادة وشهوة السيطرة والاستيلاء ، وإن هذا المرض النفسي الذي استولى على زعماء المسلمين وقادة العالم أجمع لادواء له إلا الرجوع إلى هذا الكتاب االكريم ، وتعاليه المعتدلة السمحة ، إن هذا القرآن قد طبب من قبل ملايين من الآدميين ، فشفاهم من أمراض قلوبهم ، وطهرهم من نزوات نفوسهم ، ونقلهم من أسفل سافلين ، إلى أعلى عليين ، فأصبحوا بفضل تعاليه ، وإحكام نظمه مثاليين سعداء في الدنيا والآخرة ، وإن أطباء العالم

ومستشفيات الدنيا لهي عاجزة عن إصلاح قلب إنسان واحد من هذه الملايين التي فسدت قلوبهم ، وانحرفت نفوسهم والله تعالى يقول : ﴿ إنها لاتعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور ﴾ ، وفساد هذه القلوب وعماها هو الخطر كل الخطر على الإنسان والإنسانية كلها ، ومتى صلح هذا القلب في الإنسان صلح الإنسان وصلحت الإنسانية ، واتجهت الحضارة اتجاهاً مستقيماً لاخطر فيه على البشرية ولاخوف ، ولهذا يشير رسول الإسلام عليه السلام بقوله : « إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب » .

ألا ليت المسلمين نظروا في كتابهم نظر تأمل وتدبر ، بل ليت زعماء الشعوب وقادة البشر الذين ، يجدون على مكاتبهم كل يوم عشرات الصحف والمجلات ، ويقرؤون كل صباح عدداً من هذه المنشورات ، ليتهم ويقرؤون جزءاً من هذا القرآن الكريم ليطلعوا على مافيه من عظات وإرشادات وحكم ، وليت المسلمين وغير المسلمين استجابوا لنداء الله تعالى وعملوا به ، إذ يناديهم سبحانه بقوله : ﴿ ياأيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم ، وشفاء لما في الصدور ، وهدىً ورحمةٌ للمؤمنين ﴾ .

لو أنهم استجابوا لهذا النداء ، وعملوا بما يتطلبه من توجيه ونصح لعاشت البشرية كلها على وجه هذه الأرض في إخاء وسلام ومحبة .

☆ ☆ ☆

مقياس العظمة

﴿ فأما الإنسان إذا ماابتلاه ربه فأكرمه ونَعَّمَهُ فيقول : ربي أكرمن . وأما إذا ماابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول : ربي أهانن . كلا ... ﴾ .

يختلف الناس في مقياس عظمة الرجل ومكانته ، وأكثرهم - ولاسيا في عصرنا المادي الحاضر - لايعتبرون الرجل عظيماً إلا إذا كان صاحب مال وفير ، وثروة ضخمة ، وبناية شامخة ، وسيارة فخمة ، وجاه عريض وسلطان واسع ، فإذا نال كل هذا أو بعضاً منه ، عظم في أعين الناس . وذكر بينهم ، واحترم في مجالسهم ، وأشير إليه بالبنان ، بل ربما اعتقد بعض أنه كما هو عظيم في الدنيا مكرم فيها ، سيكون عظيما عند الله مبجلاً في الدار الآخرة ، حاصلاً على الدرجات العلا في جنات النعيم .

ولكن العظمة والرفعة في نظر الإسلام لاتستلزم شيئاً من ذلك ، بل مقياس رفعة الرجل في نظر الشارع الحكيم ، إنما تكون بمقدار مايقدم لنفسه ولأمته من عمل صالح ، وخير عميم ، فإذا قدم الكثير من هذه الأعمال ، وساهم في كثير من المشاريع النافعة ، كان عند الله عظيماً ، ذا منزلة رفيعة ، وجاه عريض .

وكذلك يجب أن يكون عند العقلاء والمفكرين ، وذوي الألباب ، لأن فضيلة الإيمان القوي ، وما ينطوي عليه من فضائل كثيرة ؛ كالصدق ، والثبات والشجاعة ، والعزة ، والإقدام والصراحة ، والعفة والقناعة وما إلى ذلك من المزايا التي يعترف بها العلم والدين ، هذه المميزات في الإنسان لايمكن أن يطمسها الفقر

وقلة ذات اليد ، فقد كان الفقير المعدم في العصر الإسلامي الصحيح يواجه الأغنياء والملوك بجرأة وشجاعة ، وهو معتز بشرفه وخلقه .

وقد دلت الآية الكريمة التي افتتحت بها حديثي على كل هذه المعاني ، فصححت الأفهام ، وعدلت المقياس ، كما بين ذلك الرسول الكريم في أقواله وأفعاله ، بياناً شافياً لايدع ريبة لمرتاب .

روى الإمام أحمد عن أنس رضي الله عنه قال : خطب النبي ﷺ على جليبيب رضي الله عنه ، امرأة من الأنصار إلى أبيها ، فقال الأنصاري حتى أستأمر أمها ، فانطلق الرجل إلى امرأته ،فذكر لها ذلك ، فأبت أشد الإباء لما كانت تعرفه من دمامة جليبيب ، فقد كان قصيراً دمياً رثَّ الهيئة ، فقالت الجارية : أتريدون أن تردوا على رسول الله أمره ؟ إن كان قد رضيه لكم فأنكحوه ، قال : فكأنها جلت عن أبويها ، وقالا : صدقت ، فذهب أبوها إلى رسول الله فقال : إن كنت رضيته فقد رضيناه ، فقال : رسول الله إني قد رضيته .

وفي حديث أبي برزة الأسلمي ، أن الجارية حينما سمعت من أبيها بما أراد رسول الله ، تلت قوله تعالى : ﴿ وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ﴾ وقالت : رضيت وسلمت لما يرضي الله ورسوله ، فدعا لها الرسول وقال : « اللهم اصبب عليها الخير صباً ، ولاتجعل عيشها كداً » فكانت من أحسن نساء الانصار نفقة .

... أرأيتم إلى عمل الرسول مع هذا الإنسان ؟! إنه رجل لم يؤت مالاً ، ولم يرزق ثروة ، وكان إلى هذا دمياً ، لم يرزق جمالاً في الصورة ، فلم يكن فيه شيءٌ يرغب الناس فيه ، فأعرض الناس عنه ، وكرهوا تزويجه ، ومن يدري لعله خطب كثيراً ولم يجب ، لكن الرسول الكريم كان يعلم ماينطوي عليه هذا الإنسان من إيمان راسخ ، وخلق قويم ، فأراد أن يصحح الأفهام ، ويزيل

الأوهام ، فخطب له بنفسه وزوجه ، مما يدل على عظيم فضله ، ورفعته عند الله .

دل على ذلك مبادرته إلى الجهاد ، وهو حديث عهد بزواج حتى استشهد ، وأنزله الرسول في حفرته بيديه وشهد له بالخير .

ثم أرأيتم إلى ابنة الأنصاري ؟ أسمعتم مقالتها ؟ إنها فتاة وسيمة بارعة ، ترتقب شريك حياتها وقد خطبت كثيراً من ذوي المال والثراء والجاه ، حتى فوجئت باختيار النبي لها هذا الرجل الدميم .

ماذا هي صانعة ؟ أفتخرج على أمر رسول الله ، وتتمرد على شريعة الإسلام ؟؟ كلا إنها مؤمنة ، وماأسرع ماذكرها إيمانها بقول الله عز وجل : ﴿ وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ﴾ فأيقنت أن الخيرة والبركة في الدنيا والآخرة ، فيما اختاره الله ورسوله ، وأن من واجب المؤمن أن يرضخ لحكم الله ورسوله ويسلم تسليماً .

وقد أظهر الواقع أن الخير كل الخير في امتثال أمر النبي ، وأن السعادة كل السعادة في طاعة الله ورسوله ، فقد أصبحت هذه الفتاة في عيشة هانئة وادعة ، وحياة سعيدة كاملة ، ومثلاً للمؤمنات الصادقات .

وهذا مثل آخر في تصحيح المقاييس ، وبيان الحقائق ليعلم الناس أن التفاضل والرفعة بالتقوى والإيمان .

روى الطبراني عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رجلاً من الحبشة أتى النبي ﷺ فقال : « يارسول الله ، فضلتم علينا بالألوان والنبوة ، أفرأيت إن آمنت بمثل ماآمنت به ، وعملت بمثل ماعملت به ، إني لكائن معك في الجنة ؟

فقال النبي : نعم . ثم قال عليه السلام : من قال لاإله إلا الله ، كان له بها

عهد عند الله ، ومن قال : سبحان الله ، كتب له مئة ألف حسنة ، فقال رجل : يارسول الله ، كيف نهلك بعد هذا ؟ فقال النبي : والذي نفسي بيده ، إن الرجل ليجيءُ يوم القيامة بعمل لو وضع على جبل لأثقلهُ ، فتقوم النعمة من نعم الله فتكاد تستنفذ ذلك كله ، لولا مايتفضل الله به من رحمته ، ثم نزلت : ﴿ هل أتى على الإنسان حين من الدهر ﴾ إلى قوله : ﴿ نعيما وملكا كبيراً ﴾ فقال الحبشي : يارسول الله ، وهل ترى عيني في الجنة مثل ماترى عينك ؟ فقال النبي : نعم . فبكى الحبشي حتى فاضت نفسه ، قال ابن عمر : فأنا رأيت رسول الله يدليه في حفرته .

ماأعظم الإسلام ، وماأحرصه على بيان الحق ، هذا رجل من الملونين يعمل بعمل المؤمنين ، فيكون مع الرسول في الجنة ، يرى مايرى ، ويتمتع بما يتمتع به من النعيم .

وصدق الرسول إذ يقول :« إن الله لاينظر إلى صوركم ولا إلى أجسامكم . ولكن ينظر إلى قلوبكم » .

☆ ☆ ☆

معجزات الرسول ﷺ

جرى حديث بيني وبين بعض الرفاق عما تحدث بـه المتحـدثون في شهر ربيع الأول عن صفات النبي ﷺ وأخلاقه ، وبعض التعاليم السامية التي اشتملت عليهـا شريعته الخالدة .

واتفقنا جميعاً على أن الكتاب والمتحدثين والشعراء والمـادحين مهما بـذلوا من جهـد ، ومهما أوتوا من بيـان لايستطيعون أن يوفوا النبي ﷺ حقـه ، أو يحيطوا بما وهبه الله تعالى من كمال ، وسيجدون أنفسهم عاجزين مقصرين أمام هذا المـدح الإلهي العظيم لرسوله الكريم ، إذ يقول له : ﴿ وإنك لعلى خلق عظيم ﴾ .

غير أن أحد الأصحاب لفت النظر إلى أن أحداً من المتحـدثين في هـذا الشهر الأنور ، لم يتطرق إلى موضوع آيـات نبوتـه ﷺ ومعجـزاتـه التي أيـده الله بهـا ، وكانت مدعاة للتصديق بنبوته ، والإيمان برسالته . لـذلـك رغبت في أن أبحث في هذا الموضوع ، وأبين طرفاً من نواحيه بقدر مايتسع لي الوقت .

إن معجزات النبي ﷺ كثيرة ، وأعظمها وأثبتها وأصحها وأبهرها هذا القرآن الكريم ، الذي جاءنا به من عند الله ، فحفظه هو ﷺ ، وبينـه للنـاس ، ووضح مـاانطوى عليـه هـذا القرآن الكريم من علـوم مختلفـة ، للـدين والـدنيـا ، والسلم والحرب ، والمعاملـة وكل نواحي التشريع ، الـذي يحتـاج إليـه الإنسـان في تقويم حياته .

ووجه المعجزة في هذه الناحية ، أن الرسول عليـه السلام ثبت عنـه أنـه أمي لايقرأ ولايكتب ، وقد أطلق القرآن الكريم وصف الأميـة عليـه ، وحكى الرسول

هذا عن ربه على مسمع من العرب أجمعين بما فيهم أتباعه وأعداؤه ، قال تعالى : ﴿ وماكنت تتلو من قبله من كتاب ، ولاتخطه بيمينك إذاً لارتاب المبطلون ﴾ ، وقال تعالى أيضاً : ﴿ الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل ، يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ﴾ .

سمع العرب هاتين الآيتين وغيرهما أيضاً ، وكان كثير منهم يناصبونه العداء ، فلو كانوا يعلمون أن الرسول يجيد القراءة والكتابة لكان لهم سبيل إلى نفي قوله ، ولقامت لهم الحجة على تكذيبه في أوضح برهان .

فَحِفْظُ الرسولِ ﷺ للقرآن ، وَفَهْمُه العميق له ، والتحدثُ عن كل العلوم الموجودة فيه ، وإخباره عن المغيبات ، كل هذا دليل قاطع على أن الرسول تلقى هذا القرآن من قبل الحق عز وجل بواسطة جبريل عليه السلام .

ومن المشاهد الذي لاسبيل لإنكاره أن الله سبحانه وتعالى يخص من شاء من عباده بمواهب وكفاءات لم يخص بها الآخرين ، فترى بعض الناس يفوق غيره في القوة الجسدية ، وبعضهم عنده من المهارات في فن من الفنون ، أو حرفة من الحرف ماليس عند غيره ، هذا ذكي متوقد الذكاء ، وهذا شديد الفهم قوي الذاكرة ، هذا يميل إلى الناحية العسكرية ميلاً فطرياً ، وبعضهم يولد على كفاءة خاصة في الحكم والسياسة والسيادة ، إلى غير ذلك من مختلف المواهب التي نشاهدها في أفراد البشر ، مما لايمكن أن يُحْصَى عَدَدُهم .

ولما كان البشر بحاجة إلى الرسل للأخذ بأيديهم وإرشادهم إلى الطريق المستقيم ، ميز الله تعالى هؤلاء الرسل عن غيرهم من البشر ، وأعدهم إلى تحمل رسالة السماء ، وجعل فيهم من المواهب مالا يكون في غيرهم ، وأظهر على أيديهم نواحي تخالف المعتاد ، وتخرق المألوف ، وهو مايسمى بالمعجزة .

أما إعجاز القرآن نفسه فقد ثبت بدون شك لكل ذي عقل وبصيرة ، وقد

ألفت في ذلك الكتب ، وقد تحدى القرآن العرب الذين نزل بلغتهم وهم أرباب البلاغة ، وفرسان القول ، أن يأتوا بسورة من مثله فعجزوا ولم يستطيعوا ، والذين حاولوا الإتيان بمثله انكشفوا وأصبحوا سخرية للناس وافتضحوا .

أما معجزاته الأخرى عليه السلام فهي ترتكز دائماً على القدرة الإلهية التي لايعجزها شيء ، وحقيقة المعجزة أنها أمر خارق للعادة فوق مستطاع البشر ، من هذه المعجزات إخباره ﷺ بالمغيبات ، ومن المعلوم أن الغيب لايعلمه إلا الله عز وجل ، والرسول نفسه نفى أن يكون يعلم الغيب يقول تعالى عن لسان نبيه : ﴿ قل لاأقول لكم عندي خزائن الله ، ولاأعلم الغيب ، ولا أقول لكم إني ملك ، إن أتبع إلا مايوحى إلي .. ﴾ . ويقول تعالى أيضاً : ﴿ قل لاأملك لنفسي نفعاً ولاضراً إلا ماشاء الله ، ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير ، وما مسني السوء ، إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون ﴾ .

فهذا صريح في أن الرسول لايعلم شيئاً من الغيب إلا مايُعْلِمه اللهُ به ، ولأن علم الغيب قد اخْتُصَّ به الحق عز وجل : ﴿ قل لايعلم من في السماوات والأرض الغيب إلا الله ، ومايشعرون أيان يبعثون ﴾ . وقال تعالى : ﴿ عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول ﴾ فإخبار الله تعالى رسوله بالغيب ليخبر به الناس ، إنما هو تأييد من الله لرسله ليؤمن بهم الناس .

روى ابن الأثير أن عمير بن وهب الجمحي جلس إلى بعض أصحابه من قريش بعد هزيمتهم في بدر فقال : لولا دين عليَّ لاأجد قضاءه ، وعيال لاأدع لهم شيئاً لخرجت إلى محمد فقتلته ، إن ملأت عيني منه ، فإن لي عنده علة أعتل بها ؛ أقول قدمت على ابني هذا الأسير ـ وقد أسر ابنه يوم بدر ـ ففرح صفوان وقال : عليَّ دينُك ، وعيالُك أسوة عيالي في النفقة ، فجهزه صفوان ، وأمر بسيف فسُمّ وصقل .

فأقبل عمير حتى قدم المدينة فنزل بباب المسجد فنظر إليه عمر بن الخطاب ، وهو في نَفَرٍ من الأنصار يتحدثون عن وقعة بدر ويذكرون نعم الله فيها ، فلما رآه عمر معه السيف فزع وقال هذا عدو الله ، ثم قام عمر فدخل على رسول الله فقال : هذا عمير بن وهب قد دخل المسجد متقلداً سيفاً ، وهو الغادر الفاجر يارسول الله ، لاتأمنه على شيء . قال النبي أدخله عليّ ، فخرج عمر فأمر أصحابه أن ادخلوا على رسول الله ، واحترسوا من عمير ، وأقبل عمر وعمير فدخلا على رسول الله ومع عمير سيفه .

فقال عمير : أنْعِموا صباحاً وهي تحيتهم في الجاهلية ، فقال رسول الله : قد أكرمنا الله عن تحيتك ، السلام تحية أهل الجنة ، فما أقدمك ياعمير ؟ قال : قدمت في أسيري ، فَفَادونا في أسيركم فإنكم العشيرة والأهل ، فقال رسول الله فما بال السيف في رقبتك ؟ فقال عمير : قبحها الله (من سيوف) فهل أغنت عنا من شيء (يوم بدر) إنما نسيته حين نزلت . فقال رسول الله : أصدقني ماأقدمك ؟ قال قدمت في أسيري . قال : فما الذي شرطت لصفوان بن أمية في الحجر ؟!! ففزع عمير ، وقال : ماشرطت له شيئاً !!

قال الرسول : تحملت له بقتلي على أن يَعُولَ بَنِيك ، وَيَقْضِيَ دَيْنَك ، والله حائل بيني وبينك ، قال عمير : أشهد أن لاإله إلا الله وأشهد أنك رسول الله . يارسول الله كنا نكذبك بالوحي وبما يأتيك من السماء ، وإن هذا الحديث كان بيني وبين صفوان في الحجر ، والحمد لله الذي ساقني هذا المساق ، وقد آمنت بالله ورسوله : ففرح المسلمون حين هداه الله .

قال عمر بن الخطاب : والذي نفسي بيده لَخِنْزِيرٌ كان أحب إلي من عمير حين طلع ، ولهو اليوم أحب إليَّ من بعض ولدي ، فقال رسول الله : اجلس ياعمير نُؤانِسْك ، وقال لأصحابه : علموا أخاكم أخاكم القرآن ، وأطلق له أسيره .

فقال عمير : يارسول الله قد كنت جاهدا مااستطعت على إطفاء نور الله ، والحمد لله الذي هداني من الهلكة ، فأذن لي يارسول الله فألحق بقريش فأدعوهم إلى الله تعالى وإلى الإسلام ، لعل الله يهديهم ، ويستنقذهم من الهلكة ، فأذن له رسول الله ﷺ ، فلحق بمكة .

وجعل صفوان بن أمية يقول لقريش : أبشروا بفتح ينسيكم وقعة بدر . (يريد أن عميراً سيعود فيقتل محمداً) وجعل يسأل كل من قدم من المدينة . هل كان بها من حدث ؟. حتى قدم عليه رجل فأخبره أن عميراً أسلم فلعنه المشركون ، وقالوا : صبأ ، وحلف صفوان لاينفعه بنفع أبدا ، ولايكلمه كلمة أبدا .

فقدم عمير ، فدعاهم إلى الإسلام ، فأسلم (بدعوته) بشر كثير .

أرأيتم إلى هذه المعجزة ، ومانَتَجَ عنها ، وللرسول عليه السلام معجزات من هذا النوع كثير .

ومن معجزاته ﷺ انشقاق القمر : فقد روى الشيخان عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال : بينما نحن مع رسول الله ﷺ إذ انشق القمر فلقتين ، فكانت فلقة وراء الجبل وفلقة دونه ، فقال لنا رسول الله : اشهدوا ، وكانت قريش قد سألوا رسول الله أن يريهم آية دالة على صدقه في ادعاء النبوة ، لأنهم لم يعتبروا بالقرآن العظيم الذي هو أعظم آية وأدومها ، فأراهم انشقاق القمر ، ونزل قوله تعالى : ﴿ اقتربت الساعة وانشق القمر ، وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر ﴾ . وقد قالت قريش حينما رأوه منشقاً سحركم محمد ، فابعثوا إلى أهل الآفاق حتى تنظروا هل رأوا مثل هذا أم لا ؟ فجعلوا يسألون الركبان والقادمين إلى مكة والمسافرين عن ذلك فأخبروهم أنهم رأوا ذلك تماماً .

والعقل يجوِّز هذه المعجزة ؛ إذ أن القمر مخلوق لله عز وجل يفعل به مايشاء ، فكما أنه يسلب نوره ويكوره في آخر يوم من أيام الدنيا ، يشقه معجزة

لنبيه ، على أن المعجزات كما قلت خوارق للعادات ، يؤيد الله بها رسله ، لإيمان البشر برسالاتهم ، وما معجزات سيدنا عيسى صلوات الله عليه وسلامه ، كإحياء الموتى ، وجعل الطين طيراً ، وإبراء الأكمه والأبرص دون عقاقير وأدوية ، إلا من هذا القبيل .

في المعجزات أيضاً

في الحديث السابق تعرضت لبعض معجزات الرسول عليه الصلاة والسلام ، وبينت ماهي المعجزة ، وماهو المقصود منها ، وقد ذكرت فيما سبق أن المعجزة ، هي أمر خارق للعادة ، وخارج عن مألوف البشر ، وأنها تأييد من الله تعالى لرسله فيما يبلغون عن ربهم ، فكأنه تعالى يقول لعباده :« إن عبدي صادق فيما يقول مما أوحيت إليه . وقد بينت كذلك في حديثي السابق أن أعظم معجزة للرسول محمد عليه الصلاة والسلام ؛ إنما هي القرآن الكريم ، وهي معجزة باقية تتحدى الأجيال ، وتتخطى القرون ، وهي ثابتة لايعتريها تغيير ولا تبديل ولاتحريف إلى أن تتبدل الأرض غير الأرض والسماوات ، بل إن القرآن الذي نزل على محمد ﷺ هو معجزته الخالدة ، كلما تقدم الزمن ، وارتقت الحضارة ، واتسعت آفاق العلم ، نجد هذه المعجزة ، تبهر العيون ، وتملأ الأذهان ، وتدعو المفكرين والمنصفين والفلاسفة ، والعقلاء والعلماء إلى التصديق بها ، والإيمان بصاحبها ، وقد أصبح ذلك حقيقة واقعة ، فإننا نجد الكثيرين من المستشرقين الذين ابتعدوا عن العصبية ، واقتربوا من النصفة ، وارتادوا الحقيقة ، نجد هؤلاء ، بعد أن نظروا في القرآن الذي نزل على محمد ﷺ ، واتضحت لهم علومه ومعارفه على ضوء الحضارة والمدنية ، نجدهم يعتنقون الإسلام ، ويعترفون بصدق محمد عليه السلام ، ويصبحون بعد أن كانوا أعداءه وخصومه ، محبين له ، ناشرين تعاليمه ، داعين إلى التمسك بدينه ، وما من مسلم أو عربي أو أي إنسان حصل على

يسير من الثقافة إلا وقد سمع عن هؤلاء ، وعرف بعضهم ، ولولا هذا القرآن الخالد ، معجزة محمد الخالدة ، لما استنار هؤلاء ، ولما اهتدوا سواء السبيل ، لذلك حينما يريد الشعراء والمادحون ، والذين يريدون أن يكرموا محمداً ﷺ ، يجدون أن أعظم ميزة له على غيره من إخوانه الأنبياء والمرسلين صلوات الله عليهم أجمعين ، أن معجزات الأنبياء ذهبت وانقرضت مع الزمن ، وأن معجزته هو عليه الصلاة والسلام ، تتجدد على الزمن ، وتقوى على القرون ، وتزداد رسوخاً كلما تقدم العلم ، واستنار العقل ، واتسعت آفاق المعرفة ، ورحم الله شوقي إذ يقول :

جاء النبيون بالآيات فانصرمت ... وجئتنا بحكيم غير منصرم
آياته كلما طال المدى جددٌ ... يزينهن جلال العتق والقدم
يكاد في لفظة منه مشرفة ... يوصيك بالحق والتقوى وبالرحم

أيها الأخوة الأكارم ، إننا إذا ذكرنا شيئاً من معجزات الرسول عليه السلام ، إنما نذكرها لنذكر الناس بعظمته ، وندعوهم إلى محبته ، وإذا وفقنا نحن المسلمين إلى محبة هذا الرسول الكريم ، ونشأ عن هذه المحبة التمسك بدينه والعمل بشريعته ، والتخلق بخلقه ، فقد وفقنا إلى سعادة الدنيا والآخرة ، وعادلنا مافقدنا من عزة ومجد وسلطان ، وهأنا ذاكر لكم طائفة أخرى من معجزاته ، وقعت في بعض أسرى بدر .

روى ابن هشام في السيرة : أن فداء المشركين يوم بدر كان أربعة آلاف درهم بالرجل إلى ألف درهم ، إلا من لاشيء له فمن عليه رسول الله ﷺ ، وقال ابن إسحاق : كان أكثر الأسارى يوم بدر فداءً العباسُ ، وذلك أنه كان رجلاً موسراً ، فافتدى نفسه بمئة أوقية ذهباً ، وفي صحيح البخاري عن أنس أن رجالاً من الأنصار قالوا : يارسول الله ، ائذن لنا فلنترك لابن أختنا العباس فداءه ؟ قال : لاوالله ! لاتذرون منه درهماً .

وروى ابن إسحاق أن العباس قال : يارسول الله ، قد كنت مسلماً ، فقال رسول الله : الله أعلم بإسلامك ، فإن يكن كما تقول فإن الله يجزيك ، وأما ظاهرك فقد كان علينا ، فافتد نفسك وابني أخيك نوفلاً وعقيلاً وحليفك عتبة .

قال العباس : ماذا عندي يارسول الله ـ أي ليس عندي مال أفتدي به ـ فقال له النبي عليه السلام : فأين المال الذي دفنته أنت وأم الفضل ، وقلت لها : إني لأدري مايصيبني في وجهي هذا (أي في سفري مع قريش لقتال المسلمين) فإن حدث بي حادث فهذا المال لك ، ولبني الفضل ، وعبد الله وقثم .

فقال العباس : وما يدريك يابن أخي فإني أعطيتها إياه في سواد الليل ، ولم يطلع عليه أحد إلا الله ، فقال الرسول : أخبرني به ربي . فقال العباس : أشهد أن لاإله إلا الله وأشهد أنك عبده ورسوله ، وأنك صادق ، وأمر ابني أخيه عقيلاً ونوفلاً ـ وكانا في الأسرى ـ فأسلما فنزل في ذلك قوله تعالى ﴿ ياأيها النبي قل لمن في أيديكم من الأسرى : إن يعلم الله في قلوبكم خيراً يؤتكم خيراً مما أخذ منكم ويغفر لكم والله غفور رحيم ﴾ .

فإخبار النبي للعباس عن المال الذي دفعه لزوجه أم الفضل في سواد الليل ، وأعده لحوادث الزمن ، كان سبباً في إسلام عمه هذا وإسلام غيره ، وقد قال العباس : أعطاني الله خيراً مما أخذ مني مئة ضعف ، وأرجو أن يكون قد غفر لي .

وفي هذه المناسبة أحب أن أذكر لكم ناحية من العدل والمساواة في تعاليم الرسول :

ذكر ابن الأثير في كتابه « أسد الغابة » أن العباس حينما أسر في بدر شد وثاقه ، فسهر النبي تلك الليلة ولم ينم ، فقال له بعض أصحابه : مايسهرك يانبيَّ الله ؟!! فقال : أسهر لأنين العباس ، فقام رجل من القوم فأرخى وثاقه ، فقال

له رسول الله : مالي لاأسمع أنين العباس ؟ فقال الرجل : أنا أرخيت من وثاقه . فقال رسول الله فافعل ذلك بالأسرى كلهم .

لم تطب نفس النبي عليه السلام أن يرخي وثاق عمه العباس ويبقي سائر الأسرى في الشدة والألم بل أمر بالتفريج عنهم جميعاً .

وإليكم حادثة أخرى ، وقعت له ﷺ مع عدي بن حاتم الطائي ، أخبره فيها عما يكون في أمته في المستقبل القريب ، وما تبلغه من الفتوح والغنى والأمن ، وقد تحقق كل ذلك ، وصدق رسول الله .

حدث عدي بن حاتم فقال : بُعث رسول الله حين بعث فكرهته أشد ماكرهت شيئاً قط ، فقلت لو أتيت هذا الرجل فإن كان كاذباً لم يخف علي ، وإن كان صادقاً اتبعته ، فأقبلت فلما قدمت المدينة استشرفني الناس ، وقالوا : عدي بن حاتم ، فأتيته فقال لي : ياعدي أسلم تسلم ، قلت إن لي ديناً ، قال : أنا أعلم بدينك منك ، قلت : أنت أعلم بديني مني ؟ قال : نعم مرتين أو ثلاثاً . قال : ألست ترأس قومك ؟ قال عدي قلت : بلى . قال : ألست ركوسياً تأكل المرباع قلت : بلى . أي إنه كان زعيماً في قومه يأخذ ربع الغنيمة على عادة الزعماء في الجاهلية فقال : فإن ذلك لايحل في دينك . قال : فنضنضت لذلك .

ثم قال : ياعدي أسلم تسلم . أظن ياعدي أنه مايمنعك أن تسلم إلا غضاضة تراها ممن حولي ، وأنك ترى الناس علينا إلباً واحداً . ياعدي هل أتيت الحيرة ؟ قلت : لم آتها وقد علمت مكانها قال : يوشك أن ترتحل الظعينة من الحيرة بغير جوار حتى تطوف بالبيت ، ولتفتحن عليه كنوز كسرى بن هرمز ، قال : قلت : كسرى بن هرمز ؟ قال : كسرى بن هرمز مرتين أو ثلاثاً - وإذا هلك كسرى فلا كسرى بعده ، وليفيضن المال حتى لايجد الرجل من يقبل صدقته .

قال عدي : قد رأيت اثنتين : الظعينة ترتحل بغير جوار حتى تطوف بالبيت ، وقد كنت في أول خيل أغارت على كنوز كسرى بن هرمز ، وأحلف بالله لتجيئن الثالثة .

هذا ماقاله الرسول لعدي وقد تحقق وشهده عدي نفسه ، أما الثالثة فقد تحققت في زمن عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه يقول يحي بن سعيد : بعثني عمر بن عبد العزيز على صدقات إفريقية فاقتضيتها ، وطلبت فقراء نعطيها لهم فلم نجد بها فقيراً ، ولم نجد من يأخذها منا ، فقد أغنى عمر بن عبد العزيز الناس ، فاشتريت بها رقاباً فأعتقتهم .

☆ ☆ ☆

الجد والصبر

إذا رأيت إنساناً تبرز منه أعمال عظيمة ، وينتج في الحياة إنتاجاً طيباً صالحاً ، نافعاً لنفسه ولأمته ولمجتمعه ، فأيقن أن هذا الإنسان قد تحلى بشيئين عظيمين هما : الجد والصبر .

هذان خلقان متى تَخَلَّق بهما الإنسان أصبح عضواً نافعاً لنفسه ولأمته ، وهما من صفات المؤمن الصادق ، قال تعالى : ﴿ ياأيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير لعلكم تفلحون ﴾ .

والأمر بفعل الخير عام شامل ينتظم كل عمل بر وإحسان كصلة الرحم ومواساة الأيتام ، والحض على الإطعام ، والمساهمة في المشاريع الخيرية العامة ، التي تعود على المواطنين بالخير والنفع ، ويبقى أثرها في المجتمع طويلا ، ومتى امتثل الإنسان المؤمن هذا الأمر الإلهي العظيم وحرص على فعل الخير اتصف بمكارم الأخلاق كاملة ، وإن هذا يحتاج إلى عمل دائب ، وسعي متواصل ، وثبات لايضعف ، وذلك هو الجد .

وفي الأمر بالصبر يقول تعالى : ﴿ ياأيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون ﴾ .

ماأعظم الإسلام ، وما أكمل آيات القرآن ، إنها تنهض بالمؤمن لتجعله في الأوج في كل ناحية من نواحي الدنيا والآخرة ، وماأجدرنا أن نقف عند الآية الكريمة المتقدمة وقفة المتأمل المتفكر ، ثم إلى الآية الثانية نضمها إليها ، ثم ننظر

ماذا نتج عنها ، وكيف يكون المؤمن إذا عمل بها ، سار على مقتضى مايتطلبانه منه .

أليست الآية الأولى دعوة صريحة قوية إلى العمل ، ومعلوم أن العمل قسمان ، والناس فيه كذلك صنفان : منهم من يعمل لآخرته ويترك دنياه ، ومنهم من يعمل لدنياه ، ويترك آخرته ، وكلاهما جانب الحق ، وابتعد عن الصواب ، إنما المؤمن الحق هو الذي يعمل للدنيا والآخرة ، وإن كان واجبه أن يهتم بعمل الآخرة أكثر من اهتمامه بعمل الدنيا ؛ قال تعالى : ﴿ وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولاتنسَ نصيبك من الدنيا ، وأحسن كما أحسن الله إليك ، ولاتبغ الفساد في الأرض ، إن الله لايحب المفسدين ﴾ ، والآية نفسها التي قدمتها في مستهل الحديث تشير إلى تقديم عمل الآخرة على عمل الدنيا .

إن قوله تعالى : ﴿ وافعلوا الخير ﴾ يشمل كل مافيه منفعة للمسلمين ، كإنشاء الترع ، وتعبيد الطرقات ، وتسهيل المواصلات ، وتنوير البلدان ، وبناء المعاهد وإنشاء المستوصفات ، وبناء المياتم والتكايا والمساجد والحدائق وإنشاء السدود ، وبناء القلاع والحصون ، وإنشاء المكاتب والمطابع وإيجاد الملاجئ ، واستخراج المعادن ، وفتح الآبار ، واستخراج الزيوت والمدخرات من خيرات الأرض وإصلاح الأراضي البور وتجفيف المستنقعات وتعقيم البزورات ، وقتل الحشرات وتربية الدواجن والحيوانات ، ومن أهم ذلك إنشاء المطارات والمراصد والمرافئ والمصانع والمعامل ، استعداداً للدفاع عن البلاد إذا طمع فيها العدو ، وغير ذلك مما لايدخل تحت حصر ، وقد فصل العلماء هذه النواحي في الفقه الإسلامي ، وذكروا أنها من فروض الكفاية التي إذا تركتها الأمة كانت آثمة عند الله مسؤولة أمام التاريخ .

والإسلام الذي يحض على كل هذا ويأمر به ، ويدعو إليه ويرغب فيه ، هو

دين الحق والخير والحياة ولن يستطيع المؤمن أن يـأتي بشيء من هـذه الأعمـال إلا إذا تحلى بالجد والدأب ، وتخلق بالصبر والمصابرة .

أيهـا الأخ المؤمن : إن الإسلام يـدعوك إلى العمل النـافـع ، والخير الشـامـل لتساهم في بناء أمتك ، وتعزيز نهضتك . فكل ساعـة قـابلـة لأن تضع فيهـا حجراً يزداد به صرح مجدك ارتفاعاً ، ويقطع به قومك في السعادة باعاً أو ذراعـاً ، فـإن كنت حريصاً على أن يكون لك المجد الأسمى ، ولقومك السعادة العظمى ، فـدع الراحة جانبـاً ، واجعل بينـك وبين اللهو حـاجبـاً ، وإن أولى النـاس بهـذا الجـد والنشـاط والـدأب هم الطلاب والطـالبـات الـذين كرسوا حيـاتهم للعلم ، ونـذروا شبابهم للدرس والمعرفة ، فإن هؤلاء لن ينالوا مايبتغون إلا بكثير من الجد وكثيراً من الصبر ، أما أولئك الذين يريدون الشهادة بدون درس ، ويطمعون في الرتبـة بغير عمل ، فما مثلهم إلا كمثل من يخطب الحَسْناء ، بـدون مهر ، ويطمح بـالجنـة بغير عمل .

وإننا إذا رجعنـا البصر في تـاريخ النوابغ الـذين رفعوا للحكمـة لواء ، وأعلوا لأمتهم مناراً ، وجدنـاهم يبخلون بـأوقـاتهم أن يصرفوا شيئـاً منهـا في غير درس أو بحث أو تحرير أو تمحيص .

نقرأ في حياة الفيلسوف ابن سينا أنه لم ينم مدة اشتغاله بالعلم ليلة كاملة ، ولم يشتغل بسوى المطالعة ، ونجد في تاريخ العلاّمة الفيلسوف ابن رشـد أنـه لم يـدع النظر ولا القراءة مند عقل إلا ليلة وفاة أبيه ، وليلة بنائه على أهلـه ، وأبو الفرج الأصبهاني استمر خمسين عاماً في الجـد والـدأب حتى أخرج للـدنيـا كتـاب الأغـاني فكان أعجوبة في التأليف ، وحفزة في الأدب ، وعنوانـاً على مـايـأتي بـه الجـد من إنتاج عظيم .

كما يروي لنـا التـاريـخ أن ابن منظـور قضى حيـاتـه كلهـا في وضـع لســان

العرب ، وكل مثقف يعرف ماهو لسان العرب ، وقد كان أسلافنا من هـذه الأمـة يتجرعون الصعاب ، ويقتحمون المهالك في طلب العلم وتحصيله .

وكانوا يعلمون أن معالي الأمور وعرة المسالـك محفوفـة بـالمكاره ، والعلم أرفع مقاماً تطمح إليـه الهمم ، وأشرف غـايـة تتسـابق إليهـا الأمم ، وطبيعي ألا يصل إليه الطالب دون أن يقاسي شدائد ، ويحتمل متاعب .

كان سعيـد ابن المسيب يسير الليـالي في طلب الحـديث الـواحـد مـع مشقـة الأسفار وصعوبة المواصلات ، وقـال الشعبي : لو سـافر رجل من الشـام إلى أقصى اليمن ، في كلمة تدل على هدى ، أو ترده عن ردى ، ماكان سفره ضائعاً .

وثبت أن جابر بن عبد الله رحل شهراً في طلب حديث بلغه أنه عنـد رجل من أصحاب النبي ، حدث جابر نفسـه رضي الله عنـه ، قـال : بلغني حـديث عن رجـل من أصحـاب رسـول الله صلّى الله تعـالى عليـه وسلم فسرت شهراً إليـه حتى قدمت الشام ، فإذا هو عبـد الله بن أنيس ، فـأرسلت إليـه أن جـابراً على البـاب فرجع إلى الرسول فقال : أجابر بن عبـد الله ؟ قلت : نعم ، فخرج إليَّ فـاعتنقني واعتنقته ، ثم قلت له : حديث بلغني أنك سمعته من رسول الله ﷺ لم أسمعه منـه في المظالم فخشيت أن أموت أو تموت قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « يحشر النـاس أو العبـاد عراة غرلاً بهماً فينـاديهم بصـوت يسمعـه من بعـد كما يسمعــه من قريب : أنا الملك أنا الـديـان لاينبغي لأحـد من أهل الجنـة أن يـدخل الجنـة ، وأحدٌ من أهل النار يطلبـه بمظلمـة ، ولا ينبغي لأحـد من أهل النـار أن يـدخل النار ، وأحد من أهل الجنة يطلبه بمظلمة ، حتى يقتصه منه حتى اللطمة ، قال : وكيف ؟ وإنما نأتي عراة غرلاً بهماً[1] قال : بالحسنات والسيئات » .

---

(١) قلنا وما بهماً ؟ قال : ليس معهم شيء . ترغيب ٤ / ٢٠٢

أسمعتم برجل يسير شهراً لاستماع حديث ؟ وإنكم لاتجهلون كم في رحلة شهر من مشقة ، ولاسيا في تلك الأيام التي لم تكن فيها سيارة ولاطيارة ، إنما هو وهج شمس محرقة ، أو لذع برد قارس .

« وقد عكف أبو صالح أيوب بن سليمان على كتاب العروض حتى حفظه فسأله بعضهم عن إقباله على هذا العلم بعد الكبر فقال : حضرت قوماً يتكلمون فيه فأخذني ذل في نفسي أن يكون باب من العلم لاأتكلم فيه » .

☆ ☆ ☆

النشاط العقلي

إن مما لاشك فيه ولاارتياب ، أن العقل منـاط التكليف ، وأسـاس الـدين ، ومنبع العلم ، وإننا بقليل من التأمل نجد أنه لم يتقـدم العلم ، ولم ترتق الحضـارة ، ولم يزدهر فن . إلا بالعقل ، وأن الإنسان لم يؤمن بـالرسل ولم يعترف بـالشرائع ، ولم يصدق بالكتب المنزلة إلا بواسطة العقل . لذلـك شرف الله تعـالى العقل وأعلى مكانته ، وعظمه الرسول الكريم ، وأفصح عن شأنه .

وإن هذا الهيكل الإنساني بما فيه من سمع وبصر وقلب وذوق وشم وغيرها من الأعضـاء والجوارح إذا لم يُزيَّن بـالعقل كان كالأنعـام بل هو أضـل ، لـذلـك نجـد القرآن الكريم حين يجادل أو يناقش يجعل العقل أساساً للجـدل والمنـاظرة ، وإذا لم يكن المنـاظر أو المجـادل ذا عقل سليم وفهم مستقيم ، وفكر ثـاقب ، كان جـديراً بالنبذ والإهمال ، قـال تعـالى : ﴿ لهم قلوب لا يفقهون بهـا ، ولهم أعين لا يبصرون بهـا ، ولهم آذان لا يسمعـون بهـا ، أولئـك كالانعـام بـل هم أضـل ، أولئـك هم الغـافلـون ﴾ وقـال تعـالى : ﴿ إن شر الـدواب عنـد الله الصم البكم الـذين لا يعقلـون ﴾ ، وكثيراً مـاوردت آيـات تنتهي بقـولـه تعـالى : ﴿ بـل أكثرهم لا يعقلـون ﴾ ﴿ قـل هـاتـوا برهـانكم إن كنتم صـادقين ﴾ ﴿ إنمـا يتـذكر أولـو الألباب ﴾ .

وقد نعى الله سبحـانـه وتعـالى على التقـاليـد والموروثـات والمقلـدين للآبـاء والأجـداد بغير علم ولا هـدى ولاكتـاب منير ، فقـال عز وجل : ﴿ وإذا قيل لهم

اتبعوا ماأنزل الله قالوا : بل نتبع ماألفينا عليه آباءنا ، أولو كان آباؤهم لايعقلون شيئاً ولايهتدون ﴾ .

فأنت ترى أيها القارئ الكريم أن القرآن أعلن سلطان العقل وجعل الدين مرتكزاً عليه ، ومماشياً له ، في غاياته ومراميه ، إذ أن العقل نور جعله الله للدين أصلاً ، وللدنيا عماداً ، به يُميز الحق من الباطل ، وتُعرف حقائق الأمور ، ويُفصل بين الحسنات والسيئات ، وعليه يقوم النجاح والفلاح ، لذلك يقول عليه الصلاة والسلام : « العقل نور في القلب يُفرق به بين الحق والباطل » ويقول ﷺ :« لكل شيء آلة ، وآلة المؤمن العقل ، ولكل شيء مطية ومطية المؤمن العقل ، ولكل شيء دعامة ، ودعامة المؤمن العقل ، ولكل قوم غاية ، وغاية المؤمن العقل ، ولكل قوم راع ، وراعي المؤمنين العقل ، ولكل تاجر بضاعة ، وبضاعة المجتهدين العقل ، ولكل بيت قيّم ، وقيّم بيوت الصديقين العقل ، ولكل خراب عِمارة ، وعِمارة الآخرة العقل » .

وقد قيل : العقل جوهر والغضب يزيله ، والدين جوهر والحسد يزيله ، والحياء جوهر والطمع يزيله ، والعمل الصالح جوهر والغيبة تزيله .

وقد جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : لما خلق الله العقل قال له : أدبر فأدبر ، ثم قال له أقبل فأقبل ، فقال : وعزتي وجلالي ماخلقت خلقاً أحسن منك ، ولا ركبتك إلا في أحب الخلق إلي ، فبك آخذ ، وبك أعطي ، وبك أعاقب . فترى العاقل محبوباً عند الناس ، وإن لم يعمل فيهم خيراً ، ولما خلق الله الجهل قال له : أقبل فأدبر ، ثم قال له : أدبر فأقبل ، قال : وعزتي وجلالي ماخلقت خلقاً أبغض إلي منك ، ولاركبتك إلا في أبغض الناس إلي ، فترى الجاهل ممقوتاً عند الناس وإن لم يعمل فيهم شراً .

ومن أقوال سيدنا علي رضي الله عنه : خلق الله العقل من نور مكنون ،

فجعل العلم نفسه ، والفهم روحه ، والزهد رأسه ، والحياء عينه ، والحكمة أسنانه ، والخير سمعه ، والرأفة قلبه ، والرحمة صدره ، والصبر بطنه ، ثم قيل له : تكلم فقال : الحمد لله الذي ذل لعزته كل شيء ، ويروى أن سيدنا علياً رضي الله عنه حينما دعاه النبي إلى الإسلام فأجاب وأناب وهو غلام يافع ، قال له بعض المشركين : كيف أسرعت إلى اعتناق هذا الدين الجديد ، هلا شاورت أبا طالب ؟ فقال على الفور : إن الله تعالى لما خلقني لما يشاور أبا طالب .

أرأيت أيها القارئ الكريم إلى هذا الجواب الذي يدل على عقل وافر وتفكير صحيح ؟

أخي المؤمن بعد أن سمعت هذه الأقوال الحكيمة في شأن العقل ، وعرفت مكانته وأهميته ، فاشكر الله تعالى على هذه النعمة التي وهبها لك ، واستعملها في النظر الصحيح ، والتفكير السليم ، لتنجو من آفات هذه المدنية الزائفة وتسلم من فتنتها وزخرفها الخادع ، استعمل عقلك لتكف عن هذه المحرمات والموبقات التي تعرض لك صباح مساء ، كي تصل إلى رضاء الله ، وتقوم بشكر نعمه عليك ، واستجب لنداء العقل السليم فإنه لا يدلك إلا على الخير والهدى .

يقول رسول الله ﷺ :« الكيس ـ أي العاقل اللبيب ـ من دان نفسه ، أي حاسبها وعمل لما بعد الموت ، والعاجز من أتبع نفسه هواها ، وتمنى على الله الأماني » .

وورد عن أبي الدرداء أن رسول الله ﷺ قال :« ياعويمر ازدد عقلاً تزدد من ربك قرباً . قلت : بأبي أنت وأمي ومن لي بالعقل ؟ قال : اجتنب محارم الله ، وأدِّ فرائض الله تكن عاقلاً ، ثم تنفل بصالحات الأعمال تزدد في الدنيا عقلاً ، وتزدد من ربك قرباً ، وبه عزاً ..»

وروى أنس بن مالك قال : أُثني على رجلٍ عند رسول الله بخير فقال :

كيف عقله ؟ قالوا : يارسول الله ، إن من عبادته ، إن من خلقه ، إن من فضله ، إن من أدبه ، فقال : كيف عقله ؟ قالوا : يارسول الله ، نثني عليه بالعبادة وتسألنا عن عقله ؟ فقال رسول الله :« إن الأحمق العابد يصيب بجهله أعظمَ ، من فجور الفاجر ، وإنما يقرب الناس من ربهم بالزلف على قدر عقولهم » .

ويرى الرسول عليه السلام أن الحياء من مستلزمات العقل ،وأن الدين كذلك من مستلزمات العقل ، فلا يكونان إلا مع العقل ولا يسيران إلا في كنفه ، يقول عليه السلام : إنه لادين لمن لاعقل له .

وبعد ، فقد ذكر علماء النفس أن العقل قسمان : عقل نظري طبيعي ، وهي موهبة أساسية يجعلها الله فيمن يشاء من عباده ، وقسم يتكون بالتعليم والتمرين وعمل الخير وفعل البر ، كما أشار إليه الرسول في حديثه الذي ذكرته آنفاً بقوله :اجتنب محارم الله ، وأد فرائض الله ، ثم تنفل بالصالحات ، تزدد عقلاً .

ويرى بعض الباحثين أنه لابد لأحدهما من الآخر ، فالعقل الطبيعي الفطري بدون المكتسب ناقص ، كما أن المكتسب بدون الفطري ناقص فالسعيد من رزقهما ، وإلى هذا المعنى يشير سيدنا علي رضي الله عنه في نظم له ، قال :

رأيت العقل عقلين ... فمطبوع ومسموع
ولا ينفع مسموع ... إذ لم يك مطبوع
كما لاتنفع الشمس ... وضوء الشمس ممنوع

والعقل الفطري المطبوع هو المراد بقوله ﷺ لعلي : ماخلق الله خلقاً أكرم عليه من العقل . والثاني هو المراد بقوله لعلي أيضاً : إذا تقرب الناس إلى الله تعالى بأنواع البر ، فتقرب أنت بعقلك .

وقوة العقل وشدة الذكاء طالما رفعت أناساً إلى أعلى المراتب ، وخلدت لهم

ذكراً حسناً في التـاريخ وجعلت من كلامهم حكماً وعبراً ، يستمع إليهـا الحكمـاء ، ويتعـظ بهـا العقلاء ، وتُزين بهـا المجـالس ، وقـد روت كتب الحكمـة والأدب عن أمتنا العربية ، وأسلافنا الصالحين ، الدررَ الحسان من هذا النوع .

قيـل لغـلام حـدث السن نبيــه من أولاد العرب تلـوح عليــه عـلائم العقـل والـذكاء : أيسرك أن يكون لـك مئـة ألف درهم وأنـك أحمق ، فقـال : لا والله ! قيـل ولمـه ؟ قـال أخـاف أن يجني عليَّ حمقي جنـايـة تُـذهب مـالي ويبقى عليَّ حُمقي .

وجاء وفد من أهل الحجاز إلى عمر بن عبد العزيز لمـا استُخلِف ومعهم غلام همَّ أن يتكلم فقـال لـه عمر : يـاغلام ، ليتكلم من هو أسن منـك ، فقـال الغـلام : ياأمير المؤمنين ، إنما المرء بـأصغريـه قلبـه ولسـانـه ، فـإذا منح الله عبـده لسـانـاً لافظاً ، وقلباً حافظاً ، فقد أجاد له الاختيار ، ولو أن الأمور بـالسن لكان ههنـا من هو أحق بمجلسك منـك ، فقـال الخليفـة عمر : صـدقت ، تكلم ؛ فهـذا السحر الحلال . فقال : ياأمير المؤمنين نحن وفد التهنئة لاوفد المرزئة ، ولم تقدمنـا إليـك رغبة ولارهبة ، لأناقد أَمِنَّا في أيامك ماخفنا ، وأدركنا ماطلبنا ، فسـأل عمر عن سن الغلام فقيل : عشر سنين . فأعجب به وأكرم وفده .

ولم يكن هذا العقل وحسن الجواب وشدة الـذكاء محصوراً في الرجـال وحـدهم بـل كان في نسـاء العرب من بلغت القمـة في هـذا المضار . روى ابن الجـوزي في كتاب الأذكياء : أن أحـد الأغنيـاء بنى داراً كبيرة بـالبصرة ، ولم يَتِم تربيعُ هـذه الدار وهندستهـا إلا بمسكن صغير كان ملاصقـاً لهـذه الـدار وهو لعجوز تسكنـه ، فأرادها الغني على بيعه فامتنعت ، فبذل لها أضعاف ثمنـه فـأبت ، فشكا ذلـك إلى القاضي فأحضرها وقال لها مهدداً : إن الرجل قد دفع لـك أضعـاف القيمـة فـإن لم تقبلي حجزت عليك لأن هـذا تضييع منـك ، فقـالت : جعلت فـداك ، هلا كان الحجز منك على من يدفع أضعاف قيمة الشيء فأفحم القاضي وسكت .

الحق أحق أن يتبع

روى الحافظ أبو يعلى عن جابر رضي الله عنه ، قال :« دخلنا مكة مع رسول الله ﷺ وحول البيت ثلاثمائة وستون صنماً ، تعبد من دون الله ، فأمر بها رسول الله فأكبت على وجوهها . وقال : ﴿ جاء الحق وزهق الباطل ، إن الباطل كان زهوقاً ﴾ » .ورواه الشيخان وغيرهما عن ابن مسعود بنحوه .

نعم جاء الحق ، ومن جاء بهذا الحق ؟ وماهو هذا الحق ، وماهي مكانة هذا الحق ..؟ أسئلة تتوارد على النفس البصيرة ، والعقل المفكر ، ترد هذه الأسئلة وتخطر ببال كل من يحب الحق ويرغب في معرفته ، والوقوف على كنهه وحقيقته .

الحق هو هذا الإسلام ، هذا الدين الذي جاء به محمد عليه الصلاة والسلام ، هذا الدين العظيم الذي جاء به خاتم النبين ليكون هو خاتم المرسلين ، وليكون دينه خاتمة الأديان السماوية ، وليظهر على جميع الأديان لكونه قد جمع في تشريعاته وتعاليمه ، مايكفل مصالح وحاجات البشرية كلها في كل أرض وفي كل قطر ، وفي كل زمان وفي أي مكان ، قال تعالى : ﴿ هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ، ليظهره على الدين كله ، ولو كره المشركون ﴾ .[الصف / ٩]

هذا هو الحق الذي جاء به محمد ﷺ ، فأزهق به الباطل ، وحطم به الأصنام ، ونوَّر به العقول ، وجعل للعرب الذين آمنوا به ، واتبعوا الحق الذي

أنزل معـه ، جعل لهم اعتبـارهم ، وأعلى من قـدرهم ، ورفـع من شـأنهم ، وجعلهم أساتذة أوربة وقادة العالم في كل مرفق من مرافق الحياة ، قروناً طويلة .

وقد تكررت كلمة الحق هـذه الكلمـة الجـامعـة ، في الكتـاب المجيـد أكثر من ثلاثمائة مرة ، وليس هـذا العجيب ، فـإن هـذه الكلمـة لهـا معـان كثيرة ، وكلهـا عظيمة سامية ، فكل عمل نافع حق ، وكل علم ثابت حق ، وكل خصلـة شريفـة ، وكل نية صالحة ، وكل عمل مبرور حق ، وكل ماعـدا الحق إنمـا هو ضلال وبـاطل وفساد . قال تعالى : ﴿ فماذا بعد الحق إلا الضلال ﴾ .

ولعظمة هذه الكلمة ، وقداسة مدلولها ، ونفع كل ماتصدق عليـه من معنى ، لذلك كله تسمى الله تعالى بها فهو عز وجل الحق المبين ، قال تعالى : ﴿ ذلك بأن الله هو الحق وأن مايـدعون من دونـه البـاطل ﴾ . وقـال تعـالى : ﴿ فتعـالى الله الملك الحق ﴾ .

وقد ضرب الله مثلاً للحق والبـاطل فقـال : ﴿ أنزل من السماء مـاء فسـالت أودية بقدَرها ، فاحتمل السيل زبداً رابياً ، ومما يوقدون عليه في النار ابتغاء حلية أو متاع زبداً مثله ، كذلك يضرب الله الحق والباطل فأما الزبد فيذهب جُفـاء ، وأما ماينفع الناس فيمكث في الأرض ، كذلك يضرب الله الأمثال ﴾ .

وهذا المثل في الآية الكريمة ضربه الله للحق وأهلـه ، والبـاطل وحزبـه ، كما ضرب الأعمى والبصير ، والظلمات والنور ، مثلا لهما . فمثل الحق وأهله بالماء الذي ينزلـه من السماء فتسيل بـه أوديـة النـاس فيحيون بـه ، وينفعهم أنواع المنـافع ؛ وبالمعدن الذي ينتفعون به في صوغ الحلي منه ، واتخـاذ الأواني والآلات المختلفـة ، وأن ذلك ماكث في الأرض باقٍ بقاءً ظـاهراً ، يثبت المـاء في منـاقعـه ، ويسلـك بعضه في عروق الأرض إلى العيون والقنى والآبار . وكـذلـك المعـدن يبقى أزمنـة متطاولة .

وشبه الباطل في سرعة اضمحلاله ووشك زواله ، وانسلاخه عن المنفعة ، بزبد السيل وخبث المعدن ، فإنه وإن علا وارتفع وانتفخ إلا أنه أخيراً يضمحل .

وكذلك الشبهات والتمويهات الزائفة قد تقوى وتعظم إلا أنها في النهاية تبطل وتضمحل ، وتزول ، ويبقى الحق ظاهراً لايشوبه شيء من الشبهات . لأنه لابقاء إلا للنافع ، وما تصارع الحق والباطل ، إلا وفاز الحق وانتصر .

ولما بين سبحانه شأن الحق والباطل ، حالاً ومآلاً ، أعقبه ببيان حال أهل كل منهما في الدار الآخرة وماأعد لكل منهما من ثواب وعقاب فقال : ﴿ للذين استجابوا لربهم الحسنى ﴾ أي إن الذين عرفوا الحق واتبعوه وعملوا به يجزيهم ربهم بالحسنى وهي الجنة ، ﴿ والذين لم يستجيبوا له ﴾ أي لم يبحثوا عن الحق ولم يعرفوه ، ولم يتبعوه ، وأعرضوا عنه ، واستغرقوا في باطلهم وفسادهم ، هؤلاء أعد لهم عذاب عظيم بحيث ، ﴿ لو أن لهم مافي الأرض جميعاً ومثله معه لافتدوا به ، أولئك لهم سوء الحساب ، ومأواهم جهنم وبئس المهاد ﴾ [الرعد / ١٨]

وماأبدع هذا التصوير العجيب في آية كريمة ، تبرز الحق قوياً ثابتاً متغلباً على الباطل مسيطراً عليه بعد أن قذفه بضربة قاطعة قاصمة ، كسرت رأسه ، وفجرت دماغه ، فإذا هو يخر صريعاً بين يدي الحق لايبدي ولايعيد ، ولايقدر على دفاع أو حركة ؛ هذه الآية التي تصور هذا التصوير العجيب هي قوله عز وجل : ﴿ بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ، ولكم الويل مما تصفون ﴾ .

هذا هو الحق الذي دعا إليه ، وأرسل محمداً به ، وأمر المسلمين بمعرفته والتمسك به ، والموت عليه .

تحت ظلال الحق ، وفي سبيل معرفته ، والبحث عنه ، وصل المسلمون إلى

أرقى مابلغ إليه الأقدمون ، وأصبح تراثهم العلمي والفكري ، المادة الأولى لرواد العلم ، وطلاب المعرفة من مسلمين وغير مسلمين .

تحت ظلال الحق ، وعلى هدى من نوره بحث المسلمون ونقبوا ، واحترموا كل صاحب علم ، ولو من الأجانب واحتفوا به ، وأخذوا عنه ، وشرحوا تعاليمه ، وتدارسوها ، لأنهم مادام الحق هدفهم ورائدهم ، فلن يمنعهم أن يعترفوا ويقدسوه ، أيا كان مصدره .

وتحت قيادة هذا المثل الأعلى ، أسس المسلمون الجامعات في عواصم البلاد التي افتتحوها ، ودرسوا فيها العلوم المختلفة ، وقبلوا فيها المخالفين لهم في العقيدة من نصارى أوروبا ومن الإسرائيليين ، وأخلصوا لهم في تثقيف عقولهم ، وتنوير أذهانهم ، فمهدوا بذلك لعهد بعثهم من جهلهم وركودهم مما كان سبباً مباشراً لنهضة أوروبا علمياً ومدنياً ، ولم يخف كتاب الغرب هذه الظاهرة التي أوجدها المسلمون في بلادهم ، بل اعترفوا بها على رؤوس الأشهاد ؛ ومن هؤلاء الكاتب الكبير جوستاف لوبون في كتابه « حضارة العرب » فقد قال في هذا الكتاب :« إن تأثير العرب في الغرب كان عظيماً ، كتأثيرهم في الشرق ، وإن أوروبا مدينة للعرب في حضارتها ... وقد كانت ترجمات كتب العرب العلمية المصدر الوحيد للتدريس في جامعات أوروبا نحو ستة قرون » .

لقد كان من أثر أجدادنا الذين حملوا رسالة الإسلام ، وقدموا هذا الحق واضحاً للعالم ، أن دخل في دينهم في مدى قرن واحد أكثر من مئة مليون نسمة ، وامتزجوا بهم ، وعاشوا معهم بحب وإخاء ، ولولا هذه الخلال الكريمة التي بثها فيهم دين الحق ، لاشتعلت في تلك الأقطار الفتن ، ولعجز المسلمون عن حفظ إمبراطوريتهم مدى قرون عديدة . ولكن كان هذا كله لأسلافنا الصالحين تحقيقاً لوعد الله ، ومصداقاً لقوله عز وجل : ﴿ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنّهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكنن لهم

دينهم الذي ارتضى لهم ، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً ، يعبدونني لا يشركون بي شيئاً ، ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون ﴾ .

أيها المسلمون في كل أرض ، أيها المنصفون في كل أمة ، إن الله هو الحق ، وله دعوة الحق ، وإن كل ذي عقل سليم مدعو إلى اتباع هذا الحق ، فهل عرفتم ياأيها المسلمون وآمنتم ، وإذا فعلتم ذلك فعليكم واجب آخر : هو أن تدعوا غيركم إلى هذا الحق وأن تدخلوه إلى كل قلب ، وتضعوه أمام كل عين وحينئذ تكونون من خيرة الناس ، ومن صالحي البشر ﴿ ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إنني من المسلمين ﴾ [فصلت / ٣٣] .

أيها المسلمون إن الدعوة إلى الله تعالى واجبة كما يؤخذ من الآية الكريمة ، وكما قرره الإمام الرازي ، لأن الدعوة إلى الله أحسن الأعمال ، وكل ما كان أحسن الأعمال فهو واجب ، وللدعوة صور عدة ، وطرق كثيرة :

فالدعوة إلى مكافحة الظلم والطغيان ، وإقرار العدل بين الناس دعوة إلى الله .

والدعوة إلى تطهير النفوس من الأخلاق الفاسدة والتقاليد الضارة دعوة إلى الله .

والدعوة إلى تحرير البلاد من شوائب الاستعمار ، ومساعدة الأقطار العربية والمسلمة التي تسعى لتحريرها من مخالب المستعمرين ، لكي يعيشوا في أوطانهم أحراراً تحت ظل دينهم وتعاليمهم دعوة إلى الله .

والدعوة إلى الخير ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والتحذير من موالاة الأعداء دعوة إلى الله .

والدعوة إلى إنكار الذات ، ونبذ الأنانيات ، والتضحية بالمصالح الذاتية في سبيل الصالح العام والتضامن العام ، هو دعوة إلى الله .

والدعوة إلى نشر دين الله ، وبث تعاليمه خالصة نقية من عمل الدساسين ، وبدع الضالين ، الذين يكتبون بأيديهم ويقولون هذا من عند الله ، دعوة إلى الله .

والدعوة إلى الحق في جميع صورها وأنواعها هي دعوة إلى الله .

وأختم حديثي هذا بدعاء الرسول الذي كان يردده ويعلمه أتباعه :« اللهم أرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه ، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه » .

☆ ☆ ☆

أكبر الكبائر

عن أبي بكر رضي الله عنه قال : قال النبي ﷺ : ألا أنبئكم بـأكبر الكبـائر ـ ثلاثـاً ـ قـالوا : بلى ، يـارسول الله . قـال : الإشراك بـالله ، وعقوق الـوالـدين ، وجلس وكان متكئاً ، فقال : ألا وقول الزور ، قال فما زال يكررهـا حتى قلنـا : ليته سكت » . رواه البخاري ومسلم .

الجرائم درجـات منهـا مـايكبر ضرره ويعم شره فيصيب الأسرة والمجتمع ، ويـزلـزل كيـان الأمـة ، ويـوقـع بينهـا عـداوة وبغضـاء ، ويسبب فيهـا ضيـاع الحقوق ، وإظهـار البـاطل ، والجريمـة التي من هـذا النوع تسمى في عرف الشرع كبيرة ، وكلما كانت أكبر ضرراً كانت أعظم إثماً ، وأشـد عقـاباً عنـد الله تعـالى ، والرسول ﷺ يعرض على أمته في هـذا الحـديث نوعـاً من الجرائم ، عـدَّه من أكبر الكبائر التي ينال فاعلها عقاب شديد :

أولها : الإشراك بالله عز وجل ، نعم إن من أكبر الكبائر وأعظم الـذنوب أن تجعل لله نداً وهو الخالق والرازق والمحيي والمميت ، والضار والنـافع ، وهو على كل شيء قدير .

إن من أكبر الجرائم أن تعرض عنه وتنسـاه وتتوجـه بخضوعـك ودعـائـك إلى من لايملك ضراً ولانفعـاً ، ولا حيـاة ولا موتـاً ، إن من أكبر الجرائم أن تشكر من لانعمـة لـه عليـك ، وأن تنـادي من لايسمع ولا يبصر . وربـك أقرب إليـك من حبل الوريد ، قد فتح أبوابه للسائلين ، ووعد بالإجابة للداعين .

فواجب المسلم أن يتجه دائماً إلى الله وحده ، وأن يخلص له دينه ، وأن يصدق بعمله في قوله لربه ﴿ إياك نعبد و إياك نستعين ﴾ .

أيها المؤمن اذكر دائماً قول الله تعالى : ﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء ومن يشرك بالله فقد افترى إثماً عظيماً ﴾ وقوله عز وجل ﴿ ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير ، أو تهوي به الريح في مكان سحيق ﴾ .

ثانيها عقوق الوالدين ، وإيذاؤهما بالقول أو العمل ، فسبهما وشتمهما ، بل قول أف لهما عقوق وقطيعة ، وكذلك عصيان أمرهما ، والتلكؤ في قضاء شؤونهما ، ومد اليد بالسوء إليهما ، كل ذلك عقوق ونكران للجميل ، وما يحل لمؤمن أن يعصي أبويه أو ينهرهما بحال من الأحوال ، إلا إذا أمره أن يشرك بالله أو يعصي أمره فليس عليه حينئذ أن يطيع المخلوق في معصية الخالق ، وإن وجب عليه أن يحسن إليهما ، ويسعى في برهما ، قال تعالى : ﴿ وإن جاهداك على أن تشرك بي ماليس لك به علم فلا تطعهما ، وصاحبهما في الدنيا معروفاً واتبع سبيل من أناب إليّ ﴾ .

أيها الأخ الكريم والشاب المؤمن لاتنس أن الله تعالى قرن الإحسان إليهما بوجوب توحيده في العبادة ، فقال : ﴿ وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً ... ﴾ .

فأنت ترى أنه عز وجل أمرك بأن تقابلهما دائماً بالقول الكريم ، والصنع الجميل ، والدعاء لهما بالرحمة والتواضع لهما ، وخفض الجناح أمامهما . إشعاراً بالاحترام والتقدير ، وقد ورد عن النبي ﷺ : « ثلاثة لاينظر الله إليهم يوم القيامة ؛ العاق لوالديه ، ومدمن الخمر والمنان » روى ذلك النسائي .

وقد صح أن رجلاً جاء يستأذن النبي في الجهاد ، فأبى أن يأذن له إلا بعد

استرضاء والديه وسأله رجل فقال : « يارسول الله من أحق الناس بحسن صحبتي ؟ فأجابه عليه السلام أمك ، قال : ثم من ؟ قال : أمك قال : ثم من ؟ قال أمك » . وهذا يدل بوضوح على مضاعفة حق الأم لما لها من الخدمات الكبرى التي لا يستطيع الوالد أن يقوم بها ، وقد جاء في بعض أقوال النبي ﷺ : « إن الجنة تحت أقدام الأمهات » مما يدل على عظيم حقهنّ .

ثالثها : قول الزور ، وقد أكبر الرسول خطره ، وأعظم جرمه : حيث جلس له بعد اتكائه ، اهتماماً بشأنه وتهويلاً لجرمه . وصدَّر جملته بأداة التنبيه وكرر كلمته حتى شق على نفسه ، وبدا الغضب في وجهه ، وتمنى أصحابه لو سكت شفقة عليه ورحمة به ، وجدير بقول الزور أن يكون له كل هذا الخطر ، وأن يهتم الرسول ﷺ بالتحذير منه هذا الاهتمام ، أو ليس قد قرنه تعالى بالشرك في قوله عز وجل : ﴿ فاجتنبوا الرجس من الأوثان ، واجتنبوا قول الزور ﴾ ، كما جاء في وصف المؤمنين الصادقين بأنهم ﴿ الذين لا يشهدون الزور ﴾ .

وقول الزور يشمل الكذب بجميع أنواعه ، وشهادة الباطل على اختلاف صورها ، والحكم الجائر ، ورمي الأبرياء بما هم منه براء ، والقول على الله بغير علم ، فكل ذلك داخل في قول الزور .

أيها الأخوة . إن الذي يتأمل في مجتمعنا اليوم يجد أن ماحذرنا النبي منه قد وقعنا فيه ، وهو أمر شائع رائج بين جميع الطبقات إلا من عصم الله ، نجد الكذب وشهادة الزور ، والتدجيل والتضليل والأيمان الكاذبة التي تغمس صاحبها في غضب الله ولعنته ، والمفروض في المجتمع الإسلامي الذي ينتسب إلى أعظم كتاب سماوي ، يزكي النفوس ، ويقوم الأخلاق ، ويدعو إلى صراط مستقيم ـ أن يكون بعيداً عن كل هذه النقائص التي تحط من قيمته ، وتزري به وتعرضه لسخط الله عز وجل .

ومن المؤسف جداً ، بل من الخزي الفاضح أن يكثر بيننا من يشهدون زوراً ، ويحلفون الأيمان على شهادتهم هذه ، يرتكبون هذه الجرائم المنكرة لمجرد صداقة ، أو نظير مبلغ يسير يتقاضونه ، أولئك الذين خربت ذممهم ، وخبثت نفوسهم ، ولم يخالط الإيمان الحق قلوبهم . أولئك قرناء المشركين ، وإخوان الشياطين ، أولئك الذين باعوا دينهم وذمتهم وخلقهم بعرض من الدنيا قليل ، فما ربحت تجارتهم وماكانوا مهتدين . أولئك الذين جنوا على أنفسهم وعلى غيرهم فأضاعوا الحقوق ، وأوغروا الصدور ، وعبثوا بالأمن ، وسخروا بالمجتمع .

إن من المعلوم أن الناس يلجؤون في مشاكلهم إلى القضاء ، وأن القاضي لايعرف الحق إلا بوساطة الشهود فإذا انحرف هؤلاء الشهود عن الحق ، وشهدوا زوراً ، فقد ضللوا القاضي ، وأعانوا المبطل ، وأضاعوا الحق فويل لهم يوم القيامة من عذاب أليم .

من أجل ذلك أمرنا سبحانه وتعالى بقوله : ﴿ ياأيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط ، شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين . إن يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما ، فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا ، وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً ﴾ .

فقد أمرت الآية الكريمة بالتزام العدل وقول الحق في جميع الشؤون والأحوال ، بصرف النظر عن حالة المشهود عليه من قرابة أو فقر أو غنى أو أي اعتبار آخر ، لأن الحق أحق أن يتبع ، وقد كان المسلمون الأولون يشهدون الحق ولو كان في مصلحة أعدائهم وخصومهم عملاً بقوله تعالى : ﴿ ياأيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ... ﴾ .

عام جديد

أيها الأخ الكريم إنك في مطلع هذا اليوم قد استقبلت عاماً جديداً قـادمـاً ، وودعت عـامـاً منصرمـاً راحلاً ، وهكـذا دأب الـدهر يطوي سجل عـام ، ليفتح صفحة عام ، ولكن الإنسان الحصيف الكيس ، ينظر في سجل عامـه الراحل قبل أن يسدل عليه الـدهر ، ستـار النسيـان ، فيستعرضـه قولاً وعملاً وسلوكاً ، مع الله تعالى ومع الناس ، فـإن رأى خيراً فرح ، واستبشر وشكر الله على توفيقـه ، وعزم على المضي في عمل الخير ، والاستكثار من الصالحات ، بل صمم أن يكون في عـامـه الجديد أكثر اندفاعاً في بلوغ الكمال والتسامي .

وإن رأى غير ذلـك نـدم وأسف ، وتـاب واستغفر ، وعـزم على ألاَّ يعـود إلى مثل مافعله في العـام المـاضي من السيئـات والمخـالفـات التي تغضب ربـه ، أوتضر أمتـه ، أو تجني على وطنـه ، وعـزم عـزمـاً أكيـداً على تقـويم المعـوج ، وإصـلاح الفاسد .

أخي المؤمن إنك إذا دققت الحساب ، وأخلصت النيـة ، نفضت عن سيرتـك أوضارها ، ووضعت عنها أوزارها ، وولدت من جديد .

إن الحياة قد شغلت الناس بزخارفها ومتعها ، أو بكدحهـا ونصبهـا ، شغلت أهلها عن محاسبة نفوسهم ، وعن السمو بها إلى الآفـاق التي تليق بهم ؛ فـأهملوا هـذا الحسـاب ، وتركوا نفوسهم تهيم في ديـاجير المفـاسـد ، وأطلقـوا لهـا العنـان في كل مـاتصبـو إليـه من متـاع الحيـاة ، ولـو من غير الطريـق المشروع ، وإذا تركت

النفس هكذا وشأنها ، ولم يكن عليها من الخلق الكريم رقيب ، ومن الضمير الحي وازع ، أودت بصاحبها في المهالك ، لأنها قلّما تأمر بخير أو تدعو إلى فضيلة ، وصدق الله إذ يقول : ﴿ إن النفس لأمارة بالسوء ﴾ .

مسكين هذا الإنسان المغرور الغافل عن قدره الرفيع ، ومكانته بين المخلوقات ، إنه يلهو عن واجبه الخطير ، في متاهات المتع الدنيئة ، ويهمل حياته المثلى التي تليق به في دنياه وآخرته ، يفرح بمبلغ من المال حصل عليه فرح الطفل بألعابه وحلوائه ، يفرح بالسهرة الممتعة ، والسكرة المغرقة ، والشهوة الغاصبة ، والرشوة المحرمة ، يفرح بذلك كله ، ومثله كمثل الذي يتناول الشراب ، وقد مازجه السم الزعاف وهو غافل عما فيه من هلاك محقق ، وموت أكيد .

أيها المستمع الكريم ، ماأسرع ماتجري عجلة الزمن ، وماأسرع ماتقف على عتبة النهاية ، فإذا الحاضر ماضٍ ، والمستقبل آت ، وإذا عصارة الآثام آلام ، وسيندم هذا المنهوم الذي لايشبع من حطام الدنيا ، حين يقف على حافة قبره يودع الدنيا وداع الخاسر العاجز الذي لا يقدر على استصحاب زادٍ لسفره الطويل ، حتى يبلغ يوما ، ﴿ لاينفع فيه مال ولابنون ، إلا من أتى الله بقلب سليم ﴾ ، وهذه النهاية لابد منها لكل كائن حي .

وما الناس إلا هالك وابن هالك وذو نسب في الهالكين عريق

فإن كل إنسان سيأتيه اليوم الذي يقف فيه خاشعاً ذليلاً في محكمة الإلـه الحق العادل الذي لا يظلم الناس شيئاً ، ولايحتاج إلى شهود لإثبات الجرائم ، بل ستشهد على الإنسان أعضاؤه وجوارحه ، يوم لاينجي الإنسان من ذلك الموقف الرهيب إلا عمل الخير والبر الذي كان يقدمه لبني جنسه ولأمته ولمواطنيه ، يوم يقتص للضعفاء المضطهدين المشردين المظلومين ، من أولئك الطغاة المتجبرين المستعمرين الذين يمتصون خيرات الشعوب ، ويدرسون حقوقهم ، ويومئذ

لاتنفعهم طائراتهم ودباباتهم وأساطيلهم ، ولا يدافع عنهم أعوانهم وجنودهم ، لأن كل قوة تضمحل وتتلاشى وتذهب هباءً أمام قوة الله القوي العزيز .

ولقد كان سلفنا الصالح أكثر أمم الأرض عدلاً ومحاسبة لنفوسهم خشية من الحساب أمام المحكمة العادلة ، وقد تركوا لنا أمثلة رائعة من محاسبتهم أنفسهم في القضايا الخاصة والعامة ، نذكر بعضاً منها للأسوة والذكرى :

لما استخلف أبو بكر رضي الله عنه ذهب إلى السوق وعلى رقبته أثواب يتجر بها ، فلقيه عمر وأبو عبيدة ، فقالا له : إلى أين تريد ياخليفة رسول الله ؟ قال : السوق . قالا : تصنع ماذا ، وقد وليت أمر المسلمين ؟ قال : فمن أين أطعم عيالي ؟ فقالا : انطلق معنا حتى نفرض لك شيئاً ، فانطلق معهما ، وفرض له ما يقوم بحاجة عياله .

وقد ألزم عمر بن الخطاب نفسه بحال من الخشونة في العيش والتقشف وهو أمير المؤمنين حتى ساوى الفقير ، بل ربما كان أقل من بعض الفقراء في رعيته ، وربما قصر عطاؤه عن بلوغ الكفاية من الحاجات ، وكان يلجأ إلى الاقتراض .

رأى بعض الصحابة مايعانيه من شظف العيش فاجتمع نفر منهم ، فيهم عثمان وعلي وطلحة والزبير ، وقالوا : لو قلنا لعمر في زيادة نزيده إياها في رزقه ، فقال عثمان : هلم فلنعلم ماعنده من وراء وراء ، فأتوا أم المؤمنين حفصة بنت عمر ، وحدثوها بما اعتزموا عليه ، وأوصوها ألاّ تخبر بهم عمر ، فلقيته حفصة ، وقالت له في ذلك ، فغضب وقال : من هؤلاء ؟ لأسوءنهم . قالت لاسبيل إلى علمهم . قال : أنت بيني وبينهم . ماأفضل مااقتنى رسول الله من الملبس ؟ قالت ثوبين ممشقين كان يلبسهما للسوق والجمع . قال : فأي الطعام ناله عندك ؟ قالت حرفاً من شعير ، فصببنا عليه وهو حار أسفل عكة لنا فجعلناها دسمة حلوة ، فأكل منها . قال : فأي مبسط بسط عندك كان أوطأ ؟ قالت : كساء ثخين نربعه في الصيف ، فإذا جاء الشتاء بسطنا نصفه وتدثرنا بنصفه .

قال : ياحفصة فأبلغيهم أن رسول الله قدر فوضع الفضول في مواضعها ، وإنما مثلي ومثل صاحبيَّ كثلاثة سلكوا طريقاً فمضى الأول لسبيله ، وقد تزود فبلغ المنزل ، ثم اتبعه الآخر فسلك سبيله فأفضى إليه ثم اتبعهما الثالث ، فإن لزم طريقهما ، ورضي بزادهما لحق بهما ، وإن سلك طريقاً غير طريقهما لم يلقهما .

وقد رأى رضي الله عنه قوماً يحيون حياة الترف ، والناس في عناء وشظف قال : ألا إن قوماً يريدون أن يستأثروا بمال الله دون عباده فأما وابن الخطاب حي فلا ، إني قائم آخذ بحلاقيم قريش وبحجزها أن يتهافتوا في النار .

هذه نماذج من محاسبة المؤمنين أنفسهم ، وهي غيض من فيض ، ومن شاء فلينظر في صفحات التاريخ يجد العجب العجاب .

أيها المؤمن الكريم ماأجدرنا أن نحاسب أنفسنا ونحن في مطلع عام جديد ، كما أننا في العشر الأخير من شهرنا المبارك شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن ، ولاسيا ونحن أيضاً في ظلال ليلة القدر التي هي خير من ألف شهر ، إنه لجدير بالمؤمن في هذه الأيام المتميزة بما فيها من خير وبر وتسجيل ، جدير به أن يخلص التوبة ، ويحسن الأوبة ، ويحسن النية .

أيها الأخوة المؤمنون ، إن المؤمن ليس هدفه الضياع والقصور والكنوز والشهوات المسرفة ، إنما هدفه عزة في دين الله ، وجنة عرضها السموات والأرض ، واستقامة في معاملة الناس ، وقيام بواجبه نحوهم ، وكبح النفس عن الشهوات التي لايقرها الدين ، والنزعات التي لايسوغها الخلق ، واجعلوا دائماً نصب أعينكم هذا القول الإلٓهي الحكيم : ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ﴾ .

وتمثلوا دائماً قول الرسول العظيم ﷺ : « عش ماشئت فإنك ميت ، وأحبب من شئت فإنك مفارق ، واعمل ماشئت فإنك محاسب عليه ، وكما تدين تدان » .

اللهم وفقنا إلى العمل الصالح ، واهدنا سواء السبيل .

علو الهمة

حينما ننظر في تعاليم الإسلام نجد أنه شحذ العزائم ، ونهض بالهمم ، ودعا إلى معالي الأمور ، وقد وجه الإسلام متبعيه إلى أن يأخذوا دائماً بالأفضل ، ويعملوا بما يعود عليهم وعلى أمتهم بالخير الأكثر ، حتى كان من الحكمة المأثورة : [علو الهمة من الإيمان] .

وجاء في الحديث :« إن الله يحب معالي الأمور ويكره سفسافها » وإننا نجد هذا التوجيه السامي عاماً يشمل كل نواحي الحياة ، لذافقد دفع الإسلام متبعيه بكلتا يديه ليخوضوا غمار الحياة بجد وعزم ونشاط ، وأن تكون مقاصدهم دائماً عالية ، وأهدافهم سامية نبيلة ، وقد قال العلماء : « إن من كمال العقل علو الهمة ، والراضي بالدون دني » .

وقد كان لهذا التوجيه الحكيم أثر كبير في نفوس المسلمين ، دفعهم إلى المشاركة في كل مجالات الحياة ، بعلو همة ، ونبل مقصد ، ووفرة إخلاص .

فكان الرئيس يذود عن الحق بما في يده من قوة متى كان المعتدي في غشاوة تمنعه من أن يفقه الحجة والبرهان ، وكان العالم يذب عن الحق وينصره بلسانه وقلمه ، وكان الموسر ينفق في سبيل الإصلاح باليمين والشمال ، سراً وعلانية ، ويرتاح لمواساة البائسين ، ومساعدة المنكوبين ، أكثر مما يرتاح لأن يكنز الأموال ، أو تكون له قصورٌ فيحاء ، وحدائق غناء .

وكان الجندي يستبسل في ميادين الكفاح لدفع الظالم ، ووقف المعتدي ، وللمحافظة على أمته ووطنه ، كي تبقى أبداً مرفوعة الرأس ، موفورة الكرامة .

وكان العامل يدأب إلى الجد في العمل ، والإتقان فيه ، لا يضيع فرصة من غير سعيٍ جاد وعمل نافع ، وصفوة القول أن تعاليم الإسلام الحنيف ، دفعت كل فرد من أفراد الأمة ليقوم بواجبه في شتى الميادين ، ومختلف المجالات ، ومما لاشك فيه أن علو الهمة يدعو الإنسان في الدرجة الأولى للقيام بما يتوجب عليه نحو خالقه ورازقه رب السماوات والأرض ، بل هو يُعنى أشد العناية برضاء ربه ليُمده بالعون ، ويساعده على القيام بواجباته في الحياة ، وقد صدق القائل :

إذا لم يكن عـــون من الله للفتى　　فـأول مـايجني عليـه اجتهـاده

وإنما كانت دعوة الإسلام إلى كل هذا صريحة وقوية ، لأنه دين العمل والجد والنشاط ، يكره التواكل ، ويمقت الكسل ، ويبغض الاسترخاء ، ويتجنى على الإسلام من يقول عنه : إنه دين التواكل والخمول . وقد ثبت عن رسول الإسلام محمد عليه الصلاة والسلام ، أنه كان يردد في دعائه :« اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن ، وأعوذ بك من العجز والكسل ، وأعوذ بك من الجبن والبخل ، وأعوذ بك من غلبة الدين ، وقهر الرجال » .

والرسول الكريم صلوات الله عليه وسلامه يشير بدعائه هذا إلى التحذير من أن تستولي هذه الأمور على إنسان ، لأنها تعطل المصالح ، وتقضي على الشخصية ، بل تدع الإنسان ميتاً بين الأحياء .

والله سبحانه وتعالى لن يقبل من عبده المؤمن رجاءه فيه ، وحسن ظنه به إلا إذا اقترنا بالعمل الواجب ، وصحبهما الإسراع في أداء حق الله ، والسهر على مرضاته ، إما مع البطالة والاسترخاء فلا مكان لرجاء ، ولاموضع لحسن ظن . قال تعالى : ﴿ إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله ﴾ ؛ فرجاء رحمة الله إنما يكون مع الإيمان والهجرة والجهاد .

وقال تعالى : ﴿ إن الذين يتلون كتاب الله وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية يرجون تجارة لن تبور ، ليوفيهم أجورهم ، ويزيدهم من فضله ، إنه غفور شكور ﴾ .

فتدبر أيها القارئ الكريم هذه الآية ، وتأمل كيف تحصي أنواعاً من البر تؤهل الإنسان لِنيْل الحِظْوة عند الله ، والنجاة في الدار الآخرة ، فهي تعلن بوضوح أن قراءة القرآن ، والإنفاق الذي يسد حاجات المجتمع ماعلن منها وما خفي ، والصلاة التي تبعث الخشوع ، وتنهى عن الفحشاء والمنكر ، كل أولئك من أسباب الرجاء الحق ، وتأميل النصر ، والفوز بجنات النعيم .

روى مسلم عن ربيعة بن كعب قال : كنت أخدم النبي ﷺ نهاري ، فإذا كان الليل ، أويت إلى باب رسول الله فبت عنده فلا أزال أسمعه يقول : سبحان الله ، سبحان ربي ، حتى أمل ، أو تغلبني عيني فأنام . فقال النبي يوماً : ياربيعة ، سلني فأعطيك . فقلت : يارسول الله أنظرني حتى أنظر ، وتذكرت أن الدنيا فانية منقطعة ، فقلت : يارسول الله ، أسألك أن تدعو الله أن ينجيني من النار ، ويدخلني الجنة . فسكت رسول الله ، ثم قال : من أمرك بهذا ؟! قلت : ماأمرني به أحد ، ولكني علمت أن الدنيا منقطعة فانية ، وأنت من الله بالمكان الذي أنت فيه ، فأحببت أن تدعو الله لي . قال عليه السلام : إني فاعل ، فأعني على نفسك بكثرة السجود .

وفي هذا الحديث من إنهاض الهمة ، والحض على العمل ، وترك التواكل ، والاعتماد على النفس مايعد مفخرة من توجيهات الإسلام وتعاليمه ، فالرسول الذي رغب أن يقضي حاجة لهذا المؤمن لم يدعه يتكل على دعاء الرسول بل أمره بالجد والعمل وكثرة العبادة ، وقد تأثر المسلمون الأولون بهذه التعاليم فكان لها أثر كبير في نفوسهم ، لذلك برز منهم على مسرح الحياة أبطال في العلم والقيادة والصناعة

والحرب والسلم وكانوا في كل ذلك من السابقين المبرزين ، فاستحقوا الحياة ، وكانوا من الخالدين .

كان سعيد بن المسيب يسير الليالي في طلب الحديث الواحد مع مشقة الأسفار وصعوبة المواصلات وقال الشعبي : لو سافر رجل من الشام إلى أقصى اليمن في كلمة تدله على هدى ، أو ترده عن ردى ماكان سفره ضائعاً .

وثبت أن جابر بن عبد الله رحل شهراً في طلب العلم بل في طلب حديث واحد ، بلغه أن رجلاً من أصحاب النبي يحفظه جيداً ، وكان الحافظ له عبد الله بن أُنَيْس ، وكان بينه وبين جابر مسافة شهر فرحل جابر إليه حتى طرق بابه ، فخرج إليه فاعتنقه وأكرم وفادته وأحسن استقباله ، وقال له : ياجابر ياصاحب رسول الله ماجاء بك ومالذي جعلك تتحمل مشقة هذا السفر الطويل ، قال جابر : حديث بلغني أنك سمعته من رسول الله في المظالم ، فخشيت أن أموت أو تموت قبل أن أسمعه منك .

قال : نعم ، إليك الحديث : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « يحشر الناس أو العباد عراة غرلا بُهْماً ، فيناديهم بصوت يسمعه من قرب كما يسمعه من بعد : أنا الملك أنا الديان ، لاينبغي لأحد من أهل الجنة أن يدخل الجنة وأحد من أهل النار يطلبه بمظلمة ، ولا ينبغي لأحد من النار أن يدخل النار وأحد من أهل الجنة يطلبه بمظلمة حتى يقتصه منه حتى اللطمة ، قال وكيف وإنما نأتي عراة غرلاً ؟ قال : بالحسنات والسيئات » .

أيها الأخوة والأخوات ، أيها الطلاب والطالبات ، عليكم بالجد وعلو الهمة في الدراسة والطلب ، ولا تيئسوا إذا أخفقتم في الامتحانات ، وإذا لم ينجح بعض في هذا العام فسينجح إن شاء الله فيما هو آت ، وإن الله مع الصابرين والصابرات ، وهو لايضيع أجر من أحسن عملا .

المسجد الأقصى

روى الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال :« لاتشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد : مسجدي هذا ، والمسجد الحرام ، والمسجد الأقصى » .

أيها المسلمون في بقاع الأرض ، هذا حديث نبوي كريم صحيح ، ينبهنا إلى نقطة حيوية هامة قد تنبه لها أسلافنا من قبل ، وغفلنا أو تغافلنا نحن عنها اليوم ، وإن إغفالها أو التغافل عنها جريمة لاتغفر ، وسيسأل عنها كل مسؤول أمام الله والتاريخ .

إن المساجد في الأرض كثير ، وهي على وجه العموم أفضل بقاع الأرض ، مافي ذلك شك ، وكفى أنها بيوت الله التي أذن أن ترفع ويذكر فيها اسمه ، ولكن لم خصصت هذه المساجد الثلاثة بالذكر ، ولم رفعها الله على غيرها ، وقدمها على ماعداها ، وجعل العبادة فيها أضعافاً مضاعفة ؟؟

وما يتسع الوقت لبيان ذلك كله ، إنما سأقتصر على بيان فضل المسجد الأقصى وحده .

أيها المسلمون ، إن للمسجد الأقصى أهمية كبرى تتصل بالعقيدة الإسلامية نفسها ، فالمسلم الذي يتجه في أداء صلاته المفروضة كل يوم خمس مرات ، شطر المسجد الحرام ، والذي لاتقبل منه صلاته ، ولايقوم بطاعة ربه إلا إذا استقبل هذا المسجد الحرام ، في أي بقعة من بقاع الأرض كان ، هذا المسلم الذي يقوم بهذه

الفريضة الركينة في دينه ، يجب أن يذكر المسجد الأقصى ويجب أن يتأمل جيداً في هذا الرباط الوثيق بينه وبين المسجد الحرام ، والكعبة المشرفة .

هذا الرباط الوثيق الذي لم يسجل في صك قانوني ، أو وثيقة حكومية ، إنما سجل في كتاب الله الخالد ، في القرآن العظيم الذي نزل على محمد ﷺ ، وأصبحت كلمة « المسجد الأقصى » كلمة يتعبد بتلاوتها ويتقرب إلى الله بها حيث يقول تعالى : ﴿ سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ... ﴾ .

أيها المسلمون في أقطار الأرض ، أما يجدر بنا أن نمعن النظر ، فيما تشتمل عليه هذه الآية الكريمة من المعاني الزاخرة ، كما أمعن النظر فيها أسلافنا من قبل ؟!

لم اختار الله تعالى المسجد الأقصى محطة لرحلة محمد ﷺ الأرضية ، ولرحلته السماوية ، فكل مسلم يعلم أن رسول الله أسري به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ، ثم عرج به من هناك إلى السماء ، ثم عاد من السماء إليه ، ومنه عاد إلى البيت الحرام ، ماهذا ؟ ماحكمته ؟ ماالسر فيه ؟ أليس في السماء إلا باب واحد ؟ أليس في الأرض غير فلسطين وغير المسجد الأقصى ؟؟

إن في ذلك لحكمة بالغة ، وإشارة صريحة ، بأن هذا المسجد الأقصى ، وأن أرض فلسطين لم تربط بالمسجد الحرام فحسب ، ولا بأرض الحجاز فحسب ، ولكنها ربطت مع ذلك بالسماء ، وبأهل السماء فمن حرص على الكعبة فليحرص على المسجد الأقصى ، ومن تأخذه الغيرة والعزة على المسجد الحرام ، فلتأخذه الغيرة والعزة على المسجد الأقصى ، ومن كان تهمه أرض العرب ، مهد النبوة ، ومشرق الرسالة ، فليحرص على فلسطين منتهى الإسراء ، ومبدأ المعراج ، ومفتاح السماء .

وقد نبه المولى عز وجل إلى هذه المعاني كلها ، بأن سمّى سورة من طوال السور في كتابه بسورة الإسراء . كل ذلك لكي تكون هذه المعاني ماثلة دائماً أمام المسلمين ومن ثم ليحافظوا عليها ، ويعضوا عليها بالنواجذ ، ويفدوها بالمهج والأرواح ، وليبذلوا في سبيل إنقاذها من أيدي الغاصبين والمعتدين ، كل مايملكون من نفس ومال ...

وقد تنبه المسلمون السابقون إلى هذه الحقائق ، فكان أول عمل عمله أبو بكر الخليفة الأول ، رضي الله عنه ، أن نفذ مراد رسول الله ، فسير جيش أسامة حبيب رسول الله ، ليفتح أحب البلاد إلى رسول الله .

ومن قبل جيش أسامة ، سير الرسول السرايا لقتال بني الأصفر ، فكان منهم خيرة الشهداء في مؤتة ، وتتابعت مواكب المجاهدين من مؤتة ، إلى حطين ، إلى اليرموك ، تتنادى فلسطين فلسطين !!

أيها المسلمون ، ماذا فعلنا نحن اليوم تجاه هذه المعاني المقررة ، والتراث المغتصب ؟!

هذه هي الشرذمة الصهيونية المعتدية ، تعود من جديد فتستولي على المسجد الأقصى ، وهاهي بمساعدة الدول الغادرة المستعمرة ، تعود فتشرد الآلاف من أهل فلسطين ، وتستولي على كثير من المقدسات العربية والإسلامية .

أما كان في كل هذا ـ بل في بعض هذا ـ مايثير حفيظة المسلم ، ويذكي روح الثأر في نفسه ، ليهب لدفع الظلم ، ورد المعتدي ، وإنقاذ الأرض الطاهرة ، والأماكن المقدسة .

أيها المسلمون ، إن المسجد الأقصى ليستصرخ ، وإن الصخرة المشرفة لتستغيث ، وإن الكرامة المهانة لتستنجد ، فهل يجوز لمسلم بعد هذا كله أن يهدأ

له بال ، أو يقر له قرار ، أو يركن إلى نعيم ، قبل أن يغسل العار ، ويرد العدوان ، ويطهر الأرض ؟!!

أيها المسلمون ، أيها العرب ، إن المسجد الأقصى ليس ملكاً لأمة من المسلمين دون أمة ولا لدولة دون دولة ولا لشعب دون شعب ، إن مسؤولية المسجد الأقصى تقع على عاتق كل مسلم في أقطار الأرض ، وإن تطهير فلسطين ، من أرجاس الناس ، وأوباش الأمم ، وحثالات الشعوب ، يقع على عاتق كل مؤمن بإسلامه وعروبته ، في أنحاء الأرض .

أيها المسلمون ، أعدوا عدتكم ، واجمعوا أمركم ، ووحدوا صفوفكم ﴿ وقاتلوا المشركين كافة ، كما يقاتلونكم كافة ﴾ ، ﴿ واعتصموا بحبل الله جميعاً ولاتفرقوا ﴾ ، إنكم إن فعلتم ذلك سينصركم الله على عدوكم ، وسيعينكم على محو آثار العدوان عنكم ، ﴿ ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز ﴾ .

أيها المسلمون ، إنكم أصحاب حق ، وإن عدوكم ظالم غاشم ، وإن قوة الله دائماً مع الحق وأهله ، وإن الله لايحب الظالمين المعتدين ، فما عليكم إلا أن تخوضوا المعركة ، معتمدين على أنفسكم ، واثقين بنصر ربكم غير مترددين .

إذا كنت ذا رأي فكن ذا عزيمة   فإن فساد الرأي أن تترددا

صدق العزيمة

إن أية أمة من الأمم ، أو شعب من الشعوب ، يريد البقاء ، ويسعى ليتبوأ مكانة مرموقة في الأرض لابد من أن يعد نفسه لتقلبات الحياة ، ومواجهة الأخطار ، بل يجب أن يكون في مقدمة حسابه الخضوع لسنة الكون التي رسمها العليم القدير ، والتي تسير عليها هذه البشرية بمختلف فئاتها وأجناسها منذ وجدت على هذه الأرض ، هذه السنن الكونية المشار إليها بقول الله عز وجل : ﴿ وتلك الأيام نداولها بين الناس ، وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء ، والله لايحب الظالمين ، وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين ﴾ .

فإذا أشرقت نفس الإنسان بتحقق الرغبات ، وحصول الانتصارات ، والتغلب على عقبات الحياة ، والنجاح في جهاده ونضاله ، فإنه يجب عليه أن يثبت ويصمد إذا واجه ضد هذه الرغبات المحببة إلى النفوس ، لاأن يتصدع وينهار .

إن الشدة بعد الرخاء ، والرخاء بعد الشدة هما اللذان يكشفان عن معادن النفوس ، فيتبين المؤمنون الصادقون ، والمناضلون الثابتون ، ويمتازون من المنافقين المسْتَتِرين ، والله يعلم هؤلاء وهؤلاء ، ولكنه تعالى يريد أن يظهر متعلق علمه ليعلم الناس حال الفريقين .

ومداولة الأيام ، وتوالي الشدة والرخاء ، وسيلة عملية لاتخطئ ، ومحك صادق لايظلم ، والرخاء في هذا كالشدة ، فكم من نفوس تصبر للشدة وتتماسك ،

ولكنها تتراخى بالرخاء وتنحل ، والنفس المؤمنة حقاً ، تصبر للضراء ، ولا تستخفها السراء وتتجه إلى الله في الحالين ، وبهذا تستحق صفة الإيمان ، ومن ثَمَّ تنال لقب : الأبطال والشجعان .

فإذا داهمت الأمة شدة فصبرت ، وأوذيت في أعز شيء لديها فصمدت ، وبذلت كل مافي طوقها من جهد ، وقامت بكل ماتستطيع من نضال وكفاح ، جاءها النصر من عند الله عن استحقاق ، وكان لها عنده حُسْن الجزاء بما صبرت وناضلت كذلك عن استحقاق .

ولقد ظهرت هذه السنة الكونية من سنن الله عز وجل ، في حياة الرسول محمد ﷺ واضحة جلية ، لتكون لأمته من بعده خَيْر أسوة ، وأنفعَ درس .

وإني ذاكر لك أيها القارئ الكريم حادثة واحدة ، وقعت في حياة النبي الكريم ، تكفي عن سرد كثير من مثلها ، مما يعد تطبيقاً للسنن الكونية في هذا الوجود .

في العام الخامس من الهجرة مشى يهود خيبر إلى قادة قريش ، وحرضوا القبائل الضاربة غربي نجد ، وحول مكة من غطفان وغيرها ، حتى اجتمعت كلمة هؤلاء وهؤلاء جميعاً على غزو المدينة ، واستئصال المسلمين ، والقضاء على الدين الجديد .

وعلم المسلمون بهذه المؤامرةالدنيئة ، ورأوا أنهم لاقبل لهم بهذه الجموع التي احتشدت من كل فج ، ولكن ماذا ؟ أيستكينون ويستسلمون ويخضعون ؟!! كلا إنه النضال ، إنه الجهاد ، إنه الكفاح حتى آخر نفس في الحياة ، والحرب خدعة ، وعلى القيادة العامة أن تتخذ كل الوسائل الممكنة لمواجهة الخطر ، لهذا أمر القائد الأعلى محمد ﷺ بحفر الخندق من الجهة الشمالية للمدينة ، حيث يطمع

العدو في اقتحامها من هذه الجهة ، بينما كانت الجهات الأخرى حصينة بالجبال والنخيل .

وسارع المسلمون إلى حفر الخندق ، وكان القائد الأعلى محمد في مقدمة الذين يحفرون ويرفعون التراب ، ويشجع جنده أعظم التشجيع ، ويدعوهم إلى مضاعفة الجهد ، ويخفف عنهم مايلقونه من شظف العيش وضيق المورد بقوله :

« اللهم لاعيش إلا عيش الآخرهْ فاغفر للأنصار والمهاجرهْ »

وتتسرب الطمأنينة إلى جنده ، وتنبعث العزيمة القوية في نفوسهم فيجيبونه :

نحن الذين بايعوا محمدا على الجهاد مابقينا أبدا

وقد تم حفر الخندق ـ على مافيه من إرهاق ومشقة ـ في ستة أيام

وأثناء الحفر عرضت مشكلة هامة ، دلت على الثبات الذي لايتزعزع ، والصبر الذي لايتصدع والقيادة الجبارة التي تدك بعزيمتها كل الصعاب والعقبات .

ذلك أن صخرة عنيفة خرجت في حصة إحدى الفرق ، لم تؤثر فيها المعاول ، ولم يقطع فيها الحديد ، فلجأ الجنود إلى قائدهم يخبرونه بأمرها ، ويرون رأيه فيها .

ويهرع القائد محمد ﷺ إلى الصخرة فيأخذ المعول من سلمان ، ويضرب الصخرة ثلاث ضربات متتابعة يكبر مع كل ضربة ، فيكبر جنده لتكبيره ، وإذا بالصخرة العاتية القاسية تتفتت وتنهار ، وتزول العقبة ، وتنحل المشكلة ، ويبشر الرسول جنده بأنهم غالبون منتصرون بل يبشرهم بما هو أبعد من ذلك وأعظم يبشرهم بفتح المشرق والمغرب ، والاستيلاء على ملك كسرى وقيصر .

وهنا تظهر النفوس الشاكة المرتابة ، والمثبطة المريضة ، فيسخرون ويهزؤون ويقولون : « ألا تعجبون لمحمد وأصحابه ، يعتصمون من عدوهم بالخندق ثم هو يعدهم ملك كسرى وفتح الشرق والغرب » ؟ ولكن هؤلاء نسوا أن هذه الضربات في الصخر الأصم ، إنما هي تعبير عن الحق يصادم الباطل ، والإيمان يصاول الشرك ، والحق العزيز المصمم يكسر مايعترضه ، ويدفع مايصده .

ولكن كثيراً من هؤلاء الذين سخروا من القائد المحصور المعتصم بالخندق ، عاشوا حتى سمعوا صدى هذه الضربات في اليرموك والقادسية ، وماتلاهما شرقاً وغربا ، وجنوبا وشمالاً .

وكذلك الحق سيظل حقا ، وسيكتبُ له النصر والخلود ، مهما تآمر عليه المعتدون ، وتكتل ضده المستعمرون ، ﴿ ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ،ولكن المنافقين لايعلمون ﴾

☆ ☆ ☆

صمود الحق أمام جولة الباطل

قال تعالى في كتابه العزيز : ﴿ يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم وَالله متم نوره ولو كره الكافرون ﴾ .

أيها القراء الكرام ، هذه آية قصيرة من كتاب الله عز وجل ترسم لنا بخطوط عريضة ، وملامح واضحة مشرقة صورة لأعداء الحق الماكرين به ، والمتآمرين عليه ، من قديم الزمن ، ومن غابر العصور ، هكذا شأن أعداء الإنسانية ، المفطورين على حب السيطرة والأنانية ، هكذا شأنهم مع الحق ، إنكار ومكابرة وإعراض ومؤامرة ، وسلوك طرق معوجة ملتوية ، يحاولون بكل الوسائل أن يقضوا على الحق وأهله ، وأن يطفئوا الحجة المتلألئة كالشمس ، والبرهان الساطع المشع ، ليصلوا إلى خيرات الأرض ، واستعباد الناس .

ولكن هل تنجح مؤامرتهم ، وهل يتم لهم مايريدون من القضاء على الحق ، وإطفاء النور ، والعمل في الظلام ؟؟

كلا إن ذلك لن يكون ولا يكون أبداً ، لأن الله الذي نزل الكتاب بالحق ، والذي جعل من شرائعه ودينه نوراً يهدي إلى سواء السبيل ، يأبى سبحانه وتعالى وهو القادر على كل شيء ، يأبى إلا أن يتم نوره ، ويظهر الحق وينصر أهله ، ولو كره الكافرون ، وتآمر المبطلون ، وكاد الكائدون .

ماأعظمها آية على قصرها وإيجازها ، فقد صورت لنا تاريخ أمة ، ورسمت لنا نضال شعب .

لقد ظهر الحق في دين الله الذي أوحاه إلى نبيه محمد ﷺ ، وبدأ يشع نوراً ساطعاً ، يبدد دياجير الظلام ، فاستضاء بهذا النور أفراد تكاثروا على بطء ، ثم تتابعوا حتى أصبحوا أفواجاً في كل قطر ، وتحت كل كوكب . لقد هزم الحق الوليد ، الباطل الجبار القديم العنيد ، في جزيرة العرب وغيرها ، وكانت هذه الهزيمة دليلاً على قوة هذا الحق وإن كان وليداً ، لأن العبرة للحيوية الكامنة فيه ، والطاقة المتفجرة التي تنبعث منه ، والمقاصد السامية الحقة التي يهدف لإقرارها وتطبيقها .

واندفع خلفاء محمد وتلامذته من بعده يعلنون هذا الحق ويؤيدونه ، ويدافعون عنه ، ويستميتون في إقراره وتمكينه ، لأنه حق يجب أن يظل قوياً ثابتاً ، وإذا كان محمد ﷺ قد مات ، فإن دينه لن يموت ، وإن الحق الذي جاء به لن يضمحل ، ﴿ وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل ﴾ فهو لابد أن يموت ولكن الحق لن يموت ، والنور لن يطفأ ، والناصرون للحق المدافعون عنه هم الخالدون .

لقد حلت بالمسلمين من قبل نكبات ونوازل ، كما تحل بهم اليوم نكبات ونوازل ، يدبرها لهم أعداء الإسلام وأعداء الإنسانية ، من المستعمرين وعملائهم الذين اعتادوا أن يعيشوا على امتصاص دماء الشعوب الضعيفة ، واغتصاب خيراتها ، ولكن المسلمين والعرب لن تفل هذه النكبات والنوازل ، من عزيمتهم ، ولن تجعلهم يتخاذلون عن حقهم بل سيقفون اليوم ، كما وقف آباؤهم بالأمس ثابتين أشداء حتى يظهر الحق ، ويزهق الباطل وإذا كان في تاريخ الآباء حافز ومشجع للأبناء ، فإن تاريخنا ـ نحن العرب والمسلمين ـ حافل بما يدعو إلى العزة والسؤدد والفخار ، وما علينا إلا أن نستلهم من تاريخ أبطالنا الصمود في الملمات ، والمضي في النضال .

هذا هو الخليفة الأول أبو بكر الصديق رضي الله عنه ، يبلغه أن أناساً من الأعراب الذين لم يخالط الإسلام قلوبهم ، تمردوا على أحكام الإسلام ، فامتنعوا عن دفع الزكاة التي لم يفقهوا مزاياها ، ولم يعقلوا الهدف منها ، وحسبوها غصباً وسلباً ، وقالوا : « نؤمن بالله ونشهد أن محمداً رسول الله ، ولكننا لانعطيكم أموالنا ! » فيغضب الخليفة الصديق غضبته المشهورة ، ويعلن كلمته الخالدة ، المعبرة عن عزمه الأكيد فيقول :« والله لو منعوني عقالاً لجاهدتهم عليه » ، ويسول الشيطان لهؤلاء المرتدين ، ويحرضهم على قتال المسلمين ، ويطمعهم بقلتهم في المدينة .

ويستعد أبو بكر للقائهم بكل مالديه من قوة ، ويرى بعض الصحابة أن اللين في معاملتهم أولى من الشدة في ذلك الظرف الشديد ، وكان منهم عمر رضي الله عنه على حزمه وعزمه ، إذ قال :« ياخليفة رسول الله ، تألف الناس ، وارفق بهم » . فأجابه أبو بكر : رجوت نصرتك وجئتني بخذلانك ،؟ أجبار في الجاهلية ، وخوار في الإسلام ، إنه قد انقطع الوحي ، وتم الدين ، أو ينقص وأنا حي ؟...

ونشبت المعركة بين المؤمنين والمرتدين ، بين الحق والباطل ، وانتصر الحق وهزم الباطل ﴿ إن الباطل كان زهوقا ﴾ .

قال أبو رجاء البصري : دخلت المدينة فرأيت الناس مجتمعين ، ورأيت رجلاً يقبل رأس رجل وهو يقول : أنا فداؤك ، ولولا أنت لهلكنا ، قلت : مَن المقبِّل ، ومَن المقبَّل ؟ قالوا : هذا عمر يقبل رأس أبي بكر ، في قتال أهل الردة ، إذ منعوا الزكاة حتى أتوا بها صاغرين .

وهذه هي الأمم الصليبية تتكتل وتجتمع لتقضي على المسلمين ، كما تتكتل اليوم وتجتمع لتقضي على العرب والمسلمين ، ومايحملون على العرب ويكيدون لهم

لأنهم عرب فحسب ، بل لأنهم يـدينـون بهـذا الإسـلام ، والإسـلام يخيفهم ويقض مضـاجعهم ، لأن تعـاليـه لاتقر سيطرتهم واستعمارهم ، بل تحـارب بشـدة أطماعهم وتحد من شهواتهم ، وتقول لهم : متى استعبدتم الناس وقد ولـدتهم أمهـاتهم أحرارا ، لـذلـك فـإنهم يكيـدون للعرب ، ويمكرون بهم ويتـآمرون عليهم ليـذلـوهم ويستعمروهم .

فماذا كان موقف أجدادنا تجاه الزحوف الصليبية في البر والبحر ، لقد صمـدوا صمود الأبطال ، وجاهدوا جهاد المؤمنين الصادقين ، الـذين بـاعوا أنفسهم لله بـأن لهم الجنة ، فجاءهم العز المؤزر ، والنصر المبين .

بل كان من تمام النصر وكمال التـأييـد أن اعتنق الإسلام أفراد وجمـاعـات من قادة الحملات الصليبية ، إذ رأوا في تعاليمه وسماحة أهلـه مـايتفق مع تعـاليم السيـد المسيح وسماحته ، وفي التاريخ صفحات مشرقة تعطي أكبر عبرة .

تلك بعض المعارك والملاحم اللاهبـة التي خـاض العرب والمسلمون لظـاهـا ، فخرجوا ظافرين منتصرين بعـد أن اعتصموا بحبل الله المتين ، واستمسكوا بعروتـه الوثقى . وإن حوادث الحـاضر شـديـدة الشبـه بحوادث المـاضي ، فلنعـد العـدة ، ولنتسلح باليقين ، ولنتدرع بالصبر والله مع الصابرين .

☆ ☆ ☆

التخلف عن الجهاد ، وعدم بذل المال هو التهلكة

الإسلام دين القوة والعزة ، مافي ذلك شك ، وجهاد رسول الإسلام ﷺ ، وخوضه معارك الحرب بنفسه ، وبطولات أصحابه وتلامذته من بعده ، أكبر دليل على ذلك ، وآيات الكتاب العزيز ، التي أنزلت على محمد ﷺ لتكون نوراً وهدى تهدي للتي هي أقوم ، تهيب بالمؤمنين بصراحة ووضوح وقوة ، أن يجندوا أنفسهم دائماً لنصرة الحق والدفاع عنه ، وأن يعدوا لدفع المعتدين الظالمين ماستطاعوا من جند وبذل وقوة .

وحينما جاء المؤمنون يسألون رسول الله ﷺ عن أحب الأعمال إلى الله تعالى ، وأعظمها التماساً لمرضاته ، ووسيلة للنجاة من سخطه وعذابه ، كان جوابهم وحياً بهذه الآية الكريمة :

﴿ ياأيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم ، تؤمنون بالله ورسوله ، وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون ، يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار ، ومساكن طيبة في جنات عدن ذلك الفوز العظيم ، وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب ، وبشر المؤمنين ﴾ .

فالتجارة الرابحة من غير شك ، الناجحة بلا تردد هي الإيمان بالله عز وجل والجهاد في سبيله بالمال والنفس ، وربحها هو أعظم ربح ، إنه غفران الذنوب ، ودخول جنات ، والتمتع بمساكن أنيقة لايحيط بها الوصف ، وفوق ذلك كله نصر مؤزر ، وفتح قريب ، وتغلب على العدو ، وسحق للظالمين المعتدين .

أيها المستمعون الأكارم ، وهنا أريـد أن أقف بكم عنـد آيـة من كتـاب الله عز وجل ، ربما فهمها بعض الناس على غير وجهها ، وأوّلوهـا بغير المراد منهـا ، هـذه الآية قولـه عز وجل :﴿ وأنفقوا في سبيل الله ، ولاتلقوا بـأيـديكم إلى التهلكـة ﴾ وهي الآية ١٩٥ من سورة البقرة .

إليكم إيضاحاً مفصلاً لهذه الآية حديث أبي أيوب الأنصاري ، الـذي رواه أبو داود . والترمـذي ، والنسـائي وابن حبـان في صحيحـه ، والحـاكم في مسـتدركـه وغيرهم . وهو عن أسلم أبي عمران قال :

« كنا بمدينة الروم ، فأخرجوا إلينا صفاً عظيماً من الروم ، فخرج إليهم من المسلمين مثلهم أو أكثر ، وعلى أهل مصر عقبة بن عامر ، وعلى الجماعـة فضـالـة بن عبيـد ، فحمـل رجـل من المسلمين على صف الروم ، حتى دخـل عليهم ، فصــاح النـاس وقـالـوا : سبحـان الله ! يلقي بيـديـه إلى التهلكـة ..! فقـام أبـو أيـوب الأنصاري فقال : ياأيها الناس ، إنكم لتؤوّلون هذه الآيـة ، هـذا التـأويل ، وإنما نـزلت فينـا معشر الأنصـار لمـا أعـز الله الإسـلام ، وكثر نـاصروه ، فقـال بعضنـا لبعض : إن أموالنا قد ضاعت ، وإن الله قد أعز الإسلام وكثر ناصروه ، فلو أقمنـا في أموالنا فأصلحنا ماضاع منها ، فأنزل الله على نبيه يرد علينا ماقلنـا ﴿ وأنفقوا في سبيل الله ، ولاتلقوا بأيديكم إلى التهلكة ﴾ فكانت التهلكة الإقامة على الأموال وإصلاحهـا ، وتركنـا الغزو . فمـا زال أبو أيوب شـاخصـاً في سبيل الله حتى دفن بأرض الروم » .

فمن هذا نعلم أن الفداء والتضحية والاستبسال في ميـادين الشرف والنضـال ، لايعد إلقاء بالنفس إلى التهلكة ونحن قد رأينـا في تـاريخ نبينـا ﷺ أنـه كان في إحـدى المعـارك يحض الجنـد على القتـال ويرغبهم في الاستشهـاد وكان من ذلـك قوله : والذي نفسي بيده مابين أحدكم وبين الجنـة إلا أن يموت الآن ، فقـال أحـد الجنـد : يـارسـول الله ، مـابيني وبين الجنــة إلا أن أمـوت ؟ قــال : نعم ، وكان

الجندي يأكل تمرات بيده ، فألقاها وقال : لئن أنا صبرت حتى آكل هذه التمرات إنها لحياة طويلة ، ثم حمل على الأعداء ، وانخرط في صفوفهم وحده ، ومازال يقاتل حتى قتل .

فلم ينكر عليه رسول الله ، ولم يقل عنه إنه ألقى بيده إلى التهلكة ، بل لو كان عمله هذا غير جائز لنهاه الرسول ، ولكن الأمر كان بالعكس . فإن الرسول نفسه هو الذي حرضه على ذلك . ودعاه إلى الاستبسال والاستشهاد .

وفي تاريخنا مثل كثيرة من هذا النوع الجريء ، والتضحية النادرة .

هذا البراء بن مالك بن النضر الأنصاري الصحابي الجليل ، حضر معركة اليمامة ، التي اشتد القتال فيها بين جيش المسلمين بقيادة خالد بن الوليد ، وبين بني حنيفة المرتدين والذين كانوا يدافعون عن زعيمهم مسيلمة الكذاب الذي ادعى النبوة ، وحاصر هؤلاء في حديقة لهم ، وصعب على المسلمين فتح هذه الحديقة لتحصينها ، فقال البراء بن مالك هذا : يامعشر المسلمين ، ألقوني عليهم ، فاحتمل حتى إذا أشرف على الجدار ، اقتحم فقاتلهم على باب الحديقة ، حتى فتحه للمسلمين ، فدخل المسلمون ، وقتل مسيلمة ، وكان النصر .

وجرح البراء يومئذ بضعاً وثمانين جراحة مابين رمية وضربة ، فأقام عليه خالد بن الوليد القائد ، شهراً حتى برأ من جراحه ، ولهذا البطل مواقع أخرى مماثلة في المعارك مع الفرس لايتسع الوقت لذكرها .

أيها القراء ، أفرأيتم إلى هذه البطولة ، رجل يلقي بنفسه من سور الحديقة على جموع متحفزة متوثبة ، وبدلاً عن أن يرتبك ويذهل ، أوقع أعداءه بالارتباك والذهول ، ومازال يقاتلهم حتى حقق هدفه من فتح الباب ودخول المسلمين ، أفكان ذلك تهلكة ، أم بطولة وتضحية ، نتج عنها عزة ونصر وفتح ؟؟

وللعز بن عبد السلام أمير العلماء ، وعالم الأمراء ، فتوى مسطرة في كتبه في هذا الموضوع ، قال فيها : « والمخاطرة بالنفوس مشروعة في إعزاز الدين ، ولذلك يجوز للبطل من المسلمين أن ينغمر في صفوف المشركين ... ومن قال بأن التغرير بالنفوس لايجوز ، فقد بعد عن الحق ، ونأى عن الصواب ... » .

أيها المسلمون ، أيها العرب ، ماأحوجنا في هذه الظروف التي ديست فيها كرامتنا ، واعتدي فيها على أرضنا ومقدساتنا ، وتآمر علينا فيها المستعمرون من وراء ربيبتهم الصهيونية المجرمة ، ماأحوجنا أمام ذلك كله إلى الجهاد بالنفس والمال ، ماأحوجنا إلى التضحية والاستبسال والفداء ، ماأحوجنا إلى بذل كل غال ونفيس لنحرر الأرض المغتصبة ، وننقذ الكرامة المهانة ، ونعيد لأمتنا العزة والخلود .

☆ ☆ ☆

حكم عادل

حادثة وقعت في عهد الرسول ﷺ ، اغتنمها أعداء العرب والإسلام ، واتخذوا منها دعاية كبرى ضد المسلمين ، وقالوا بشأنها وأكثروا ، وقاموا وقعدوا . ولكن الله عز وجل ، ماكان ليذر المسلمين في حيرتهم وندمهم على مافعلوا ، ويترك أعداءهم مندفعين في دعايتهم وتضليلهم ، وإلباسهم الباطل ثوب الحق ، ليؤلبوا على المسلمين الأعداء ، ويظهروهم بمظهر المسيء المخطئ .

وخلاصة هذه الحادثة أن الرسول عليه السلام بعد أن هاجر إلى المدينة ، كان على يقظة وحذر دائماً ، لذا كان يبعث السرايا للاستكشاف ، والاستطلاع ، ليكون على علم بما تبيته قريش ، وماتدبره من مؤامرات وتحركات .

وفي السنة الثانية للهجرة بعث سرية أمر عليها عبد الله الأسدي ، ودفع إليه كتاباً ، وأمره ألاَّ ينظر فيه إلا بعد يومين من مسيره ، فيمضي لما أمره ولا يستكره من أصحابه أحداً ، فلما فتح عبد الله الكتاب بعد يومين فإذا فيه : « إذا نظرت في كتابي هذا فامض حتى تنزل بنخلة ـ بين مكة والطائف ـ فترصد بها قريشاً ، وتعلَّم لنا من أخبارهم »

فقال عبد الله الأمير : سمعا وطاعة ، ثم أخبر أصحابه بذلك ، وبأنه لا يستكرههم على المسير معه ، فمن أحب الشهادة فلينهض ، ومن كره الموت فليرجع ، وقال لهم أما أنا فماض لما أمرني فيه الرسول ، فمضوا معه جميعاً .

وتابع عبد الله ومن معه مسيرتهم حتى نزلوا بنخلة ، هناك مرت بهم عير

لقريش ، تحمل تجارة عليها عمرو بن الحضرمي ، وكان يومئـذ آخر شهر رجب ، وذكر عبـد الله ومن معـه من المهـاجرين مـاصنعت بهم قريش من أذى وتشريـد ومـاستـولت عليـه من دورهم وأمـلاكهم وأمـوالهم ، وتشـاوروا في أمر هـذه العير والاستيلاء عليها ومقاتلة أهلها وقـال بعضهم لبعض :« والله لئن تركتم القوم هـذه الليلـة ليـدخلُن الحرم وليمتنعن بـه ، ولئن قتلتمـوهم لنقتلنهم بـالشهر الحرام » . وترددوا ، وهـابوا الإقـدام لمكانـة الشهر الحرام ، ثم شجعـوا أنفسهم ، وأجمعـوا على ملاقاتهم ، ومقاتلتهم ، وأخذ مامعهم ، ونشبت المعركـة ، فقتل المسلمون رجلاً من أصحاب العير ، وأسروا اثنين وفر الباقون وحازوا الغنيمة .

وأقبل عبد الله بالعير والأسيرين حتى قدموا المدينـة على الرسول ، فلمـا رآهم أنكر عليهم مـافعلـوه ، وقـال : مـاأمرتكم بقتـال في الشهر الحرام ، ووقف العير والأسيرين ، وأبى أن يأخذ من ذلـك شيئـاً ، وأسقـط في يـد عبـد الله وأصحـابـه وعنفهم إخوانهم من المسلمين بما صنعوا ، وانتهزت قريش الفرصة ، فأثـارت ثـائرة الـدعـايـة ، ونـادت في كل مكان : إن محمـداً وأصحـابـه ، استحلوا الشهر الحرام ، وسفكوا فيه الدماء ، وأخذوا فيه الأموال وأسروا الرجال .

واغتنم اليهود هـذه الفرصـة ، فهبـوا يهـوّلـون الأمر ، ويعظمـون الجريمـة ، ويشعلـون نـار الفتنـة ، ويظهرون أنفسهم بمظهر الأتقيـاء المتـدينين ، ويبـدون أسفهم على انتهاك حرمة الأزمنة المقدسة ، وتعدي حدود الله .

وهنا أراد العليم الخبير سبحان وتعـالى أن ينفي الزيف ، ويزيح اللثـام عن هذا الزخرف الباطل ، والدعاية المغرضة التي لاترتكز على محاكمة عادلة ، ولاسنـد لها من النظر الصحيح . فأنزل هـذه الآيـة الكريمـة العظيمـة : ﴿ يسـألونـك عن الشهر الحرام قتال فيه ، قل قتال فيه كبير ، وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام وإخراج أهلـه منـه أكبر عنـد الله ، والفتنـة أكبر من القتل ، ولا يـزالـون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا ﴾ .

حينئـذ سُرِّيَ عن المسلمين بنزول القرآن ، وأشرقت نفـوسهم بـالبشر بهـذه المحاكمة العادلة ، وهذا الحكم المنصف .

وجدير بكل مسلم بل بكل إنسان يبغي الحقّ ، ويريـد النصفـة أن يتـأمل بهذه الحادثة وملابساتها ، وأن يمعن النظر جداً في الحكمة الإلهي الصادر في شأنهـا . فـالقرآن يجيب المشركين عن تسـاؤلهم عن القتـال في الشهر الحرام ، وأنـه من الكبـائر ، ويقرهم على أنـه أمر كبير . لكن هنـاك مـاهـو أكبر من هـذا الأمر ، فـالصـد عن سبيـل الله ، والكفر بـه أكبر إثمـاً وأعظم جرمـاً من القتـال في الشهر الحرام ، والمسجد الحرام وإخراج أهله منه ظلماً وعدواناً أكبر إثماً وأعظم جرماً من القتال والقتل في الشهر الحرام . وفتنة الرجل عن دينه بـالوعـد والوعيـد والإغراء والتعذيب كما كانوا يفعلون بأمثـال بلال وصهيب وعمـار كل هـذا أكبر إثمـاً وأعظم جرماً من القتال في الشهر الحرام وفي غير الشهر الحرام .

وقريش والمشركون ومن والاهم من اليهود الذين ينعون على المسلمين مـاقتلوا في الشهر الحرام هؤلاء جميعـاً لايـزالـون يقـاتلـون المسلمين ، ويحـاولـون ردهم عن دينهم إن استطاعوا ، فإذا كانت قريش ومن معها يرتكبون هذه الكبـائر والجرائم جميعاً ، فيصدون عن سبيل الله ، ويكفرون به ، ويشردون أهل المسجـد الحرام ، ويطردونهم من ديارهم وبيوتهم ، فلا جناح على المسلمين الـذين أوذوا بكل هـذا ، أن يقاتلوهم في الشهر الحرام وفي كل زمان ومكان ، إنما الكبيرة أن يقاتل في الشهر الحرام من لم يجترح من هذه الأوزار شيئاً .

وملخص مـافي الأمر أن الله سبحـانـه حكم بين أوليـائـه وأعـدائـه بـالعـدل والإنصاف ، ولم يبرئ أولياءه من ارتكاب الإثم بالقتـال في الشهر الحرام ، بل أخبر أنه كبير ، ولكنـه تعـالى أخبر أيضـاً أن مـايقترفـه المشركون ، ومـايرتكبونـه من جرائم أكبر وأعظم من مجرد القتـال في الشهر الحرام ، فهم أحـق بـالـذم ، وأجـدر بالعيب والعقوبة ، وإن هذا الـذنب الـذي بـدر من أوليـائـه يغفره لهم ، لأن لهم

عنده كثيراً من الطاعات والعبادات ، أهمها الإيمان به وحده لاشريك له ، والهجرة مع رسوله ، والجهاد في سبيله ، فهم كما قيل :

وإذا الحبيب أتى بذنب واحد   جاءت محاسنه بألف شفيع

فكيف يقاس هؤلاء المؤمنون مع كثرة قرباتهم وطاعاتهم بأولئك المشركين مع كثرة جرائمهم وفظيع كفرهم ؟!

ونحن نجد تماماً مايشابه هذه الحادثة في تاريخنا الحاضر مع الصهيونية المجرمة ، والاستعمار البغيض ، فهاهي إسرائيل تعتدي على الأمة العربية ، وتوالي جرائمها ووحشيتها في تشريد الآمنين ، وتدمير المساكن ، والعبث بالمقدسات ، أمام الأمم المتحدة وتحت سمعها وبصرها ، فإذا تحركت دولة عربية للدفاع عن نفسها ، وصد العدوان ، صاحت إسرائيل وولولت ، واستنجدت بحليفتيها أمريكا وبريطانيا وأعولت ، وتهب هاتان الدولتان لنصرة ربيبتها المدللة بالسلاح من جهة ، وبالمحافل الدولية من جهة أخرى ، ويضللون على الرأي العام ويلبسون صائحين : إن الدول العربية خرقت الهدنة ، خالفت شروط وقف القتال ، هتكت حرمة القانون الدولي ... وهكذا يصورون الدول العربية بصورة المعتدية المتمردة ، وينسون أو يتناسون تلك الجرائم الحمراء التي يندى لها جبين الإنسانية ، ويهتز من فظاعتها الضمير الحر ، تلك الجرائم التي ترتكبها إسرائيل بمساعدة هذه الدول المستعمرة بل وبتحريضها .

أيها المسلمون ، أيها العرب ، إذا قالت لكم إسرائيل وحلفاؤها : إنكم خرقتم الهدنة ، وانتهكتم ميثاق وقف القتال ، فقولوا لهم : إنكم قد سخرتم بالأمم المتحدة كلها ، وهزئتم بقراراتها بأجمعها ، وضربتم بكل العهود والمواثيق عرض الحائط ، أفلا يحق لنا بل يجب علينا أن ننتصر لحقنا المهضوم ، وأرضنا المغتصبة وشعبنا المشرد .

أيها المسلمون ، أيها العرب ، إن الحق واضح ، والأمر بين ، ولن يرد هذا الحق لأهله ، ويعيده لأصحابه إلا القوة ، ولن تكون القوة إلا بجمع الكلمة ، ووحدة الصف والاعتصام بالله ، وهذه هي الحقيقة التي أرشدنا إليها القرآن الكريم بقوله : ﴿ واعتصموا بحبل الله جميعاً ولاتفرقوا ﴾ فحينئذ تنتصرون على إسرائيل ومَنْ وراء إسرائيل ومالنصر إلا من عند الله .

☆ ☆ ☆

من فظائع الصهيونية

قال تعالى في كتابه العزيز : ﴿ وإذ تَأَذَّنَ ربك ليبعثن عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب ، إن ربك لسريع العقاب ، وإنه لغفور رحيم ﴾ . [الأعراف / ١٦٧]

هذه آية كريمة نزلت بعد عدد من الآيات في ذكر فضائح اليهود ، وقبائحهم ، وجرائمهم التي ارتكبوها مع الله ورسله ، بمخالفة أمر الله عز وجل وبقتل الأنبياء وتعذيبهم والاستهزاء بهم .

فإن الله عز وجل كان يأمرهم فلا يأتمرون ، وينهاهم فلا ينتهون ، وأحياناً كانوا يسلكون مع الله تعالى طريق التحايل والمخادعة ، وهو سبحانه لايخفى عليه شيء مما يسرون وما يعلنون .

يتضح تحايلهم الخبيث ، ومكرهم السيئ فيما فعلوه يوم السبت ، حيث حرم الله عليهم الصيد أيْ صيد السمك يوم السبت ، فجعلوا يضعون الشباك في البحر قبل يوم السبت ، حتى إذا كان يوم السبت امتلأت من السمك فإذا دخل الليل أخذوها بعد انقضاء يوم السبت .

أو يفتحون بركاً ويسحبون إليها الماء من البحر يوم السبت ، ويتدفق السمك مع الماء الداخل إلى البركة ثم إذا كان الليل وانقضى يوم السبت سدوا طريق البركة الذي يصلها في البحر ، فيبقى السمك محصوراً فيها فيأخذونه في اليوم الثاني .

وقد رويت حالة أخرى من احتيالهم على الله ، وهي أنهم كانوا يصطادون السمك بالفعل يوم السبت ولكنهم لايأكلونه فيه بل في غيره من الأيام ، ويزعمون أنهم نهوا عن أكل السمك يوم السبت لا عن صيده .

أما إجرامهم مع الأنبياء الكرام ، فإنهم كانوا يخالفون أوامرهم ، ويسخرون بهم ، ويؤذونهم ثم بعد ذلك كله يقتلونهم قتلا أليماً وحشياً تقشعر له الأبدان ، وتنهلع لهوله القلوب ، كما فعلوا بزكريا عليه السلام حيث اختبأ منهم في جوف شجرة ، فنشروها ونشروه معها ، وقد ذكر أصحاب السير أنهم قتلوا سبعين نبيّاً في يوم واحد .

لذلك غضب الله عليهم ، ولعنهم ، وجعل منهم القردة والخنازير ، وعبدة الطاغوت ومزقهم شر ممزق ، وفرقهم فرقاً مبعثرة في كل جزء من أجزاء الأرض ، وأي قطر يسكنونه يعيثون فيه فساداً ، ومكراً وخديعة ليسيطروا على ثرواته ، ويملكوا اقتصادياته .

ولكن لعنة الله لاتزال تلاحقهم ، وغضبه لايزال منصباً عليهم ، وهذه الآية التي افتتحت بها حديثي أكبر دليل على ذلك ، ومن أصدق من الله حديثاً ؟

﴿ وإذ تأذن ربك ﴾ أي حَتَّمَ وحَكَم ﴿ ليبعثن عليهم ﴾ أي على اليهود ﴿ إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب ﴾ بسبب عصيانهم ومخالفتهم أوامر الله وشرعه ، واحتيالهم على المحارم ، وقد حقق الله هذه الآية فيما مضى إذ بعث الله تعالى عليهم بعد سليمان عليه السلام ، بختنصر ملك بابل ، فخرب ديارهم ، وقتل مقاتلتهم ، وسبى نساءهم وذراريهم ، وضرب الجزية على من بقي منهم ، وأجلى كثيراً منهم إلى بابل قصبة مملكته ، فأقاموا فيها سبعين سنة ، بالأسر والذل والخدمة والتسخير ، فقد كان البابليون يستعملونهم لأغراضهم كالدواب .

ثم تسلط الرومانيون عليهم بعد ذلك ، وتتابعت عليهم ملوك شتى وظلوا

متفرقين في البلاد وسيتحقق حكم الله فيهم في الآية الكريمة في الحاضر والمستقبل ، إن شاء الله ، وسيبعث عليهم من يسومهم سوء العذاب ، ولن يكون المبعوث عليهم في هذه الآونة إلا العرب والمسلمون ، وسيلقنونهم بحول الله وقوته درساً لاينسونه ، بل سيكون في هذا الدرس نهايتهم واضمحلالهم ، فلن تقوم لهم قائمة ، ولن يرتفع لهم صوت ، ولن تغني عنهم حيلهم ، ومخادعاتهم ، ومكرهم من الحق شيئاً .

وإذا مرت عليهم ظروف ، اقتضت فيها مصالح الدول المستعمرة أن تساعدها ، وتعضدها ، وتحاول أن تركزها ، وتجعل لها كياناً في قلب الأمة العربية والإسلامية ، فإن ذلك لم يتم أبداً ، وستجد إسرائيل في القريب العاجل ، إن شاء الله ، عاقبة مغامراتها ومقامراتها ، ﴿ وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون ﴾ .

ولتحضنها أمريكا ، ولتدعمها في مجلس الأمن ، وفي هيئة الأمم ، وفي كل المحافل الدولية ، ولتمدها بالطائرات ، والدبابات ، والمدمرات ، فلن يكون مصيرها إلا كمصير المدمرة إيلات ، غرقاً في قاع البحر ، أوقطعاً ملتهبة في الأرض ، أو ذرات متطايرة في الفضاء .

أيها العرب ، أيها المسلمون ، إنكم البعث الإلهي الأخير الذي سيقضي على هذه الشراذم ويفهمها أنها في خيال وغرور ، حينما تعتقد أن لها دولة مرموقة ، وقوة مهابة .

أيها العرب ، أيها المسلمون ، أفهموا إسرائيل وأعوان إسرائيل أن النكسة التي أصابتنا ، ماهي إلا ابتلاء من الله ليعلم ماعندنا من إيمان وصدق وصبر ، وأن النكسة التي تعرض للأمة الحية ذات التاريخ المجيد كأمتنا العربية ، لن تدعوها إلى الضعف والاستكانة والاستسلام ، بل إنها تزيدها قوة وثباتا وصموداً وتجدد فيها روح النضال والكفاح .

أيها العرب ، أيها المسلمون ، لقد اتضح الأمر ، وظهرت نوايا المستعمرين وأصبح في حكم اليقين أن أمريكا تريد بسط نفوذها على الشرق الأوسط ، باسم إسرائيل ، وعن طريق إسرائيل ، وما أشبه إسرائيل بسمار جحا الذي يبتدئ مسماراً في الحائط ، وينتهي مفتاحاً في الباب .

أيها العرب ، أيها المسلمون ، إن الأمر جد ، والمعركة خطيرة ، فهي معركة فناء أو بقاء ، ويجب أن نعلم أن معركتنا مع يهود العالم أجمع الذين يبذلون لجيش إسرائيل كل مايستطيعون من مال وعتاد ، ويسخرون لمناصرتها كثيراً من القادة والزعماء في مجلس الأمن والجمعية العامة للأمم المتحدة ، فينقاد هؤلاء الزعماء والقادة لرغبات اليهود ليحققوا مصالحهم الخاصة التي يأملونها عندهم .

أيها المسلمون ، ثقوا بوعد ربكم ، وكونوا أنتم البعث الإلهي الذي يسلطه الله عليهم فيسومهم سوء العذاب ، ويردهم إلى الذلة والمسكنة التي ضربها الله عليهم ، وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين .

☆ ☆ ☆

أبو محجن الثقفي

الشاعر الفارس

إن من النفوس نفوساً جبلت على الخير ، وطبعت على الشهامة والنجدة ، وانطوت على كرم النفس ، وعزة المقصد ، ولكن هذه الخصال السامية قد تكمن أحياناً ، وتستتر بما يحيط بها ، ويستولي على ظهورها ، من شهوات حسية ، ونزوات نفسية ، إلا أن كمونها هذا لايلبث أن ينبعث ، وتندفع هذه المزايا الحميدة قوية جبارة ، تشق طريقها في الحياة ، وتصقل النفس مما علق بها من أدران وهنات ، وتبرهن أن كريم المحتد ، طيب العنصر ، لايضيره أن يرتكس في حمأة الإثم ، ويهوي في معترك الحياة . وقديماً قيل :« إن لكل جواد كبوة ، ولكل سيف نبوة » .

والإنسان فوق هذه الأرض ، معرض للأخطار النفسية ، وما عصم من ذلك إلا الأنبياء ، الذين حملوا رسالة الله تعالى إلى البشر ، أولئك وحدهم تفضل الله عليهم بالعصمة وحفظهم من الارتكاس في الإثم ، وماأحسن ماقيل :

من ذا الذي ماساء قط ومن له الحسنى فقط

وماأحسن ماأجيب :

ذاك محمد الذي عليه جبريل هبط

من هؤلاء الذين انطوت نفوسهم على خصال شريفة سامية ، هذا الشاعر

الفارس العربي الذي نترجم له ، وهو « أبو محجن عبد الله بن حبيب بن عمرو الثقفي » .

وهو من المخضرمين الذين أدركوا الجاهلية والإسلام ، وكان فارساً شجاعاً ، معدوداً من أولي البأس والنجدة ، غير أنه كان من المعاقرين للخمر ، المحدودين في شربها ، وقد أدرك هذا الشاعر خلافة سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، ومعلوم أن عمر كان قوياً في دين الله ، لا يتساهل في شيء من الحدود ، ولو كان على أقرب الناس منه ، لذلك أقام عليه الحد مراراً ، وهو لا ينتهي ، وكلما حُدَّ عاد ، فضاق عمر به ذرعاً فنفاه إلى جزيرة في البحر يقال لها : « حضوضي » كانت العرب تنفي إليها خلعاءها وبعث معه حرسياً يسمى ابن جهراء ، ورجلاً آخر ، وأثناء الطريق ، وعلى مقربة من الساحل هرب « أبو محجن » منهما ، ولحق بسعد بن أبي وقاص في العراق ، وكانت الحرب إذ ذاك قد اضطرمت نارها ، واشتد أوارها بين العرب والفرس ، وكان سعد الأمير المطاع ، والقائد العام ، الذي هيأته الأقدار ليدك عرش الطاغية ، ويحطم التاج ، ويعيد لصنائع كسرى إباءهم ومجدهم .

ولما تخلص أبو محجن من حرسه ، وانطلق في الصحراء ، تنفس الصعداء ، ثم أنشد يقول :

الحمد لله نجاني وخلصني	من ابن جهراء والبوصي[1] قد حبسا
من يَجْشم البحر والبوصي مركبه	إلى حَضَوْضي فبئس المركب التمسا
أبلغ لديك أبا حفص مغلغلةً[2]	عبد الإله إذا ما غار أو جلسا
أني أكر على الأولى إذا فزعوا	يوماً وأحبس تحت الراية الفرسا
أغشى الهياج وتغشاني مضاعفة	من الحديد إذا ما بعضهم خنسا

(١) البوصي : نوع من السفن

(٢) مغلغلة : رسالة

فهو في أبياته هذه يحمد الله الذي نجاه ، ويرغب في أن يعلم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أن هذا الذي نقم عليه ، ونفاه شجاع يغشى الهيجاء ، ويخوض المعركة ، ويصول في الميدان غير هياب ولا وجل ، ويكر على الأبطال ، عندما يحمى الوطيس ، ويتقاعس الفرسان من هول مايرون ، فهو في مثل هذه اللحظات الحاسمة البطل المعلم ولابد أن يحتاج إليه قومه ، ليشد أزرهم ، ويحقق نصرهم .

☆وفي الليلة الظلماء يفتقد البدر☆

وقبل أن يصل أبو محجن إلى سعد ، سبقه كتاب من أمير المؤمنين عمر بن الخطاب يطلب فيه من سعد أن يلقي القبض فوراً على أبي محجن ، وأن يودعه السجن .

ولما وصل فاجأه سعد بهذه المفاجأة ، وبدأ يوجه إليه بعض اللوم في شربه الخمر ، وخروجه عن طاعة أمير المؤمنين ، وشرع أبو محجن يدافع عن نفسه ، وينفي التهمة التي وجهت إليه فيقول :

تصدر الحكم لم تر الرأي فيه ... وتولي الأحكام في الآفاق
أي ظلم أشد من تهمة المسـ ... ـلم في دينه وفي الأخلاق
قد نصرت الإسلام في موطن نلـ ... ـت فيه رضى الخلاق
وقبست الأخلاق من أكرم النا ... س وأوفاهم على الإطلاق
صحبتي للرسول فخر على الدهـ ... ـر وعن كل مايشين وثاقي

فيقول له سعد كيف تنكر شربها ، وشعرك شاهد عليك أنك مولع بها ، حريص عليها ألست أنت الذي يقول :

إذا مت فادفني إلى جنب كرمة ... تروي عظامي بعد موتي عروقها
ولا تدفنني بالفلاة فإنني ... أخاف إذا ما مت ألاَّ أذوقها

فيجيبه أبو محجن : هذه خيالات شاعر ، وذكريات تراءت لي في زمان بعيد على أن الله عز وجل أخبر أن الشعراء ﴿ يقولون مالا يفعلون ﴾ ، وإذا كنت مولعاً بها قبل الإسلام ، فإنني اليوم بعيد عنها :

أنـــــــا لاأشرب خمراً ليست الخمر شرابي
كنت قبـل اليـوم أُسقـا هـا وأسقيهـا صحـابي
ذاك عصر الجهـل يـا سعـ ـد زمـان العصبيـهْ
يـوم كان النـاس غرقى في بحـار الـوثنيـهْ

ولكن سعداً ـ رغم هذا الدفاع ـ أمر بحبسه ، نزولاً عند رغبة أمير المؤمنين ، فأدخل السجن ، وكبل بالقيود .

واحتدمت المعركة بين العرب والفرس على أشدها ، وكان السجن قريباً من المعركة ، وسمع أبو محجن هتاف الأبطال ، وزئير الفرسان ، وصليل السيوف ، وقعقعة الرماح ، فثارت نفسه ، وتوثبت شجاعته ، وأسف كل الأسف ، ألاَّ يشارك قومه في هذه المعركة الحاسمة ، وتمر « سلمى » امرأة سعد ، أمام السجن ويراها أبو محجن فيتوسل إليها بلين ولطف ، ويقول لها : هل لك إلى خير ؟ فتقول وما ذاك ؟ فيقول : تخلين عني وتعيرينني البلقاء : (فرس سعد) كي أخوض المعركة ، فإن قتلت استرحتم مني ، وإن سلمت لك عليَّ عهد الله أن أرجع إليك حتى تضعي رجلي في قيدي ، وترددت أول الأمر ، وخشيت غضب سعد ، وجعل أبو محجن يتأوه منشداً :

كفى حزناً أن تلتقي الخيل في الوغى وأترك مشدوداً عليَّ وثاقيا
إذا قمت عناني الحديد وغُلقت مصاريع من دوني تصم المناديا
وقد شف جسمي أنني كل شارق أعالج كبْلاً مصمتاً قد برانيا

حبيساً عن الحرب العوان وقد بدت وإعمال غيري يوم ذاك العواليا[1]

فلما سمعت امرأة سعد منه ذلك ، ورأت شدة تحمسه ، وقوة اندفاعه ، تحققت صدقه ، وأيقنت فيه الخير ، وتأملت أن يبلي بلاءً حسناً ، وأن يكون النصر على يديه ، فأطلقته من القيد ، وأعطته فرس سعد ، وزودته ببعض السلاح ، وقالت له : « اذكر ماأعطيتني من عهد ، وسر على بركة الله » .

واندفع أبو محجن إلى قلب المعركة ، وجعل يصول ويجول ، يهدّ الأبطال بسيفه هدّاً لا يميل نحو فرقة من فرق جيش « يزدجرد » ملك الفرس إلا دحرها ، وفرقها ، ومزقها .

لفت أبو محجن بشجاعته وإقدامه أنظار المقاتلين ، والقواد ، ولكنهم لم يعرفوه آنذاك ، وأعجب القائد العام سعد بن أبي وقاص ، بهذا البطل أشد الإعجاب ، وقد كان القائد يشرف على المعركة ويسيرها ببلاغاته وأوامره ، ويفكر سعد : من يكون هذا البطل ، ويحدق بطعناته ، ويتأمل في ضرباته فيقول : « الضبر ضبر البلقاء . والضرب ضرب أبي محجن ، ولولا أنه في السجن لقلت : إنه هو » .

وقبل غروب شمس ذلك اليوم نفسه ، غربت شمس يزدجرد ، وتحطم القصرة ، وسلب التاج واندحر التحكم والطغيان ليحل محله العدل والإخاء والمساواة ، وانتصر العرب على أكبر دولة في الأرض ...

وبعد أن انتهت المعركة بهذا النصر المبين ، أقبل أبو محجن حتى دخل السجن ، وأعاد رجليه في القيد وعاد سعد يسأل ويستقصي ليتعرف على « فارس

---

(١) العوالي : الرماح

(٢) الضبر : ضبر الفرس هو جمع قوائمها ووثبها .

المعركة » المجهول ، فلم يقف له على حقيقته ، وهنا وجدت امرأة سعد الفرصة سانحة ، لتطلع القائد على هذه المعلومات المجهولة ، وما تكاد تنتهي من حديثها لسعد عما كان من أمر أبي محجن حتى يأمر بإخراجه من السجن ، وإحضاره مكرماً ، ويجيء ، أبو محجن ويستقبله سعد بما يستقبل به البطل الكريم . ويثني عليه بما هو أهله ، ويكبر الجميع جنوداً وقادة ، هذه الشجاعة النادرة ، والمروءة الموفورة ، والوفاء المر ، من عربي أصيل !!

☆ ☆ ☆

حقوق الإنسان

مع إشراقة هذا اليوم تستثير الإنسان ذكرى محببة لقلب كل إنسان ، تهز جوانبه فرحاً ، وتملأ نفسه سعادة ويشعر باحترام وجوده في هذه الأرض ، تلك هي « ذكرى حقوق الإنسان » .

هذه الذكرى العظيمة التي تتفاخر أمم بوضعها ، وتتبجح أمم بالسبق إليها ، هذه الذكرى التي من شأنها أن تبعث في قلب كل إنسان البهجة والاغتباط ولكن مع الأسف الشديد ، إنها ـ ولاسيا في مثل هذه الظروف ـ تبعث الحزن والألم والحقد ، ذلك لأن حقوق هذ الإنسان إنما كتبت كتابة ، وأحصيت مواد وبنوداً ، وسجلت في سجلات الأمم المتحدة ، وظل معناها سجيناً في هذه السجلات ، لا يرى الهواء ، ولا يبصر النور ، وظلت ملايين من هذا الإنسان مهضومة ، مظلومة ، تطالب بهذه الحقوق ، فلا تجد ملبياً ، وتندب حظها فلا تجد مواسياً .

بل لقد وصلت التعاسة بهذا الإنسان الملون ، أن وجد من يمنعه من المطالبة بحقه ، ويكبت صوته بالقوة والقهر ، والحديد والنار ، إن هو أصر على أن يجعل نفسه في عداد الإنسان الذي له ما للإنسان من حقوق ، نعم إن هذه الذكرى تمر بالألم والحسرة ، حيث لاتزال الأيام القليلة الماضية من هذا الشهر تذكرنا بحادث اغتيال الزعيم الزنجي الدكتور مارتن لوثر كنغ .

لماذا اغتيل هذا الإنسان ، في قلب الولايات المتحدة التي تزعم أنها من أرقى الأمم مدينة ، وإنها واضعة حقوق الإنسان ، والمحترمة لهذه الحقوق ، إنه لم يكن هناك سبب لاغتياله سوى أنه يصيح بأنه وأمثاله من بني جنسه ، كل واحد منهم

إنسان ، وكل واحد منهم يجب أن يتمتع بكل ماللإنسان من حقوق ، غير أن هذه الأمم التي تدّعي المدنية ، تنكر عليه إنسانيته ، وتترفع عن أن تجلس معه على طعام ، أو تشاركه في دراسة ، أو تصاحبه في عمل ، أو تساكنه في بناء .!!

أين هي حقوق الإنسان ؟ ومن هو أول مقرر لحقوق الإنسان ؟ ومن هو الذي طبقها فعلاً وعملاً ، وسعدت الإنسانية في ظلها قروناً ، وذاقت حلاوة هذه الحقوق ولمست أثرها المشرق الوضاء .؟

إنه يجب علينا وعلى كل منصف أن يقول الحقيقة التي يشهد بها التاريخ وتعترف بها الدنيا ، يجب علينا أن نقول بكل فخر واعتزاز :« إن أول من وضع حقوق الإنسان ، هو رحمة العالمين ورسول الإنسانية ، ومنقذ العرب ، محمد عليه الصلاة والسلام » .

صلى الله وسلم عليك ياسيدي يارسول الله . أنت الذي كنت فقيراً فلم تعبس للحياة ، وكنت يتيماً فلم تشك في الله ، وكنت حاكماً فلم تستعبد الرعية .

صلى الله وسلم عليك ياسيدي يارسول الله . أنت الذي أعطيت كل شيء : الملك الضخم ، والمال الذي لايحصى ، والجاه الذي لايحد ، والسيادة التي لاتبلى ، ولكنك لم تأخذ شيئاً ، ولم تكتنز شيئاً ، لأن الدنيا لم تكن فوقك لتبسط إليها أكف الضراعة ، وإنما كانت تحت قدميك ، فواسيت فيها المنكوب ، والبائس فأصبحوا بك سعداء .

صلى الله وسلم عليك ياسيدي يارسول الله ، أنت الذي تعبدت في الجبل ، فنزلت عليك من السماء ، ومشيت في الصحراء فنبتت فيها الغصون الخضر ، وشاع في جنباتها الخير والطهر .

التحيات المباركات الطيبات لك ياسيدي يارسول الله ، أنت الذي صنعت العرب ، وجعلتهم خير أمة أخرجت للناس ، كانوا قبائل فجعلتهم دولة ، كانوا

متخاصمين فجعلتهم أحبة ، كان بأسهم بينهم فنزعت الأحقاد من قلوبهم ، وصرفت فضل قواهم إلى جهاد العدو الأجنبي ، كانوا يدينون لرؤساء مختلفين فأخضعتهم أنت لرئاسة واحدة وجعلتهم أسرة واحدة كبيرة ، نشرت تعاليمك السامية في الشرق والغرب ، وركز قوادك الذين تخرجوا من مدرستك ، ركزوا رايتك على أكثر المعمور .

أنت الذي يجب أن يحييك كل إنسان في ذكرى حقوق الإنسان ، لأنك أنت الذي وضعتها وحققتها قبل أربعة عشر قرنا من الوثيقة المكتوبة فقط في سجلات الأمم المتحدة .

...تقول وثيقة « إعلان حقوق الإنسان » في المادة الأولى منها : « يولد جميع الناس أحراراً ، متساوين في الكرامة والحقوق ، وقد وهبوا عقلاً وضميراً ، وعليهم أن يعامل بعضهم بعضاً بروح الإخاء » .

إن وثيقة إعلان حقوق الإنسان تنص على هذه الكلمات الحلوة الجميلة ، ولكن أين أثر هذه الكلمات ؟ وأين مضمون هذه الوثيقة ؟ أين الحرية والمساواة في إفريقية ، وأين الحرية والمساواة في الفيتنام ، وأين الحرية والمساواة في الولايات المتحدة نفسها ، وأين الحرية والمساواة في فلسطين المحتلة .. أين الحرية والمساواة ..؟؟!

أين أنت ياسيدي يارسول الله ؟ من لنا بقائد حكيم مقدام مثلك يجمع شمل هذه الأمم التي ديست كرامتها ، وامتهنت حقوقها ، ويبعث فيها العزة والقوة لتحطم الظالمين ، وتصد المعتدين ، وتوقف غطرسة المتغطرسين .

تحية لك ياسيدي يارسول الله : ألست أنت الذي تقول :« الناس سواسية كأسنان المشط » « إن ربكم واحد ، وإن أباكم واحد . ألا لافضل لعربي على عجمي ، ولا لعجمي على عربي ، ولا لأحمر على أسود ، ولا لأسود على أحمر إلا

بـالتقـوى » ، ﴿ إن أكرمكم عنـد الله أتقـاكم ﴾ ألست أنت الـذي غضبت على صاحبـك أبي ذر أشـد الغضب حين قـال : لزنجي : يـابن السوداء . غضبت منـه وجعلت تقـول :« طف الصـاع طف الصـاع » ، تهـول الأمر وتـؤنبـهُ ثم قلت له :« ليس لابن البيضاء على ابن السوداء فضل إلا بالتقوى أو بعمل صالح » حتى نـدم أبو ذر أشـد النـدم ، ووضع خـده على الأرض وقـال للزنجي : « قم فطَـأْ على خدي » تكفيراً لذنبه .

أيها القراء الأكارم ، إليكم هذا الحديث يفصح عن المسـاواة التي طبقهـا رسول الإسلام .

روى الطبراني عن ابن عمر رضي الله عنهما :« أن رجـلاً جـاء من الحبشـة إلى النبي ﷺ ، فقال : يارسول الله فُضلتم علينا بـالألوان والنبوة ، أفرأيت إن آمنت بمثل ماآمنت به ، وعملت بمثل ماعملت به إني لكائن معك في الجنة ؟ فقـال رسول الله : نعم ... ثم قال الحبشي : يارسول الله ، وهل ترى عيني في الجنة مثل مـاترى عينك ، فقال النبي : نعم . فبكى الحبشي حتى فاضت نفسـه ، قـال ابن عمر راوي الحديث : فأنا رأيت رسول الله يدليه في حفرته » .

وبعد فـأنت ، يـارسول الله ، من تستحق تحيـة كل إنسـان في ذكرى حقوق الإنسان .

☆ ☆ ☆

مكر وخديعة

كلما تـأزمت الخطوب ، وادلهمت الحوادث ، وحيكت المؤامرات على أمتنـا العربية والإسلامية ، نجد في ماضينا الزاهر ، وفي تاريخنا الصحيح المشرق مايماثل حاضرنا ، ويشابه واقعنا في كثير من الأحداث والظروف ، وعلى ضوء هـذا وذاك يجب أن نأخذ العبرة ، ونهتدي إلى سواء السبيل .

وفي القرآن الكريم ، وهو كتاب محمد الخالـد ، ومعجزتـه الـدائمـة المتجـددة ، نصوص واضحة لاتقبل الشك ولايرتـاب فيهـا إلا المكابرون والجـاحـدون ، هـذه النصوص تثبت أن اليهود أصحاب مكر وخديعـة ، ولف ودوران ونقض للمواثيق والعهود في سبيل المادة والمصلحة الخاصة .

وإذا كان هناك مغرضون يشككون في النصوص التـاريخيـة ، فـإن مـاذكره عنهم القرآن الكريم ، هو كما قلت أثبت حجة ، وأنصع برهان ، وأوضح دليل .

أيها القـارئ الكريم ، تعـال معي إلى سـورة الحشر من كتـاب الله العظيم نستعرض ماأثبتته من حقائق وما سجلته على اليهود من خزي وعار ، وماأوضحته من حقيقتهم الوضيعة ، وخلقهم الجبان .

هذه السورة نزلت في فرقة من اليهود يقال لها بنو النضير ، نزلوا على مقربـة من المدينة ، ينتظرون بعثـة النبي محـمد عليـه الصلاة والسلام ليؤمنوا بـه وليتبعوا دينه ، فلما بعث حسدوه وانقلبوا أعداء له .

وحين هاجر النبي إلى المدينة عقد معـاهـدة صلح مع بني النضير هؤلاء ، على

ألا يكونوا عليه ولا معه . فلما كانت غزوة بدر وانتصر الرسول على المشركين ، قالوا : هو النبي الذي نعتته التوراة : لاترد له راية ، فلما كانت أحد وأصيب المسلمون ، ظهر الحقد الكامن في نفوسهم ، ونقضوا العهد ، وركب زعيمهم كعب بن الأشرف في أربعين راكباً من اليهود ، فأتوا قريشاً فحالفوهم ، وعاهدوهم على أن يكونوا معهم على حرب رسول الله ... هاهي الصهيونية المجرمة الأثيمة ، وهذه نتف من تاريخها ، فهي كما غدرت بالأمس ونقضت عهدها مع زعيم العرب وقائدهم محمد رسول الله ، تنقض اليوم كل العهود الدولية ، ولاتقيم وزناً لقرارات المنظمات العامة الكبرى ، وهي كما حالفت بالأمس المشركين والمنافقين ، والانتهازيين والنفعيين ، تحالف اليوم المستعمرين ، وتنفذ خططهم ومؤامراتهم على الأمة العربية والإسلامية ، ولكن ماذا كان موقف الرسول القائد منهم عامة ، ومن زعيمهم الغادر كعب بن الأشرف .

أما موقف الرسول منهم جميعاً فإنه بعد أن ظهرت له مؤامراتهم وغدرهم ، أمرهم بالخروج من بلاده وأرضه ، ولما علم المنافقون بذلك حرضوهم على قتال المسلمين ، ووعدوهم بأن ينصروهم ويقاتلوا معهم ، واغتر أعداء الله بوعد المنافقين ، وأعلنوا العصيان لأمر الرسول ، فأخذ المسلمون السلاح وقاتلوهم عشرين ليلة وهم من وراء حصونهم وآطامهم ، ولكن رغم هذه الحصون المنيعة فقد ألقى الله الرعب في قلوبهم ، فاستسلموا ونزلوا على أمر القائد محمد عليه السلام ، ولم يستطع المنافقون الذين وعدوهم بالنصر أن يقوموا بأي عمل يشد من أزرهم ، فخذلوا جميعاً ، وأعز الله تعالى رسوله والمؤمنين ، وطهر الأرض من رجسهم وغدرهم .

تتلخص هذه الحوادث كلها بهذه الآيات الكريمة من سورة الحشر وهي قوله تعالى :

﴿ ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب :

لئن أخرجتم لنخرجن معكم ، ولا نطيع فيكم أحداً أبداً . وإن قوتلتم لننصرنكم ، والله يشهد إنهم لكاذبون ، لئن أخرجوا لايخرجون معهم ، ولئن قوتلوا لاينصرونهم ، ولئن نصروهم ليولُنَّ الأدبار . ثم لاينصرون . لأنتم أشد رهبة في صدورهم من الله ، ذلك بأنهم قوم لايفقهون ، لايقاتلونكم جميعاً إلا في قُرىً محصنة ، أو من وراء جدر . بأسهم بينهم شديد تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى ، ذلك بأنهم قوم لايعقلون ﴾ .

أيها القراء الأعزة ، هل استمعتم إلى هذه الأوصاف للغادرين والمنافقين ، وأذنابهم وأتباعهم بل هل تأملتم جيداً ، في قوله تعالى : ﴿ لأنتم أشد رهبة في صدورهم من الله ﴾ .؟

إنه وصف حقيقي صادق تظهره المعارك والوقائع اليوم ، كما أظهرته بالأمس ، فإن المعروف غن هؤلاء الصهاينة أنهم لايثبتون أمام العرب وجهاً لوجه في ساحات النضال ، وميادين الموت ، إن قلوبهم تنخلع رعباً وخوفاً ورهبة من المسلم العربي ، فلا يستطيعون أن يقاتلوا إلا متوارين عن الأنظار بالطائرات والدبابات ، وصدق الله إذ يقول :﴿ لأنتم أشد رهبة في صدورهم من الله ،.. لايقاتلونكم جميعاً إلا في قرى محصنة أو من وراء جدر ﴾ .

أيها المسلمون ، أيها العرب ، إذا كان المستعمرون يمدون الصهاينة بالطائرات والدبابات ، فإن لديكم من الإيمان وتأييد الله مايجعلكم تلهبونها عليهم ناراً ليكونوا هم الوقود .

أيها المسلمون ، أيها العرب ، إن خصومكم اليوم هم حفدة أولئك الخائنين ، فأدبوهم كما أدبهم أسلافكم ، ولقنوهم درساً يربط حاضرهم بماضيهم .

☆ ☆ ☆

غزوة ذات الرقاع

أخرج البخاري عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال :« خرجنا مع رسول الله ﷺ في غزاة ، ونحن ستة نفر ، بيننا بعير نعتقبه ، فنقبت أقدامنا ، ونقبت قدماي ، وسقطت أظفاري ، فكنا نلف على أقدامنا الخرق ، فسميت غزوة ذات الرقاع ، لما كنا نعصب من الخرق على أرجلنا .» .

... يبرز هذا الحديث ماكان يلقاه المسلمون الأولون من مشقة وجهد ، في سبيل نشر الإسلام وإعلاء كلمة الله ، وتأييد رسوله الكريم ، والتضحية معه إلى حد الفناء .

وفي سيرة النبي الكريم محمد صلوات الله وسلامه عليه ، غزوة من غزواته التي سار فيها بنفسه يقود الجيش ، ويتحمل معه آلام السفر ، ووعثاء الطريق ، وبعد الشقة .

يحدثنا عن هذه الغزوة أحد جنود محمد المخلصين ، وهو الصحابي الجليل أبو موسى الأشعري فيقول : خرجنا مع النبي في غزوة ، وليس معنا كثير من الرواحل ، فقد اختص كل ستة من الجيش ببعير واحد يعتقبونه ، أي يركب هذا قليلاً ، ويركب الآخر قليلاً ، وهكذا ، فكان أكثر سيرهم على الأقدام مع الحفاء فوق الحجارة في طريق من طرق نجد الوعرة ، حتى نقبت أقدامهم ، وتألمت أرجلهم بعد فناء أحذيتهم ، فصاروا يلفون الخرق على أرجلهم لتقيها وخز الحجارة ، وخشونة الرمال ، ويزيد أبو موسى إخباراً عن نفسه بأنه سقطت

أظفاره ، وازداد ألمه ، وأن هذه الغزوة سميت غزوة ذات الرقاع لعصبهم الخرق على أرجلهم .

وسبب هذه الغزوة كما جاء في سيرة ابن هشام وغيره ؛ أن رسول الله ﷺ بعد بدر الآخرة التي أعادت للمسلمين هيبتهم ، وأعلت من شوكتهم أمام أعدائهم بعد حوادث أحد ، مكث في المدينة مطمئناً إلى نصر الله ، حذِراً دائماً غدر العدو ، باثاً عيونه في كل النواحي وإنه لكذلك إذ اتصل به أن بعض القبائل في نجد يجمعون له يريدون حربه ، ويعتزمون مهاجمته في المدينة ذاتها . وكانت خطة الرسول القائد الحربية أن يأخذ عدوه على غرة ، قبل أن يعد العدة لدفعه . لذلك خرج في أربعمئة من جنوده الأشاوس وسار نحو الأعداء ، فلما رأوه طلع عليهم في عدة حربه مهاجماً مساكنهم ، ومتحدياً لهم رغم تجمعهم وكثرتهم ، انخلعت قلوبهم ، وطاشت أحلامهم ، وانفرط عقدهم ، وتفرقوا تاركين وراءهم نساءهم ومتاعهم ، فغنم المسلمون كثيراً من عُدتهم وأسلحتهم ، وعادوا بالظفر والفوز ، شاكرين لله أن أيدهم بنصره ، وأمدهم بعونه ، وأرغم أنوف أعدائهم الذين كانوا يكيدون لهم ، ويمكرون بهم ، فجعل الله كيدهم في نحرهم ، وانقلبوا صاغرين .

...هكذا كان عمل الرسول القائد ﷺ ، عزم لاتزعزعه الشدائد ، وحزم لايتردد في النائبات وهكذا كان صبر جنوده معه ، ومصابرتهم عند رقة الحال ، وشظف العيش ، فلقد كان جهادهم مزدوجاً ؛ جهاد للأعداء بالسيف والسنان ، وجهاد لتجهم الحياة وشدتها بالقناعة والرضا والاطمئنان .

وقد كانت غزوة أحد وما وقع فيها من أحداث ابتلاءً مراً ، وتمحيصاً دقيقاً لمدى إيمان المؤمنين ، وصدق المجاهدين ، وقد أظهرت الأحداث التي أعقبتها صدق الجنود ، جنود محمد عليه السلام ، في نضالهم وجلادهم .

إن التاريخ يروي لنا أن قريشاً بعد أن خيل لها أنها انتصرت في أحد ، وقف زعيمها أبو سفيان يقول : « يوم بيوم بدر ، والموعد العام المقبل » ففطن الرسول الكريم لمقالته ، وأدرك أن القوم استفزهم الغرور ، فحفظ هذا الموعد وأذن مؤذنه في المسلمين صبيحة اليوم الثاني من يوم أحد ، واستنفرهم لمطاردته ، ولم يتردد جنود محمد عن المسارعة لتلبية دعوته ـ على مابهم من جهد وقَرح ـ وبلغ أبا سفيان ماصنع محمد وأصحابه ، وأنهم جادون في طلبهم ، فأسرع نحو مكة بعد أن تزعزعت همته ، وآثر أن يحتفظ بقليل من النصر ، حذراً من أن يقع في الخذلان والخسران .

ورجع الرسول القائد وأصحابه بعزة وشمم بعد أن بلغهم أن القوم يمموا مكة مسرعين .

وهكذا أظهر النبي الكريم لمن حوله من الأعداء والمنافقين ، أن ماحصل في أحد لم يزدهم إلا ثباتاً ونضالاً ، وأن الأحداث والنكسات لاتزيد الأمة الحية إلا صموداً وكفاحاً ، وأن العاقبة للمؤمنين الصابرين .

وإتماما لهذا الموقف البطولي الصامد ، وبعد أن استدار العام منذ أحد ذكر محمد عليه السلام قولة أبي سفيان : « يوم بيوم بدر والموعد العام المقبل » ، فدعا المسلمين مرة أخرى للقاء المشركين في بدر ، وكان العام عام جدْب وشدة ، فبدا من بعض المنافقين والذين في قلوبهم مرض تثاقل عن الخروج ، وينزل على الرسول الكريم قول الله عز وجل : ﴿ وقاتل في سبيل الله لاتكلف إلا نفسك وحرض المؤمنين ﴾ . ويطلق الرسول كلمته المدوية القوية ، التي قضت على كل تردد وتثاقل فيقول :« والله لأخرجن إليهم ولو وحدي » إذَنْ فلم يبق بعد هذه الغضبة العظيمة إلا أن يذوب كل تردد ، ويزول كل خوف ، فأسرع المسلمون إلى سلاحهم ، وانضموا جميعاً إلى المعسكر ، ترفرف على رؤوسهم راية الرسول القائد ،

ممتثلين الأمر مستعدين للنضال ، ويسير القائد بهم إلى مكان الوعد منتظراً قدوم العدو ، متهيئاً للقتال .

ولكن المشركين بقيادة أبي سفيان يبلغهم مرة أخرى ماصنع محمد وأصحابه ، وأنهم سبقوهم إلى بدر ، وأنهم قد استعدوا للقتال ، ماكاد يبلغهم ذلك حتى خارت قواهم ، وقدروا ماقد يكون من نتائج سيئة تحطم كيانهم ، وتقضي على مكانتهم بين العرب . فآثروا الرجوع إلى مكة ، ورضوا من الغنيمة بالإياب . ومثل هذا الحزم في القيادة ، والإخلاص في الجند ، كفيل بتحقيق النصر والتغلب على العدو .

☆ ☆ ☆

الحسن البصري

أخي القارئ الكريم اعتدت أن أقدم لك نماذج عليا من سير بعض أصحاب رسول الله ﷺ ، ولقائل أن يقول : أين نحن من أولئك الذين سعدوا بصحبة النبي ، وفازوا بالنظر إلى وجهه المشرق ، ونعمت أسماعهم بكلماته الحلوة الجذابة ، التي تنبعث من قلب طاهر ملئ علما ونوراً وهدى ، فيكون لها أثرها العميق في كل نفس مستعدة لقبول الهدى والحق ؟!.

لهذا كان أصحاب الرسول الكريم على مستوى رفيع من الهدى البين ، والخلق الكريم ، فمحاولة الوصول إلى مستواهم قد تبدو صعبة المنال .

إذا كان لقائل أن يقول هذا فأنا اليوم أعرض عليك أنموذجاً لرجل ليس بصحابي ، ثم أترك لك الحكم فيما سمعت .

إنه رجل شهدت له الدنيا بأنه من ربانيّي هذه الأمة ، وفقهائها العاملين ، ونصحائها المجاهدين ، وعلمائها الراسخين ، من تبحر من كل علم ، وتفوق في كل فن ، الزاهد الورع ، العابد المخلص ، حليف الخوف والحزن ، أليف الهم والشجن ، عديم النوم والوسن .

أيها القارئ الكريم ، هل عرفت من هذا الذي جمع كريم الخلال ، وحظي بعظيم الفعال ؟

إنه الحسن البصري سيد التابعين ، وقدوة السالكين ، من أخلص لله إخلاصا جعل الحكمة تنضح من قلبه ولسانه ، والبيان الخارق يتفجر من نطقه وبيانه ،

والحق يسطع في ثنايا حجته وبرهانه ، فيزيل الرين عن قلوب طالما ألح عليها المرض فكاد يفتك بها ، ويشرق في نفوس طالما عثا فيها ظلام الغفلة والغرور فحجبها ، إنه الحسن البصري أكثر التابعين عظاً ، وأشدهم تأثيراً .

ولد هذا الإمام الجليل في السنة الحادية والعشرين في أواخر خلافة عمر رضي الله عنه ، وعاش تسعين سنة ، وكان معاصراً للإمام ابن سيرين ، ومما يجدر ذكره أن رجلاً جاء إلى ابن سيرين - وكان مشهوراً في تفسير الرؤيا - فقال له : إني رأيت رؤيا أرغب في أن أقصها عليك لتفسرها لي . قال ابن سيرين قل : فقال الرجل : « رأيت كأن طائراً أخذ أحسن حصاة في المسجد » . فأجاب ابن سيرين : إن صدقت رؤياك مات الحسن البصري ، فلم يكن إلا القليل حتى مات الحسن .

... أخي القارئ الكريم ، يخيل إلي أنك أصبحت في لهف زائد لتقف على المزيد من أخبار هذا الرجل وصفاته ، إذن فسأترك الكلام إلى أبي حيان التوحيدي ، يذكر لنا طائفة من شمائل هذا التابعي الجليل ، يقول أبو حيان : « كان الحسن البصري من دراري النجوم علماً وتقوى ، وزهداً وورعاً ، وعفة ورقة وتألّهاً ، وفقهاً ومعرفة ، وفصاحة ونصاحة ، مواعظه تصل إلى القلوب ، وألفاظه تلتبس بالعقول ، وماأعرف له ثانياً ، ولا قريباً مدانياً ، كان منظره وفق مخبره ، وعلانيته في وزن سريرته ، عاش تسعين سنة لم يعرف بمقالة شنعاء ، ولم يتهم بريبة ولا فحشاء ، سليم الدين ، نقي الأديمة ، يجمع مجلسه ضروباً من الناس ، لما يوسعهم من بيانه ، ويفيض عليهم بافتتانه هذا يأخذ عنه الحديث ، وهذا يلقّن منه التأويل ، وهذا يسمح منه الحلال والحرام ، وهذا يتبعه في كلامه ، وهذا يجرد له المقالة ، وهذا يحكي له الفتيا ، وهذا يتعلم الحكم والقضاء ، وهو في جميع هذا كالبحر العجاج تدفقاً ، وكالسراج الوهاج تألقا ، ولا تنس مواقفه ومشاهده في الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، عند الأمراء ،

وأشباه الأمراء ، بالكلام الفصل ، واللفظ الجزل ، والصدر الرحب ، يجلس تحت كرسيه قتادة صاحب التفسير ، وعمرو وواصل صاحبا الكلام ، وابن أبي إسحاق صاحب النحو ، وفرقد السنجي صاحب الرقائق ، وأشباه هؤلاء ونظراؤهم ، فمن ذا مثله ، ومن ذا يجري مجراه » .

وقد وصفه بعضهم فقال : كان الحسن دائم الخوف ، متواصل الأحزان ، كثير البكاء والنحيب ، كأنه ثكلى فقدت ذويها القائمين على أمرها كله ، من رآه قال : قد صب على هذا حزن الخلائق ، قال عبد الواحد بن زيد : كان والله إذا أقبل فكأنه رجع من دفن حميه ، وإذا أدبر كأن النار فوق رأسه .

على أن الذي ينبغي أن ينبه إليه ، أن هذا الرجل في زهده ونسكه وبكائه وخوفه لم يكن فظاً ولا غليظاً ولا قاسياً ولا منفراً ، بل كان لطيفاً ظريفاً ، يظهر سماحة الإسلام بما يسع النفوس ، ويترخص بما لا يقنط الناس من رحمة الله .

وكان يخالط الناس ، ويخاطبهم على قدر عقولهم ، وله مع الفرزدق الشاعر محادثات لطيفة ، جعلته يكثر التردد على حلقته ويسير خلفه في كثير من المناسبات . حتى كانت توبة الفرزدق على يده ، وقد سجل الفرزدق ذلك في شعره الذي يقول فيه :

ألم ترني عاهدت ربي وإنني لبين رتاج قائماً ومقام
على حلفة لأشتم الدهر مسلماً ولا خارجاً من فيَّ زور كلام
أطعتك ياإبليس تسعين حجة فلما قضى عمري وتم تمامي
رجعت إلى ربي وأيقنت أنني ملاق لأيام الحتوف حمامي

كما يظهر تأثر الفرزدق بوعظ الحسن ونصائحه ، واضحاً جلياً في هذه الأبيات التالية :

أخـــاف وراء القبر إن لم يعـــافني — أشـد من المـوت التهـابـاً وأضيقـــا
إذا جـاءني يـوم القيـامـة قـــائـــد — عنيف وسـواق يسـوق الفرزدقـــا
لقد خـاب من أولاد آدم من مشى — إلى النـار مغلـول القـلادة أزرقـا
يقـــاد إلى نـــار الجحيم مسربـلا — سرابيـــل قطران لبـــاسا محرقـــا

وكان الحسن يخـالـط أربـاب النحل والأديـان على اختـلافهم ، ويـؤدي لهم حقوقهم كالمسلمين ، وفي أخباره أنه عزّى نصرانيـاً في أخيـه بعبـارات كلهـا دقـة في رقة ، وأدب إسلامي شريف .

ومن طرائفه التي تدل على بلاغة مع ظرف أنه دخل على أمه وفي يدها كراثة تأكلها فقال لها : ياأماه ألقي هذه البقلة الخبيثة من يدك فقـالـت : يـابني ، إنـك شيخ قد كبرت وخرفت ، فقال : ياأماه أيُّنا أكبر ؟!

ومن جرأته وبيانه مافعلـه مع الحجـاج ، فقـد روى المؤرخون : أن الحجـاج بنى داراً بواسـط وأعجب بهـا ، فـأمر بـإحضـار الحسن ليراهـا ، فلمـا حضر الحسن ودخل الدار ، قال : الحمـد لله . إن الملوك ليرون لأنفسهم عزاً ، وإنـا لنرى لهم في كل يوم عبراً ، يعمد أحدهم إلى قصر فيشيـده ، وإلى فرش فينجـده ، وإلى ملابس ومراكب فيحسنهـا ، ثم يحف بـه ذبـاب طمـع ، وفراش نـار ، وأصحـاب سـوء ، فيقول : انظروا ماذا صنعت ؟

لقد رأينا أيها المغرور فكان مـاذا يـاأفسق الفـاسقين ؟ أمـا أهل السماء فقـد لعنوك . وأمـا أهل الأرض فقـد مقتوك ، بنيت دار الفنـاء وخربت دار البقـاء ، وغررت في دار الغرور ، لتـذل في دار الحبـور ، ثم خرج وهـو يقـول : إن الله سبحانه قد أخذ على العلماء عهده ليبيننـه للنـاس ولا يكتمونـه ، فلم يسع الحجـاج إلا أن يخضع لقوله ، ويؤخذ ببيانه .

قال صاحب العقد : لم يكن بالبصرة أفصح لساناً ، ولاأظهر جمالاً من الحسن البصري .. وقد سمعته عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها يتكلم فقالت : من هذا الذي يتكلم بكلام الصديقين ، وحسبه شهادة الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز حين سئل من وليت قضاء البصرة فقال : سيد التابعين الحسن البصري .

☆ ☆ ☆

ويحكم هبوا

إن الحوادث الجسام التي تمر بالأمة الحية لن تضعف شأنها ، ولن تبيد عزمها ، ولن تكون سبباً في استكانتها وخضوعها ، بل إن هذه الحوادث تبعث فيها العناد والإصرار ، وتزيدها صموداً وإقداماً وتضحية .. وهكذا يريد الله تعالى من عباده المؤمنين أن يكونوا دائماً في موضع العزة والعظمة والمجد ، وهكذا ينهاهم عند الشدائد أن يستكينوا ويستيئسوا ، يقول تعالى :﴿ ولاتهنوا ولاتحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين ﴾ . ويمتدح سبحانه وتعالى المجاهدين الصابرين الصامدين بقوله : ﴿ فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين ، وماكان قولهم إلا أن قالوا : ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين ، فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة والله يحب المحسنين ﴾ .

من هنا كان المؤمن قوياً لايضعف ، شديداً بحقه لايلين ، مناضلاً لايكل ، وهو بين أمرين إما أن يحفظ أرضه ، ويطهر مقدساته ، ويصون كرامته ، فيعيش عزيزاً كريماً ، ناصع الجبين مرفوع الرأس ، وإما أن يموت شهيداً في سبيل هذه الغايات المقدسة ، ليترك لمن بعده إتمام رسالته ، وتنفيذ مهمته ، وربما كانت الثانية وهي الاستشهاد في سبيل الله ، وفي سبيل الدفاع عن أرضه ومقدساته ، أحب إليه من الأولى . والله تعالى يقول : ﴿ ولئن قتلتم في سبيل الله أو متم لمغفرة من الله ورحمة خير مما يجمعون . ولئن متم أو قتلتم لإلى الله تحشرون ﴾ فتكونون بذلك قد استوجبتم كرامته ورضوانه فيجعلكم في أعلى فراديس الجنان .

أيها المسلمون ، أيها العرب ، إن أمتنا اليوم تمر بمحنة شديدة قاسية ، وإن التاريخ ليطل علينا من علياء سمائه وقد وضع قلمه بين أصابعه ليسجل على هذه الأمة ماهي صانعة ، أمام هذه الجرائم الصهيونية ، والتحديات السافرة التي من أهمها وقعاً ، وآلمها جرحاً ، إحراق المسجد الأقصى ، صنو المسجد الحرام ، أولى القبلتين ، وثالث الحرمين الشريفين مهد عيسى ، ومسرى محمد عليهما السلام ، مهبط الملائكة ، ومجمع الرسل .

إن أمتنا اليوم مدعوة بأمر الله ، مدعوة بنداء التاريخ ، مدعوة بوخز الضمير ، مدعوة باستصراخ العزة والكرامة مدعوة بكل ذلك لأن تهب بكل ماتستطيع من عزم وتصميم ، وتضحية وبذل وإقدام ، لتلبي أمر الله حيث يقول : ﴿ ياأيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة ﴾ ، وماأبدع ماتدل عليه هذه الكلمة ﴿ وليجدوا فيكم غلظة ﴾ إنها تدعو المؤمن لأن يظهر أمام عدوه في ميادين القتال سبعاً ضارياً ، وجبلاً أشم تتحطم على صموده كل قوى العدو وآلياته .

﴿ وليجدوا فيكم غلظة ﴾ وماأجدرنا اليوم أن نحقق أمر الله لننتصر على هذه الصهيونية المجرمة ، لنرضي الله ، ونسر التاريخ ونطمئن الضمير ، ونلجئ المعتدين الآثمين إلى أن يقولوا ماقال آباؤهم من قبل : ﴿ إن فيها قوماً جبارين ﴾ .

أيها المسلمون ، أيها العرب ، إنه لابد لنا لكي نستعيد كرامتنا ، ونطهر أرضنا ، وننقذ مقدساتنا ـ لابد لنا من أن نقدم للمعركة كل غال ورخيص ، وأن نبذل كل مالدينا مما يقوي عزيمتنا ، ويحقق نصرنا ، ويستدعي رضاء ربنا ومعونته لنا .

أيها المسلمون ، أيها العرب ، إن الله تعالى لم يعذر أحداً في مثل هذه

الظروف العصيبة التي تمر بالأمة ، أن يتقاعس أو يتخلف ، استمعوا إلى ربكم حيث يستنفركم جميعاً وفي كل الأحوال فيقول : ﴿ انفروا خفافاً وثقالاً ، وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ذلكم خيرلكم إن كنتم تعلمون ﴾ .

أيها المؤمنون اعقلوا عن ربكم ، وتفهموا خطابه كما فهمه أبو طلحة ، فقد روي : أنه حين سمع هذه الآية : ﴿ انفروا ... ﴾ قال : ماأراني إلا خفيفاً أو ثقيلاً ، وأرى ربي يستنفرني شاباً وشيخاً ، جهزوني فقال له بنوه : قد غزوت مع رسول الله ومع أبي بكر وعمر فنحن نغزو عنك ، فأصر على الجهاد حتى نال الشهادة .

أيها المسلمون ، استجيبوا لنداء ربكم ، وأعدوا كل طاقاتكم . و﴿ إن تنصروا الله ينصركم ﴾ .

☆ ☆ ☆

النظام والإسلام

أول مظهر من مظاهر التقدم في أمة من الأمم ، نزوعها إلى النظام في أعمالها كلها ، وأول مظهر من مظاهر الضعف والتأخر ميلها إلى الفوضى ، ولا يشق المرء على نفسه في معرفة أبرز شيء في تكوين قوة الأمم ورفعة شأنها ، وسمو حضارتها ، فإنه النظام قبل كل شيء ، ومهما تحفل الأمة بعباقرة أذكياء ، وعلماء ثم تفقد روح النظام فليست على شيء .

فما هو النظام ، وماهي الفوضى ؟ النظام أن يضبط كل إنسان أعماله ، ويرسم لها خطة مستقيمة يسير عليها حياته ، مع التقيد بالعقل العام : عقل الجماعة .

أما الفوضى فهي أن يسير في أعمال حياته على غير هدى وكيفما اتفقت له ، لا يعرف ماذا سيعمل بعد ساعة ، ولا ينتهج في كسبه ولافي تربيته ، ولافي علمه نهجاً معيناً ، ويضيق ذرعاً بكل ترتيب وكل نظام ، ويكره أن يطالعه أحد بملاحظة على تنسيق ، أو يرسم له هدفاً واضحاً في طريق ، هذه هي الفوضى وذاك هو النظام .

فأما الذين يؤثرون في حياتهم الفوضى على النظام ، فأولئك الذين امتن الله عليهم بالعقل فأهملوه ، وعاثت بهم الأهواء ، تصرفهم حيث تشاء ، وما خلق الله العقل في الإنسان إلا ليميزه عن غيره من سائر الحيوان ، فمن لم يستعمل عقله في تنظيم أعماله ، والسير بها فقد نقصت غريزته بالخلق ، ونقص عقله بالتخلق ،

وإذا كان الله سبحانه وتعالى قد خلق هذا الكون على أبدع نظام وأدقه ، وربطه جميعاً بأسباب ومسببات ، فليس فيه مايسير إلا وفق قدر مقدور ، من أدق الذرات إلى أعظم الكواكب ؛ إذا كان الله تعالى قد خلق خلقه على هذا النسق من الإحكام والنظام ، فمن المستحيل أن يرسل رسله ، ويوحي بكتبه بما يناقض النظام في التكوين ، بل يجعله نظاماً تاماً في هذا الكون ، ونموذجاً ظاهراً يدل الناس على أن يسيروا في حياتهم على النظام . ولو أمعن الإنسان النظر إلى نفسه ، ورأى تركيب جسمه ، ودقة صنعه ، ثم فطن إلى النظام الدقيق الذي يجري فيه ، لحمله ذلك على تنظيم أعماله ، وعدم تركها نهباً للمصادفات .

ولقد أرسل الله تعالى رسله ليسيروا بقومهم على نحو منظم ، حتى في عبادة ربهم ، فالله سبحانه لايقبل عبادة عبده حتى تكون منظمة محكمة . فالصلاة مثلاً لها وقتها ، وفروضها وشروطها ، فإن أتى بها المتعبد قبل وقتها ولو بثوان ، أو نقصها فرضاً أو شرطاً لم تقبل منه ، ولو استغرق فيها المتعبد خاشعاً خاضعاً ، وإذا كان الجسم لايحيا إلا بالروح ، والروح لايسكن في جسم خلا من الرأس ، فروح العبادات الخشوع فيها ، ورأسها نظامها .

ويلاحظ النظام أيضاً في صلاة الجماعة ؛ يتقدم الإمام فيتبعه المؤتمون بحركات متناسقة ، وأعمال متناسبة ، وكم حض النبي ﷺ على تسوية الصفوف ، حتى قال :« إن الله لاينظر إلى الصف المعوج » .

وليس التنظيم في الصلاة وحدها ، إنما هو في كل مايمت إلى الدين بسبب ، من عبادات ومعاملات ومعتقدات . فإذا كان القانون ينظم تصرفات الإنسان الظاهرة ، فالتشريع الإلهي ينظم تصرفاته الظاهرة والباطنة ، فيدخل معه في النية تعقد ، والخطرة تخطر ، والفكرة تمر ، فيتعهد له ذلك كله وينظمه .

وهناك بعض الناس يشعرون بأن الأمر الذي يترك فوضى هو الذي تكون

فيه البركة ، مع أن البركـة والفوضى لايجتمعـان ، والإنسـان يشعر ببركـة العمر ، وبركة الزمن إذا وزع أوقـاتـه في أعمـالـه توزيعـاً عـادلاً ، وأنجز كل مهمـة لـه في وقتهـا ، وإذا ترك الأمور تعـالـج نفسهـا من غير ضـابـط ولانظـام فهنـاك محـق البركـة ، وضيـاع الوقت ، وتحكم الهوى ، فـالـدين والنظـام توءمـان ، ومـايكره الدين مثل الفوضى .

ألا فليعلم النـاس جميعـاً أن الـدين والعقـل يـأمران بـالنظـام ، وإذا كانت الحكومات تعنى بتوجيه النـاس وجهـة صحيحـة منظمـة ، في آدابهم ، وتربيتهم ، وعلمهم ، وتجارتهم ، فـإنمـا هي تسير على مقتضى مـايتطلبـه الـدين والعقل ، إذن فعلى المواطن أن يتعـاون مع الحكومـة في تطبيق النظـام في كل نـواحي الحيـاة ، ومأأحوجنا إلى النظام يدخل المساجد والمعابد والبيت والمدرسة والسوق والطرق والدوائر لنكون أمة جديرة بالاحترام تعتز بحاضرها كما تعتز بماضيها .

وإذا كان الإسلام ـ كما ذكرنا ـ حريصـاً كل الحرص على أن يسود النظـام في المجتمع فما ذلك إلا ليكون المجتمع قوياً متماسكاً يسير على هدى ونور .

ومن أهم الأمور التي تجعل المجتمع كذلك أن يكون سليمـاً من الأمراض والعلل حريصاً على الصحة والنظافة والطهارة .

لهذا نجد تعاليم الرسول ﷺ ، توضح لنا هذه النواحي فتأمر بالمحافظـة على الصحـة ، وتحض على الـوقـايـة خشيـة الـوقـوع في الأمراض والأسقـام ، كما تـأمر بالابتعاد عن المصابين بشيء من الأمراض السارية .

فقد ثبت في صحيح مسلم من حديث جـابر بن عبـد الله « أنـه كان في وفـد ثقيف رجل مجذوم ، فأرسل إليه النبي ﷺ : « ارجع فقد بايعناك» .

ومعنى هذا أن الرسول عليه السلام أراد أن يتفادى الوقوع في المرض ، وهـذا

مايقدره الأطباء اليوم من أن الوقاية خير من العلاج ، وبهذا نعلم أن الإسلام هو أول من وضع قانون الحجر الصحي ، وسبق به الطب الحديث ؛ (وفي ذلك يقول الرسول ﷺ : « إذا سمعتم بالطاعون في أرض فلا تدخلوها ، وإذا نزل وأنتم بأرض فلا تخرجوا منها » رواه أصحاب السنن كلهم) .

كما أن الإسلام وضع الحجر الصحي للحيوان ، وفي ذلك يقول النبي الكريم :« لايوردن ممرض على مصح » ، أي لايورد صاحب الإبل المريضة على صاحب الإبل السليمة فيعدي مريضها سليمها .

وإذا كانت الحكومات تعنى بهذه الأمور وتهتم بها حرصاً على سلامة المواطنين فإن واجب كل مواطن أن يساعد الحكومة على تحقيق رغبتها ، وتطبيق قوانينها التي تهدف إلى سلامة المواطن ، ونظافة المجتمع ، لأن المجتمع النظيف هو الذي تتاح له الفرصة للسير في مضمار الحياة ، والقيام بواجبه الإنساني ، عضواً في الهيئة الاجتماعية العامة .

وقد علم أصحاب الرسول ﷺ هذه الناحية من أمور دينهم ، وهدى نبيهم ، فكانوا يطبقونها تماماً في كل تقلباتهم في حياتهم .

وكان تطبيقها لديهم عاماً شاملاً للصغير والكبير والذكر والأنثى .

كان عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه ، يوزع بعض الأموال ، أو بعبارة أخرى ، يصرف رواتب الموظفين فازدحم عليه الناس ، وجعل بعضهم يدفع الناس يميناً وشمالاً ليشق طريقه إلى أمير المؤمنين محاولاً أن يجتاز دوره ، مدلاً بما له من مكانة وقرابة من رسول الله وبصر به على هذه الحال ، فخفقه بالدرة ، وأمره أن يعود إلى مكانه ، ويتمهل حتى يأتي دوره ، وقال له : لايغرنك قرابتك من رسول الله ، فإن الناس إنما يبلغون رضاء الله بصالح أعمالهم ، وبعظيم تقواهم .

رحم الله أمير المؤمنين عمر بن الخطاب فقد رسم لنا بهذه الحادثة أعظم توجيه لو سرنا عليه ، في دوائرنا ومؤسساتنا ، وكل أعمالنا لأرحنا واسترحنا .

المنة الكبرى بالرسول الأعظم

قال تعالى في سورة آل عمران : ﴿ لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ، وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين ﴾ .

أيها الإخوة المؤمنون ؛ حقاً إنها لمنة كبرى على المؤمنين ـ ولله دائماً وأبداً المن والفضل ـ نعم إنها منة كبرى بلغوا فيها من الرفقة التي لاتطاول ، والقوة التي لاتناضل ، والمجد الذي لايسامى ، غاية ليس وراءها زيادة لمستزيد ، ولا متناول لذي أمل مديد ، فقد تسوروا بتلك المنة الشرف الرفيع الذي يطل على مواطن الجهاد ويتصل بالجنة .

نعم لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم محمداً ﷺ رسولاً من أنفسهم عربياً مثلهم ، يحدثون فيفهمون ، ويوجههم فيوجهون ، وهم يعرفون صدقه وأمانته ، وفضله وطهارته ، ولو كان أعجمياً لما كان هذا التفاهم ، ولا ذلك التجاوب والاعتزاز .

إن الله سبحانه مَنّ في الحقيقة ببعثة محمد ﷺ على العرب ، وعلى العالم لا على المؤمنين وحدهم ، قال تعالى : ﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾ ، وقال مخاطباً رسوله الكريم : ﴿ إنه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون ﴾ ، قال ابن كثير في تفسيره : قيل معناه لشرف لك ولقومك ، قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة والسدي وابن زيد واختاره ابن جرير ولم يحك سواه .

أخي المؤمن ، هذا القرآن الكريم شرف لك في حياتك ، وقوة لك في نضالك ، وإسعاد لك في آخرتك ، وهدى لك في كل أحوالك . فهل تلوته كما كان يتلوه الرسول ، وهل تعلمته كما علمك إياه الرسول ؟

إن الرسول الذي منّ الله على المؤمنين ببعثته ، ما كان ليشغل الناس بالخوارق ، ولا ليبهرهم بالأعاجيب ، إنما كان ﴿ يتلو عليهم آياته ، ويزكيهم ، ويعلمهم الكتاب والحكمة ﴾ ليصلح نفوسهم ، ويهذب أخلاقهم ، ويبني مجتمعهم بناءً قوياً متيناً قوياً ، ويطهر عقائدهم من ضلالات الشرك ، وأوضار الجاهلية .

وقد آتى عمل الرسول هذا أكله سريعاً ، فطهر النفوس ، وصحح العقائد ، وأنار القلوب ، وإذا بالعرب المشركين الذين كانوا يقدسون الأصنام ، يهزؤون بهذه الأصنام ، ويسخرون من هذه الآلهة .

روى السهيلي عن بعض أهل السير : أن المغيرة بن شعبة قال لأبي سفيان حين هدم اللات ـ وهو صنم كان لثقيف تعظمه وتحترمه ـ : ألا أضحكك من ثقيف ؟ قال : بلى ، فأخذ المغيرة المعول وضرب اللات ضربة ، ثم صرخ وفر على وجهه ، فارتجت الطائف بالصياح سروراً بأن اللات قد صرعت المغيرة ، وأقبلوا يقولون : كيف رأيتها يا مغيرة ؟ دونكها إن استطعت !! ألم تعلم أنها تهلك من عاداها ؟ عندئذ قام المغيرة يضحك منهم ، ويقول لهم : والله ماقصدت إلا الهزء بكم ، ثم أقبل على هدمها حتى استأصلها . كان ذلك من المغيرة وصحبه عندما استضاؤوا بالنور الجديد ، وتعلموا الكتاب والحكمة .

وشبيه بهذا ماروى عن الوليد بن عبد الملك ، رحمه الله ، حين أراد المسلمون هدم معبد وثني قديم ليبنوا مكانه مسجداً قال لهم الروم : إن الذي يهدم هذا المعبد يصاب بالجنون ، فتهيب المسلمون من هدمه ، فتقدم الوليد بن عبد الملك ، وقال :« أنا أول من يجن في سبيل الله » وأخذ الفأس وبدأ يهدم ، فتتابع المسلمون يهدمون ، فلم يصابوا بأذى ، وأكذب الله زعم الروم .

أيها المؤمنون لقد كان من أثر هذه التعـاليم النبويـة الكريمـة أن عرف المؤمن كيف يزن أعمـالـه بميزان تقوى الله ، فـالعـامل وفي ، والتـاجر نـاصح ، والـزارع مجد ، والبائع صادق ، والموظف أمين ، والمجاهـد مضح ومستبسل ، والعـالم مخلص وهكذا كل إنسان يقوم بهذه الحياة بأعماله على أكمل وجه واضعاً أمامـه هـذا الميزان الدقيق : ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ... ﴾ .

أيها القراء الأعزة ، وإذا كنا بصدد التحدث عن بعثة هـذا النبي الكريم فـإن من الوفاء له علينـا أن نتحـدث عن شخصيتـه الكريمـة التي تنطبع بطـابع الرجل المفكر البعيـد النظر في مختلف المجـالات ؛ فـإن للرسول الكريم صلـوات الله عليـه وسلامـه شخصيتين متميزتين : شخصيـة الرسول المبلغ عن الله عن طريق الوحي ، وشخصية الفقيه المجتهد المتبصر بـالأمور حسب مـايقتضيـه المقـام ، فعلى هـذا هو عليه السلام أول الفقهاء كما أنه خاتم الأنبياء .

فإليك أيها المستمع الكريم لمحة خاطفـة عمـا ورد عنـه ﷺ على هـذا الأسـاس الذي يجمع بين الرسول والفقيه : الرسول الذي يبلغ الوحي بأمانة ، والفقيه الذي يجتهد فيصيب .

فقد اجتهد ﷺ في الأمور الحربية ، واجتهد في الأمور الشرعية ، واجتهد في الأمور الدينوية .

سألته امرأة قـائلـة : يـارسول الله ، إن أبي قـد مـات ولم يحج فهل أحج عن أبي ؟ فأجـابهـا ﷺ : « أرأيت لو كان على أبيـك دين فقضيتـه ، أمـا كان يقبل منك » ؟ فقد أجابها بصحة حجها عن أبيها مع الإيضاح في ذكر المماثلة .

وحينما خرج مع أصحابه لقتال المشركين في بدر ، نزل منزلاً ، فقال له بعض أصحابه : يارسول الله ، أهذا منزل أنزلك الله إياه ، فليس لنـا أن نتقـدم عنـه أو

نتأخر ، أم هي الحرب والمكيدة ؟ فقال : « بل هي الحرب والمكيدة » . فقال إذن ليس هذا بمنزل ، وأشار عليه بمنزل آخر فاستحسن رأيه ، وعمل بإشارته .

ومن ذلك ماكان يصنعه ﷺ من التكتم في الأمور الحربية ، وفي الأوامر التي يصدرها لقواده حتى يصل إلى هدفه من غير أن يتنبه العدو لذلك .

وتعرف هذه الناحية في الحروب الحديثة بالأوامر المختومة التي تسلم إلى القواد ولا يسمح لهم بفتحها والاطلاع على مافيها إلا بعد مسيرة ساعات ، أو وصول إلى جهة معينة .

هذه الأوامر المختومة ليست بحديثة فقد عرفت في المأثورات النبوية على أتم أصولها التي تكون في أمثالها في الحروب الحديثة ؛ منها أنه بعث سرية ، وسلم القائد كتاباً أمره ألا ينظر فيه إلا بعد يومين ، وفحواه أن : « سر حتى تأتي بطن نخلة على اسم الله وبركاته ، ولاتكرهنّ أحداً من أصحابك على المسير معك ، وامض فيمن تبعك حتى تأتي بطن نخلة فترصد بها عيراً لقريش ، وتعلم لنا من أخبارهم » .

وهذه السرية كان يقصد الرسول من إرسالها إلى هذا المكان الذي حدده للقائد ، الاستطلاع والتعرف على أحوال العدو ، وخططهم واتجاهاتهم ، وهذه الناحية ناحية الاستطلاع لها أهميتها في الحروب الحديثة وقد قالوا : إن من أبرز القواد الحديثين الذين كانوا يعنون بناحية الاستطلاع ، ويهتمون بعدة الاستطلاع أكثر من التعبئة هو نابليون ، ولكن محمداً سبق نابليون وأمثاله في كل هذه المجالات فكان خير قدوة .

☆ ☆ ☆

يوم عرفة

أيها الأخوة الأعزة ، هـذا هو يوم عرفـة قـد انبلج فجره ، وأشرقت شمسـه ، وفـاحت من نسماتـه تلـك العطور المنعشـة التي تهـز القلـوب ، وتشرح الصـدور ، وتزيد في الإيمان .

وفي هذا الصباح الباكر بعد أن ذاقت الأجفان نومـاً قليلاً ، وطعم الوجـدان ليلاً جميلاً ، تشهد آلاف مؤلفة في بطاح عرفات المديـدة المشرقـة ـ فجراً مشهوداً ، ويوماً معدوداً ، بعد أن اهتزت أرجاء عرفة ، من قدسية أذانـه الخـاشع . حتى إذا متع النهار ، بانت الروعة ، وتجلت العظمة وامتدت أمام عينيك ـ لو قيد لك أن تكون هناك ـ امتدت أمام عينيـك عشرات الألوف من الخيـام تكسو أرض عرفـة حلة بيضاء مشرقة ، قد توافد أهلها بيضاً وسوداً ، عربـاً وعجماً من أقطـار الأرض ليشهـدوا منـافـع لهم ، ويـذكروا اسم الله على مـارزقهم ، ويشكروه على مـا يسر لهم .

في هذا اليوم تتوافد هذه الألوف إلى بطاح عرفه تلبية لمؤتمر الحج ، بل تلبيـة لدعوة الله عز وجل إلى هذا المؤتمر إنها دعوة صريحة ولكن بدون دعـايـة عريضـة وإعلانات ضخمة .

وأين أعظم مؤتمرات البشر بعـد إعـلانهم ودعـايتهم ، من هـذا المـؤتمر الإلهي العظيم ؟!

وأين ثمراتهـا الـدنيـويـة من ثمراتـه الإلهيـة في تربيـة النفـوس ، وريــاضــة الأخلاق ، وإعلاء الهمم ، وتقوية التعاون ، وعلاج المشكلات ، ومد الآمال .

إنـه مؤتمر يقصـده المؤمنون الصـادقون وهم يحملون أوزارهم ، فيعودون منـه وهم يحملـون أنـوارهم ، إنـــه مـؤتمر يقصـــده المـؤمنـــون وقـــد اكتنفهم من عيشهم ماااكتنفهم من غرور وطمع ، فيعودون وقد طهرهم حجهم ، فـإذا هم كيوم ولـدتهم أمهاتهم .

يقصـدونـه متفرقين ، فيجمعهم على رحـاب عرفـات ، وإذا هم متعـــارفـون متحـابون ، يرددون بين يـدي ربهم حيث دعـاهم هـذا النشيـد السحري الجميـل : « لبيك اللهم لبيك ، لبيك لاشريك لك لبيك ، إن الحمد والنعمـة لـك والملـك ، لاشريك لك » .

يرددون هذا النشيد بلسـان واحـد ، وقـد انتظمهم زي بسيـط موحـد ، زي يشعر بالمسـاواة العـامـة الشـاملـة ، فلا كبير في المؤتمر ولا صغير ، ولا تفـاوت في اللبـاس بين أمير وحقير ، ولاتمنـع رحمـة الله عن أحـد من هـذا الجمع الغفير ، بـل الرحمة عامة ، والمغفرة شاملة ، والفضل كبير .

روى أبو هريرة أن رسـول الله ﷺ قـال : « الحجـاج والعمار وفـد الله ، إن دعوه أجـابهم ، وإن استغفروه غفر لهم » رواه النسـائي وابن مـاجـة وابن خزيمـة وابن حبان .

أيها الأخوة القراء والأخوات ، هذا هو يوم عرفة ، هذه هو يوم التـاسع من ذي الحجـة هـذا هو يـوم الحـج الأكبر ، وغـدا ستشرق شمس يـوم العيـد الأكبر ، أرهفوا سمعكم ، واصغوا في قلوبكم تجدوا في جميع الأرجاء صـدى يردد هـذا النشيـد الذي هتفت به ملايين البشرية من عهد إبراهيم عليه السلام ، ويهتفون به اليوم ، وإلى يوم الدين إن شاء الله ، يعلنون به وحـدة العـابـدين أمـام وحـدة المعبود ، فيرتفع بهم إلى سماء التجرد عن المادة وظلمتها ، وعن النفس وطغيـانهـا ، يرتفع بهم عن الفوارق التي افتعلها الإنسان في موجات من الغفلة والشـذوذ ، وكانت ولاتزال

سبيل الطغيان والاستعلاء والاستكبار في الأرض بغير الحق ، سبيل التحاقد والتباغض ، وسيبل التسخير والاستعباد ، وأخيراً سبيل التخريب والتدمير ، وسيطرة القوي على الضعيف .

ماأروع هذا النشيد الذي تعج به الملايين في بطاح عرفات صبيحة هذا اليوم :

« لبيك اللهم لبيك ، لبيك لاشريك لك لبيك ، إن الحمد والنعمة لك والملك ، لاشريك لك » .

فحقيقة هذا النشيد اعتراف بعظمة الخالق وبقوته وسلطانه ، واعتراف بإنعامه وأفضاله : لبيك ربي لبيك : أنا الواقف ببابك ، المستمع لأوامرك ، المسارع لإجابتك ، المقيم على عهدك دون تحول أوتردد .

وأنت أنت الواحد الأحد الذي تلبي دعوته ، وتهرع النفوس إلى طاعته ، أنت رب النعمة التي لاتحصى ، والعزة التي لاتذل ، رب السلطان النافذ في الأرض والسماء .

أيها الإخوة والأخوات ، ماأروع هذا اليوم ، وما أعظم هذا الجمع ، وماأبدع هذا المؤتمر ، لقد اغتنم رسول الله محمد ﷺ هذا اليوم في حجة الوداع ، فأعلن على الدنيا دستوره القيم ملخصاً بكلمات قليلة ، مشتملة على معانٍ جليلة ، فيها سعادة البشرية وصلاحها .

وذلك حين خطب في عرفات خطبته الجامعة ، بصوته الجهوري ، الذي كان يردده من بعده ربيعة بن أمية ، ليسمع الناس جميعاً مايقوله الرسول ﷺ .

أخي المؤمن ، هذا يوم عرفة الذي أكمل الله به الدين ، وأتم به النعمة ،

وأنزل على رسوله فيه هذا القول الكريم : ﴿ ... اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا ﴾ .

فلنتمسك بهذا الدين ، ولنشكر على هذه النعمة ، ولنكن إخواناً متحابين ، متعاونين على البر والتقوى كما يريد الله منا أن نكون ، وهو المسؤول أن يوفقنا لذلك .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

☆ ☆ ☆

العهود والمواثيق

إن رقي الأمة ونهوضها وتقدمها ، يتوقف في الحقيقة على ماتتحلى به من أخلاق كريمة ، وصفات سامية ، وشيم عالية جامعة ، وبين الأخلاق العالية نواح هي أشد سمواً ، وأكثر نفعاً ، وأوثق للروابط الإنسانية بين أفراد البشر من هذه الأخلاق التي أشرت إليها « العهود والمواثيق » .

وإننا مهما استعرضنا تاريخ الأمم وشرائع الرسل ، فإننا لانجد شريعة أشد حرصا على الوفاء بالعهود والمواثيق من الشريعة الإسلامية المطهرة ، كما أننا لانجد في القادة ولا في السادة ، ولا في المصلحين ، إنسانا رفع من شأن العهود والمواثيق ، وطبقها فعلاً بأروع المثل في حياته السامية ، لانجد إنساناً فعل كل هذا كما فعله محمد ﷺ .

إننا لانكون مبالغين إذا قلنا : إن الدعوة الإسلامية قامت على هذا الأساس المتين الذي يوطد العلاقات بين الأفراد والجماعات ، وبين الأمم والشعوب ، وهو حفظ العهد ، ورعاية الميثاق .

إذن فلا عجب أن تصرخ الآيات القرآنية الحكيمة مدوية مجلجلة حاضّة على الوفاء ، مبينة مكانته . قال تعالى في سورة النحل : ﴿ وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ، ولاتنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً ، إن الله يعلم ماتفعلون ﴾ . وقال : ﴿ وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسؤولا ﴾ [الإسراء]

كما جاءت آيات كريمة تحذر من خيانة الميثاق ، ونقض العهد ، وتبين أن

ذلك ينزع الثقة ويثير الفوضى ، ويمزق الأواصر ، ويقضي على التعاون بين الأمم والشعوب التي ينبغي لها أن تعيش في أمان وتعاون على وجه هذه الأرض .

قال تعالى في سورة النحل : ﴿ ولاتكونوا كالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً ، تتخذون أيمانكم دخلا بينكم أن تكون أمة هي أربى من أمة .. ﴾ .

ومعنى هذه الآية الكريمة : أن الإسلام يحذر من أن تقوم العهود والمواثيق على الفساد والغش ، لكي تكون أمة هي أربى من أمة ، أي أكثر منها مالاً ورجالاً وقوة وصولة وأساطيل ، لتستعبد الأمة الضعيفة فيما بعد ، وتستولي على كدحها وخيراتها ، ونتاج أرضها .

وإذا كان تاريخ الإسلام ناصعاً مشرقاً يتلألأ بالصدق والوفاء ، فإن تاريخ الأمم المستعمرة اليوم مؤسف مخجل ؛ إذ أنهم يتخذون العهود والمواثيق طريقاً للوصول إلى أغراضهم لكي يكونوا أكثر من غيرهم عدة وسطوة في البر والبحر ، كما قال تعالى : ﴿ أن تكون أمة هي أربى من أمة ﴾ . فإذا وصلوا إلى هدفهم ضربوا بالمعاهدات عرض الحائط ، وكأنهم لم يفعلوا شيئاً .

أما رسول الله ﷺ فقد ضرب أروع الأمثال العملية التطبيقية في شؤونه الحياتية ، على رعاية المعاهدات والاهتمام بشأنها ، وعدم التحايل والالتواء لإبطالها والقضاء عليها .

كان يفاوض سهيل بن عمر رئيس وفد قريش في صلح الحديبية ، وقد تم الاتفاق على أن يرد المسلمون إلى قريش من جاءهم منهم مسلماً ، في هذه الأثناء قدم ابن سهيل المفاوض واسمه أبو جندل ، يرسف في الأغلال ، وقد فر من الأعداء الذين يمثلهم أبوه ويتفاوض مع الرسول باسمهم ، وكان هذا الابن ممن آمنوا بمحمد عليه السلام ، جاء أبو جندل وقد انفلت من أيدي المشركين الذين كانوا يسومونه سوء العذاب والتنكيل حتى يرجع إلى عبادة الأصنام ، جاء مستصرخاً

ضارعاً يعلن إسلامه ليخلصه المسلمون من أيـدي المشركين . فلمـا رأى سهيل ابنـه قام إليه ، وأخـذ بتلابيبـه ، وقـال : يـامحمـد ، هـذا أول العهـد ، وقـد فرغنـا من المناقشة قبل أن يأتيك هذا .

قال رسول الله ﷺ : صدقت خذه ، فصاح أبو جنـدل : يـامعشر المسلمين ، أأرد إلى المشركين يفتنونني في ديني ؟ ولكن ذلك لم يغن عنه شيئـاً ، ورده رسول الله وفقاً للشرط الذي اتفق عليه ، ولم يكن قد كتب . أفرأيتم ـ أيها النـاس ـ في تاريخ البشر مثلاً لرعاية المعاهدات والمحافظة على تنفيذ مفعول كلمة منهـا ، وإن كانت لم تكتب بعد ، كهذا الـذي فعلـه رسول الله في صلح الحـديبيـة ، على مرأى من خصومه ، وعلى كره من أنصاره وأصحابه .

وقد حرص أصحاب محمد من بعده على تطبيق الخطة التي سار عليها ، ودعـا إلى التمسك بها .

كتب عثمان رضي الله عنـه إلى عمـالـه وولاتـه عقب تـوليتـه الخـلافـة هـذا الكتـاب : « أمـا بعـد فـإن الله خلق الخلق بـالحق ، خـذوا الحق وأعطوا الحـق ، والأمانة الأمانة قوموا عليهـا لاتكونوا أول من يسلبهـا فتكونوا شركاء من بعـدكم ، الوفاء الوفاء لاتظلموا اليتيم ولا المعاهد فإن الله خصم من ظلمهم » .

والغرض الأسمى من المعاهدات الـدوليـة ، إنمـا هو إقـامـة العـدل ، وتحقيق المساواة بين جميع أفراد البشر على السواء ، وليس المراد منها استدامة حـالـة الغلب الذي نتج عن حرب اقتضاها العدوان بدوام الحرمان والإذلال للمغلوب ، وإضاعة حقه وامتهان كرامته ، لهذا كان للعهود والمواثيق التي تهدف إلى هذه الغاية النبيلة مكانةً هامة في تعاليم الإسلام .

ونظام العالم الذي يقوم على مثل هذه الروح ، وبعهود محفوظة نـافـذة ، هو نظام سلم حقيقة ، يستمر هادئاً مطمئناً ، وإذا قارنا بين المعاهدات الجدية النافذة

في عهد الرسول عليه السلام وخلفائه الراشدين ، وبين المعاهدات والأيمان والوثائق الدولية في عصرنا الحاضر ـ وجدنا بوناً شاسعاً ، وفرقاً كبيراً بين هذه وتلك .

إن المعاهدات اليوم عند الدول المستعمرة المستثمرة إنْ هي إلا أساليب للسيطرة على الشعوب الضعيفة وامتصاص دمائها ، واستراق خيرات بلادها : عهود تعقد لتنقض ، ووثائق تكتب لتمحى ، وأمم تتعالى على أمم ، وأقوام تتسامى على أقوام ، مما جعل السلم العالمي مهدداً بالخطر ، والمدينة معرضة للدمار ...

ولضمان السلم ، وتحقيق العدالة والمساواة ، كان القائد الأعظم محمد ﷺ ، شديد كل الشدة على الذين يستهينون بالمعاهدات ، وينقضون المواثيق بعد توكيدها ، ليعلن للعالم أنه كما جاء يدعو إلى الخير ، ويرغب بالفضيلة ، فإنه على استعداد لتأديب المنحرفين والخارجين على نظام الحق والعدل ، والمنغمسين في حمأة الخيانة والغدر ، وتاريخ النبي عليه الصلاة والسلام مع اليهود في المدينة شاهد صدق على كل ذلك .

فمن الثابت أن النبي أخرج بني النضير من جواره من المدينة ، وطردهم من أرضه ، لما ظهر غدرهم وخيانتهم ، بعد أن عقد بينه وبينهم معاهدة أمن وسلام حين مقدمه من مكة ، فداسوا العهود واستهانوا بالمواثيق فكان جزاؤهم الطرد والتشريد جزاء وفاقاً .

لقد ذهب الرسول نفسه لزيارة بني النضير هؤلاء في محلتهم ، ومعه بعض أصحابه ، وذهب إليهم يتألفهم ويفاوضهم في شأن من الشؤون ، فاغتنموا فرصة وجوده بينهم ، وصمموا على قتله ـ وهو ضيفهم وزائرهم !! وبينه وبينهم معاهدة سلم وحسن جوار ـ لولا أن الله تعالى أنزل عليه الوحي فأخبره بمؤامرتهم الدنيئة

الفاشلة ، فانسحب ﷺ ، وافتضح أمرهم وقد اكتفى الرسول بعقاب هؤلاء الخونة الغُدَر أن أجلاهم عن المدينة وطردهم من جواره .

أما إخوانهم بنو قريظة ـ قبيلة أخرى من اليهود ـ فقد كان كيدهم أعظم ، وغدرهم أشد ، فإنهم خانوا وطنهم أشد أنواع الخيانة وأعظمها جرما ، وفي الحقيقة لم يكن اليهود في الأصل من أبناء ذلك الوطن ، إنما نزحوا إليه حين أجلاهم الرومان وشردوهم ، فاستغلوا سذاجة العرب إذ ذاك ، وأخذوا يقرضونهم أموالهم بالربا الفاحش ، حتى أصبحوا فيه أصحاب الأموال ، واستولوا على كثير من أرضه الصالحة للزراعة ، وصار بأيديهم زمام التجارة والصناعة ، كما فعلوا ذلك ـ تماما ـ في فلسطين ، وبدؤوا يكيدون للمواطنين الأصليين ويحسدونهم على اتباعهم محمداً ، واعتناقهم الدين الجديد ، حيث أيقنوا أنه سيفضح مؤامراتهم ، ويقضي على غدرهم وخيانتهم .

وكانت غدرة هؤلاء الكبرى أنهم اغتنموا فرصة وجود الأحزاب حول المدينة ، ورأوا من كثرتهم وقوتهم وشدة عزمهم وتصميمهم على استئصال المسلمين ، ماجعلهم يستبشرون بهذا الهلاك المحقق للنبي وأصحابه ، لذلك وحينما كان المسلمون في موقف حرج جداً أمام جموع الأحزاب التي جاءتهم من مكة بقيادة أبي سفيان ، مالبث هؤلاء اليهود أن نقضوا العهد الذي بينهم وبين محمد ، وانضموا إلى صفوف الأعداء ، فزاد ذلك في خوف المسلمين وهلعهم حيث فتح هؤلاء اليهود ثغرة للعدو من ورائهم ، فأصبح المسلمون بين فكي الرحى ، ولكن الله تعالى تدارك المسلمين بلطفه ، وأيدهم بنصره ؛ فأرسل على أعدائهم ريحاً وجنوداً لم يروها ، ﴿ ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً ، وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قوياً عزيزاً ﴾ .

بقي هؤلاء الخونة بعد انسحاب الأحزاب حائرين في أمرهم ، وأسقط في

أيـديهم ، وارتقبوا عـاقبـة خيـانتهم وغـدرهم ، وكما قلت سـابقـاً : إن الرسول كان شديداً في تأديب المنحرفين عن الخلق الكريم بقدر ماكان يرغب ويـدعو إلى هـذا الخلق الكريم ، لذلك فقد رأى عليه السلام أن يُحكِّم في هؤلاء ـ بعـد أن أصبحوا في قبضته ـ رجلاً من حلفائهم هو « سعد بن معاذ » فأُحضِر سعدٌ ، وأخذ مجلسه ، وعلم المهمة التي جـاء من أجلهـا ، فـأراد أن يستوثق بـأن حكمـه سيكون نـافـذاً ، فالتفت إلى الجهة التي لم يكن النبي فيها فقال : عليكم عهد الله وميثاقـه أن الحكم كما حكمت ، قالوا : نعم . ثم التفت إلى الجهـة التي فيهـا رسول الله وهو غـاض طرفـه إجلالاً له ، وقال : وعلى من هنا كذلك . فقال النبي : نعم . فقال سعـد : « إنني أحكم فيهم أن تقتل الرجال ، وتقسم الأموال ، وتسبى الذراري والنساء » .

فلما حكم سعد بذلك قال لـه النبي : « لقـد حكمت فيهم بحكم الله يـاسعـد من فوق سبع سماواته » .

وهذا الحكم هو ماتقضي به كل الشرائع القـديمـة والحـديثـة فيمن ارتكب تلـك الخيانة العظمى ، فلا تأخـذهـا رأفـة بمن يرتكبهـا ، وقـد كان بنو قريظـة هؤلاء يريدون استئصال المسلمين ، فكان جزاؤهم وفاقـاً لجريمتهم النكراء ، حيث خـانوا الأرض التي يعيشـون عليهـا ويـأكلـون من خيرهـا ، كما خـانـوا دينهم ، ونقضـوا عهدهم ، وفضلوا الأصنام على دين محمد ﷺ ..

فيأأيهـا المسلمون ، ويـاأيهـا العرب ، إن التـاريخ يعيـد نفسـه ، وإن اليهود والصهيونية العالمية والاستعمار يتآمرون عليكم ، ويكيـدون لكم ، ويمكرون فيكم ، فخذوا حـذركم ، وأعـدوا عـدتكم ، واجمعوا صفوفكم ، وأخلصوا لله في أعمـالكم ، إنكم إن فعلتم ذلك سيؤيدكم الله بنصر من عنده ، وسينكص أعداؤكم بـالخيبـة والخسران والعزة لله ولرسوله وللمؤمنين .

من أحاديث الصيام

أيها المؤمنون هاهو شهر رمضان قد أقبل ، وهاهي لياليه الحلوة الجميلة قد عادت إلى النفوس المؤمنة . أجل عاد رمضان إلى المسلمين بعد عام قمري . فأهلا بك يا رمضان ، ومرحباً بك ياشهر القرآن . عاد رمضان مدرسة الروح والنفس والوجدان ، عاد رمضان موسم الخير والفضل والإحسان ، أقبل رمضان ميدان السباق في الرشد والهدى والإيمان ، عاد رمضان محك الرجولة والبطولة لأمة القرآن . عاد يحمل إليهم نور السماء ، وروح الملكوت ، ونسيم النبوة ، وبركة الرسالة ، وصفاء الملائكة ، وإخلاص الصديقين ، ويقين الصالحين .

مرحباً بك ياشهرنا العظيم لقد عدت إلينا لنعود إلى الرشد بعد الغفلة ، وإلى الهدى بعد الضلال ، وإلى السخاء بعد البخل ، وإلى الاجتماع بعد الشتات ، وإلى الاتحاد بعد التفرق . أجل لقد عاد رمضان بمدرسته الجامعة العلوية الكبرى جامعة الأمة بأسرها ، فهل يدخل المسلمون والمسلمات هذه الجامعة بشوق ولهف ، وهل يتابعون الدراسة فيها حتى النهاية ، ليروا كم يحصل لهم من الخير وحسن النتائج ؟

أيها المسلمون والمسلمات والمؤمنون والمؤمنات ، يامعشر الشباب والفتيات من أمة الإسلام ، قد زاركم شهر رمضان الذي تسمو فيه الأرواح ، وتصفو فيه النفوس ، وتطمئن فيه القلوب ، وتستنير فيه العقول ، وينعم فيه الوجدان .

زاركم شهر رمضان الذي فيه تشفى الأبدان ، وترتاح الأجسام ، وتطهر الأحشاء ، وتنظف الأمعاء ، الشهر الذي فيه التربية الصادقة ، والإرادة القوية ،

والصبر الجميل ، والرياضة الكاملة ، والأريحية والتضحية ، والبذل والإنفاق .

أيها الأخوة المؤمنون ، في رمضان كل هذه المعاني التي أشرت إليها ، وقد قرر العلم الحديث أن الصوم خير دواء وشفاء وعلاج ، وخير مظهر لروح الإنسان وبدنه ونفسه وإرادته .

وقبل أن يقرر العلم الحديث ذلك قرره رسول الإنسانية محمد ﷺ . أليس هو القائل : « صوموا تصحوا » . أليس هو القائل : « الصوم جنة » . ومعنى هذه الجملة القصيرة الموجزة : أن الصوم وقاية وستر وحجاب من الوقوع في النيران : نار الشهوات ونار الغضب ، ونار الحسد ، ونار التكبر ، ونار البخل ، ونار الجبن ، ونار جهنم . وإن شئت قلت : الصوم جَنة لمن صام إيمانا واحتساباً فهو في جنة الروح ، والصفاء ، والعلم والمعرفة ، والصدق والإخاء ، والأمانة والإرادة والقوة .

أخي المؤمن لقد قلت لك : إن رمضان مدرسة ، وأعظم بها من مدرسة ، من نجح فيها حاز سعادة الدارين ، وكان من الخالدين ؛ إذاً لابد لنا من تحديد المواد التي نعكف على دراستها ، ونجد في تحصيلها لنصل إلى الهدف الأسمى الذي من أجله فرض الصيام .

أخي المؤمن إليك هذه المواد ، احفظها أو اكتبها إذا أمكنك :

١ ـ أن تصوم إيمانا واحتسابا لله رب العالمين لارياء ولاكرها ولاحياء من الناس .

٢ ـ أن تقوم ليالي رمضان وتحييها بأي نوع من أنواع الطاعات والعبادات ، ولو أن تصلي التراويح والفجر مع الجماعة على الأقل .

٣ ـ أن تواظب على تلاوة القرآن بلسانك وقلبك مع التأمل والتدبر لآياته ومعانيه .

٤ ـ أن تحسن إلى أهلك وإخوانك وأرحامك وجيرانك وأصدقائك بالقول والفعل .

٥ ـ أن تبذل وتنفق ماستطعت على المعوزين والبائس .

٦ ـ أن تتجمل بالصبر والصفح والعفو عن كل من أساء إليك .

٧ ـ أن تجدد العهد مع الله وتعد نفسك للجهاد المقدس من أجل دحر المعتدين وتطهير الأرض المقدسة .

٨ ـ أن تعتبر نفسك دائماً وأبداً وفي كل لحظة جندياً من جنود الحق والإسلام لرفع راية السلام بين البشر جميعاً .

٩ ـ أن تذكر تلك الحوادث الكبرى التي وقعت في شهر رمضان ، كنزول القرآن ، وغزوة بدر ، وفتح مكة فتشكر الله على عظيم النعمة ، وعلى التأييد والنصر .

١٠ ـ أن تضرع إلى الله العلي القدير في الأسحار من هذه الليالي المباركة أن يتقبل الأعمال ، ويطهر القلوب ، ويجمع الكلمة ، ويمدنا بالعون والنصر والقوة .

أخي المؤمن ، إذا أنت نجحت في هذه المواد العشر حصلت على الشهادة العالية من الرسول ، والجائزة الكبرى من الله . وفزت بسعادة الدنيا ، ونعيم الآخرة .

أيها الأخوة المؤمنون ، والأخوات المؤمنات ، إن شهر رمضان مضمار المثقفين ، وميدان العاملين ، وموسم الخير للمجتهدين ، وفي آخر يوم من أيامه تعطى الجوائز للفائزين والشهادة للمتفوقين ، فاغتنموا هذا الموسم العظيم ، فقد فتحت أبواب الجنان وغلقت أبواب النيران ، وبسط الرحمن فضله وكرمه للسائلين والراغبين فسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها ...

الأيام العشر

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ :

« مامن أيام العمل الصالح فيهـا أحب إلى الله من هـذه الأيـام ـ يعني أيـام العشر ـ قالوا : يارسول الله ولا الجهاد في سبيل الله ؟ قـال : ولا الجهـاد في سبيل الله إلا رجل خرج بنفسه وماله فلم يرجع من ذلك بشيء » رواه البخاري .

أيها الأخوة والأخوات ، من محاسن هذا الدين أنه لم يـدع شيئـاً من خصـال الخير والبر إلا رغب فيه ، وحض عليه ، ثم يسر سبيله ، وبشر بجميل عـاقبتـه ، وكريم مثوبته ، كما أنه لم يدع خصلة من خصـال الشر والإثم إلا نفر منهـا ، وكره النفوس إليها ، ثم عسر سبيلها ، وتوعد على فعلها واقترافها .

ولمـا كانت شعب البر ـ وهي أكثر من أن تحصى ـ أجـل من أن ينهض بهـا إنسان بالغاً من الفضل مـابلغ ، أعـد الله تعـالى لعبـاده مواسم كريـة ، وأتـاح لهم فرصاً مباركة ، في أزمنة محـدودة ، وأيـام معـدودة ، ضـاعف لهم فيهـا الحسنـات أضعـافـاً كثيرة ، ليســارعـوا فيهـا إلى الخيرات ، ويتجروا بصنـوف القربـات ، والطاعات ، فيعوض مقصر مافاته ، ويدرك مؤمل ماتمناه .

ومن فضله جلت آلاؤه أن فرق هـذه المواسم التي اصطفـاهـا في العـام كلـه ، ترغيباً للعاملين ، وتنشيطـاً للخـاملين ، لئلا تضعف الهمم ، وتفتر العزائم ، ببعـد الشقة ، وطول الزمن .

أيها القراء الأكارم ، إن من هذه المواسم التي اختارها الله لعباده ، ودعـاهم إلى

اغتنام العمل فيها ، هذا العشر الأول من شهر ذي الحجة ، هذه الأيـام العشر التي نعيشها ؛ جعلها الله أفضل أيام الدنيا ، وأحب الأزمان إليه ، وأدناها إلى رضوانـه وكرمه ، العمل فيها أعظم الأعمـال ، والأمل فيهـا أقرب الآمـال ، والحسنـة فيهـا بسبع مئة ضعف ، إلى أضعـاف كثيرة لايعلمهـا إلا الله عز وجل ﴿ والله يضـاعف لمن يشاء والله واسع عليم ﴾ .

وإذا كان يوم الجمعة ـ وهو موسم الأسبوع ـ خير يوم طلعت عليـه الشمس ، كما ثبت في صحيح مسلم وغيره ، فـإن كل يوم من هـذه الأيـام العشر خير من يوم الجمعة الذي ليس فيها .

روي عن ابن عمر ، رضي الله عنهما ، أنـه قـال : « ليس يـوم عنـد الله أعظم من يوم الجمعة ليس العشر ، فإن العمل فيها يعدل عمل سنة » .

وقد أشار النبي الكريم صلوات الله عليه وسلامه أنـه ليس هنـاك عمل يعـدل هـذه الأيـام فضلاً ومثوبـة إلا نوعـاً واحـداً من أنواع الجهـاد ، وهـو رجـل خرج مخاطراً بنفسه ومالـه يبتغي الشهـادة ويرجو الحسنى وزيـادة ، ثم لم يرجع بنفسـه ولا بمـالـه ، بل ذهبت نفسـه ومـالـه في سبيل الله ، هـذا النوع وحـده من أنـواع الجهاد ، وهو أعلاها شأنـاً ، وأجلهـا مكانـة ، هو الـذي يعـدل العمل في عشر ذي الحجة ، أو يزيد عليه .

أخي القارئ الكريم ، وهل تعلم مـاهو فضل الجهـاد ؟ جـاء في الصحيحين : « أن رسـول الله ﷺ قـال : ـ وقـد سئـل عمـا يعـدل الجهـاد في سبيـل الله ـ فقـال :« لاتستطيعـونـه ، فـأعـادوا عليـه مرتين أو ثـلاثـاً ، وهـو يقـول : لاتستطيعونه ، ثم قال : « مثل المجاهـد في سبيل الله كمثل الصـائم القـائم القـانت بآيات الله ، لايفتر من صلاة ولا صيام حتى يرجع » .

وإنما رفع الله تعـالى قـدر هـذه الأيـام لأنهـا خلاصـة الأشهر الحرم ، وموعـد

الهجرة إلى الله تعالى ، والرحلة إلى بيته الحرام ، والجهاد في مرضاته ، فهي بلا ريب خير الأيام ، وصفوة العام .

والحكمة في تفضيلها واضحة لمن يتأمل ماكان عليه العرب في جاهليتهم ، فقد بدلوا ملة إبراهيم ، وأحاطوا البيت الحرام بالرجس والأوثان ، وأفسدوا الشعائر بالزور والبهتان ، وقدموا لآلهتهم الذبائح والقرابين ، واتبعوا ماتتلو الشياطين ، وجعلوا هذه المواسم ميداناً لكل خرافة وضلالة ، وشعوذة وجهالة ، حتى أرسل الله رسوله بالهدى ودين الحق ، فمحا معالم الغواية ، ورفع منار الهداية ، وثبت دين الله في الأرض ، وأعاد ملة إبراهيم طاهرة نقية ، وقد حقق الله بذلك دعوة إبراهيم عليه السلام حيث قال : ﴿ ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم ، إنك أنت العزيز الحكيم ﴾ .

وما إن تم فتح مكة المكرمة ، ودخل الناس في دين الله أفواجاً ، واستقر الإسلام في جزيرة العرب حتى عاد هذا الموسم ميدانا للإيمان والهدى والنور ، وإعلاناً لدعوة الحق ، ووسيلة كبرى للتعارف والتعاون على البر والتقوى .

أيها الأخوة والأخوات ، في هذه الأيام تتوافد جماهير المسلمين من أنحاء الدنيا يقصدون بيت الله الحرام ، ثم زيارة نبيه عليه أفضل الصلاة والسلام ، حتى إذا كان اليوم التاسع من هذه الأيام رأيتم حشداً جماهيرياً كبيراً لم تقع العين على مثيل له في الدنيا ، اجتمع في صعيد واحد هو أرض عرفات ، واتفق على نشيد واحد هو التلبية وصالح الدعوات ، وانتظم في زيّ واحد فاختفت الشارات والمميزات ، وعج إلى الله بضراعة فخشعت القلوب وسكبت العبرات ، وهنا يتجلى عليهم المولى عز وجل برحمته وإحسانه فيفيضون ، وقد غفرت لهم السيئات ورفعت الدرجات .

أمام هذه الحشد الإنساني الكبير ، وتجاه هذا الفضل الإلهي الغزير ، يشعر

المؤمن بعزة المبدأ ، وعزة الانتماء ، وعزة الأمة التي اجتمعت فتحابت ، وتكتلت فقويت ، وآمنت بالله ورسوله فكانت من الخالدين .

أيها القراء الأكارم ، لا يقولن قائل : إن التمتع بهذا الموسم والحصول على هذا الفضل الكبير خاص بمن شد الرحال إلى بيت الله الحرام ، وأدى مناسك الحج وشعائره على قواعد الإسلام ، أما من لم يكن كذلك فليس له في ذلك نصيب .

فإن الجواب واضح ومعقول ، ذلك أن المسلمين أمة واحدة دينهم واحد ، وإلههم واحد ، ووجهتهم واحدة يتعاونون حاضرهم وغائبهم ، وظاعنهم ومقيمهم ، وغنيهم وفقيرهم ، على المصلحة العامة ، والخير للجميع .

ولئن فات المقيم أن يتمتع بمناسك الحج وشعائره ، وشهود الإسلام في أكبر معالمه ، وأجمل مظاهره ، فلن يفوته العمل وهو في مكانه ، لنفسه وأمته ، على مايرفع شأنها ، ويعلي كلمتها ، والله لايضيع أجر العاملين ، ويبارك نشاط المجدين ، وهو واسع الفضل القوي المتين .

☆ ☆ ☆

ليلة القدر

أخي المؤمن ، إنك أمام ليلة عظيمة من ليالي حياتك ، إنـك أمـام ليلـة هي أعظم موسم من مواسم الربح والخير ، إنك أمـام ليلـة إن فـاتـك الربح فيهـا فقـد فاتك شيء كثير لاتدركه في كثير من سني حياتك إنك أمام ليلـة القـدر التي قـال عنها رب العالمين : ﴿ ليلة القدر خير من ألف شهر ﴾ .

إنك في رحاب ليلة القدر التي قال رسول الله في شأنها :« من قام ليلة القـدر إيماناً واحتسابا غفر له ماتقدم من ذنبه » .

أخي المؤمن ، إنها ليلة عظيمة وحسبك دليلاً قاطعاً ، وبرهاناً ساطعـاً ، على عظمتها وبركتها ، أنها الليلـة التي نزل فيهـا القرآن ، نزلت بـه ملائكـة الرحمن ، على قلب محمد أعظم إنسان ، في جو كله سلام واطمئنان وأمان .

وصدق الله العظيم إذ يقول : ﴿ إنا أنزلناه في ليلة القدر ، وماأدراك مـاليلـة القدر ، ليلة القدر خير من ألف شهر ، تنزل الملائكة والروح فيها ... ﴾ .

أيهـا الأخوة والأخوات ، أيهـا الصـائمون والصـائمـات ، هل تعلمـون مـامعنى « القدر » في قوله تعالى : ﴿ إنا أنزلناه في ليلة القدر ﴾ ؟

إن القـدر معنـاه الشرف والمكانـة والعظمـة ، ألا ترون إلى النـاس يقولون : فلان ذو قدر ، يعنون بذلك أنـه ذو شرف ومكانـة عظيمـة ، وأن ليلـة ينزل فيهـا رب العزة والقدر ، كتاباً ذا قدر ، تحمله ملائكة سفرة أصحاب قـدر ، على رسول ذي قـدر ، لأمـة ذات قـدر ، لاشـك أنهـا تكـون ليلـة من ليـالي التجلي الإلهي

الأعظم ، إذا ماتوجه فيها المؤمن إلى ربه مستحضراً مالهذه الليلة من الخير والبركة ، كان اتصاله الروحي بمولاه أقوى مايمكن أن يحصل عليه مؤمن من درجات القرب والاتصال .

وقد صور الله تعالى لنا عظمتها بما يملأ القلب إيماناً ، وتزيدنا إيقاناً ، ويفتح لنا باب الرجاء والأمل بكرمه تعالى وعفوه إذ يقول : ﴿ وما أدراك ماليلة القدر ليلة القدر ... ﴾ وإذا كانت ليلة واحدة تمر عليك في كل عام ، العمل الصالح فيها ، والتقرب إلى الله بأي نوع من أنواع الطاعات والعبادات والقربات ، يعدل العمل بألف شهر فإن ليلة كهذه ، لاشك ، إنها محض فضل من الله على عباده ، يدعوهم بها إليه ، ويدلهم بها عليه .

أيها الأخوة الأكارم ، هل تعلمون كم الألف شهر ؟ إنها ٨٣ سنة وأربعة أشهر ، نعم ، إن قيام هذه الليلة وإحياءها بذكر الله وتلاوة القرآن الذي أنزل فيها ، والدعاء بما تشاء من خيري الدنيا والآخرة ، يعدل عبادة ٨٣ سنة وأربعة أشهر .

والسبب في ذلك كما روى الثقات : أنه ذكر لرسول الله ﷺ رجل من الأمم الماضية ، حمل السلاح على عاتقه مجاهداً في سبيل الله ألف شهر ، فعجب رسول الله لذلك ، وتمنى أن يكون ذلك في أمته ، فقال : « يارب جعلت أمتي أقصر الأمم أعماراً ، وأقلها أعمالاً ، فأعطاه الله ليلة القدر ، وجعل العمل فيها يساوي العمل بألف شهر » . وذلك من تكريم الله لنبيه ، ورحمته بأمته .

أيها الصائمون والصائمات ، هذه ليلة القدر تظللكم بعظمتها ، وخيرها ، وبركتها ، فاغتنموا الفرصة ، وحذار من فواتها ، والذي عليه معظم العلماء : أنها هذه الليلة التي تعيشونها ليلة السابع والعشرين من شهر رمضان الذي آذن بالوداع ، وعزم على الرحيل .

وقد استدلوا على أنها ليلة سبع وعشرين من رمضان بأحاديث ، وإشارات ، واستنتاجات ؛ فمن الأحاديث ماروي عن زر بن حُبيش قال : قلت : لأبي بن كعب إن أخاك عبد الله بن مسعود يقول : من يقم الحول يصب ليلة القدر . فقال أبي : يغفر الله لأبي عبد الرحمن ، لقد علم أنها في العشر الأواخر من رمضان ، وأنها ليلة سبع وعشرين ، ولكنه أراد ألاّ يتكل الناس ، ثم حلف لايستثني أنها ليلة سبع وعشرين . أخرجه مسلم .

ومن الإشارات ما استنبطه بعض الباحثين ، من أن كلمة (هي) في سورة القدر ، جاءت السابعة والعشرين ، إذ أن كلمات السورة ثلاثون ، فتشير كلمة (هي) إلى أن الليلة هي ليلة سبع وعشرين .

ومن الاستنتاجات ماذكره بعض العلماء من أن (ليلة القدر) قد تكررت في سورة القدر في ثلاثة مواضع منها ، وليلة القدر حروفها تسع ، والتسع إذا ضربت في ثلاث يكون الحاصل سبعاً وعشرين ، فدل على أن الليلة هي ليلة سبع وعشرين .

وبعد فيا أيها الأخوة الصائمون ، هذا شهركم قد آذن بالرحيل ، وهذه ليلتكم سرعان ماتنقضي ، وأن من علامات قبول صيامكم وعبادتكم أن تستمروا على العبادة والطاعة بعد رمضان ، وأن تستقيموا على التمسك بكل خلق كريم ، وحينئذ تكونون من الرابحين الفائزين في الدنيا والآخرة ، وذلك بالنص الصريح الواضح من كتاب الله عز وجل حيث يقول : ﴿ إن الذين قالوا : ربنا الله ثم استقاموا ، تتنزل عليهم الملائكة ألاّ تخافوا ولاتحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون ، نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ... ﴾ .

أسأله تعالى ، أن يجعلنا من المقبولين ، وأن يرزقنا الاستقامة ، وأن يعيده على الأمة العربية والإسلامية ، وقد تحقق ماترجوه من عزة ونصر وكرامة .

أم سُلَيْم بنت مِلحان

قال تعالى في كتابه العزيز : ﴿ من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ، ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ﴾ . [النحل / ٩٣]

هذا هو عدل الإسلام ، وهذه هي مساواته الصريحة الحقة بين الرجل والمرأة ، لا يظلم أحداً منهما ولا يميزه على الآخر ، إلا بما قدم من عمل صالح ، وجهد نافع له ولأمته .

نعم من عمل صالحاً من ذكر وأنثى فله عند الله تعالى الحياة الطيبة العزيزة الكريمة ، وله المثوبة الكبرى والجزاء الحسن ، في الدنيا والآخرة ، والله لا يضيع أجر من أحسن عملاً ..

لذلك لما عرف المؤمنات السابقات ، والنساء المجاهدات الخالدات من أمتنا العربية ، لما عرفن هذا التكريم من الله لهن حيث ساواهن بالرجال ، ولم يَلِتْهنّ من عملهن شيئاً ، بادر الكثيرات منهن إلى تبوء مكانتها في المجتمع ، وشاركت في كل ما يعلي من شأنها ، ويخلد ذكرها .

وإني ذاكر في كلمتي هذه التي أوجهها إلى الأخوات المؤمنات من فتيات هذه الأمة الخالدة امرأة واحدة لتكون مثلاً يقتدى به في كل مجالات الحياة ، من إيمان ، وصبر ، وجهاد ، وبعد نظر .

هذه المرأة التي أتحدث عنها اليوم هي « أم سليم بنت ملحان » وهي أم أنس بن مالك .

لقد وجدت أم سليم في دعوة الإسلام صدى لمشاعر كانت تحسها في أعماقها ، فأسرعت إلى الدخول في هذا الدين الجديد ، وشعرت بطمأنينة تملأ نفسها ، وأيقنت أنها اهتدت إلى أوضح السبل وأقوم الطرق .

غير أن إسلامها كان صدمة قاسية لزوجها مالك بن النضر والد أنس بن مالك ، وصعب عليه أن تنحرف زوجه عن الدين الذي يؤمن به ، والأصنام التي يقدسها ، ويعكف على عبادتها .

وسلك مالك بن النضر كل الوسائل لإرجاع زوجته إلى دين آبائها وأجدادها ، فلم تجد كل الوسائل المتنوعة ، وكانت وسائله ومحاولاته لاتزيد المرأة المسلمة إلا إقبالاً على دينها ، وشغفاً بشريعة ربّها .

بل قد وجد مالك بن النضر من زوجته محاولات عكسية ، وجدها تدعوه إلى الدخول في دينها ، وترغبه في محاسن هذا الدين ، وتتلو عليه بعض ماحفظت من آيات الذكر الحكيم ، وتنوع له الوسائل للنهوض به من هوة الشرك ، ومهاوي الضلال ، وتبذل في ذلك جهوداً مشكورة لتنقذه من النار .

وأمام هذا الموقف الحازم ، والعقيدة الراسخة من أم سليم ، لم يجد زوجها مالك إلا أن يتركها وشأنها ، لولا أن شيئاً جديدا ظهر على مسرح الحياة الزوجية ، ذلك أن مالكاً دخل مرة بيته وإذا بامرأته هذه تلقن ولدها الإسلام ، وتعلمه أن يقول : « أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله » ، عندئذ جن جنونه ، ورأى أن أمر زوجته قد تجاوز الحد . ولما كلم امرأته في ذلك ، ونهاها أن تفسد ولدها معها ، أجابت بإصرار بأن هذا الولد لابد أن يكون مسلماً ، وسيكون له شأن كبير في الإسلام إن شاء الله ...

وأمام هذه المصاعب البيتية التي برزت لمالك بن النضر ، وجرحت كبرياءه ، وطامنت من شخصيته أمام قريش ترك بيته وسافر إلى الشام حيث

مات في الطريق ، وانتهى أمره ، ووصل خبره ، وفرغت أم أنس لوحيدها تشمله بالعطف والحنان ، وذات يوم فوجئت أم سليم بالباب يطرق ، ولما أسرعت لتلبي نداء الطارق ، راعها أن وجدت أبا طلحة أحد أشراف قريش ، وما كادت تحييه وتستقبله حتى أعلنها برغبته فيها وخطبته لها ...

وابتسمت أم سليم ابتسامة هادئة ، دلت على سرور ملأ جوانحها ، وفكرت قليلاً ، ثم اهتدت إلى نتيجة : إنها مؤمنة ، وإنها مجاهدة ، وإنها قد وهبت نفسها لدينها ، وللدعوة إلى هذا الدين ، وهذا صيد ثمين قد عرض لها ، فلا ينبغي أن يفلت من يدها ، فلا بد إذن من كسب هذا الرجل الشريف لصالح الدين ، ولصالح الرجل أيضاً .

وراع أبا طلحة ذلك الصمت الطويل الذي استولى على أم سليم ، ولم يخف عليه ذلك التفكير العميق الذي بدا على كل مشاعرها ، فعاد يقطع عليها تفكيرها ، ويطرد عنها صمتها ، ويؤكد لها أنه يطلب يدها ، ويرغب أن تكون شريكة حياته .

وعندئذ تكلمت أم سليم بصوت هادئ رزين : ياأبا طلحة ، إنك رجل شريف ، ومثلك لا يرد ، وإن رغبتي لاتقل عن رغبتك فيا تريد ، غير أني امرأة مسلمة ، وأنت تكفر بالإسلام ، وديني يحرم عليَّ أن أتزوج رجلاً يتخذ إلهاً من حجر لا يضر ولا ينفع ، أو من خشبة ينجرها له النجار ، فيقدسها ويخضع لها ، ياأبا طلحة ، إنك رجل عاقل ، ألا تشعر بالخزي والعار عندما تحتقر عقلك الواعي فتنزل به إلى هذه الدرجة ، فنقبل على ممارسة مثل هذه العبادة . ياأبا طلحة ، إنني أرحب بالزواج منك إن دخلت في الإسلام ، وذلك هو صداقي منك .

وسكتت أم سليم ، ووجد أبو طلحة في هذا الطلب تحريكاً لمشاعر كانت

تجيش في نفسه بشأن هذا الدين الجديد ، فقد يحدث نفسه في اعتناقه ، ويروعه أن يبوح به خشية أن يعيِّره الأشراف من قريش ، فلما جاءت هذه المناسبة ، وسمع من امرأة هذا الكلام الفلسفي العالي ، لم يتردد في اتباع الحق وإعلان الإسلام ، والنطق بالشهادة .

وكانت فرحة أم سليم بالغة ، حيث أفلحت في محاولتها ، وجذبت هذا الرجل الذي كان عدواً للإسلام إلى حظيرة الإسلام ، وأمرت ابنها أنس أن يذهب به إلى رسول الله ، وهناك تم الزواج ومهرها الإسلام .

وبدأت أم أنس حياة جديدة تقوم فيها على إسعاد زوجها المسلم ، وتربية ولدها الوحيد ، وجعله من أصحاب الرسول البارزين ، فقد ذهبت به إلى رسول الله ، وطلب أن يقبله خادماً وملازماً ، فقبل الرسول الكريم هذا العرض المؤمن ، وتهلل وجهه لهذه الغرسة الطيبة ، فتعهدها ، ونماها حتى آتت أكلها ..

روى ابن الأثير في كتابه المشهور « أسد الغابة في معرفة الصحابة » أن أم سليم أخذت بيد ابنها هذا ، وقدمته لرسول الله ﷺ ، وقالت يارسول الله ، هذا ابني وهو غلام كاتب ، قال أنس فخدمته تسع سنين ، فما قال لي لشيء صنعته : أسأت أو بئس ماصنعت ، بل كان يقول : ماقدر الله كان وماشاء فعل .

دعا له رسول الله فقال : اللهم أطل عمره وأكثر ماله وولده فعاش أكثر من مئة سنة ، وولد له من صلبه ثمانون ذكراً ، وابنتان ، وكان له بستان يحمل الفاكهة في السنة مرتين ، وكان فيه ريحان يجنى منه ريح المسك .

واستمرت أم سليم في جهادها ونضالها ، فحضرت كثيراً من المعارك مع المجاهدين الأبطال ، وكانت في غزوة حنين مع الثابتين المناضلين ، رآها رسول الله وبيدها خنجر تدافع به فابتسم الرسول ابتسامة شاع فيها البشر والنور وقال للمجاهدة المؤمنة : « ياأم سليم إن الله كفى وأحسن » .

التعبئة الإيمانية

روى الترمذي بسند حسن صحيح أن رسول الله ﷺ قال : « من سرته حسنته ، وساءته سيئته فذلكم المؤمن » .

المؤمن من هو ذلك الإنسان الذي امتلأ قلبه بالإيمان ، فدق حسه ، ورق شعوره ، وكثرت محاسبته لنفسه ، واشتدت مراقبته لها . لذلك تجده مرهف الشعور ، قوي الإحساس ، يصنع الخير مع الناس ، ويسدي إليهم المعروف ، يرحم صغيرهم ، ويوقر كبيرهم ، ويواسي محاويجهم ، فتشرق أساريره ، وينشرح صدره ، بفعل الخير ، وعمل البر .

كما أنه يستاء ويحزن إذا بدرت منه إساءة لإنسان . أو إضرار بالآخرين ، فيحاسب نفسه ، ويلومها ، ويؤنبها ، حتى يلجأ بعد ذلك إلى إصلاح ماأفسد ، فيلتمس المعذرة أو يطلب المغفرة ، فلا يستقر له كيان ، ولا يهدأ له ضمير حتى يكفر عما اجترح ، ويصلح ماجرح .

ولكن ذلك لن يكون في إنسان حتى يحصل على تلك التعبئة الإيمانية التي تملأ قلبه نوراً ، وجوارحه وعياً ، فتدفعه دفعاً إلى اكتساب الفضائل والمكرمات ، وتحذره من الرذائل والسيئات ، فيتكامل في سيرته ، ويطهر في سريرته ، ويرق في مقاصده ، حتى يغدو كأنه الملك طهراً ونوراً ، يدل كل من عرفه على الإنسانية المثلى فيه .

لهذا كله تجده يسير على هدى هذه المدرسة الداخلية الفكرية ، والعاطفية ،

والوجدانية : مدرسة إيمانه ، قبل أن يلاحظ ماعداها من قانون أو نظام ، أو رقيب أو عقاب .

وإذا استطاع المكلف أن يتوارى عن أعين الشرطة ، ويقترف مايمنعه القانون ، كأن يهتك عرضا ، أو يسفك دماً ، أو ينهب مالاً ، فلن يستطيع أن يتوارى عن الحفظة الكاتبين ، وأن ينجو من قلم التسجيل ﴿ وإن عليكم لحافظين ، كراما كاتبين ، يعلمون ماتفعلون ﴾ .

وإذا كان بمنجى من العقاب إذا لم يثبت عليه الجرم في نظر القانون ، فإنه لن يكون ناجياً من العذاب ، وقد جعل على كل عمل من أعماله رقيب عتيد ؛ مايلفظ من قول ، ولايأتي من حركة إلا ضبطت ، يقول تعالى : ﴿ يابني إنها إن تك مثقال حبة من خردل فتكن في صخرة أو في السموات أو في الأرض يأت بها الله ، إن الله لطيف خبير ﴾ .

وهذه الآية الكريمة ، وإن كانت في الأصل تحذيرا من لقمان لابنه ، فقد شكر الله له هذه الموعظة ، ورضي عنها ، وجعلها تحذيراً لكل مؤمن ، وموعظة لكل تقي يعلم أنه دائماً أبداً في ليله ونهاره ، وسره وجهره تحت رقابة الله الذي ﴿ لايخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء ﴾ . ﴿ يعلم سركم وجهركم ﴾بل يعلم مايختلج في الصدور ، وما توسوس به النفوس ﴿ ألا يعلم من خلق ؟! وهو اللطيف الخبير ﴾ .

ومن هنا نجد أثر هذا الوعي الإيماني الذي كان عند أسلافنا الصالحين ، نجد أثره واضحاً جلياً في المجتمع ، ونجد مردوده في جميع مجالات الحياة : في البيت ، في الأسرة ، في الحي ، في السوق ، في الشارع ، في الحكومة ، في الجيش ، في الجند ، في القادة ، في الرجل ، في المرأة ، كلهم يسيرون على هدى هذا الوعي الذي أوضح لهم المعالم ، وأنار لهم الطريق ، فتكون من ذلك المجتمع النظيف القوي المتماسك ، المتحاب المتعاون ، وبالتالي ظهرت خير أمة أخرجت للناس .

وإذا ذهبنـا نضرب الأمثلـة على ذلـك احتجنـا إلى وقت طويل ، ومجلـدات ضخام ، لذلك فإنه لابد لنـا في هـذا الصـدد من الاقتصـاد على قليل من الأمثلـة تكون كالمثل لتوضيح القاعدة .

هذا أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه ، يعس بالليل ـ أي يدور في الشوارع والأسـواق ـ كما يفعـل الحـارس في عصرنـا الحـاضر ليطمئن على راحـة رعيتـه وأمنهـا ، ويمر أمـام بيت يسمع فيـه حواراً : امرأة تقـول لأخرى : قـومي فـاخلطي اللبن بـالمـاء ، قبـل أن يطلـع الفجر . فتجيبهـا : ألم تعلمي أن عمر بن الخطاب أمير المؤمنين قد أصدر بلاغاً حرم فيه الغش . فترد المرأة قـائلـة : نحن في مكان لا يرانا فيه أمير المؤمنين ، وتعود المرأة فتقول في حمـاس وإصرار : « إذا كان عمر لا يرانا فإن رب عمر يرانا » وتقول : والله ماكنت لأطيعه في الملأ وأعصيـه في السر » .

ويسمع عمر كل ذلـك ، ويهتز لهـذه الكلمـة ، ويعجب بهـا أشـد الإعجـاب ، ويعلم أن المرأة المتكلمة بهـذا ذات إيمـان قوي ، وشعور مرهف ، ويبحث عنهما فيما بعد فيعلم أنها بنت كانت تجيب أمهـا ، فيطلب عمر من بعض أبنـائـه أن يتزوجهـا ويكون من ذريتها الخليفة العادل (عمر بن عبد العزيز) .

وهذا مسلمة بن عبد الملك يحاصر حصنـاً من حصون الروم ، فينـدب النـاس إلى نقب فيه ـ والنقب ثغرة في الحصن تكون سبباً لفتحه ـ فما دخلـه أحـد ، حتى جـاء رجل من عرض الجيش فـدخلـه ، وفتح الله عليهم الحصن بسببـه ، وتغلبـوا على عدوهم ، فنادى القائد مسلمة : أين صاحب النقب ؟! فما جاءه أحد .

« فنادى مرة ثانية إني أمرت الآذن بـإدخـالـه متى حضر ، وعزمت عليـه إلا جاء » .

فجاء رجل فقال : استأذن لي على الأمير . فقال له : أنت صاحب النقب ؟

فقال : أنا أخبركم عنه فأذن له ، وقال الرجل للأمير : إن صاحب النقب يأخذ عليكم ثلاثاً : ألاّ تسودوا اسمه في صحيفة إلى الخليفة ، ولاتأمروا له بشيء ، ولا تسألوه ممن هو . فقال الأمير له ذلك . فقال الرجل : أنا هو ثم ذهب .

فكان مسلمة لايصلي صلاة إلا دعا الله عز وجل وقال : « اللهم اجعلني مع صاحب النقب » .

وجدير بهذا البطل الذي غامر بنفسه حتى فتح الحصن أن نسميه الجندي المجهول ، ولكنه عند الله ليس بمجهول .

وهذا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ، كرم الله وجهه ، يعرض عن زهرة الحياة الدنيا ومتعها ، ويكون في الشتاء يرعد من البرد وعلى جسده ثوب صيفي لايملك سواه ، وتحت يده بيت المال . فهذه المثل وشبهها كثير حصيلة الرقابة الإيمانية التي حلوا بها نفوسهم فكانوا من الخالدين .

☆ ☆ ☆

خطبة الحرْب

قال تعالى في كتابه العزيز : ﴿ أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا ، وإن الله على نصرهم لقدير ، الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق ، إلا أن يقولوا ربنا الله ، ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً ، ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز ﴾ .

أيها الأبطال المجاهدون ، أيها الأخوة الذين هم في خطوط النار ثابتون صامدون ، أبشروا بالنصر ، واستبشروا بالفوز ، وأيقنوا بأنكم ستقضون على أعدائكم ، ستدمرون حصونهم ، وتدكون مواقعهم ، وتحطمون دباباتهم ، وتسقطون طائراتهم ، بعون الله وتأييده .

أيها الأبطال ماأقول هذا إغراء أو جزافاً ، إنما كل هذا توحيه الآية الكريمة ، وهي وعد صادق من الله ، والله لايخلف الوعد ، ومن أصدق من الله حديثاً .

أيها الأبطال ! أسمعتم الآية الكريمة التي تقول : ﴿ أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا .... ﴾ فأنتم جنود الحق ، أذن لكم بالقتال ، وفرضه عليكم ، وطلبه منكم ، ذلك لأنكم ظلمتم ، واعتدي عليكم والله لايحب المعتدين ، لقد تمادى عدوكم في غيه وضلاله وغطرسته وادعائه ، ولقد صبرتم إلى حين ، وقد جاء الآن دوركم فلقنوه درساً قاسياً في البطولة والشجاعة والثبات ، وأظهروا للعالم كله أنكم أحفاد أولئك

الأمجاد ، الذين خاضوا معارك الشرف والبطولة ، وسجلوا في صفحات التاريخ ، مايفخر به التاريخ .

أيها الأخوة المناضلون ، سيروا قدما ، وثبتوا قدماً فإن الله معكم ، وهو لاشك ناصركم ومؤيدكم ، وممدكم بالعون كما أمد أسلافكم ، لأنكم أصحاب حق تدافعون عن حقكم ، وتستردون أرضكم ، وتسترجعون وطنكم ، وتطهرون مقدساتكم التي عاث بها العدو بغياً وفساداً .

أيها الأبطال ، إنكم تكتبون بدمائكم الطاهرة تاريخ أمة ، وحياة شعب ، وازدهار مستقبل ، ماأسعدكم أيها الأبطال ، حينما تناضلون وتكافحون كما ناضل وكافح قوافل الشهداء من قبل على التراب الطهور .

أيها الأبطال ، لقد تحدثت الدنيا بشجاعتكم ، وأثنى كل المنصفين على حربكم ، وتسابق كل محب للحق إلى دعمكم وتأييدكم ، فثقوا بالنصر ، واطمئنوا إلى الفوز المبين .

أيها الأخوة المجاهدون ، أيها الأبطال الصامدون ، إن الموت لايخيف ، إنه نقلة سريعة من هذه الحياة إلى حياة أكمل وأسعد وأهنأ ، وهو لابد منه لكل حي مهما طال أمده .

سبيل الموت غاية كل حي ... وداعيه لأهل الأرض داعي
وإذا لم يكن من الموت بد ... فمن العجز أن تموت جبانا

أيها الأبطال ، إن أجدادكم الغر الميامين ، كان أحلى أمنياتهم أن يخوضوا معارك الشرف والبطولة ، وأنت تنثر أفلاذهم على أرض هذه المعارك ، استمعوا إلى أمنية واحد من أولئك الكثيرين حيث يقول :

فيارب لاتجعل حياتي ذميمة ... ولا موتتي بين النساء النوائح
ولكن قتيلاً تدرج الطير حوله ... وتأكل غربان الفلا من جوانحي

فهو كما ترون يتوسل إلى ربه ألا تكون نهاية حياته على فراشه بين أهله وذويه ، ويرجو أن تكون نهايته مفخرة له ولأمته في معركة من معارك الحق والعدل .

وقد روى لنا التاريخ أسف القائد الكبير خالد بن الوليد ، رضي الله عنه ، حينما مات على فراشه حيث قال متأسفاً حزيناً : « لقد شهدت مئة زحف أو زهاءها في سبيل الله ، ومافي جسمي موضع شبر إلا وفيه ضربة بسيف ، أو طعنة برمح ، أو رمية بسهم ، وهأنذا أموت على فراشي كما يموت البعير ، لانامت أعين الجبناء » .

وهذا حرام بن ملحان أحد أبطال هذه الأمة ـ والأبطال في أمتنا كثير ـ هذا البطل يخوض معركة من معارك الحق ، ويبلي فيها بلاء حسناً منقطع النظير ، ويقتل من الأعداء العدد الكثير ، حتى أحاطوا به ، وتكاثروا عليه ، وما يجرؤ أحد أن يقترب من سيفه ، لأن الموت الأكيد كامن في حد سيفه ، حتى طعن من خلفه ، ورأى دمه يتدفق ، فأخذته نشوة الفرح كأنما حصل على شيء طال انتظاره إليه ، وجعل يقول : « فزت ورب الكعبة » .

نعم لقد فاز ، فاز بالشهادة ، فاز بعز الدنيا وسعادة الآخرة ، كتب بدمه عز أحفاده ومجد أمته ، وخلوده في جنات النعيم .

أيها الأبطال المجاهدون ، إنكم تملكون أسباب النصر الأكيد إذا عملتم بوصية ربكم ، حيث يقول لكم سبحانه : ﴿ ياأيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون ﴾ .

أيها المجاهدون ، اذكروا الله فهو سر نجاحكم ، ودعامة نصركم ، فقد كان من خطة نبيكم في جهاده أن يتوسل إلى ربه ، ويطلب منه العون بعد أن يعد

ماأمكنه من وسائل الحرب ، فكان يقول : اللهم بك أصول ، وبك أجول ، وبك أحارب . وكان يقول : اللهم منزل الكتاب ، ومرسل السحاب ، وهازم الأحزاب ، اهزمهم وانصرنا عليهم .

اللهم انصرنا فإنك على نصرنا قدير ، ولا تخذلنا فإنك بحالنا بصير ، وهيئ لنا من أمرنا رشداً ، وهب لنا من عندك عوناً ومدداً ، وكن لنا على أعدائنا درعاً حصينة وسنداً ، إنك رؤوف رحيم .

☆ ☆ ☆

يوم الجلاء

أيها القراء الكرام في قطرنا العربي السوري ، إن يوم الجلاء هو اليوم الذي أشرقت فيه شمس الحرية ساطعة على وطننا العزيز ، فلم يخفق فيه إلا علمكم ، ولم تعل فيه إلا رايتكم .

إن يوم الجلاء هو يوم الحق دوت فيه كلمته ، ويوم الاستقلال تجلت فيه عزته .

إن يوم الجلاء هو اليوم الذي رأى الباطل فيه كيف تدول دولته ، وكيف تضمحل جولته .

إن يوم الجلاء هو يوم النصر العظيم ، والفتح المبين .

أيها الأخوة والأخوات ، إن يوم الجلاء يذكرنا بتلك التضحيات الغالية التي قدمها هذا الشعب الأبي حتى حصل على حريته واستقلاله ، ورفع رأسه عالياً بين دول الأرض ، يمشي على تراب أرضه بكل فخر واعتزاز وقد مضت سنة التاريخ في الأرض أن الممالك لاتبنى إلا على الجماجم ، وأن الحرية لاتنال إلا بالدماء والتضحيات ، ورحم الله الشاعر العربي إذ يقول :

ولا يبني الممالك كالضحايا   ولا يدني الحقوق ولا يحق
وللحرية الحمراء باب   بكل يد مضرجة يدق

أيها الشعب الكريم إنك لم تبخل في التضحيات قديماً ، ولم تبخل بها حديثاً ،

إنك لاتزال تقدم الشهداء تلو الشهداء ، والدماء تلو الدماء ، من يوم الجلاء ، ومن قبل الجلاء ، حتى (٦) تشرين ، وبعد تشرين ، إن قوافل الشهداء لاتزال تترى حتى تصل إلى القمة من العزة والكرامة والتحرر والمجد .

أيها الإخوة والأخوات ، إن نضال شعبنا الطويل الدائم المستمر ليفسر لنا بوضوح قول شاعرنا العربي :

ونحن أناس لاتوسط بيننا لنا الصدر دون العالمين أو القبر

إن يوم الجلاء ليقيم برهاناً ساطعاً على أن أمتنا لاتقيم على ضيم ، ولاتستكين لمستعمر غاشم ، ولاتمل من الفداء ، وإننا لنذكر ، كم تتابعت مواكب الشهداء ، وخضب كل شبر من أديم هذا الوطن بالزكي من الدماء ، وكم كانت ثورات لايخمد لها أوار ، ولا يقر لها قرار ، ثورات لم يكن لها تراجع إلا أعقبه إقدام ، ولافر إلا تلاه كر .

سلوا هذه الغوطة الفيحاء عن معاركها اللاهبة ، سلوا جبل العرب تندلع منه الثورة الكبرى تزلزل أركان المستعمر وتدمر بنيانه ، سلوا ربوع الشمال ، وجبل الزاوية عن ثورة هنانو ، سلوا جبل العلويين عن ثورة صالح العلي ، سلوا سهول حمص ووادي حماة وتلكلخ والمزرعة وحوران ، سلوا راشيا والقلمون ، سلوا البيوت التي دمرت ، والمزارع التي أحرقت ، والمتاجر التي نهبت على يد المستعمر الأثيم ، سلوا المنافي والسجون ، سلوا دماء الشهداء ، سلوا أعواد المشانق ، لقد تحمل شعبنا القوي كل هذا ، وقدم كل هذه التضحيات ، حتى حصل على يوم الجلاء ، فاستهان بكل ماقدم ، ووجد نفسه رابحاً لم يندم ، وشع من جنباته الحق المبين ، وتعالى منه تكبير المجاهدين المؤمنين .

أيها الأخوة والأخوات ، إن شعبنا الكريم منذ يوم الجلاء ، هب بكل إقدام وتصميم كبقية الشعوب العربية المتحررة ، هب يبني نفسه من جديد ، ويعزز

كيانه المتداعي ، ويطهر أرضه من رواسب الاستعمار ، ليتبوأ مكانته اللائقة بين شعوب الأرض .

ولكن شاءت إرادة الله ألاَّ ينقضي دور النضال لهذا الشعب المكافح ، فابتلي بهذه الصهيونية الباغية المجرمة ، التي شردت شعبنا ، ودنست مقدساتنا ، وعبثت بتراب أرضنا ، وبهذا تحول جهاد هذا الشعب من المستعمر المباشر ، إلى جهاد المستعمر المتستر بهذه الصهيونية .

فكان لزاماً على هذا الشعب الأبي أن تكون له مهمتان رئيستان ، مهمة بناء وإعادة ماأفسده المستعمر في الداخل ، ومهمة مواجهة العدو اللدود في الخارج ، وظل هذا الشعب يتابع نضاله بجد وعزم وتصميم ، حتى كانت حرب السادس من تشرين ، فبرهن جيشنا العظيم من جديد على قوته وصموده وإبائه ، وأوضحنا للعالم أجمع أننا لن تنخلى عن حقنا ، ولن نفرط بشبر من أرضنا ، وتخاذلت إسرائيل ولجأت إلى سادتها المستعمرين صائحة ضارعة قائلة : « أنجدونا إن فيها قوماً جبارين » .

أيها الإخوة والأخوات ، إنه يحق لنا أن نتخذ يوم الجلاء عيداً لأنه حطم القيود ، وعبد الطريق ، وهيأ سبل العمل أمام العاملين المخلصين ، ليعيدوا بناء وطنهم ، ويرسخوا قواعد مجدهم ، ويجنوا ثمار جهادهم ودماء شهدائهم ، الذي مزج بأرض وطنهم ، وإن كذلك لمن حق شاعرنا أن يتغنى بيوم الجلاء فيقول :

هذا التراب دم بالدمع ممتزج ... تهب منه على الأجيال أنسام
لوتنطق الأرض قالت :إني جدث ... فيَّ الميامين آساد الحمى ناموا
لولا اليقين ، ولولا الله ماصبرت ... على النوائب في أحداثها الشام
يوم الجلاء هو الدنيا وزهوتها ... لنا ابتهاج وللباغين إرغام

أيها القراء الكرام إن من واجبنا تجاه هذه المنن التي منَّ الله بها علينا من دحر عدونا يوم الجلاء وقهر عدونا في السادس من تشرين ، إن من واجب ربنا سبحانه وتعالى علينا أن نشكره ولانكفره ، وأن نعبده ولا نجحده ، وأن نطلب منه سبحانه ـ وهو القادر على كل شيء ـ أن يديم عزنا ، ويتابع نصرنا ، ويخذل عدونا ، وأن نعترف أننا مدينون دائماً وأبداً للعون الرباني ، والقدرة التي لاتغلب ، وصدق الله إذ يقول : ﴿ إن ينصركم الله فلا غالب لكم ، وإن يخذلكم فمن ذا الذي ينصركم من بعده ﴾ . وإذ يقول ﴿ وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم ﴾ .

إذا لم يكن عـــون من الله للفتى فـأول مـايجني عليـه اجتهـاده

وبعد فإن من الشكر على هذه النعمة أن نخلص لله في أعمالنا ، وأن نبذل الجهد لرفعة وطننا ، وأن نحسن روابط الإخاء والمحبة فيما بيننا ، وأن يقوم كل مواطن بما يتوجب عليه بنصح وإخلاص ، فإن الأمة إذا كانت على هذا الطريق القويم تجلى الله عليها بالنصر والإعزاز ، نسأله تعالى أن يمدنا بعونه ، ويؤيدنا بنصره .

☆ ☆ ☆

سيد الشهداء

ماأروع حديث البسالة والجهاد ، والشهادة والاستشهاد ، ومـاأعظم ذلـك اليوم الذي يتم فيه النصر على الأعداء ، وتجني الأمة الثار اليـانعـة التي سفكت من أجلها الدماء ، وضحى من أجلها بأرواحهم الشهداء .

والشهداء في أمتنا العريقة ببسالتها وأصالتهـا كثير ، والنتـائج السـاميـة التي حصلت عليهـا أمتنـا هي راسخـة الأصـول سـامقـة الفروع مـلأت الـدنيـا علمـاً وحضارة ، وعزة ومجداً وفخاراً .

ولا تزال مواكب الشهداء تترى منذ بدر وأحد وحنين ، حتى عين جـالوت ، وحطين وتشرين ومنـذ أن أشـاد الرسـول الكريم صلـوات الله عليـه وسلامـه بالشهـداء ، وبمكانتهم العليـا عنـد الله تعـالى ، والأبطـال يتسـابقون إلى نيل هـذا المكان الرفيع ، والمنزلة العالية .

وإنـه ليطيب لي أن أتحـدث عن بطـل من أبطـال الإسـلام ، وشجـاع من شجعان هذه الأمة منحه قائده الأعظم محمد ﷺ وسـامين عظيمين : الوسـام الأول قوله فيه : أسد الله والوسام الثاني قوله فيه : سيد الشهداء .

ذلك البطل هو حمزة بن عبد المطلب عم النبي الكريم وأخوه في الرضاعة .

كان فتى من فتيان قريش فيه عنفها وشدتهـا ، وفيـه صلفهـا ، وفيـه أنفتهـا وحرصهـا ، وكان صـاحب صيـد وقنص ، يخرج لهـوايتـه هـذه من آخر الليـل ،

ويعود موفوراً مبتهجاً مع الضحى ، فلا يُلِمُّ بأهله حتى يذهب إلى المسجد فيقف على أندية قريش مسلماً متحدثاً ، ثم يطوف بالكعبة ثم ينصرف إلى داره ، وقد رضي عن نفسه وأرضى الناس عنها .

لقد أسلم هذا البطل إسلام الفتيان الذين يأنفون الضيم ، ويأبون الذلة ، فقد أقبل ذات يوم من صيده فأنبأته امرأة بنبأ عظيم هز كيانه ، وتغيرت له حياته كلها ، قالت له هذه المرأة : ياأبا عمارة ، إن أبا جهل قد كلم ابن أخيك محمداً بأشنع القول وأبشعه وأغلظه ، فسألها حمزة : وماذا رد عليه محمد ؟ قالت : إنه لم يجبه بشيء بل أعرض عنه وانصرف .

ويسمع حمزة هذا النبأ فيثور له ثورة عارمة ، ويضرم الله في قلبه نار الغضب التي تطهر النفوس من الإثم ، وتزيل عنها العار ، وتردها إلى الحياة نقية ناصعة بعيدة عن حبائل الشيطان يمضي حمزة لايلوي على شيء تتأجج في قلبه هذه النار المقدسة حتى يبلغ المسجد ، ويرى أبا جهل في ناديه ، فيقف على رأسه ويضربه بالقوس فيشجه شجة بالغة ، ويقول له : هل بلغ من تماديك أن تسب ابن أخي ، ألم تعلم أني أنا عمُّه ، ثم اعلم الآن أني على دينه ، وأني أشهد أن لاإله إلا الله وأن محمداً رسول الله . اعلم ذلك ياأبا جهل ، ولتعلمه قريش كلها ، ولتردني عن إسلامي هذا إن استطاعت .

وهكذا أعلن حمزة إسلامه غير هياب ولا وجل ، وأسقط في يد قريش ، وعز رسول الله وامتنع عن أن ينال بأذى بعد إسلام حمزة ، فقد كفت قريش عن بعض ماكانوا ينالون منه .

ومنذ الساعة التي أسلم فيها حمزة وقف نفسه على خدمة الإسلام ، والدفاع عن كيانه بكل قوته ، وأصبح حصناً منيعاً للمسلمين يلوذون به عند الشدائد ، ويفزعون إليه عند الملمات .

وهاجر حمزة مع المسلمين إلى المدينة ، وبدأ النظام الإسلامي يتكامل ، وتتجمع قواه ، وكان من الطبيعي أن تكون لحمزة المكانة الرفيعة في جند محمد عليه السلام ، فلم تمض بضعة أشهر في يثرب حتى أصبح حمزة القائد الأول في الإسلام ، فعقد النبي له لواءً أبيض ، وأسلم إليه أمر سريَّة من المسلمين فكان هذا اللواء أول لواء عقد في الإسلام ، وكان حمزة أول قائد من قواد محمد عليه السلام .

وكانت غزوة بدر الكبرى ، وأثبت حمزة جدارته وكفايته في الحرب فقتل قرنه عتبة بن ربيعة وكان الفارس المعلم في ميدان القتال ، وكان للمسلمين شرف النصر والتأييد في أول معركة بين الكفر والإيمان وتأتي غزوة أحد ، ونرى حمزة عم النبي قد وكل إليه أمر الجيش الإسلامي يدبر شؤونه وينظم تعبئته بإشراف النبي الكريم ، وكانت نار الثأر تغلي في صدر هند بنت عتبة الذي قتله حمزة في بدر ، فتآمرت مع وحشي أن يقتل محمداً أو حمزة أو علياً ، وجعلت له ، إن نفذ ذلك ، جائزة مغرية ، ويستطيع وحشي هذا أن يقتل حمزة غدراً لأنه ليس من أقرانه وجهاً لوجه .

ويكون حمزة في عداد الشهداء الأبرار بل يقول عنه النبي الكريم : « سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب .. » وتتابع قريش ظلمها وقسوتها فتمثل بحمزة تمثيلاً مؤلماً يتنافى مع أبسط قواعد الإنسانية ونظم الحرب . ويغضب النبي الكريم لما رأى في عمه أسد الله وسيد الشهداء ، ويقسم لئن أمكنه الله منهم ليمثلن بسبعين ، ولكن الله عز وجل الذي أدب رسوله فأحسن تأديبه ، رده إلى الخلق الكريم ، وأوقفه عند الاعتدال ، فأنزل عليه : ﴿ وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ماعوقبتم به ، ولئن صبرتم لهو خير للصابرين .... ﴾ فيثوب إلى القلب الكريم مافارقه من العفو ، ويعود إلى النفس الكبيرة ماندَّ عنها من الصبر ، ويكفِّر النبي عن يمينه ، بل يدعو قاتل عمه إلى الإسلام ، ويرغبه في عفو الله وغفرانه .

أخرج الطبراني عن ابن عباس قال : بعث النبي إلى وحشي بن حرب قاتل حمزة يدعوه إلى الإسلام ، فأرسل إليه : يامحمد كيف تدعوني ، وأنت تزعم أن من قتل أو أشرك أو زنى ﴿ يلق أثاماً يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيها مهاناً ﴾ ، وأنا قد صنعت ذلك كله ، فهل تجد لي من رخصة ؟! فأنزل الله عز وجل : ﴿ إلا من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً فأولئك .. ﴾ فقال وحشي : يامحمد ، هذا شرط شديد : ﴿ إلا من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً ﴾ ، فلعلي لاأقدر على هذا . فأنزل الله عز وجل ﴿ إن الله لايغفر أن يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء ﴾ فقال وحشي : يامحمد ، هذا معلق على المشيئة ، فلا أدري أيغفر لي أم لا ؟ فأنزل الله : ﴿ ياعبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لاتقنطوا من رحمة الله ، إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم ﴾ .

فرحم الله حمزة سيد الشهداء ، فقد كان هو أول قائد ، وكان لواؤه أول لواء .

☆ ☆ ☆

سورة الانفطار

...من سور القرآن الكريم سورة قصيرة ، عدد آياتها تسع عشرة آية ، هي سورة الانفطار ، نزلت قبيل الهجرة فهي سورة مكية ، ومعلوم أن ما نزل من القرآن الكريم قبل الهجرة فهو مكي وما بعدها مدني .

أيها الأخوة والأخوات ، هذه السورة تشتمل على أربعة أغراض ، ترمي كلها إلى مقصد واحد .

١ ـ وصف شيء من أهوال يوم القيامة .
٢ ـ بيان تقصير الإنسان تلقاء إنعام الله عليه بتمام خلقه .
٣ ـ بيان إحصاء الملائكة أعمال الإنسان .
٤ ـ بيان الثواب والعقاب في الآخرة .

أما المقصد الذي ترمي إليه هذه الأغراض فهو إثبات الحساب في الآخرة على الأعمال من خير وشر ، وهو مقصد رئيسي هام ، نَوّع القرآن الكريم أساليبه ، في كثير من السور المكية التي كانت تغرس العقائد في النفوس .

وإن من يمعن النظر في الكتاب الكريم يلمس بوضوح عناية القرآن بمشاهد القيامة ، من بعث وحساب وثواب وعقاب ، يرى ذلك في الآيات الكريمة مصوراً تصويراً دقيقاً ، تصحبه الروعة والمهابة ، فيه مشاهد الشقاء والعذاب الأليم ، كما فيه مناظر مبهجة للسعادة والهناءة ونضرة النعيم .

أخي الكريم ، تعال معي الآن لنتبع آيات السورة بشيء من التوضيح بقدر

مـا يسمـح الـوقت لـذلـك : ﴿ إذا السماء انفطرت ﴾ انشقت ﴿ وإذا الكـواكب انتثرت ﴾ تسـاقطت وتبعثرت ، ﴿ وإذا البحـار فجرت ﴾ ثـارت وطغت ، ﴿ وإذا القبور بعثرت ﴾ نبشت ﴿ علمت نفس ماقدمت وأخرت ﴾ .

هكذا بسرعة وإيجاز تـأتي حوادث القيـامـة تترى ، فتملـك قلب السامع ، وتطغى على مشاعره ، ويدرك من فوره أن ذلـك اليوم الـذي تعلم فيـه كل نفس ماقدمت من أعمال ، وماأخرت منها ، يدرك من فوره أنه يوم رهيب فيـه تقرير المصير وله مابعده .

إن المـؤمن ليعلم أن هـذا الانفطــار ، والانتثــار ، والتفجر ، والتبعثر أمـور لامحالة واقعة ، لايرتاب في وقوعها إلا غر أو ملحد أو جاحد .

ذلـك لأن العقل السليم ، والتفكير الصحيح ، يـدرك أن هـذا العـالم لم يكن عبثاً ، وأنه من الممكن زواله بعد أن جد من العدم ، لأنه حـادث يمكن أن يزول بحادث رهيب ، يزلزله زلزالاً ، ويبعثره بعثرة ، ويجعله هباء .

نعم ، إن ذلك ممكن عقلياً وعلمياً . فقـد قرر العلمـاء أن الكواكـب في انحلال دائم إلى شعاع ، وأن الشمس مثلاً لتقل وزنا في جـاذبيتهـا تبعـاً لـذلـك ، فيكون عالمنا متجهاً إلى الانقضـاء ، فليس بمستنكر إذا علّمنـا القرآن أن السماء ستنفطر ، وأن الكـواكب ستنثر ، وأن البحـار ستنفجر ، وأن القبـور ستبعثر ، وأن ذلـك سيكون تحقيقاً لعدالة الله المطلقة التي تجزي كل نفس بما كسبت .

ولـو أن حـاكماً في الأرض ترك المحسن بـدون ثنـاء وتقـدير ومكافـأة ، وترك المسيء بدون عقاب وتقريع ومحاسبـة ، لنسب إلى الظلم ومجـاوزة العـدل ، فكيف بأحكم الحاكمين وأعدل العادلين .

بعد هذا التقرير الإلهي لانقضـاء الكون ، وانتهـاء الحيـاة الـدنيـا ، جـاءت الآيات الكريمة تـذكر الإنسـان بخلقـه وتكوينـه ، واعتـدال صورتـه ، وانسجـام

تركيبه ، ليذكر خالقه ويذكر عظمته وقدرته فينقاد لأمره ويحذر من مخالفته ، ﴿ ياأيها الإنسان ماغرك بربك الكريم الذي خلقك فسواك فعدلك ، في أي صورة ماشاء ركبك ﴾ .

ياأيها الإنسان ماغرك بربك الكريم ؟ سؤال لاأتصور أن إنساناً واعياً يسمعه إلا ويطأطئ الرأس خاشع القلب ، ساكن النفس ، تائباً نادماً مقلعاً عن عصيانه ، وكفره وضلاله .

ذلك لأن الإنسان المفكر المتأمل كلما نظر في خلقه وتكوينه وتركيبه وما أودع فيه من عجائب وغرائب تدل على دقة الصنع ، وإحكام التناسق ، كلما تأمل في ذلك اتصل بربه وأذعن لحكمه ، وأيقن أن هذا الهيكل الإنساني ، وما فيه من أجهزة مختلفة ، لا يمكن أن ينشأ مصادفة ، ولابد من حكيم عليم قادر أوجد هذا الهيكل وأمده بالحياة والحركة الدائبة ، وثبت لديه أن الخالق في أحسن تقويم إنما هو الله العلي العظيم ،القائل ﴿ وفي أنفسكم أفلا تبصرون ﴾ . ﴿ خلقك فسواك فعدلك ... ﴾ .

فكر أيها الإنسان في أطرافك وأشكالها وآليتها وحركتها فكر في صدرك وبطنك وظهرك ، وما في الصدر مثلاً من رئتين وقلب ، وما في البطن من كبد وكليتين وطحال ، إلى غير ذلك مما يحميه الجدار البطني . فكر في السلسلة الفقرية في ظهرك التي تشمل النخاع الشوكي الذي تتفرع منه الأعصاب إلى أنحاء جسدك جميعاً .

فكر في الدم ودورته العجيبة التي تتدفق من القلب إلى جميع أنحاء الجسم ، وهو يحمل معه مولد الحموضة الضروري لحياة الأنسجة وتقويتها ، فكر في عملية الهضم العجيبة التي تجعل طعامك سائغاً للأوعية الدموية .

فكر في رأسك ومافي ظاهره من أجهزة للاستقبال والإرسال والأخذ

والإعطاء ، ومافي باطنه من مخ وغيره ، ذلك المخ الذي هو مبعث القوى العقلية والعصبية للإنسان .

فكر في عقلك الباطن ، فكر في إرادتك فكر في قواك جميعاً ، فكر في روحك التي هي من أمر ربك فكر في ذلك كله ، واعلم أن هذه النعم الكبرى العجيبة هي صنع الذي خلقك فسواك فعدلك في أي صورة ماشاء ركبك . وأمام هذه الحقائق الثابتة الدالة على عظمة الله تعالى ، لم يبق إلا الإذعان والاعتراف وماعداه فهو التكذيب ﴿ كلا بل ... ﴾ .

ثم تعلن الآيات الكريمة بأن على الإنسان رقابة شديدة تسجل عليه كل أعماله وتصرفاته في جميع تقلباته ثم يحاسب عليه يوم القيامة استناداً إلى هذا التقدير الملائكي الذي يحقق العدالة الإلهية ، ولايظلم أحدا . ﴿ وإن عليكم لحافظين كراماً كاتبين يعلمون ماتفعلون ﴾ ثم تكون النتيجة بعد الحساب الدقيق ، والعدل المطلق أن يجازى المحسنون على إحسانهم ، ويعاقب المسيئون على إساءتهم ، وذلك قوله تعالى ﴿ إن الأبرار لفي نعيم ، وإن الفجار لفي جحيم ﴾ ، وقد طمأنتنا الآيات الكريمة بأن ذلك اليوم هو يوم حق وعدل لاوساطة فيه ولامال ولاجاه ﴿ يوم لاتملك نفس لنفس شيئاً والأمر يومئذ لله ﴾ فطوبى لمن ذكر الله وخشي لقاه .

☆ ☆ ☆

الحج

في هـذه الأيـام تتوثب قلـوب المؤمنين إلى زيـارة بيت الله الحرام ، ليـؤدوا فريضــة الحـج التي هي الركن الخـامس من أركان الإسـلام ، وليتعـوا أبصـارهم وبصائرهم بتلك الأماكن المقـدسـة التي انبعث منهـا نور الإيـان ، وانبثقت منهـا تعاليم محمد عليه السلام ، وليطوفوا حول البيت العتيق ، الذي رفع قواعده إبراهيم وإسماعيل .

وليس المسلمون بدعاً في هذه النـاحيـة الاجتماعيـة الكبرى ، فـإن جميع الأمم المتدينة لها محال معينة تجتمع فيها لعبادة الله وتقريب القربات إليه ، قال تعـالى : ﴿ ولكل أمة جعلنا منسكاً ليـذكروا اسم الله على مـارزقهم من بهيـة الأنعـام ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ لكل أمة جعلنا منسكاً هم ناسكوه ﴾ .

كذلـك كان للعرب منسـك هو البيت الحرام بنـاه لهم أبوهم إسماعيل مع أبيـه إبراهيم كما قـال تعـالى : ﴿ وإذ يرفع إبراهيم القواعـد من البيت وإسماعيل ، ربنـا تقبل منا إنك أنت السميع العليم ، ربنا واجعلنـا مسلمين لـك ، ومن ذريتنـا أمـة مسلمة لك ، وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم ﴾ .

وعلى ذلك مضت سنة العرب من لدن إبراهيم وإسماعيل إلى أن بعث الله محمداً ﷺ لكنهم غيروا كثيراً ممـا كان عليـه إبراهيم وإسماعيـل ، فـأشركوا بـالله الأوثـان والأصنام ، ومشوا مع الأضاليل والأوهام .

ولما كانت البعثة المحمدية مجددة لشريعة إبراهيم الذي كان حنيفاً مسلماً ، وما

كان من المشركين ، جعل الله البيت الحرام منسك هذه الأمة ، فأمر بحجه وعمرته حيث يقول تعالى : ﴿ ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً ، ومن كفر فإن الله غني عن العالمين ﴾ .

وكان فرض الحج في السنة السادسة من الهجرة ، وقد خرج عليه السلام للعمرة في تلك السنة فَصُدَّ عن البيت ، وقضى تلك العمرة في السنة السابعة ، وفي السنة التاسعة حج أبو بكر في الناس ، وفي السنة العاشرة جمع عليه السلام بجمهور المسلمين حجة الوداع ، وفيها بين للناس كيفية الحج وقال : « خذوا عني مناسككم » .

كما وردت أحاديث كثيرة عنه عليه السلام تبين فضل الحج وكثرة ثوابه وفوائده ؛ من ذلك مارواه البخاري ومسلم ، من حديث أبي هريرة ، رضي الله عنه ، قال : « سئل رسول الله ﷺ أي العمل أفضل ؟ قال : إيمان بالله ورسوله ، قيل : ثم ماذا ؟ قال : الجهاد في سبيل الله ، قيل ثم ماذا ؟ قال : حج مبرور » .

وروى البخاري أيضاً عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « العمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما ، والحج المبرور ليس له ثواب إلا الجنة » .

وعن جابر رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « الحجاج والعمار وفد الله ، دعاهم فأجابوه ، وسألوه فأعطاهم » رواه البزاز ورواته ثقات .

ومن حديث ابن عمر أن النبي كان يتحدث إلى رجل عن بعض فوائد المناسك فكان من كلامه عليه السلام أن قال للرجل : « وأما وقوفك عشية عرفة ، فإن الله يهبط إلى سماء الدنيا فيباهي بكم الملائكة ، يقول : عبادي جاؤوني شعثاً من كل فج عميق ، يرجون جنتي ، فلو كانت ذنوبكم كعدد الرمل أو كقطر المطر ، أو كزبد البحر ، لَغفرتها ، أفيضوا عبادي مغفوراً لكم ولمن شفعتم » .

هذه بعض الفوائد الخاصة لهذه الفريضة المقدسة ، أما فوائدها العامة فهي أكثر نفعاً ، وأشد إصلاحاً ، وأي شيء أنفع من هذا المؤتمر العام يفد إليه جماهير المسلمين من أنحاء الأرض يتعارفون ، ويتصافحون ، ويتحادثون ، وقد اتحد هدفهم ، وتوحد نسكهم ، وتوحدت قبلتهم ، فلا عجب أن يكون يوم الحج الأكبر يوم عيد للمسلمين كافة ، لأنه تذكار لتلك الوحدة الشاملة التي جمعت المسلمين ، وألفت بين قلوب العرب ، فأصبحوا بنعمة الله إخوانا .

إن العبادات في الإسلام ليست مجرد طقوس دينية ، يؤديها المؤمن خالية من الأغراض السامية جامدة جوفاء فهي ـ فضلاً عن أنها تعبير عن الإقرار بالعبودية وإظهار الطاعة والانقياد لأوامر الله تعالى ـ هي دروس عملية تهذيبية تغرس في نفس المسلم الأخلاق الفاضلة ، والمزايا الحميدة ، وتبعث فيه العزة والقوة والإباء وفرض على المسلم خمس صلوات في اليوم لتنهاه عن الفحشاء والمنكر فيكون عضواً صالحاً في المجتمع ﴿ إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ﴾ .

وفرض الزكاة ليطهر النفس من أدران البخل والشح ، ويعلمها العطف والمساواة ﴿ خذ من أموالهم صدقة تطهرهم بها وتزكيهم ﴾ وفرض الصوم ليشارك الفقراء والمستضعفين في مرارة الجوع وألم الحرمان ، فيمد إليهم يده بالمساعدة والعون .

وفرض الحج ليكون هجرة إجبارية تتجلى فيها روح المساواة والتعاون بأجلى مظاهرها ، وأحسن صورها ، في مؤتمر عالمي يضم ، جميع العروق والأجناس واللغات ، ومختلف الهيئات والطبقات ، في صعيد واحد ونشيد واحد .

إنه مؤتمر يقصده المؤمنون الصادقون وهم يحملون أوزارهم ، فيعودون منه وهم يحملون أنوارهم ، يقصدونه ملوثين بآثام حياتهم وتقلباتهم ، فيعودون

طاهرين بريئين كيوم ولدتهم أمهاتهم ، يقصدونه متفرقين متناكرين ، فيرجعون متعارفين متحابين .

إنه مؤتمر يدعو إلى التقدير والإعجاب في واقعه ومظهره ، إنه يعبر عن الرجولة والقوة والزي البسيط الموحد : الزي المشعر بالمساواة العامة الشاملة ، فلا كبير في المؤتمر ولاصغير ولاتفاوت في اللباس بين غني وفقير ، وفي هذا رد للناس إلى البساطة ليعزفوا عن السرف الذي يهدم كيان الأمة ويقتل رجولتها .

ماأجدر المسلمين ـ وهم يؤدون مناسك الحج ـ أن يتأملوا فيما ترمز إليه تلك المناسك من إرشاد وتوجيه ، فإن كل عمل من أعمال الحج ينهض بالمسلم ليجعل منه إنساناً قوياً عزيزاً مندفعاً في الحياة كأحسن مايكون .

ألا ترون إلى هذا الطواف مثلاً ! يطوف المسلم سبعاً في دائرة لاتنتهي إلا لتبتدئ ، وكأن المؤمن حين يطوف وهو يقول :« الله أكبر ، اللهم إيمانا بك ، وتصديقاً بكتابك ، ووفاء بعهدك ، واتباعا لسنة نبيك » كأنه حين يقول ذلك ، إنما يعاهد الله في بيته الحرام على أن يستمر في معظم حياته بالسعي الدائب ، والحركة المستمرة ، والجهاد الدائم حتى آخر حياته وانتهائها .

وفي عرفات يرى الإنسان نفسه أمام هذا الحشد الجماهيري الكبير ، تردد أرجاء عرفات هتافه الموحد : (لبيك اللهم لبيك ، لبيك لاشريك لك لبيك ، إن الحمد والنعمة لك والملك ، لاشريك لك) ، وهنا تأتي رحمة الله الواسعة فتعم هذه الجماهير التي تهتف معلنة الطاعة والخضوع والإقرار لله عز وجل بالعظمة والنعمة والملك .

نسأل الله عز وجل أن يزيد المسلمين والعرب تآلفاً ومحبة وعزة وقوة ، إنه سميع مجيب .

من أخبار أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه

إن الأمم الناشئة في مبدأ نهوضها وتكوينها تحتاج إلى نوع من الشخصيات المثالية البارعة ، التي تسعى بحزم ونشاط إلى تكييف المبادئ الجديدة ، وتطبيقها تطبيقاً عملياً ، بحيث تصبح أمراً واقعاً ، تعمله الجماعة ، ويحرص عليه الأفراد .

ولن تتقدم الأمة المتطورة سراعاً إلا إذا خرجت من طور المعارف النظرية ، إلى دور التمثيل العملي الذي يصور للأمة مثلها العليا حية متحركة ناطقة ، ليكون ذلك أسرع في توجيهها توجيهاً صادقاً إلى تحقيق تعاليمها ، وتطبيق أهدافها ، وفرض شخصيتها على الحياة ، بما لها من أفكار وأخلاق وآداب وتشريع .

وقد كان سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه أعلى مثل لشخصيات قادة الفكر في تاريخ الإسلام من جهة التطبيق العملي في صرامة وحزم ، أتعب من جاء بعده من أبطال الإسلام وقادة الفكر ، ولم يبلغوا شأوه ، وبقيت حياته كالشمس يقع الناس تحت أشعتها ، ولا ينالون موضعها .

وهذه الصرامة في تطبيق المبادئ الحقة هي موطن التفرد في عظمة « الفاروق » وهي التي وطأت للإسلام في عهده مكاناً من الحياة والمجتمع الإنساني لم يشهد التاريخ مثله لدين من الأديان ، ولا لدولة من الدول .

وفي حديثي هذا أريد أن أبين للمستمع الكريم بشيء من الإيجاز عظمة « عمر » في التمسك بالحق ، وحبه له ، وصرامته في تنفيذه ، وتطبيقه بين أفراد

الرعية على أساس العدل والمساواة . فهو منذ ألبسه الله بالإسلام رداء الحق ، اشرأبت نفسه إلى الكمال ، وسعى إليه ، بهمة لاتعرف التردد ولا الملل ، فلما ولاه الله أمر المسلمين ، وجعله ثاني الخلفاء الراشدين ، تجلت للناس عبقريته الملهمة الصارمة في عدالة لم يعرفها البشر من قبل مجيء عمر الذي غذي بتعاليم الإسلام .

وهل عرفت الإنسانية في تاريخها الدولي ، وحياتها الاجتماعية ـ قبل خلافة « عمر » أن ملكاً أورئيساً في أية صورة من صور الحكم ، يمتد ملكه ، وتخفق بنوده على أرقى ما عرف من ممالك الأرض ، ثم يرى نفسه أنه « عبد » لرعيته يحوطها ، ويرعاها رعاية العبد لسيده الكريم ؟!

روي أن الأحنف بن قيس قدم على عمر بن الخطاب في وفد من العراق ، فصادفه في يوم صائف شديد الحر ، وهو محتجز بعباءة يهنأ بعيراً من إبل الصدقة : فقال : ياأحنف ضع ثيابك ، وهلم فأعن أمير المؤمنين على هذا البعير ، فإنه من إبل الصدقة ، فيه حق لليتيم ، والمسكين ، والأرملة فقال رجل من القوم : يغفر الله لك ياأمير المؤمنين ! فهلاً تأمر عبداً من عبيد الصدقة فيكفيك هذا ؟! فيجيبه « عمر » : « وأي عبد أعبد مني ومن الأحنف ؟ إنه من ولي أمر المسلمين فهو عبد المسلمين ، يجب عليه لهم مثل مايجب على العبد لسيده من التضحية وأداء الأمانة » .

فلينظر المتشدقون بالديمقراطية الزائفة ، كيف تكون الديمقراطية الحقة على يد أعظم حاكم لأعظم دولة ، فهو لايغنيه في أداء واجبه لرعيته ، أن يقوم في حاجات أفرادها ومواساتهم ، بل يتتبع الجربى من إبل الصدقة يداويها بنفسه ، لأن فيها حقاً لليتيم والمسكين والأرملة ، وهو إنما يصنع ذلك تقديراً لمكانه من الأمة ، وحفظاً لبيت مال المسلمين ، أو خزينة الدولة بلغة العصر الحديث ، وليكون مثلاً صالحاً لمن يتولى من أمور المسلمين شيئاً .

وإنه لتوجيه قيم أن يشرك الأحنف بن قيس معه في هذه المهمة ، دون غيره

من عامة المؤمنين ، وهو رئيس الوفد ، وقد أراد بهذا التوجيه أن يفهم المسلمون أن عظماءهم ، ورؤساءهم ليسوا إلا أفراداً منهم ، بل هم أثقل كاهلاً بواجبات رياستهم ، وبما حملوه من أمر الأمة ورعايتها .

ومن هو الأحنف الذي يعلمه عمر التواضع ، ويمرنه على خدمة المسلمين ؟ إنه سيد بني تميم المسموع الكلمة ، المطاع الأمر ، الذي قال فيه معاوية رضي الله عنه ـ وقد دخل أيام ملكه وسلطانه فأغلظ له في القول ، ومعاوية يصفح ويلين ، حتى لامته أخته ، وكانت تسمع كلام الأحنف من وراء حجاب ، فقالت : ياأمير المؤمنين ، من هذا الذي يتهدد ، ويتوعد ؟!

قال معاوية : « هذا الذي إذا غضب ، غضب لغضبه مئة ألف من بني تميم لايدرون فيم غضب » .

ولكنه مع ذلك كله لم يسعه إلا أن يتمثل أمر « عمر » ويضع ثيابه ليهنأ بعيراً من إبل الصدقة ، ذلك هو التوجيه العملي الواقعي الذي يرقق الشعور ، ويخلق القادة ، ويحكم القيادة ، وفي ذلك من عوامل التكوين الخلقي مايسمو على تلك النظريات الجوفاء ، التي لاتتعدى صفحات الكتب ، وليس لها إلى القلوب سبيل .

لقد كان « عمر » ، رضي الله عنه ، يحذر أشد الحذر من المظالم ، فيحاسب نفسه ، ويسلمها للقصاص ويجتهد في أن يلقى الله تعالى ، وليس لأحد عنده مظلمة .

كان مرة ماشياً في الطريق ، وقد أهمهُ أمر من أمور المسلمين ، فلقيه رجل ، فقال : « ياأمير المؤمنين ، انطلق معي ، فأعدني على فلان ـ أي خلص حقي منه ـ فإنه ظلمني » .

ولما كان عمر مهتماً بالأمر الذي هو في سبيله ، غضب من سؤال الرجل ،

ورفع الـدرة ، فخفق بهـا رأسـه ، وقـال : تـدعون عمر وهو معترض لكم ، حتى إذا شغل بـأمر من أمـور المسلمين أتيتمـوه ، أعـدني ، أعـدني ، فـانصرف الرجـل وهـو يتـذمر ، ولكن سرعـان مـانـدم عمر ، ولام نفسـه ، وقـال : عليَّ بـالرجـل فحضر فـألقى عمر إليـه الـدرة ـ العصـا ـ وأمره أن يقتص ، فقـال الرجـل : لا ، ولكن أدعها لله ولك قال عمر : ليس كذلك ، إما تدعها لله وإرادة ماعنـده ، أو تـدعهـا لي فأعلم ذلك ، قال : أدعها لله .

قـال راوي الخبر : ثم جـاء عمر يمشي حتى دخل منزلـه ، ونحن معـه فـافتتـح الصـلاة ، فصلى ركعتين ثم جلس فقـال : يـابن الخطـاب ،كنت وضيعـاً فرفعـك الله ، وكنت ضالاً فهـداك الله ، وكنت ذليلاً فـأعزك الله ، ثم حملـك على رقـاب المسلمين ، فجاءك رجل يستعديك ، فضربتـه ، مـاتقول لربـك غـداً إذا لقيتـه ؟ يقول راوي الخبر : فجعل يعاتب نفسه معاتبة ظننت أنه من خير أهل الأرض .

لقد كان ، رضي الله تعالى عنه ، يشعر بضخامة العبء الذي حملـه ، وبكثرة الحقوق والواجبـات التي ألقيت على عـاتقـه . فهو يعتقـد أنـه مسؤول عن رعيتـه كبيرها وصغيرها حتى الحيوانات فيها .

خطب مرة فقال : « والذي بعث محمداً بالحق ، لو أن جملاً هلك ضياعاً بشط الفرات لخشيت أن يسأل الله عنه آل الخطاب » .

وخرج مرة في سواد الليل ، فرآه طلحة ، فدخل عمر بيتاً ، وأصبح طلحة ، فذهب إلى ذلك البيت ، فإذا عجوز عمياء مقعدة ، فقال لها : « مابال هذا الرجل يدخل عليك ؟ » قالت : إنه يتعاهدني منـذ كـذا وكـذا ، يـأتيني بمـا يصلحني ، ويخرج عني الأذى ، فقال طلحة : ثكلتك أمك طلحة ! أعثرات عمر تتبع ؟؟! »

وكان رضي الله عنه يختار عماله وولاته من أصلح النـاس وأتقـاهم ، ومع هـذا كان شديد الرغبة في أن يشرف على أحوال رعيته من كثب ، فقـد روي عنـه أنـه

قال : لئن عشت إن شاء الله لأسيرن في الرعية حولاً وإنني أعلم أن للناس حوائج تقطع عني آمالهم فلا يصلون إليَّ ، وأما عمالهم فلا يرفعونها إليَّ ، فأسير إلى الشام فأقيم بها شهرين ، ثم أسير إلى مصر فأقيم بها شهرين ، ثم أسير إلى البحرين فأقيم بها شهرين ، ثم أسير إلى الكوفة فأقيم بها شهرين ، ثم أسير إلى البصرة فأقيم بها شهرين .

وكان إلى جانب هذه الحساسية المرهفة ، والضمير الحي اليقظ ، يتحلى بكل صفات الرجولة الكاملة من شجاعة ، وقوة إرادة ، وقوة جسمية ، ومهارة في الفروسية ، فهو جندي ممتاز من كافة الوجوه .

روي أنه كان يأخذ بأذن الفرس ، ويأخذ بيده الأخرى أذنه ، ثم ينزو على متن الفرس وكان يصارع في سوق (عكاظ) ، وكان ضخماً طويلاً جسيماً يسرع في مشيته ، غليظ القدمين ، والكفين ، فارساً ماهراً ، مفتول العضل ، قوي الشكيمة ، مدرباً تدريباً ممتازاً على استعمال السلاح .

وقد عانى فنون الحرب ، وخبر كثيراً من النظم العسكرية ، فمر بمراحلها جندياً ، ومهر فيها قائداً فقد كان قبل إسلامه وكأي عربي ليس غريباً عن ساحات الوغى وأخبار الحروب ، غير أن هذه المعلومات البدائية صقلت وهذبت وكملت ، بالممارسة الفعلية تحت قيادة سيد القادة وقائد السادة محمد عليه الصلاة والسلام .

شهد عمر تحت لواء الرسول القائد المشاهد كلها ، وولاه النبي ﷺ ، قيادة سرية من المسلمين ، فأظهر فيها من الحنكة العسكرية ، والقواعد الحربية ، مايعجز عنه خريجو كليات الحرب العسكرية ؛ لقد كان ابن مسعود محقاً في وصفه حين قال : كان إسلام عمر فتحاً ، وكانت هجرته نصراً ، وكانت إمارته رحمة .

إمبراطورة الصحراء

يتحامل كثير من الحاقدين والمغرضين والشعوبيين على العرب ، ويتهمونهم ظلماً وعدواناً بصفات لاتمت إلى الإنسانية بصلة ، وليت هؤلاء المتحاملين والحاقدين اقتصروا بنسبة هذه الصفات الذميمة على بعض أفراد من العرب ، إذاً لفعلوا شيئاً من الإنصاف والحق ، وكان العرب كغيرهم من كل أمة من أمم الدنيا ، لاتخلو من أفراد يتنكبون الجادة ، ويبتعدون عن كريم الخلق ، وسبيل المجد ، ولا يعيب ذلك الأمة العربية ، ولا ينقص من مجدها وكرامتها ومكانتها .

الحكم على الأمة بالعظمة والمجد والخلود ، أو بعكس ذلك ، إنما يكون بالنظر لمجموعها ، ولنظمها ، وتقاليدها العامة ، وإننا لدى البحث الدقيق ، والنظر المنصف ، نجد أن العرب قد انطووا في مجموعهم على كثير من خصال الخير والبر والكرم والنجدة ، وحتى الرحمة والعطف والحنان والرأفة بالبؤساء والمعوزين ، على الرغم مما يفهم الكثير من الناس أن العرب مفطورون على القسوة والغلظة والشدة وما إلى ذلك .

وإذا كان في العرب أفراد يئدون البنات خشية العار ، ويقتلون الأولاد مخافة الإملاق ، فإن فيهم من يبذل أعز مايملك من كرائم الأموال لإنقاذ هؤلاء البنات والأولاد ، وتخليصهم من براثن الموت ليتمتعوا بحياة هانئة وديعة .

بعد هذه المقدمة القصيرة سأعرض أمام عينيك ـ أيها القارئ الكريم ـ نموذجاً من أفراد هذه الأمة العربية الخالدة ، يعبر عما يكمن في نفوسها من خير وبر

وهدى وتقى وإيمان ، حتى إذا أثيرت هذه الخصال العالية الكامنة في النفوس ، ووجدت داعياً لإبرازها ، أوسبباً لإثارتها ، برزت كأشد مايكون قوة واندفاعاً .

وهذا النموذج الذي سأقدمه ستجده ـ أيها القارئ العزيز ـ في شخص امرأة عاشت في فترتين من الزمن ، وأدركت عهدين مختلفين : عهد جاهلية قاتمة مظلمة ، وعهد إسلام مشرق وضاء ، فكانت في كلا العهدين مثالاً حياً للإنسان الكامل ، والضمير اليقظ ، والإحساس المرهف ، والاستجابة السريعة لدعوة الحق ، ونداء الإيمان ، هذه المرأة هي « خديجة بنت خويلد » .

لقد أخذت خديجة بنت خويلد لقبين عظيمين نالتهما عن استحقاق وجدارة ، اللقب الأول هو ماكان يصفها به العرب معاصروها : (سيدة قريش ؛ الطاهرة) واللقب الثاني هو ماوصفها به مؤرخو الرومان : (امبراطورة الصحراء) .

ذلك لأن السيدة القرشية نشأت في بيت مجد ورياسة ، وتخلقت بأرفع الأخلاق وأكرمها ، فكانت معروفة بالحزم ، وجودة الرأي ، ورجاحة العقل ، والعفة والطهارة ، والشرف ، والعطف ، والمواساة ...

يضاف إلى هذا أنها كانت ذا مال عظيم وثروة ضخمة ، لذلك كانت تتمتع بشهرة واسعة في الشام ، والعراق ، وفارس ، والروم ؛ لعراقة بيتها في الشرف من ناحية ، ولاستيلائها على تجارة العطور والديباج والحرير في الهند واليمن وبلاد الفرس ، من ناحية أخرى .

وكانت قوافلها التي تعد عشرة آلاف من الجمال تنقل التجارة إلى أسواق البلاد الهندية ، فيقبل تجار هذه الأسواق على شرائها واقتنائها ، بل لقد كان لخديجة عمال من الروم والغساسنة والفرس ، في دمشق والحيرة والقسطنطينية ، وفي عاصمة كسرى .

وكانت تسكن بيتاً فخماً في مكة ، مؤلفاً من طابقين ، وقد كثرت فيه النوافذ والشرفات المصنوعة من المرمر ، وأحدقت به أبراج من القرميد الأحمر تماثل أبراج القصور في الهند وفارس ، وقد خصص في هذا البيت أمكنة للضيوف ، ورجال القوافل الذين كانت تستأجرهم ليصحبوا تجارتها إلى الشام وإلى العراق ولم يكن في مكة بيت يماثل بيت خديجة في العظمة والأناقة إلا بيت عبد الله بن جدعان شيخ القرشيين إذ ذاك وزعيمهم .

ولكن هل كانت هذه الثروة الضخمة ، وهذا الجاه العريض ، حاملاً لخديجة على الكبرياء والعظمة والترفع والأنانية ؟؟!

كلا !! إنها كانت معروفة في مكة كلها بإحسانها إلى البائسين ، وعطفها على الفقراء والأيتام والمعوزين ، حتى جعل الآباء الذين لايجدون مايقيم أود أبنائهم ، ولايحصلون من العيش على مايكفل لهم سعادتهم ؛ جعلوا يغشون دار خديجة حاملين إليها أبناءهم الجياع ، فلا تتردد تلك المرأة الشريفة في قبولهم ، ليجدوا في بيتها من الخدمة والعناية والسعة مالا يجدونه في بيوت آبائهم التعساء .

لقد كانت خديجة أماً لطفل صغير مات عنه أبوه وهو في ربيعه الثالث فحبته خديجة العطف كله ، والحب كله ، والشفقة كلها ، ومن أجل ذلك الطفل أحبت خديجة الطفولة في الفقراء والبائسين ،فكانت تزور بنفسها بيوت المعوزين في مكة فتحول بؤسهم إلى سرور ، وضيقهم إلى سعة ، وشقاوتهم إلى سعادة ، بما تسديه إليهم من مال ومتاع وطعام ، ثم ترجع خديجة بعد عملها هذا إلى بيتها ، مرتاحة الضمير ، هادئة النفس بما قامت به من بر ومواساة ، ثم لتكرر هذا العمل الإنساني الذي ينبعث من نفسها بدافع حب الخير ، والرغبة في الإحسان ، كلما وجدت حاجة لذلك أو مناسبة تدعو إليه .

وقد روى المؤرخون الكثير من الحوادث التي تدل على مالهذه المرأة من

مساهمة كبرى في ميادين البر والإحسان ، وإليك أيها الأخ الكريم هذه الحادثة بشيء من الإيجاز والاختصار .

هناك في سوق عكاظ حيث يتوافد إليه الشعراء والحكماء والأدباء ، التقى ورقة بن نوفل حكيم العرب بامرأة صارخة ضارعة ، تستغيث وتستجير ، وعلم منها أن زوجها حلف عليها إن هي وضعت أنثى ليقتلنها هي ووليدتها ، وقد اقتربت من أيام الولادة وهي تخشى فتك زوجها بها ، فأحضر ورقة زوجها ، وما زال به يعظه وينصح له حتى لان قلبه وخشعت نفسه ، وشكا إلى ورقة ، أن الحامل له على ذلك إنما هو ضيق العيش وتجهم الحياة ، فقال له ورقة : لاعليك ، اذهب أنت وزوجك إلى بيت خديجة ، فستجدان فيه ماينعشكما ويسعدكما ، وذهب الرجل إلى بيت خديجة ، وقص عليها الخبر ، وإذا بها تتلقاه هو وزوجه كأنها منهما على موعد ، وتهيئ لهما غرفة في بيتها ، لتلد زوجته بعد قليل طفلة ، ويكون الرجل عاملاً على تجارة خديجة مع عمالها ، وتكون المرأة واحدة من هؤلاء الكثيرين الذين يؤويهم بيت هذه المحسنة ، ويكفل لهم ولأبنائهم كل مايحتاجون إليه .

هذه صورة موجزة عن خديجة المرأة العربية ذات الثراء ، المواسية المحسنة .

أما خديجة المسلمة ، التي كانت وزير صدق لمحمد رسول الله ، والتي كانت أول الناس إيماناً به ، والتي وهبت ثروتها كلها لله ولرسوله ، فسنتكلم عنها في حديث قادم ، إن شاء الله وإلى اللقاء .

خديجة المسلمة أم المؤمنين

في حديث سابق تكلمت عن خديجة العربية : إمبراطورة الصحراء ، وذكرت ماكان لها من ثروة واسعة وجاه عريض ، ثم بينت ماانطوت عليه نفسها الكريمة من رحمة بالضعفاء ، وبر بالمساكين ، ومسارعة لإسعاد البؤساء ، وإغاثة المنكوبين .

ولاشك أن النفس التي تنطوي على مجموعة صالحة من خصال الخير والبر ، لابد أن تهتدي إلى كل صالح ومفيد ، ولابد أن توفق في حياتها ، ويكون لها من عمل الخير نور يشع لها الطريق ، ويبدد الظلمات ، وكذلك كانت خديجة العربية ، تنتقل من حسن إلى أحسن ، ومن رفعة إلى مجد حتى بلغت القمة ، وفاقت الأقران ، وأصبحت زوجاً لسيد المرسلين ، وأمّاً للمؤمنين ، وسيدة نساء العالمين .

ولكن كيف كان ذلك ، وكيف توصلت خديجة إلى هذا الشرف العظيم ...؟

هذا ماأريد أن أوضحه في مقالي راجياً أن أصل بالقارئ الكريم إلى خلاصة سائغة عن هذه المرأة التي أرادت الخير للناس ، فأراد الله لها الخير ، وكافأها أعظم مكافأة ... ففتح عينها للنور وقلبها للهدى ، ووفقها إلى سواء السبيل .

كان من أبرز الرجال الذين كانت تستأجرهم خديجة ، والغلمان الذين يسيرون مع تجارتها ، غلام اسمه ميسرة ، وكانت خديجة تعتمد عليه في شؤون

تجارتها ، وتطمئن إليه في تقلباته وتصرفاته ، كما أنه كان أميناً حازماً صادقاً ، جعلته موضع ثقتها ، ومديراً عاماً لتجارتها .

ولكن خديجة بدأ يطرق سمعها اسم جديد يتحدث عنه الجميع في كل ناد ، وفي كل حفل ، وفي كل مكان يتحدثون عن صدقه ، وأمانته ، وكرم أخلاقه ، وعراقته في النبل والشرف والمجد ، ذلك الاسم الجديد هو اسم « محمد بن عبد الله » ورغبت خديجة في أن يكون « محمد » مع أولئك الرجال الذين تصطنعهم في مالها ، ويسيرون في تجارتها ، على أجر معلوم .

فعرضت خديجة على « محمد » أن يخرج تاجراً مع غلامها ميسرة على أن تعطيه أفضل ماكانت تعطي غيره ، فقبل « محمد » ذلك وخرج في تجارتها ومعه ميسرة حتى أتى سوق بصرى بالشام ، فباع واشترى ، وقفل راجعاً إلى مكة بعد أن ربحت التجارة ضعف ماكانت تربح ، فسرت خديجة بذلك ، وأعطته ضعف ماشرطت له .

ولكن الأمر لم يقف عند هذا الحد من نجاح التجارة وربحها ، بل أراد الله لخديجة ماهو أفضل وأرفع ، فقد حدثها غلامها ميسرة عن « محمد » ورقة شمائله ، وجمال نفسه ، وعن المستقبل المشرق الذي ينتظره ، بل لقد حدثها عما رآه في رحلته مع محمد من الغرائب ، وعما سمعه من الرهبان في شأنه ، وكان من جملة حديثه أنه قال لها : لقد نزل محمد في ظل شجرة عن كثب من منسك لراهب نصراني فخرج الراهب إليَّ فقال لي : من يكون هذا الرجل الذي نزل تحت الشجرة ؟ فقلت له : هذا رجل من قريش أهل الحرم : فقال الراهب : مانزل تحت هذه الشجرة قط إلا نبي .

وقال لها ميسرة أيضاً : لقد اشتد علينا وهج الشمس في الصحراء المحرقة أثناء مسيرتنا مما جعلنا نضيق بالحياة ذرعاً رغم أننا أبناء هذه الصحراء ، وقد ألفنا هذا

اللفح المحرق ، فنظرت إلى محمد لأرى مدى تأثره في موجة هذا الحر الشديد ، فراعني الأمر واستولى عليَّ الدهش ، فقد رأيت ملكين يظلانه من الشمس ، وهو يسير هادئاً وادعاً ، كأنما هو في جنات وأنهار .

تحدث ميسرة إلى خديجة بهذا وبأكثر من هذا ، الأمر الذي جعلها تزداد علماً ، وتمتلئ يقيناً بأن « محمداً » يمتاز عن شباب مكة بما لايحصى من الخلق والفضيلة والأمانة ، وبعد النظر ، هذا إلى مايرتقبه من مستقبل عظيم ، وزعامة عالمية عالية .

لذلك انقلب فرحها بربح تجارتها حباً وتقديراً وإعجاباً بهذا الشاب الأمين الناشئ وجعلت ـ وهي في الأربعين من سنها ، وهي التي ردت من قبل أعظم قريش شرفاً ونسباً ـ تود أن تتزوج من هذا الشاب الذي نفذت نظراته وكلماته إلى أعماق قلبها ، وتحدثت بذلك إلى صديقتها نُفَيسة بنت مُنبه ، وذهبت هذه وسيطاً إلى « محمد » فقالت له : « مايمنعك أن تتزوج ؟ قال : « مابيدي ماأتزوج به ، قالت : فإن كفيت ذلك ودعيت إلى الجمال والمال والشرف والكفاءة ألا تجيب ؟ قال : « فمن هي ؟ أجابت نُفيسة بكلمة واحدة : خديجة . قال : « محمد » : كيف لي بذلك !؟ قالت نُفَيسة : عليَّ ذلك . عندئذ سارع « محمد » إلى إعلان قبوله .

وعادت نفيسة إلى خديجة فأعلمتها بما وقع ، فلم تبطئ خديجة أن حددت الساعة التي يحضر فيها « محمد » مع أعمامه ليجدوا أهلها عندها ، وليتم الزواج .

وأرسلت خديجة إلى عمها عمرو بن أسد ليزوجها فحضر ، وجاء اليتيم العظيم « محمد » ـ وكان في الخامسة والعشرين من عمره ـ ومعه عمه حمزة بن عبد المطلب ، وأبو طالب ، ورؤساء مضر ، فخطب أبو طالب فقال : الحمد لله الذي جعلنا من ذرية إبراهيم ، وزرع إسماعيل ، وجعلنا حضنة بيته ، وشوكة حرمه ،

وجعل لنا بيتاً محفوظاً وحرماً آمناً ، وجعلنا الحكام على الناس ، ثم إن ابن أخي هذا محمد بن عبد الله لايوزن به رجل إلا رجح ، وإن كان في المال قل ، فالمال ظل زائل وأمر حائل ، ومحمد ممن عرفتم قرابته ، وقد خطب خديجة بنت خويلد ، وبذل لها من الصداق ...

ولما أتم أبو طالب خطبته تكلم ورقة بن نوفل ، فقال : « الحمد لله الذي جعلنا كما ذكرت ، وفضلنا على ماعددت ، فنحن سادة العرب وقادتها ، وأنتم أهل ذلك كله لاتنكر العشيرة فضلكم ولا يرد أحد من الناس فخركم وشرفكم ، وقد رغبنا في الاتصال بحبكم وشرفكم ، فاشهدوا عليَّ معاشر قريش بأني قد زوجت خديجة بنت خويلد من محمد بن عبد الله على أربعمائة دينار » .

وهنا تبتدأ صفحة جديدة من حياة هذه المرأة الفاضلة النابهة ، التي جمعت إلى جمال الخلق أدب النفس ، وإشراق الذهن ، وشرف العمل ، ووجدت خديجة في اليتيم العظيم أشرف الأزواج شعوراً ، وأصدقهم عملاً ، وأجملهم خلقاً ، وأشدهم لصوقاً بالفضيلة . بل وجدت في اليتيم الكبير أباً شفيقاً ، وصديقاً رفيقاً ، وزوجاً مواسياً .

وتتالت الأيام والأعوام على هذا الزواج الموفق ، فإذا حصاده أطفال كاللؤلؤ المنثور ، فلم يلبث الزوجان أن تعهدا هذه الرياحين النضرة الفواحة بالحب والعطف والرعاية .

ويكرم الله « محمداً » بالرسالة ، فيهبط عليه الملك في غار حراء ، وفي يده صحيفة فيقول له : اقرأ ، ويجيبه « محمد » ماأقرأ ! ويحس كأن الملك يخنقه ثم يرسله ليقول له مرة أخرى : اقرأ ، فيعود « محمد » إلى الجواب نفسه ماأقرأ ... حتى قال له الملك في المرة الثالثة : ﴿ اقرأ بسم ربك الذي خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم ، الذي علم بالقلم ، علم الإنسان مالم يعلم ﴾ .

وارتاع الرسول مما سمع ، ودهش مما رأى ، وجعل يحدق في الأفق ليستوثق من هذا الطيف الذي رآه وإذا به يلوح له واضحاً جلياً في صورة لم تقع العيون على أجمل منها ، ويقول له بصوت نديّ رخيم ، فيه كثير من الأنس واللطف : « يامحمد أنت رسول الله ، وأنا جبرائيل » .

فلما انصرفت صورة الملك رجع محمد ﷺ ممتلئاً بما أوحى إليه ، وفؤاده يَجِفُ وقلبه يضطرب خوفاً وهلعاً ، ودخل على خديجة ، وهو يقول : زملوني زملوني .

وكانت خديجة مثال المرأة الفاضلة في برها بزوجها ، وحدبها عليه ، ومشاطرتها له مفارحه ومناكده ، وقد حبتها السماء إحساساً رقيقاً وشعوراً عالياً ، وحديثاً عذباً تسكن إليه النفوس المتألمة ، فتهافتت على السيد العظيم تعزيه وتواسيه وتطمئنه ـ بعد أن أظهر إليها مخاوفه ، وخشي أن يكون أصابه مايصيب الكهان ـ فاطمأن إلى كلامها ، وسكن إلى حديثها ، وكانت تنظر إليه نظرة ملؤها اليقين والإكبار والإعجاب ، واستعرضت في نفسها بسرعة خاطفة ، ماانطوت عليه نفسه الكريمة من خير وبر وأمانة وصدق ، وماحدثها به ميسرة عن شمائله العظيمة ، فأيقنت أن الله قد أراد به الخير ، واندفعت مصرحة بذلك قائلة له : « أبشر يابن عم واثبت ، فوالذي نفس خديجة بيده ، إني لأرجو أن تكون نبي هذه الأمة ووالله لايحزنك الله أبداً ، إنك لتصل الرحم ، وتصدق الحديث ، وتحمل الكل ، وتقري الضيف ، وتعين على نوائب الحق » .

واطمأن محمد وألقى على خديجة نظرة شكر ومودة ، ثم أحسَّ جسمه متعباً في حاجة إلى النوم فنام ، وانطلقت خديجة إلى ورقة بن نوفل ـ وكان كا قدمنا ـ قد تنصَّر وعرف الإنجيل ونقل بعضه إلى العربية ، فلما أخبرته بما رأى محمد وسمع ، وقصت عليه كل ماحدثها به ، أطرق ورقة ملياً ثم قال : « قدوس قدوس ! والذي نفس ورقة بيده ، لئن كنت صدقتني ياخديجة ، لقد جاءه الناموس الأكبر

الذي كان يأتي موسى ، وإنه لنبي هذه الأمة ، فقولي له فليثبت » وعادت خديجة فوجدت محمداً ﷺ مايزال نائماً ، فحدقت فيه ، وكلها الحب والإخلاص ، وكلها الإشفاق والأمل ، وفيما هو في هدأة نومه إذا به اهتز وثقل تنفسه ، وبلل العرق جبينه ، يقوم ليستمع إلى الملك يوحي إليه :

﴿ ياأيها المدثر ، قم فأنذر ، وربك فكبر ، وثيابك فطهر ، والرجز فاهجر ، ولاتمنن تستكثر ولربك فاصبر ﴾ .

ورأته خديجة كذلك فازدادت إشفاقاً ، وتقدمت إليه في رقة وضراعة أن يعود إلى فراشه وأن ينام ليستريح ، فيجيبها الرسول : ياخديجة ، انقضى عهد النوم والراحة ، فقد أمرني جبريل أن أنذر الناس ، وأن أدعوهم إلى الله وإلى عبادته وحده ، فمن ذا أدعو ، ومن ذا يستجيب لي ؟

فجهدت خديجة تهون عليه الأمر وتثبته ، وسارعت فقصت عليه نبأ ورقة وماحدثها به ، ثم أعلنت إسلامها له ، وإيمانها بنبوته ، من غير تردد ، في شوق ولهف وإعجاب .

وكان طبيعياً أن تسارع خديجة إلى الإيمان به ، وقد جربت عليه طوال حياته الأمانة والصدق وعلو النفس وحب البر والرحمة .

كما كان طبيعياً كذلك أن يحتفظ الرسول الكريم بهذه الخدمات الكبرى والمعونة الصادقة التي قدمتها له هذه المرأة الفاضلة ، والزوجة الوفية ، ويقدرها حق قدرها ، ويكون شديد الوفاء لها والحفاظ على عهدها ، وأن يكثر من ذكرها بعد موتها ، يحرص على صلة أصدقائها من بعدها .

قالت عائشة : إن رسول الله كان لايكاد يخرج من البيت حتى يذكر خديجة فيحسن الثناء عليها ، فذكرها يوماً من الأيام فأدركتني الغيرة ، فقلت : هل

كانت إلا عجوزاً ، فقد أبدلـك الله خيراً منهـا ، فغضب حتى اهتز مقـدم شعره من الغضب ثم قـال : « لا والله ، مـاأبـدلني الله خيراً منهـا ؛ آمنت بي إذ كفر النــاس وصدقتني إذ كذبني الناس ، وواستني في مالها إذ حرمني الناس ، ورزقني الله منهـا أولاداً ... قالت عائشة : « فقلت في نفسي : لاأذكرها بسيئة أبداً » .

هـذه هي خـديجـة التي كانت سـاعـد الرسول الأيمن في بث دعوة الإسـلام ، وتثبيت دعـائمـه ، لم يصرفهـا عن اتبـاع الحق ، والاستنـارة بـه ، ثروة ولاجـاه ، فكانت مثـالاً رائعـاً للمرأة الـوفيـة المتحررة ، التي تسـاهم في إعـلاء الحـق ، ورفـع مناره .

☆ ☆ ☆

حسان بن ثابت

شاعر الرسول

الشعر مرآة صافية ، تتمثل فيها تلك المناظر الحلوة الفطرية ، التي لم تعبث بها يد الزخرفة ، ولا مبتدعات الحضارة ، والشاعر العربي هو الذي ينسجم مع هذه الفطرة ، ويصور مشاهد الطبيعة ؛ ينطق بما يعلم ويقول مايفهم ، ويصف مايرى ، ويحدث عما تمثل في نفسه حديثاً صادقاً لاتكلف فيه ولاتعمّل ، لأن كل مايحيط به من هواء وماء ، وأرض وسماء ، وطعام وشراب ، ومرافق وأدوات ، إنما هو على الفطرة السليمة الخالصة الخالية من التكلف والتعقيد ، لذلك كان جديراً بالشاعر أن يكون كذلك .

ومن هنا يتضح قولهم : « الشعر ديوان العرب » لأنه يصور حياتهم الاجتماعية والأدبية ، ويمثل خواطرهم الحقيقية والخيالية ، وإن الشعر العربي لهو أدل على تاريخ العرب من تلك التماثيل والنصب التي نراها في خرائب اليونان والرومان والفينيقين والفراعنة ، لأن هذه الآثار قد غيرها الدهر وعبثت بها الأيدي ، أما الديوان العربي فهو صورة صحيحة ثابتة ، لاتغير فيها ولاتبديل .

ولقد كان حسان بن ثابت من أولئك الشعراء اللامعين الذين امتازوا عن غيرهم بصفات خاصة ، فقد كان حسان في الجاهلية شاعر أهل المدن ، وفي البعثة شاعر النبوة ، وفي الإسلام شاعر اليمانية ، وكان يغلب في شعره الفخر والحماسة ، والمدح والهجاء ، وكان يعتز بنفسه ، ويفاخر بقومه فهو يشبه في هذا ابن كلثوم .

ولد حسان بالمدينة ، ونشأ في الجاهلية ، وتكسب بالشعر ، فكان يمدح المناذرة والغساسنة ويتقبل صلاتهم ، ولكنه بالغ في مدح آل جفنة من ملوك غسان ، وأكثر من انتجاعهم ، فأغدقوا عليه العطايا ، وملؤوا يديه بالنعم ، وظلت الصلة بينهم وبينه مستمرة حتى بعد إسلامه وتنصّرهم ، فكانت رسلهم تَتْرى بالهدايا له من القسطنطينية ، فتحرك في نفسه مشاعر كامنة ، وذكريات عزيزة ، وأياماً حافلة بالشرف والشعر والمجد ، قضاها عزيزاً مكرماً في ربوع آل جفنة في دمشق والبلقاء والأردن .

وقد قدر له في تجواله في هذه الأماكن أن يجتمع إلى كاهن عظيم مشهور يقال له « سطيح » كان يخبر عن المستقبل ، ويكشف عن بعض الأمور الغامضة ، وكان العرب يفزعون إلى الكهان والعرافين ، يتنافرون إليهم في الخصومات ، ويطمئنون إليهم في تعرف الحوادث ، وقد كان سطيح هذا أعرق في شهرته من جميع كهان عصره ، لذلك كانت تتوافد إليه القبائل العربية من الشام والعراق واليمن .

اجتمع حسان إلى هذا الكاهن وطلب منه أن يقرأ له خطوط يده ويخبره عن المستقبل فحدثه هذا الكاهن حديثاً كان له أثره فيما بعد . لقد قال له الكاهن :

إنك ستعيش إلى أن يبعث النبي المرتقب ، وسيكون لك من ذلك النبي المرسل ماتطمح إليه من شرف ومجد ، وجلال وحب ورفق ، وحينما يتبدل وجه العالم تحت تأثير هذه النبوة المقدسة ، وتنهار صروح الإنسانية القديمة لتقوم على قواعد جديدة من كرم الخلق وفضيلة النفس ، تكون أنت أيها الشاعر الذي يأتيه الإلهام من الأرض ، رفيق ذلك النبي الذي يأتيه الوحي من السماء .

ولعل هذه التكهنات علقت بصدر حسَّان ، وأنعمت ذاكرته ، حتى هيأته لما أراد الله له من خير ! !

فقد ذكر المؤرخون أن النبي ﷺ لما هاجر إلى المدينة ، أسرع حسان إلى الإيمان به مع من آمن من الأنصار ، ولم يتردد في اعتناق الدين الجديد ، وانقطع إلى مدح النبي والنصح عنه .

ولما اشتد أذى قريش للرسول ، واستعانوا بشعرائهم يذمونه ويهجونه ، قال عليه السلام لأصحابه : « مايمنع الذين نصروا رسول الله بأسيافهم أن ينصروه بألسنتهم » ؟ فقال حسان : أنا لها ! وضرب بلسانه الطويل أرنبة أنفه وقال : والله مايسرني به مِقْولٌ بين بصرى وصنعاء ! والله ، لو وضعته على صخر لفلقه ، أو على شعر لحلقه ! فقال له النبي : « كيف تهجوهم وأنا منهم ؟ فقال : لأسلنك منهم كما تسل الشعرة من العجين » فقال : اهجهم ومعك روح القدس ، فهجاهم فآلمهم وأبكمهم ، ووقعت كلماته منهم موقع السهام في غَسقِ الظلام ، فاشتهر بذلك ذكره ، وارتفع قدره ، ولمع اسمه ، وعاش ماعاش موفور الكرامة ، مكفيَّ الحاجة من بيت المال حتى توفي سنة (٥٤) للهجرة بالغاً من العمر مئة وعشرين سنة : ستين سنة في الجاهلية ومثلها في الإسلام .

وقد كان رسول الله ينصب له منبراً في المسجد يقوم عليه يفاخر عن رسول الله ، والرسول يقول : « إن الله ليؤيد حسان بروح القدس مانافح عن رسول الله » .

ويرى الأصمعي أن حسان كان من فحول الشعراء في الجاهلية ، فلما جاء الإسلام ضعف شعره ، والسبب في ذلك أن الإجادة بالشعر تتوقف على الإفراط في المدح أو الذم ، بل وفي كل مايقول ، وهذا كذب يمنع الإسلام منه .

وقال ابن دريد عن أبي حاتم عن أبي عبيدة : فضل حسان الشعراء بثلاث : كان شاعر الأنصار في الجاهلية ، وشاعر النبي في الإسلام ، وشاعر اليمن كلها فيما بعد ذلك .

وقال أبو عبيدة : أجمعت العرب على أن أشعر أهل المدن حسان !!

وقد كان حسان يعنى بما يقول من الشعر ويحكمه ، ويجيد سبكه على نحو ماكان يصنع أصحاب المعلقات فقد روى الثقات أن حسان بن ثابت سمع في جوف الليل وهو يقول : أنا حسان بن ثابت ، أنا ابن الفُريعة - والفريعة أمّه - أنا الحسام . فلما سئل في ذلك قال : قد عالجت بيتاً من الشعر ، فلما أحكمته نوهت بأسمائي ، وهو قولي :

وإن امرأ يمسي ويصبح سالماً من الناس إلا ماجنى لسعيد

فلما مات حسان أوقد ابنه عبد الرحمن بن حسان ناراً حتى إذا اجتمع عليه الحي قالوا : مالك ؟ قال : أنا عبد الرحمن بن حسان قلت بيتاً ، فخفت أن يحدث حدث يذهب به فجمعتكم لتسمعوه ، ثم أنشدهم إياه ، وهو :

وإن امرأ نال الغنى ثم لم يُنِل صديقاً ولا ذا حاجة لزهيد

فلما مات عبد الرحمن صنع ابنه صنيعه ، وأنشدهم :

وإن امرأ لاحى الرجال على الغنى ولم يسأل الله الغنى لحسود

ومن هذا يتبين أن حسان وابنه وحفيده على وتيرة واحدة ، وشاعرية أصيلة ، تسري من الآباء للأبناء والحفداء ، وأن المتأمل في هذه الأبيات الثلاثة يجد فيها من الحكم البالغة ، والتوجيه القيم ، ماهو جدير بحرص كل واحد منهم على إثبات البيت وتقييده قبل أن يفر منه ، ويغيب عن ذاكرته :

ومن شعر حسان الذي هو أشبه بحكمة « زهير » قوله :

رب علم أضاعه عدم الما ل وجهل غطى عليه النعيم

وإليك أيها الأخ الكريم هذا النموذج من شعره في مدح بيت الرسول ، وقد

وفد على الرسول وفد من تميم يفاخره ، وزعيمهم الزبرقان بن بدر ، فلما فرغ شاعرهم من إنشاده ومفاخرته أمر الرسول حساناً أن يجيبهم ، فقال :

إن الذوائب من فهر وإخوتهم ... قد بينوا سنة للناس تتبع
قوم إذا حاربوا ضَرُّوا عدوهم ... أو حاولوا النفع في أشياعهم نفعوا
سجية تلك فيهم غير محدثة ... إن الخلائق فاعلم شرها البدع
لا يرفع الناس ما أوهت أكفُّهم ... عند الدفاع ولا يوهون ما رفعوا
إن كان في الناس سباقون بعدهم ... فكل سبق لأدنى سبقهم تبعُ
أعفة ذكرت في الوحي عفتهم ... لا يطبعون ولا يزري بهم طمعُ
لا يفخرون إذا نالوا عدوهم ... وإن أصيبوا فلا خوُرٌ ولا جزع

وقد قال العارفون بالشعر ، والمقدرون للشعراء : إن بيت حسان الذي قاله في قصيدة طويلة يمدح فيها جبَلة بن الأيهم أحد ملوك غسان . وهو :

بيض الوجوه كريمة أحسابهم ... شم الأنوف من الطراز الأول

قالوا عن هذا البيت : إنه من المبتكرات التي لم يسبق حسان بما يماثلها أو يقاربها ، فرحم الله حسان ، ورضي عنه ، وجعله في الخالدين .

☆ ☆ ☆

يسر الإسلام وتسامحه

... وبعد فقد ارتكس الناس عامة قبل إشراق هذا الدين الحنيف بمهاون سحيقة من الظلم ـ ومجاهل عميقة من الشدة ـ ومخاطرة فظيعة في الخلق ، حتى أصبح العالم يضطرب في رق المادة ، وعبودية الشهوة وسلطان القوة .

وكان العالم قبل إشراق شمس هذا الدين يرسف في عبودية عقلية تقتل التفكير ، وعبودية جسمية تعلق التصرف ، فلم يكن للأسرة نظام ، ولا للأمة دستور ، ولا للعقيدة شريعة ، إنما هو طغيان عاسف يتحكم في الفرد ، ويتسلق على الجماعة ، فكان والحالة هذه لابد للإنسانية المعذبة من دين ينقذها من هذه الظلمات الحالكة ، فبعث الله جلت حكمته محمدا بهذا الدين المتين ، الذي أطلق العقول من أسرها ، وبعث الحرية من قبرها ، وجعل التنافس في الخير ، والتعاون على البر ، والتفاضل بالتقوى ، ثم وصل بين القلوب بالمؤاخاة ، وعدل بين الحقوق بالمساواة ، ودخل بين النفوس بالمحبة ، حتى شعر الضعيف أن جند الله قوته ، والفقير أن بيت المال ثروته ، والوحيد أن المؤمنين جميعاً إخوته ، ثم محا الفروق بين أجناس الإنسان ، وأزال الحدود بين مختلف الأوطان ، فأصبحت الأرض كلها وطنا مشاعا ، والعلم كله أسرة واحدة ، لايهيمن على علاقاته إلا الحب ، ولا يقوم على مرافقه إلا الإنصاف ، وليس بين المرء وحاكمه حجاب ، ولابين ـ العبد وربه وساطة .

فكانت شريعة الإسلام بذلك أغنى الشرائع وأوفاها بحاجات الأفراد ـ والجماعات وأكفلها بتحقيق طمأنينة الأمم وسعادتها ، بل كانت كفيلة بتكوين أمة

مثالية تجتمع فيها عناصر القوة والمنعة ، وتهيئ لها أسباب التقدم والنهوض ، وتستحق خلافة الله في الأرض .

ليس بوسعي أن أذكر لكم مارسمه الإسلام من مثل عليا كفيلة بإسعاد الإنسانية ، إنما أريد أن أذكر ناحية واحدة من نواحي الدين الحنيف : هي يسره وتسامحه :

أمر الإسلام متبعيه أن يكونوا وسطاً بين الذين تغلب عليهم الحظوظ الجسدية ، والمنافع المادية ، وبين الذين تغلب عليهم التعاليم الروحية والتعديب الجسدي وإذلال النفس .

لما شعر المسلمون أنهم أمام واجب عظيم تجاه خالقهم الذي يعلم سرهم ونجواهم ، وأنهم قد يخطر ببال أحدهم مالا يرضي الله ـ شكوا ذلك إلى النبي ﷺ فنزل قوله تعالى : ﴿ لا يكلف الله نفساً إلاّ وسعها ﴾ فالله جلت حكمته لا يريد بالناس الشدة والضيق ﴿ يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ﴾ وكذلك قال جل شأنه في سورة الحج ﴿ وجاهدوا في الله حق جهاده ، هو اجتباكم ، وما جعل عليكم في الدين من حرج ﴾ ويقول الرسول ﷺ : أحب الدين إلى الله الحنيفية ، وفي شمائله ﷺ « ماخير بين أمرين إلا أختار أيسرهما مالم يكن إثماً » ومن قوله « يَسِّروا ولا تُعَسِّروا وَبَشِّروا ولا تُنَفِّروا » ومن شاء أن ينظر إلى أعظم بشرى في القرآن الكريم فإليه قوله تعالى ﴿ ياعبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لاتقنطوا من رحمة الله ، إن الله يغفر الذنوب جميعاً ﴾ وهي بشارة عظيمة .

ومن يمعن النظر في الشريعة الإسلامية يجد أن الأمر فيها كلما اشتد سهل وأنها بنيت على قاعدة (المشقة تجلب التيسير) .

وعلى هذا الأساس شرعت فيها أحكام كثيرة روعيت فيها طبيعة الإنسان

وقوة احتماله وما يناسب غرائزه وجبلته ، فرضت فرائض يوجد إلى جانبها رخصها وتسهيلاتها ، أوجب الصلاة على المكلفين ولكنه أباح الجمع والقصر والصلاة من قعود للحاجة ، أوجب الصوم ولكنه أباح الفطر عند المرض أو السفر أو العجز ، أو الخوف على النفس ، وأوجب الحج على المستطيع مرة واحدة في العمر تخفيفاً على الناس .

روي أن علياً رضي الله عنه قال : خطبنا رسول الله فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : ﴿ إن الله كتب عليكم الحج ﴾ فقال رجل : أفي كل عام يارسول الله ؟ فأعرض عنه حتى أعاد مساءلته ثلاث مرات ، فقال رسول الله : ويحك وما يؤمنك أن أقول : نعم ، ولو قلت نعم لوجبت ، ولو وجبت لما استطعتم ، فاتركوني ماتركتكم فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم ، فإذا أمرتكم بأمر فخذوا منه ماستطعتم ، وإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه .

هذه السهولة النادرة جعلت الناس يقبلون على اعتناق هذا الدين ويدخلون فيه أفواجا ، فلقد كان الرجل في فجر الإسلام يأتي فيبايع النبي على الدين ، ثم يبادر فيأخذ مكانه من الصفوف إما مجاهداً لنشر دعوة أو مدافعاً عن حرم الإسلام ، وهو إلى ذلك الدين الذي لايقبل من أهله الاستكانة والتماوت والتظاهر بالمسكنة والذلة . فقد رأينا عمر بن الخطاب يضرب بدرعه شاباً رآه متخاشعاً منكساً رأسه قائلاً له : (ارفع رأسك فإن التقوى بالصدر) .

وكان النبي على جلالة قدره وسمو منصبه يسرع في مشيته كأنه ينحدر من صبب ، ذلك لأن الإسلام لايقيم وزناً للتخاشع الكاذب والظواهر الخداعة ، إنما ينظر إلى مافي القلب من حب للخير ورغبة في إصلاح .

شهد عند عمر شاهد في قضية فقال له عمر : ائتني بمن يعرفك فأتاه برجل

فأثنى عليه خيراً ، فقال له عمر : أنت جاره الأدنى الذي يعرف مدخله ومخرجه ؟ قال : لا ، قال : كنت رفيقه في السفر الذي يستدل به على مكارم الأخلاق ؟ قال : لا ، قال : فعاملته بالدرهم والدينار الذي يستدل به عن الرجل ؟ قال : لا ، قال : أظنك رأيته قائماً في المسجد يهمهم بالقرآن يخفض رأسه تارة ويرفعه أخرى ؟ قال : نعم ، فقال : اذهب فلست تعرفه .

هذا هو الفهم الصحيح لحقيقة الدين وكمال الإيمان فما فائدة التظاهر بالصلاح والتقوى والقلب خبيث والعلم فاسد ، وقد نهى النبي عن الغلو في الدين فقال (لاتغلوا في دينكم فإنما هلك من كان قبلكم بغلوهم في دينهم) .

وقال : الإسلام متين فأوغل فيه برفق وقال : إن هذا الدين يسر ، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه . وقال : أحب العمل إلى الله أدومه وإن قلّ .

ولا عجب في هذا كله ، فإن محمداً كان مؤسس دولة عهد إليها الحق أن تحدث حدثاً لامثيل له في تاريخ البشر ، تسقط به دولاً ، وتقيم أخرى ، وتنشر في الأرض أصول الثورة على التقاليد والموروثات .

وكان عليه السلام يكره أن يرى أصحابه منهمكين على العبادة غير مراعين حقوق أجسادهم ، وقد جاء في الحديث أنه لحق به رجال كانو يصلون خلفه ثم رآهم يكثرون ليلة بعد أخرى فمنعهم خشية أن يفرض عليهم التهجد .

وقال لعبد الله بن عمر : ألم أخبر أنك تقوم الليل وتصوم النهار ؟ قال : نعم ، يارسول الله ، وإني على ذلك لقادر ، فقال : لا ، بل قم ونم وصم وأفطر فإن لبدنك عليك حقا ، وإن لزوجك عليك حقا وإن لزورك عليك حقا ، وقال : (من صام الدهر فلا صام ولاأفطر) ، دعاء عليه .

أيها المسلمون ، هل رأيتم ديناً سمحاً سهلاً كهذا الدين ؟ بل هل رأيتم ديناً

يحض أهله على إتيان الرخص ، قال عليه السلام : « إن الله يحب أن تؤتى رخصه كما يحب أن تؤتى عزائمه » .

وقال : من لم يأخذ برخصنا ، فليس منا ، فمن شاء أن يعرف الصورة الصحيحة للإسلام وأهله فليدرس ماكان عليه رسول الله من أمور الحياة تاركاً ما عداه فليس أحد بأعرف منه بما يريده الله من الدين والتدين .

فقد كان يأتي المباحات كلها ، ولا يتحرج إلا من المحرمات ، وكان يلبس مايلبسه الناس ، وكان يرجل شعره بالمشط ، ويدهن بالطيب ، ويتكلم مع أصحابه في كل موضوع ، قال زيد بن ثابت : فكنا إذا ذكرنا الدنيا ذكرها معنا ، وإذا ذكرنا الآخرة ذكرها معنا ، وإذا ذكرنا الطعام ذكره معنا .

وعن جابر قال : جالست النبي أكثر من مئة مرة ، وكان أصحابه يتناشدون الشعر ويتذاكرون أشياء من أمور الجاهلية وهوساكت وربما تبسم معهم ، وكان يصغي إلى من ينشد الشعر ويستحسن الحسن منه ويجيز قائله ، وقد أشاد بذكر الشعر فقال : « إن من البيان لسحراً ، وإن من الشعر لحكمة » ودعا لشاعر ، فقال : لافض الله فاك ، وكان يمزح مع أصحابه ، ويداعبهم ، فقد روى أنس بن مالك أن رجلاً طلب إلى رسول الله مايحمله فقال : « إني حاملك على ولد الناقة » . فقال : يارسول الله ، ماأصنع بولد الناقة ؟ ظناً منه أنه سيعطيه فصيلاً صغيراً . فقال له « وهل تلد الإبل إلا النوق » ؟

وحدث المبارك بن فضالة عن الحسن قال : « أتت عجوز إلى النبي ، فقال : يارسول الله ،ادع الله أن يدخلني الجنة ، فقال النبي : يا أم فلان ، إن الجنة لا يدخلها عجوز فولت المرأة تبكي ، فقال النبي : أخبروها أنها لاتدخلها وهي عجوز إن الله يقول : ﴿ إنا أنشأناهن إنشاءً فجعلناهن أبكاراً عرباً أتراباً ﴾ .
وقال له بعض أصحابه يوماً إنك تداعبنا ، فقال : نعم ، غير أني لاأقول إلا حقاً .

فإذا كان رسول الله وهو الذي كان يجوع حتى يشد على بطنه حجراً أو حجرين من الجوع ، ويقوم الليل متهجداً حتى تتورم قدماه ، يصيب من هذه المباحثات مايروح به نفوس أصحابه فهل يسوغ لأحد بعد هذا ، أن يمثل الدين عابس الوجه قطوباً ، إذا سلك طريقاً سلك الناس غيره ، هل يجوز أن يتصور الناس الدين حائلاً بينهم وبين الطيبات من متاع الدنيا ؟ وهو الذي يقول :
﴿ قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق ﴾ .

☆ ☆ ☆

من نساء العرب

الخنساء

نحن العرب لنا العزة والمجد ، لنا الفخر والسؤدد ، فينا الإباء والشمم ، فينا النجدة والوفاء ، تعودت أيدينا على الكرم والعطاء ، والبذل بسخاء ، فكل أمير منا ، وكل عظيم فينا يمشي على هذه القاعدة في قطع مرحلة الحياة : يوم للبذل والنوال ، ويوم للطعان والنزال ، لهذا خلقنا ، وعلى هذا نشأنا .

إذا نظمنا الشعر أتينا بالمعجزات ، وإن خطبنا اهتزت المنابر بالحكم البالغات ، وإن رثينا أبكينا العيون بالدموع الغزيرات ، نعم ، نحن العرب ، تجد كل هذا فينا ؛ في أبطالنا الشجعان وفي نسائنا العربيات .

وإذا افتخرت بعض الأمم بالنابغات من نسائها ـ وهن قلائل ـ فنحن العرب أحق الأمم أن نفاخر ونكاثر باللامعات من نسائنا ، والمحلقات في جو العزة والمجد والفخار ، وماأكثرهن في أمتنا العربية الخالدة ؛ أمثال عائشة الصديقة ، وأسماء بنت أبي بكر ، وخولة بنت الأزور ، وأسماء بنت يزيد الأنصارية ، وسمية ، والخنساء ، وغيرهن ممن ملأت أعمالهن ومفاخرهن بطون التاريخ ، وكن درة متلألئة في سماء العزة والفخار .

وإني متحدث للقراء الكرام عن واحدة من هؤلاء الفضليات ، لأضع أمام الأعين نموذجاً حياً عما ذكرت من أمجاد أمتنا العربية الخالدة . وقد رغبت في أن أتحدث عن الشاعرة « الخنساء »

قال المؤرخون : ليس في شواعر العرب قبل الإسلام وبعده من تفوق الخنساء في رصانة شعرها ورقة لفظه ، وحلاوة جرسه ، ولربما ضارعت في هذه الصفات الشعراء الفحول .

وفدت على النبي ﷺ في جماعة من قومها فأسلمت ، وأنشدته فاهتز عليه السلام لشعرها ، وأعجب بها ، واستزادها بقوله : « هيهِ ياخُناس » .

ويرى النابغة وجرير وبشار ، أنها أفضل من الرجال ، لمافي شعرها من قوة الرجولة ورقة الأنوثة .

وكان بشار بن برد يقول : لم تقل امرأة شعراً إلا ظهر الضعف فيه ، فقيل له : وكذلك الخنساء ؟ فقال : « تلك غلبت الفحول » .

وقد غلب في شعرها ناحيتان بارزتان هما الفخر والرثاء ؛ أما الفخر فلأن قومها بني سُليم ، هم من قبائل مضر في الجاهلية والإسلام ، وكان أبوها عمرو بن الحارث ، أمثل قومه وأعظمهم ، كما كان أخواها معاوية وصخر سيدين كريمين من سادات مضر .

وأما الرثاء فلفجيعتها في أخويها معاوية وصخر ، وقد قتل الأول في بعض الغزوات وقتل الثاني وهو يثأر لأخيه ، فبكتهما أحر البكاء ، ورثتهما بشعر كله دموع ودماء ، وطال وجدها عليهما ، وحزنها من أجلهما ، وطول الوجد ، وكثرة الحزن ، وشدة اللوعة ، ترق العاطفة ، وترهف الشعور ، وتفتق القريحة ، في الرجل ، فكيف به في المرأة ؟

وقد كان رثاؤها لأخيها صخر أشد وقعاً ، وأبعد أثراً في تصوير حزنها ، وإظهار لوعتها لأنه كان أحب إلى قلبها ، وألصق بنفسها ، لما خبرته من شجاعته وكرمه ، وإحسانه وحنانه ، وعطفه عليها ، وبره بها ، فقد بلغ به عطفه عليها

وإحسانه إليها أن كان يقسم ماله إلى شطرين ، ويعطيها أحسن الشطرين ، يفعل ذلك كلما زارته ، وقد فعل ذلك أكثر من مرة .

وقد لامته زوجته على ذلك ، فأجابها بقوله :

تـالله لأمنحهـا شرارهـا ... وهي حصان قد كفتني عارها
وإن هلكت مزقت خمارها ... واتخذت من شعر صدارها

لذلك جزعت عليه أشد الجزع ، وحزنت عليه أمر الحزن ، ولبست ثوب الحداد ، واتخذت صداراً ـ قميصاً ـ من شعر ، وأقسمت ألاَّ تنزعه عن جسدها مدة حياتها ، ومن رثائها فيه هذه الأبيات التي تفيض حزناً ، وتتدفق لوعة وأسى ، والتي تعبر عن نفس جريحة ، وقلب كظيم :

يؤرقني التذكر حين أمسي ... فأصبح قد بُليت بفرط نكسِ
على صخر وأيّ فتى كصخر ؟ ... ليوم كريهة وطعان خلسِ
ألا يا صخر لا أنساك حتى ... أفارق مهجتي ويشق رَمْسي
فقد ودعت يوم فراق صخر : ... أبي حسان لذاتي وأنسي
فيالهفي عليه ولهف أمي ... أيصبح في الضريح وفيه يمسي
يذكرني طلوع الشمس صخراً ... وأذكره لكل مغيب شمسِ
ولولا كثرة الباكين حولي ... على إخوانهم لقتلت نفسي
وما يبكين مثل أخي ولكن ... أعزي النفس عنه بالتأسي

وإنك لترى في هذه الأبيات دوام الحزن ، واستمرار التذكر ، وأن طلوع الشمس ومغيبها وتعاقب الليل والنهار ـ بدلا عن أن يخففا حزنها ، ويلطفا من ألمها ـ إنها يزيدانها لوعة وأسىً ، حيث تذكر عند طلوع الشمس وعند غروبها ، أخاها صخراً ، ومآثره وإحسانه وبره وما إلى ذلك ، فتجهش بالبكاء ، وتغرق في الحزن ، وتأرق في الليل .

وإذا كان الإسلام أكسب الخنساء قسطاً غير قليل من الصبر والسلوان ، غير أنها لم تكن لتنسى أخاها صخراً ، بل ظل أبداً ماثلاً أمام عينيها ، يستدرها البكاء ، ويستثير الحزن ، ولكنه حزن من نوع آخر فقد قالت : « كنت أبكي له من الثار ، وأنا اليوم أبكي له من النار » فأثبتت الخنساء في ذلك أن الوفاء فطري في المرأة ، مكتسب في الرجل ، وأجمل مافي الحياة الوفاء .

على أن هذه المرأة التي ملأت الدنيا حزناً وبكاءً على أخيها قد ظهر تأثرها بالإسلام بعد أن أسلمت ، وخضوعها لدعوته وانقيادها لتعاليمه ، فوجدت من إيمانها بالله مواسياً ، ومن ثوابه وجنته مسلياً وآسياً ، وقد اتضح ذلك تماماً في موقفها حين استشهد أبناؤها الأربعة ، الذي يختلف اختلافاً بيناً عن موقفها قبل الإسلام .

فقد شهدت حرب القادسية ، وجاءها أبناؤها الأربعة يستشيرونها في خوض المعركة ، ومن تختاره منهم ليبقى عندها يعولها وقد تقدمت بها السِّنُّ ولم يبق لها أحد غير هؤلاء الأبناء ، ودهش أبناؤها الأربعة حينما سمعوها تحرضهم على القتال ، وتحضهم على الاستبسال في ميدان الشرف والمجد ، ويستجيب الأبناء لنداء الأم العجوز ، ويبلون أحسن البلاء ويخوضون المعركة بكل بسالة ومضاء ، حتى كتب النصر لأمتهم ، وكانوا جميعهم من الشهداء ، فلما بلغها جهادهم واستشهادهم ، لم ترع ولم تجزع ، ولم تزد على أن قالت بكل إيمان وثبات واطمئنان : « الحمد لله الذي شرفني بقتلهم ، وأرجو أن يجمعني بهم في مستقر رحمته » .

رحم الله الخنساء ، وأكثر في نسائنا اليوم من أمثالها .

أبو العلاء المعري

هو أحمد بن عبد الله بن سليمان التنوخي ، نسبة إلى تنوخ إحدى قبائل اليمن ، هو كوكب وضاء من كواكب الأدب النيرة ، وشخصية لها أثرها على أدباء العصور التالية .

ولد هذا الفيلسوف الحكيم بالمَعَرَّة - وهي بلدة صغيرة بالقرب من حماة المعروفة بمعرة النعمان ، نسبة إلى النعمان بن بشير الأنصاري الصحابي المعروف ، حيث اجتاز بها فدفن ولداً له مات بها فاتخذها مسكناً له - وكان أبوه عبد الله بن سليمان من أفاضل العلماء ، كما كان جده قاضياً بالمعرة .

ولما بلغ الرابعة من عمره أصيب بالجدَري فذهب بيسرى عينيه ، وابيضت اليمنى ، فنشأ ضريراً وكانت هذه أولى نكبات الدهر التي تتالت عليه فيما بعد ، والتي جعلته ينظر إلى الحياة بمنظار خاص .

ولما أدرك سن التعلم أخذ والده يلقنه علوم اللسان العربي فتعلمها ، وتلمذ بعد ذلك لنفر من علماء بلده ، فضم إلى صدره ماحوته صدورهم ، ولم ير بعد ذلك فيمن حوله من سبقه إلى علم ، أو اختص دونه في فهم ، فانثنى إلى بيته وقد ناهز العشرين من عمره ، وأخذ يدرس اللغة والأدب ، وينقب عن دقائق اللسان ، وخواص التركيب ، حتى تفوق في ذلك وبلغ مالم يبلغه أحد .

لقد أصبح أبو العلاء بفضل جده وجهده وذكائه ، وافر العلم ، غزير الفضل ، عالماً باللغة ، حاذقاً بالنحو ، جيد الشعر ، جزل الكلام ، شائع الذكر ، وشهرته تغني عن وصفه .

وأراد أن ينهل من رياض العلم ، ويتوسع في مجال المعرفة ، فرحل إلى حلب وفيها أكابر العلماء ، وأساطين الأدب ، ممن دعاهم سيف الدولة إلى بلاطه ، فاجتمع بهم ، واستمع إليهم ، وأخذ عنهم ، ثم سافر إلى أنطاكية واطلع على مافيها من نفائس الكتب ، فأثرت فيه الثقافة الرومية أثرها ، ثم سافر إلى طرابلس ، ومر في طريقه باللاذقية فنزل في دير فيها ، وتمكن من دراسة الفلسفة الأجنبية ، وفي هذه الأثناء نكب مرة أخرى بوفاة والده ،وهو لايزال في الرابعة عشرة من عمره ، فأثرت فيه الصدمة ، وحزن لذلك أشد الحزن ، ورثاه بقصيدته النونية المشهورة .

وبعد فترة من هذه الحادثة الممضة ، جدد نشاطه ، واستجمع قواه ، وطمع بالمراتب العالية ، والشهرة الواسعة ، فرحل إلى بغداد ،واطلع على مكاتبها ، واشترك بالمجامع العلمية ، والأندية الأدبية ، غير أنه لم يطب له فيها العيش ، فلم يطل فيها المقام ، فرجع إلى المعرة ، ولزم منزله ، وشرع في التصنيف ، وأخذ عنه الناس ، وسار إليه الطلبة من الآفاق ، وكاتبه العلماء والوزراء ، وأهل الأقدار ، وسمى نفسه « رهين المحبسين » للزومه منزله ، ولذهاب عينيه .

لم تهيئ الأقدار المعري لأن يكون كالمتنبي قوياً مغامراً ، يركب الأهوال ، ويضرب في الآفاق ، باحثاً عن العظمة والسلطان ، نعم لم يخلق المعري لهذا ، إنما خلق للزهد ، والنظر في الحكمة وأسبابها ، والبحث في الفلسفة ومجاهلها ، لذلك كره دنيا الناس فزهد فيها ، ونقم عليهم فاعتزلهم ، وأقام في بيته لايبرحه !!

وأبرز ميزة في المعري إشفاقه من كلام الناس عنه ، فقد كان يأكل منفرداً خوفاً من أن يبدر منه مايضحك ، نظراً لفقد بصره ، وكان سيئ الظنّ بالناس ، شديد الحذر منهم ، ولاعجب فهو لم يلق من دهره غير المصائب تتوالى ، والنكبات تترى ، ومع هذا كله فقد كان أبياً يكره التكسب بالشعر ، كريماً حيياً لايرد سائل مال ، ولاطالب علم ، وكان صادقاً لم يستطع مؤرخ أن يصمه بكذبة !!

للمعري شخصية لامعة جبارة ، شغلت الناس أجيالاً ، وجعلتهم يبدون آراءهم في مكانته التي يجب أن يتبوأها في المجتمع الثقافي الرفيع ، فمنهم من يجعله في مقدمة الشعراء ، لأن في شعره جمال الفكرة ، وصفاء الحكمة ، وقوة التصوير ، ومنهم من يعده فيلسوفاً لما لَهُ من الأثر في وسائل الاجتماع ، وأخلاق البشر ، وأنظمة الحكومات ، والقوانين والأديان ، إلى غير ذلك من الآراء الكثيرة فيه ولأبي العلاء حافظة فذة قوية ، وإحساس رقيق مرهف .

حكى التبريزي أنه كان بين يديه يقرأ عليه شيئاً من مصنفاته . قال : وكنت أقمت عنده سنين لم أر أحداً من أهل بلدي . فدخل المسجد بعض جيراننا من أهل بلدنا ، فعرفته فاستفزني الفرح ، فقال لي أبو العلاء : أنس أصابك ؟ قلت : إنه جار لي رأيته بعد أن لم ألق أحداً من أهل بلدي سنين ، فقال لي : قم فكلمه ، فقمت وكلمته بلسان الأزربية شيئاً كثيراً ، ثم عدت . فقال أبو العلاء : أي لسان هذا ؟ قلت : لسان آذربيجان . فقال : ماعرفت اللسان ولافهمته غير أني حفظت ماقلتما ، ثم أعاد عليَّ اللفظ بعينه من غير أن ينقص أو يزيد !!!

كما يروى أن بعض الناس وضع له رسالة صغيرة تحت مخدته من غير أن يعلمه بها ، فلما أراد المعري النوم ووضع رأسه على المخدة شعر بعلوها وارتفاعها عما كانت عليه ، ولم يستطع النوم عليها فجعل يتلمس ماحولها وما تحتها فوجد الرسالة ....!!

كان أبو العلاء يتعصب للمتنبي ويفضله ، وكان المرتضى يتعصب عليه ، فجرى ذكر المتنبي يوماً ، فتنقصه المرتضى ، فقال المعري : لو لم يكن للمتنبي من الشعر إلا قوله :

(لك يامنازل في القلوب منازل)

لكفاه فضلاً ، فغضب المرتضى ،وأمر به فسحب برجله وأخرج ، وقال :

أتدرون ماقصد بهذه القصيدة ؟ فإن للمتنبي ماهو أجود منها ، قالوا : لا . قال : أراد قوله فيها :

وإذا أتتك مذمتي من ناقص فهي الشهادة لي بأني كامل

كان أبو العلاء متضلعاً من فنون الأدب ، له التصانيف الكثيرة المشهورة ، والرسائل المأثورة ، وله من النظم « لزوم مالايلزم » وهو كبير يقع في خمسة أجزاء ، وله « سقط الزند » ، وشرحه بنفسه وسمى الشرح : « ضوء السقط » .

قال القاضي ابن خلكان في كتابه « وفيات الأعيان » : بلغني أن له كتاباً سماه « الأيك والغصون » وهو المعروف بالهمزة والردف ، يقارب مئة الجزء في الأدب أيضاً ، ثم يقول القاضي : وحكى لي من وقف على المجلد الأول منه ، قال : لاأعلم ماكان يعوزه بعد هذا المجلد ، واستمر في وصفه فقال : كان علامة عصره ، أخذ عنه أبو القاسم التنوخي ، والخطيب أبو زكريا التبريزي ، وغيرهما .

ولما فرغ من تصنيف كتاب « اللامع العزيزي في شرح شعر المتنبي » وقرئ عليه ، أخذ الجماعة في وصفه ، فقال أبو العلاء : كأنما نظر المتنبي إليّ بلحظ الغيب ، حيث يقول :

أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبي وأسمعت كلماتي من به صمم

اختصر ديوان أبي تمام وشرحه وسماه « ذكرى حبيب » وديوان البحتري ، وسماه « عبث الوليد » ، وديوان المتنبي وسماه « معجز أحمد » وتكلم على غريب أشعارهم ومعانيها ، ومآخذهم من غيرهم ، ومآخذ عليهم ، وتولى الانتصار لهم ، والنقد في بعض المواضع عليهم ، والتوجيه في أماكن لخطئهم .

أما شعره فإذا أردنا به أحد الفنون الجميلة ، الذي يجمع بين جمال الرسم بروعة خياله ، وعذوبة الموسيقا بجمال جرسه وأنغامه ، فقد يكون غير المعري

أطول باعاً ، وأرحب صدراً في هذه الناحية ، وأما إذا أردنا بالشعر دواوين منظومة على طراز خاص ، وأوزان معروفة ، وشروط لها قواعد وحدود ومعان ضخمة تجمع بين العقل والعاطفة والحكمة ، فالمعري لايقل عن غيره من الشعراء في هذا الميدان .

فقد قال المعري الشعر في كثير من فنونه ، فمدح ، ورثى ، ووصف ، وتغزل !!

وغريب أن يتغزل شاعر أعمى كالمعري ، اعتزل الدنيا ، وكره الناس ،وأعرض عن المرأة ،ورأى في النسل جناية الآباء على الأبناء ، ولكن الغزل فن من فنون الشعر ، فهو يخوض فيه ليكون شاعراً .

وقد ابتدع في شعره مناجاة الحيوان ، كمحاورة الديك والحمامة ، ومناظرة الذئب والشاة إلى غير ذلك . وقد كان أبو العلاء إنساناً بكل مافي كلمة الإنسان من معنى ، فهو لم يؤذ أحداً ، وإنما أحسن إلى الناس جميعاً بما قدم إليهم من نصح ، وبما أورثهم من هدى ، وكانت سيرته نقية صافية ، وكان يدعو إلى البر ومكارم الأخلاق ، وينفر من سفسافها ورذائلها ، يعبر عن ذلك في كثير من نثره ونظمه كقوله :

يحسن مرأى لبني آدم ... وكلهم في الذوق لايعذب
مافيهم بر ولا ناسك ... إلا إلى نفع له يجذب
أفضل من أفضلهم صخرة ... لاتظلم الناس ولاتكذب

وبعد فإذا افتخر الأدب اليوناني القديم بأبيقور ، وإذا افتخر الأدب اللاتيني القديم بلوكريس ، وإذا فخرت الحضارة الأوربية الحديثة بأدبائها وفلاسفتها ، فمن حق الأدب العربي أن يفخر بأبي العلاء .

أسباب النزول ، وحكمة التشريع

معرفة أسباب النزول أمر لازم لمن أراد أن يفهم معاني الآيات القرآنية الحكيمة ، لأن العلم بأسباب نزول الآية أو الآيات يكشف عن وجه الحكمة الباعثة على تشريع الحكم ، وتخصيص الحكم بالسبب عند من يرى أن العبرة بخصوص السبب ، وإن كان في هذا خلاف بين الأئمة ، فمنهم من يرى أن العبرة بعموم اللفظ لابخصوص السبب ، ومما لاريب فيه أن هناك آيات نزلت في حوادث خاصة ، فهي مقصورة على الحادث الذي نزلت من أجله لايتعدى حكمها إلى غيره .

فمعرفة سبب النزول طريق قوي في فهم بعض معاني القرآن ، لأن العلم بالسبب يورث العلم بالمسبب ، لذلك فإنه لايجوز لمن يجهل أسباب النزول أن يتكلم في القرآن ، وقد كان كثير من أعلام الأمة ، وجهابذة العلم ، يخشون الانزلاق في هذا الميدان ، ويحجمون عن أن يهرفوا بما لم يعرفوا ، كما يفعل بعض من يدعي العلم في عصرنا الحاضر .

قال ﷺ : « من قال في القرآن بغير علم فليتبوأ مقعده من النار » . وسبيل العلم أن يرجع إلى اللغة التي نزل بها القرآن في تفسير ألفاظه ، وأن يرجع في معرفة ناسخه ومنسوخه وسبب نزوله ، وما يحتاج فيه إلى بيانه ، يرجع في ذلك كله إلى أخبار الصحابة الذين شاهدوا تنزيله ، وأدوا إلينا من السنن عن الرسول ﷺ مايكون بياناً وإيضاحاً .

كانت الآيات التشريعية ، وهي آيات الأحكام ، تنزل على رسول الله ﷺ

ـ في الغالب ـ جواباً لحوادث تقع في المجتمع الإسلامي ، وتعرف هذه الحوادث بأسباب النزول ، وأحياناً كانت تنزل الآيات جواباً عن أسئلة يسألها بعض المؤمنين أو غيرهم .

وفي القرآن الكريم آيات كثيرة تكون بياناً لحادث ، أو جواباً لسؤال . وقلما كانت الأحكام تنزل مبتدأة ، وإليك نموذجاً من هذه الآيات ، جاء في سورة البقرة : ﴿ يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس ، وإثمهما أكبر من نفعهما ، ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو .. ﴾ ﴿ ويسألونك عن اليتامى قل إصلاح لهم خير ... ﴾ ﴿ ويسألونك عن المحيض قل هو أذى فاعتزلوا النساء في المحيض ...﴾ وفي سورة النساء ﴿ يستفتونك ، قل الله يفتيكم في الكلالة ... ﴾ وفي المائدة : ﴿ يسألونك ماذا أحل لهم ...﴾ .

ومعرفة ما يراد من هذه الآيات وأمثالها تتوقف توقفاً تاماً على معرفة أسباب النزول ، ومن أهمل معرفة الأسباب أخطأ خطأً كبيراً ، وفسر القرآن بغير المراد منه .

كما حكي عن عثمان بن مظعون ، وعمرو بن معد يكرب أنهما كانا يقولان : الخمر مباحة ، ويحتجان بقوله تعالى : ﴿ ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا ...﴾ والذي أوقعهما في هذا الخطأ ، إنما هو الجهل بسبب النزول ، وهو أن ناساً قالوا لما حرمت الخمر : « كيف بمن قتلوا في سبيل الله وماتوا وكانوا يشربون الخمر ، وهي رجس ؟ فنزلت الآية جواباً لهؤلاء ، وقد أوضحت أن الذين ماتوا قبل تحريمها لا إثم عليهم فيما كانوا يتعاطونه من شربها .

ولما كانت أسباب النزول ترتبط ارتباطاً وثيقاً بحكمة التشريع ، وكان المطلوب مني أن أتكلم في حديثي هذا عن هاتين الناحيتين اكتفيت بهذه الكلمة الموجزة عن أسباب النزول لأتكلم فيما بقي لدي من وقت على حكمة التشريع ، وإن كان كل منهما علماً كاملاً ألفت فيه الكتب ، وعني به العلماء .

لقد وجد الإنسان بإرادة الله عز وجل ، وبحكم وجوده أصبحت له مصالح في هذه الحياة ، وهذه المصالح قسمان : أحدهما حقيقي كحصول المطالب والمشتهيات والأفراح واللذات ، والثاني مجازي وهو الأسباب المؤدية للمصالح ، وربما كانت هذه الأسباب مفاسد ؛ مثلاً ، تصاب يد إنسان بمرض متأكل ، ويرى الطبيب النطاسي أنه لابد من بترها قبل أن يسري المرض إلى الجسم كله فيهلك ، فيؤمر بقطعها ، وحقيقة هذا القطع بحسب الظاهر مفسدة ، ولكن ترتب على هذه المفسدة مصلحة أكبر ، وكالمخاطرة في الجهاد ومدافعة العدو ، فقد يؤدي إلى هلاك هذا المخاطر ، ولكن مايترتب على المخاطرة والإقدام من إرهاب للعدو ، ونشر الرعب في صفوفه ، مصلحة كبرى يرتكب من أجلها هذه المخاطرة .

ومن هذا البيان يتضح قول الرسول ﷺ : « حفت الجنة بالمكاره ، وحفت النار بالشهوات » فطلب الجنة والسعي لنيلها والعمل من أجل الحصول عليها مصلحة كبرى من أعظم مصالح الإنسان ، لأن فيها تأمين حياته الأخروية الدائمة ، ولابد لمن يسير في هذا الطريق من كف نفسه عن مشتهياتها المحظورة ، ورغباتها الجامحة ، وكذلك الحذر من النار والبعد عما يؤدي إليها ، يحتاج إلى كلفة ، وربما كان فيه مشقة على بعض النفوس التي لم يكن لها مران على الطاعة وأداء العبادة ، والإنسان قد يجهل كثيراً من حقائق الأمور التي تعرض له في الحياة ، والتي كلف بأدائها من قبل التشريع الإلهي ، لذلك كله جاءت الأحكام الشرعية بأوامرها ونواهيها وتكاليفها موضحة الطريق وممهدة له ، لكل من يرغب في سلوك الطريق السوي داعية إلى هذا الهدى بقوله تعالى : ﴿ فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى ﴾ وفي قوله تعالى : ﴿ اتبعوا ماأنزل إليكم من ربكم ﴾ وفي قوله تعالى : ﴿ ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيماً ﴾ .

ومن حكمة التشريع بعد ذلك أن تجيء الآيات القرآنية الكريمة ، حاثة على الطاعات قليلها وكثيرها ، جليلها وحقيرها ، زاجرة عن المخالفات بجميع

أنواعها ، ومن حكمة التشريع التي هي في الحقيقة رحمة من الله لخلقه وتلطف منه تعالى بدعوتهم ، أن مدحت الآيات بإسهاب ووضوح العاملين الطائعين ، والمؤمنين المخلصين الذين يستمسكون بحبل الله ، ولايخالفون عن أمره ، وبينت ماأعد لهم من الرضا والمثوبات ، وما يترتب على ذلك في الدنيا قبل الآخرة من الكفاية والهداية ، والنصر والتمكين في الأرض ، والأمن والاستقرار .

كما توعدت الآيات العاصين والمخالفين بسخط الله ونقمته ، والبعد عن رضاه وجنته ، والشقاء الأبدي .

والهدفُ الأسمى الذي يقصد إليه التشريع الإسلامي إنما هو إصلاح أحوال الناس ، واستقامة أمورهم بيسر وسهولة ، يدل على هذا كله قوله تعالى : ﴿ يأمرهم بالمعروف ، وينهاهم عن المنكر ، ويحل لهم الطيبات ، ويحرم عليهم الخبائث ﴾ فعلى ضوء هذه الآية الواحدة نفهم بصراحة ويقين أن الإسلام في جميع أحكامه وتشريعاته ، إنما جاء لمصلحة البشر وإسعادهم .

وكان من حكمة التشريع الإسلامي أن رفع الحرج عن المكلفين ، ولم يحملهم مالا يطيقون ، وعلمهم أن يدعوه بقوله تعالى : ﴿ ربنا ولاتحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا ، ربنا ولا تحملنا مالا طاقة لنا به ﴾ كما أخبرهم سبحانه وتعالى بأنه « لايكلف نفسا إلا وسعها » ، وبقوله عز وجل ﴿ يريد الله بكم اليسر ولايريد بكم العسر ﴾ وبقوله ﴿ ماجعل عليكم في الدين من حرج ﴾ ومن أجل ذلك شرعت الرخص ، كالفطر للمسافر ، والصلاة من قعود للعاجز ، والتيمّم عند وجود العذر ، وغير ذلك من التسهيلات ، نشكر الله الذي هدانا إلى هذا الإسلام ، ورضيه لنا ديناً ، والحمد لله رب العالمين .

الصوم والأمانة

أيها السادة ، إنكم في شهر عظيم مبارك ، هو شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان ، وهو مدرسة عملية واقعية ، تهذب النفوس ، وتسمو بالأخلاق وتمرن على معالي الأمور .

نسأله تعالى أن يجعلنا من الذين ينتفعون بهذه المدرسة ، وينجحون نجاحاً باهراً .

أيها السادة ، إن من أبرز الصفات العالية التي يكسبها الصائم في رمضان ، ويمرن عليها ـ الأمانة : الأمانة حفظاً ورعاية وأداء .

وفي هذه المناسبة أحببت أن أسمعكم قصة قصيرة في هذا الموضوع ، فإذا تكرمتم ياسادة ، بإعارة سمعكم ، وحسن إصغائكم ، فستجدون ـ إن شاء الله ـ مايغذي أرواحكم ، ويقوي إيمانكم ، ويدفعكم إلى التمسك بخصلة عالية من خصال الإيمان ، وصفة عظيمة من صفات المؤمنين .

حدثنا قتيبة عن نافع قال : « خرج عبد الله بن عمر بن الخطاب في بعض نواحي المدينة ومعه أصحاب له ، ووضعوا السفرة ليأكلوا ، فمر بهم راعي غنم ، فسلم عليهم ، فقال ابن عمر له : « هلم ياراعي فأصب من هذه السفرة » ـ يعني دعاه ليأكل معهم ، فقال له : إني صائم . فقال ابن عمر : أتصوم في مثل هذا اليوم الحار ، الشديد سمومه ، وأنت في هذه الحال ترعى الغنم ؟ فماذا كان جواب الراعي ؟ لقد أجابه بقوله : والله إني أبادر أيامي هذه الخالية ، أي أنني أحب أن

أستكثر من عمل الخير في أيام الدنيا هذه الزائلة لأجد ثواب عملي في الدار الباقية ، ولأكون من المؤمنين الذين يفوزون برضوان الله وجنته ، وتسلم عليهم الملائكة ، ويقولون لهم : ﴿ كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم في الأيام الخالية ﴾ .

فأعجب ابن عمر بكلام الراعي ، وكبر في عينه ، فأراد أن يزداد معرفة به ، وأن يرى مقدار ورعه وأمانته ، وليقف على حقيقة صومه ، هل هو عامل بما يتطلبه الصوم من صدق وعفة وأمانة ، أم هو ككثير من الصائمين الذين يصومون ويكذبون ويغشون ويخونون ، ويرتكبون كل منكر ، ويفعلون كل قبيح ، ويتحججون بعد هذا كله بأنهم صائمون !!

أراد ابن عمر أن يفحصه فحصاً مستعجلاً ، فقال له : هل لك أن تبيعنا شاة من غنمك هذه فنعطيك ثمنها ، ونعطيك من لحمها ماتفطر عليه ؟

قال الراعي : إنها ليست بغنمي ، إنها غنم سيدي ، وإني مؤتمن ، فقال له ابن عمر : فما يفعل سيدك إذا فقدها ، وباستطاعتك أن تقول لسيدك : أكلها الذئب !!!

أيها السادة ، أيها الأخوة والأخوات ، هل علمتم ماذا كان جواب الراعي تجاه هذا الإغراء والإغواء ؟ إنه تركهم ، وولى عنهم ، وهو رافع أصبعه نحو السماء ، وهو يقول : فأين الله فأين الله !!!

لقد نجح هذا الراعي بالامتحان ، وتبين من الصائمين حقاً ، ومن العاملين بما يقتضيه الصوم وإن كان نفلاً . ولكن هل تعلمون أيها السادة ماذا كان بعد هذا النجاح ؟ وماذا كانت حصيلة هذه الأمانة التي كان الراعي حريصاً عليه ، متمسكاً بها ، عاملاً على أدائها لأهلها كاملة غير منقوصة ، عملاً بقول الله عز وجل : ﴿ إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها ﴾ .

كانت النتيجة أن عاد عبد الله بن عمر من فوره إلى المدينة ، وبعث إلى سيد الراعي وصاحب الغنم فحضر فاشترى عبد الله بن عمر منه الغنم كلها والراعي ، ثم أعتق الراعي ، ووهبه الغنم .

أرأيتم ياسادة ؟! أرأيتم عاقبة الأمانة ومراقبة الله ؟!

إنها آتت ثمارها طيبة زكية في الدنيا قبل الآخرة ، لقد كان هذا الراعي عبداً رقيقاً ، فأصبح حراً طليقاً ، وكان فقيراً فأصبح غنياً ، ولو أن غَرَّه الطمع ، وخان الأمانة ، لباء بالخيبة والفشل والخسران في الدنيا والآخرة .

وماأكثر هذه المثل العليا التي يتحلى بها كثيراً من أسلافنا المؤمنين ، وماأحوجنا نحن اليوم إلى أن نقتدي بهم ، ونسير على نهجهم لنضمن لأنفسنا مستقبلاً زاهراً في الدنيا ، وفوزاً أكيداً في جنات النعيم .

أيها السادة ، رمضان مضمار المثقفين ، وميدان العاملين ، وموسم الخير للمجتهدين .

أيها المسلمون ، لقد حل رمضان هذا العام ، وهو يتعثر بحلة الأحزان والآلام ، نعم إنه لايزال في مأتمه وحداده ، على المصيبة الكبرى ، والفادحة العظمى ، والعار الوبيل الذي حل بالعروبة والإسلام ، بأشرف بقعة ، وأقدس تربة : بفلسطين الجريحة ، وقدسها الحبيب ، وصخرتها العزيزة .

أيها المسلمون ، إن رمضان شهر الجهاد والاجتهاد ، شهر الصبر والفداء والتضحية ، فهل يدفعنا رمضاننا هذا إلى خوض معارك ملتهبة مشرفة ، كتلك المعارك التي خاضها أسلافنا من قبل في بدر ، واليرموك ، والقادسية ، وعين جالوت ، وحطين .؟؟!

هل نرخص الأموال والأنفس لنعيد للعروبة فلسطينها ، وللإسلام قدسه ؟؟

يـاحمـاة الإسـلام ، وقـادة العرب اغتنمـوا حلـول رمضـان ، وتعرضـوا فيـه لنفحات ربكم ، وأكثروا من الدعاء فإن الـدعـاء فيـه مستجـاب ، وليكن دعـاؤكم وضراعتكم إلى ربكم أن يجمـع القلـوب ، ويـوحـد الصفـوف ، ويـؤيـد بـالنصر ، لتستطيعوا إنقاذ فلسطين ، وتطهير المقدسات ، وغسل العار .

وأنتم أيها المجاهـدون المرابطون اذكروا الله كثيراً واعلموا أنكم ملاقوه ، ولاتهنوا في ابتغاء القوم ، فإنهم يألمون كما تألمون ، وترجون من الله مالا يرجون .

تذكروا أن في رمضـان كانت معركـة بـدر الكبرى التي أعز الله بها الـدين ، وأيَّـد جنـده المـؤمنين وصـدق الله العظيم إذ يقـول : ﴿ وكان حقـا علينـا نصر المؤمنين ﴾ .

☆ ☆ ☆

عبد القادر الجزائري
عالم الأمراء وأمير العلماء

من نعمة الله على هذه الأمة أنها في كل زمان ، وفي أي مكان لاتخلو من المؤمنين الصادقين ، والأبطال المجاهدين ، والعلماء العاملين ، كان هذا مصداقاً للآية الكريمة : ﴿ من المؤمنين رجال صدقوا ماعاهدوا الله عليه ، فمنهم من قضى نحبه ، ومنهم من ينتظر ، ومابدلوا تبديلا ﴾ ومصداقاً لقول الرسول الكريم ، ﷺ : « لاتزال طائفة من أمتي قائمة على الحق لايضرها من خالفها حتى يأتي أمر الله » .

وإذا ثبت أن ذلك طبيعة هذه الأمة التي جعل الله فيها الخير ، واصطفاها لحمل الرسالة ، وتبليغ الشريعة ونشر الأخلاق الكريمة ، منذ عهد الرسول الكريم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، فلا عجب أن يكون فيها من أصحاب المثل العليا ، والجهاد المقدس ، أمثال « الأمير الكبير والمجاهد الشهير عبد القادر الجزائري » .

ذلك الأمير الكريم سليل المجد والتقى الذي نشأ في حجر والده محيي الدين محاطاً بالعناية ، مشمولاً بالرعاية ، مغموراً بالحنان والرحمة ، فشب على العفة والصيانة ، والطاعة والأمانة ، مرضيّ الحال ، محمود الأقوال والأفعال ، مشهوراً بين أقرانه بالجد والاجتهاد ، دائباً على المطالعة والحفظ والرواية والرياضة ، لايصده عن ذلك متع الحياة ، ومباهج العيش ، ومغريات الشباب ، ذلك أن

التربية الصالحة ، والاستعداد الفطري كان لهما أثرهما الفعال في تكوين هذه الشخصية الفذة التي تبوأت مكانها في التاريخ ناصعاً جلياً ، يدعو إلى الفخر والاعتزاز .

وقد بدا عليه منذ صغره حبه للدين ، ورغبته في العلم ، وميله إلى معالي الأمور ، فساعده والده على تحقيق هذه الرغبة فأخذ يفقهه في الدين ، ويلقنه العلم ، وكان والده ـ رحمه الله ـ عالماً ورعاً تقياً ، صادق الإيمان ، قوي اليقين ، فتأثر « الابن » الناشئ بادئ ذي بدء ، بهذه الصفات السامية ، وهيأته للمزيد منها ، والتقدم فيها حتى بلغ أوج الكمال .

ثم بدأ يرتاد مناهل العلم ، ويرتشف من موارده العذبة ، فرحل إلى « وهران » فأخذ عن علمائها ، واستمع إلى قادتها وسادتها وفضلائها ، فحفظ أكثر صحيح الإمام البخاري ، وتضلع باللغة العربية ، فحذق نهجها ، وأتقن أسلوبها ، وتعمق في آدابها ، فجمع إلى ماكان يتحلى به من جود وكرم ، وشجاعة وإقدام ، جمع إلى ذلك علماً غزيراً ، وأدباً رفيعاً ، وثقافة عالية ، فكان جديراً بأن يصفه مؤرخوه بأنه : « الإمام الأوحد ، والعلم المفرد ، وعالم الأمراء ، وأمير العلماء ، جمع بين السيف والقلم » .

وطبيعي أن يكون من استجمع هذه الصفات الحميدة أبي النفس ، عزيز الجانب موفور الكرامة ، لذلك تصدى لفرنسا المستعمرة ، بعد أن بايعه أهل الجزائر على النضال ، واختاروه أميراً لهم وقائداً ، ورأوه أهلاً للإمارة وجديراً بالقيادة ، لما كان محتوياً عليه من علو الهمة ، وحسن الاستقامة ، وقوة الملكة ، وتحمل المكاره ، وجميل الصبر ، إلى غير ذلك من أنواع الفضائل ، وبديع الشمائل ، التي لابد للأمير منها ، ولاغنى للقائد عنها ، فقام بما وكل إليه أحسن قيام ، وأدى المهمة على خير مايرام ، فأحكم الخطة ، وأعد العدة ، وأنشأ المعامل للأسلحة ، وهيأ المصانع للأدوات الحربية ، والملابس الجندية ، وخاض المعركة

بشجاعة خارقة ، يتقدم الجيش بنفسه ، ولا يستأثر بشيء عن جنده ، الأمر الذي دعا جيشه أن يستمع لأمره ، ويعمل بنصحه، ويستبسل في الميدان .

وماأنا بصدد ذكر معاركه ومواقعه التي خاضها مع فرنسا خلال سبع عشرة سنة ، والتي كاد أن ينتصر فيها على تلك الدولة الظالمة رغم قوتها وعدتها ووفرة إمداداتها ، لولا ظروف قاسية أحاطت به فقد تكفل بتفصيل ذلك ماكتبه عنه مؤرخوه ، إنما أريد أن أذكر ماكان عليه من النواحي العلمية .

لقد كان عند الأمير ـ رحمه الله ـ ميل إلى التاريخ الإسلامي بشكل خاص ، كما كان له ولع بكتب الصوفية وإدراك مراميهم ، وفهم إشاراتهم ، زيادة على ماقدمت من تفقهه في الدين ، وحفظه من صحيح البخاري ، ومعرفته باللغة العربية وآدابها ، فقد تغلغل آخر حياته في علوم القوم ، وأظهر من دقائق الحقائق ، وعوارف المعارف ، مايثبت سمو مقامه ، وعلو قدره في هذا المضمار ، وكتابه « المواقف » بأجزائه الثلاثة ، أكبر دليل ، وأعظم برهان .

فقد فسر فيه بعض آيات الذكر الحكيم ، وشرح فيه بعض أحاديث النبي الكريم ، وأول فيه بعض ماأبهم أو أشكل من أقوال السادة الصوفية ، كما ظهر في هذا الكتاب حب « الأمير » للشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي ، وانتصاره له ، ودفاعه عنه ، وفهم دقيق صحيح لكلامه .

قال في الصفحة (٣١٣) من الكتاب المذكور ، في الموقف الثامن والثمانين بعد المئتين :

سألني بعض الإخوان عن قول سيدنا في الفتوحات في باب الرسالة البشرية : ولاتشترط العصمة في حق الرسول إلا فيما يبلغه عن الله تعالى ، فإن عصم من غير هذا فمن مقام آخر ، وهو أن يخاطب العباد المرسل إليهم بالتأسي به ...الخ .

قال الأمير ـ رحمه الله ـ مجيباً عن هـذا السؤال : « يريـد ، رضي الله عنـه ، أن العصمة ، وإن كانت ثابتة للرسول مطلقاً ، فثبوتها من منزلتين مختلفتين لا من منزلة الرسالة ومقامها فقط ، فمن حيث إنه رسول مبلغ ماأمره ربـه بـه ، لايثبت للرسول العصمة إلا فيا يبلغه عن الله فقط ، وثبوت العصمة له فيا عدا ذلـك .. من مقـام آخر ...إلى أن يقول : والحق تعـالى إنمـا بعث الرسل عليهم الصلاة والسـلام ليعلموا الخلق بأقوالهم وأفعـالهم ، قـال تعـالى : ﴿ لقـد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة ﴾ وقال : ﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ﴾ فالعصمة ثـابتـة للرسول مطلقاً لكن من مقامين ، وهنا يورد كلاما طويلاً يوضح فيه الجواب بمـا لازيادة فيه لمستزيد ، إلى أن يقول في نهاية البحث :فاحذر أن تتوهم أن سيدنا ـ يعني الشيخ الأكبر ـ لايقول بعصمـة الرسـل مطلقـاً ، ولكن أهـل هـذه الطـريقـة العلية ، لمـا أطلعهم الحق تعـالى على حقـائق الأشيـاء ، وعرفهم نسبـة كل شيء في العالم ، فهم يثبتون كل شيء من مقامـه وبـابـه ، لايخلطون الحقـائق كما يفعل من ليس له من علمهم ولاذوقهم » .

وهكذا فإنك تجد في هذا الكتاب من الغوص على مكنون المعـاني ، وإظهـار خفايا كنوز المعـارف مـايثبت أن الأمير كان على جـانب عظيم من العلم الواسع ، والفهم الدقيق ، وأنه كان له النصيب الأوفر في فهم كلام القوم .

وللأمير عبد القادر آثار علمية جيدة ، منها رسالة في العلوم والأخلاق أسماهـا « ذكرى العـاقل » ، ورسـالـة في محـاسن الخيل وصفـاتهـا ، أسماهـا « الصـافنـات الجياد » كما أن له ديوان شعر يدل على شعور مرهف وذوق سليم .

وهذه أبياتٌ لنموذجٍ من شعره من قصيـدة طويلـة تبلغ نحواً من أربعين بيتـاً قدمها للسلطان عبد المجيد حينمـا وصل الأمير دار الخلافـة العثمـانيـة واجتمع بـأمير المؤمنين السلطان المذكور فأجلّه وعظمه ، وأكبره واحترمـه ، فـأنشـأ الأمير هـذه

القصيدة اعترافاً بما أولاه السلطان من نعمه ، وما منحه من احترام وتقدير منها :

الحمـــد لله تعظيمـــاً وإجـلالاً ... مـاأقبل اليسر بعـد العسر إقبـالا
والشكر لله إذ لم ينصرم أجلي ... حتى وصلت بأهل الـدين إيصـالا
وامتد عمري إلى أن نلت من سندي ... خليفـــة الله أفيـــاء وإظـلالا
أهدي مديحي وحمدي ماحييت له ... أفـــادني أنعما جلت وإقبـــالا
جـزاه عني إلـه العرش أفضـل مـا ... جازى بـه محسنـاً يومـاً ومفضـالا

وبعد فإن حياة الأمير العالم البطل المجاهد هي امتداد لحياة أولئـك الأبطـال الذين تخرجوا في مدرسة صانع الأبطال ، وسيد القادة محمد عليه الصلاة والسلام ، من لدن الصديق والفاروق ، إلى خالد وسعد وأبي عبيدة إلى أسـد بن الفرات وعز الدين وصلاح الدين ، وستظل هذه المدرسة تنجب أمثـال هؤلاء إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

☆ ☆ ☆

لغتنا بين الفصحى والعامية

بين الحين والحين تنبعث صيحات ودعايات مختلفات في اتجاهاتها وأغراضها وأهدافها ، تدلي كل منها بحججها وبراهينها ، ثم لايلبث الحق الأبلج أن يمحص هذه الدعايات ، فيزهق الباطل منها ، ويحق الخيِّر النافع ﴿ فأما الزبد فيذهب جفاءً ، وأما ماينفع الناس فيمكث في الأرض ﴾ .

هذه دعوة تهيب بالناس ليستمسكوا باللغة الفصحى ، ويدرسوها حق دراستها ، ويمرنوا أنفسهم على النطق بها ، ويعتادوا التكلم بها في مجتمعاتهم وندواتهم وعلى الأخص في الجامعات والمدارس والنوادي العلمية والثقافية ، وبين الطلاب وفي صفوف الدراسة .

وهذه دعوة أخرى تسوغ العامية وتدعو لها ، وتقلل من شأن الفصحى ، وتجعلها عبئاً ثقيلاً لاتصلح للتخاطب في المتاجر والمصانع والأسواق ...

ومن الواضح البين أن الذين يدعون إلى الفصحى ، إنما يخدمون أمتهم ووطنهم ، ويحرصون على مجدهم وعزتهم ، ويفخرون بآبائهم وتاريخهم .

بل إن الذين يدعون إلى الفصحى ، إنما يدعون إلى جمع الكلمة ، ووحدة الصف ، وإعداد العدة ، وإحراز القوة .

لأن اللغة كلما قويت ورسخت ، وظهرت بمظهرها اللائق العتيد ، كانت الأمة قوية متماسكة عزيزة .

ذلك أن اللغة هي الأمة ، والأمة هي اللغة ، وضعف الأولى ضعف الثانية ، وهلاك الثانية هلاك الأولى ، وإذا حرصت الأمة على لغتها ، فمعنى هذا أنها تحرص على بقائها ، وتحتفظ بكينونتها ...

واللغة الفصحى هي ميراث الآباء للأبناء ، وأحزم الوراث من صان ماورث وأسفههم في هذه الدنيا من استهان بالميراث ، وأضاع التركة .

ولو كان المورثون صغاراً ، وكان الميراث حقيراً ، لوجب علينا إكبارهم وإعظامهم ، فكيف والتاريخ يقول : إن الآباء كانوا كراماً ، وإن الأجداد كانوا عظاماً ، وكان لهم الخلق المتين الجيد ، وكان لهم السلطان القوي الممدود ، وكانوا بفضل لغتهم أئمة في العلم ،وأئمة في الحكمة ، وزعماء في الفصاحة والبلاغة .

وإن العربية الفصحى لو لم تكن الإبداع كله ، ولو لم تكن الجمال كله ، ولو لم تكن السلسلة المصفاة ، ولو لم تكن لغة راقية سامية ، لو لم تكن كل ذلك لما اختارها الدهر لقرآنها ، لتعبر عن كل معنى فيه بأكرم لفظ ، وتفصح عن كل مقصد من مقاصده بأعجب أسلوب .

وحينما انساح أجدادنا في الأرض ينشرون الحق والعدل والمساواة ، وجدوا أمامهم من علوم الأمم الشيء الكثير ، فلم تعجز اللغة العربية عن هضم هذه العلوم ، بل رحبت بها كلها ، وأعطت كل علم مطلوبه ، ذلك لأنها ذات ثروة واسعة ، وذو الثراء الكريم يجود .

وقد أغرى جمال الفصحى وقوتها ، الأمم المفتوحة فأقبلت عليها تدرسها وتتقنها وتفاخر بها ، فكم من عالم نبغ ، وكم من خطيب أجاد ، وكم من كاتب أبان ، وكم من مؤلف أبدع .

ولقد كان أجدادنا حراصاً على هذه اللغة ، مشجعين على حفظها مرغبين في

الإقبال عليها ، والتمسك بها ، حتى إذا شعر أحدهم بنقص من نفسه ، وقصور في حفظ لغته تدارك سريعاً هذا النقص وذلك التقصير .

وكان الحاكم الجبار والأمير المتسلط ربما سمع الكلمة البليغة ، واللفظ الفصيح ، ينطق به من اشتد غضب الأمير عليه ، واستحق ضرب عنقه ، فيعفو عنه الأمير ، لبلاغة في قوله ، وفصاحة في لسانه ، والأمثلة على ذلك كثيرة شاهدة .

لما تولى الحجاج شؤون العراق أمر صاحب الشرطة أن يطوف بالليل فمن وجده بعد العشاء ضرب عنقه ، فطاف ليلة فوجد ثلاثة صبيان ، فأحاط بهم وسألهم : من أنتم ؟ ولم خالفتم بلاغ الأمير ؟ أفصحوا عن أنفسكم .

قال الأول :

أنا ابن من دانت الرقاب له ... مابين مخزومها وهاشمها
تأتي الرقاب إليه صاغرة ... يأخذ من مالها ومن دمها

فأمسك صاحب الشرطة عن قتله ، وقال : لعله من أقارب الأمير .

وقال الثاني :

أنا ابن الذي لاينزل الدهر قدره ... وإن نزلت يوماً فسوف تعود
ترى الناس أفواجاً إلى ضوء ناره ... فمنهم قيام حولها وقعود

فأحجم عن قتله وقال : لعله من أشراف العرب .

ثم قال الثالث :

أنا ابن الذي خاض الصفوف بعزمه ... وقومها بالسيف حتى استقامت
ركاباه لاتنفك رجلاه عنهما ... إذا الخيل في يوم الكريهة ولتِ

فترك قتله وقال : لعله من شجعان العرب ، فلما أصبح رفع أمرهم إلى الحجاج ، فأحضرهم ، وكشف عن حالهم ، فإذا الأول ابن حجام ، والثاني ابن فوّال ، والثالث ابن حائك .

فعجب الحجاج من فصاحتهم ، وقال لجلسائه : علموا أولادكم الأدب ، فلولا فصاحة هؤلاء لضربت أعناقهم ، ثم أكرمهم ، وأطلق سراحهم ، وأنشد :

كن ابن من شئت واكتسب أدباً　　يغنيك محموده عن النسب
إن الفتى من يقول : هأنذا　　ليس الفتى من يقول كان أبي

وخرج تميم السَّدوسي على المعتصم ، وبعد معارك دامية ظفر به ، فلما مثل بين يديه ، أمر المعتصم بالسيف والنطع فأحضرا ، ولم يبق إلا أن يصدر الأمر بضرب عنقه ، وكان تميم هذا وسيماً جميلاً ، فأحب المعتصم أن يعرف أين لسانه من منظره ؟ فقال له : ياتميم ، تكلم .

فقال تميم : أما إذا أذنت ياأمير المؤمنين فأنا أقول :

الحمد لله الذي أحسن كل شيء خلقه ، وبدأ خلق الإنسان من طين ، ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين ، جبر الله بك صدع الدين ، ولمَّ بك شعث المسلمين ، وأوضح بك سبل الحق ، وأخمد بك شهاب الباطل ، إن الذنوب تخرس الألسنة الفصيحة ، وتعيي الأفئدة الصحيحة ، لقد عظمت الجريرة ، وانقطعت الحجة ، وساء الظن ، ولم يبق إلا عفوك ، أو انتقامك ، وأرجو أن يكون أقربهما مني ، وأسرعهما إليَّ ، أسبقهما بك ، وأولاهما بكرمك ، ثم أنشد يقول :

أرى الموت بين السيف والنطع كامناً　　يلاحظني من حيث ماأتلفت
وأكبر ظني أنك اليوم قاتلي　　وأي امرئٍ مما قضى الله يُفلَت
وأي امرئ يأتي بعذر وحجة　　وسيف المنايا بين عينيه مصلت

وما جزعي من أن أموت وإنني لأعلم أن المـــوت شيء مـــوقَّت
ولكن خلفي صبيــة قــد تركتهم وأكبــــــادهم من حسرة تتفتت
فإن عشت عـاشوا سالمين بغبطـة أذود الردى عنهم وإن مت مُوِّتـوا
وكم قـــائــل لايبعـــد الله داره وآخر جـــــذلان يسر ويشمت

فتبسم المعتصم ، وعفا عنه .

وبين أيدينا سيل دافق من الحوادث المزيرة ، والنكبات القاسية يقع فيها أصحابها ، ويشرفون من جراء ماقترفوا على موت أكيد ، ثم ينجيهم منها حسن بيانهم ، وطلاقة ألسنتهم ، ومعرفتهم بلغتهم ، ولطالما أنقذت جملة بليغة من هلاك ، وأورثت كلمة فصيحة ثروة وغنى .

☆ ☆ ☆

جُلَيْبيب عند الله ليس بكاسد

لا يزال كثير من الناس قديماً وحديثاً ، يغترون بـالمظهر الخلاب ، والهنـدام المرموق ، والهيئة الحسنة ، وهم كذلك يكبرون الثروة الواسعـة ، والمركب الفخم ، والجاه العريض ، والصيت المنتشر ، ويكفرون بعد ذلك بالقيم الإنسانية الرفيعة ، والأخلاق المهذبة السـاميـة ، ولكن الحقيقـة لاتخفى ، والخلق النبيل لن يعود على صاحبه إلا بالخير ، والقيم الإنسانية والروحية ستظل محتفظة بقدسيتها ومكانتها ، وهذا الصحابي الجليل القليل الـذكر ، المغمور الصيت يكشف لنـا بما وقع لـه مع الرسول ﷺ عن هذه الحقائق ، ويستبين لنا من ذلك طريق واضح لمعالجة بعض النواحي الاجتماعية التي لها خطرها وأهميتها .

هذا « جُلَيْبيب » شاب من أصحاب النبي ، آتـاه الله إيمـانـاً متينـاً ، وخلقـاً مستقيماً ، وهمة عالية ، غير أنه لم يرزق صباحة في الوجه ، ولا رشاقـة في القوام ، ولاجمالاً في المنظر ، ولا تنسيقاً في الهيئة ، فكان طبيعياً أن يعرض عنه الناس فلا يزوجوه ، ويبتعـدوا عنـه فـلا يصـاهروه ، ولكن الرسـول ﷺ الـذي كان يعنى بأصحابه كلهم على السواء ، ويهتم بشؤونهم الخاصة والعامة ، ولا يقيم وزنـا إلا للقيم الحقة ، والأخلاق المرضية ، نظر يوماً إلى « جُلَيْبيب » فأدرك مـايحز بنفسـه من ألم ، ومـا يعتلـج في صـدره من رغبـة ، ومـا يرد على خـاطره من تمنيـات كإنسـان ...فلم يـدعـه ﷺ يعـاني هـذه الآلام ، ويكبت هـذه الرغبـات ، وهـو الرسول الكريم ، الذي وصفه الله تعالى بأنه رؤوف رحيم .

لذلك فقد سعى بنفسه عليـه السلام فخطب ابنـة رجل من الأنصـار لتكون

زوجة لجليبيب ، وتوقف الأنصاري أبو البنت ، وقال للنبي : « حتى أستأمر أمها » وانطلق الرجل الأنصاري إلى امرأته ، فذكر لها ماأراد الرسول فأبت أشد الإباء ، وكأنها كرهت لابنتها أن يكون حظها في الحياة هذا الرجل ، ولِمَ لاتنتظر حتى يأتيها شاب وسيم قسيم ، يتثنى في مشيته ، ويسلب الألباب في طلعته ، ويكون على جانب عظيم من الثراء والنسب ؟!!

وانصل الخبر بالبنت فماذا كان موقفها ؟ إنها قد تنبهت لأمر عظيم غفل عنه أبواها ، وكاد أن ينالهما شر وسخط ، وأن يحل بهما عذاب ونقمة ، لولا أن الفتاة الحصيفة أنقذت الموقف ، وظهر من عميق تفكيرها ، وبعد نظرها وتوقد ذهنها مايعجز عنه الرجال .

قالت لأبيها وأمها : « أتريدون أن تردوا على رسول الله أمره ؟ إن كان قد رضيه لكم فأنكحوه » ثم تلت قول الله عز وجل : ﴿ وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن تكون لهم الخيرة من أمرهم ﴾ ثم أردفت تقول : « أما أنا فقد رضيت وسلمت لما يرضى لي به رسول الله » .

وهنا تنبهت أمها واستيقظ أبوها ، وعرفا أن فتاتها أنقذتها من هوة سحيقة كادا يترديان فيها ، ودعتها إلى استجابة أمر الله ورسوله ، والتماس رضاهما ، وطلب ماعندهما من المثوبة والأجر .

وأقبل الأب على ابنته يباركها ، ويشكرها ، ويدعو لها ، وقد امتلأ إكباراً لها ، وإعجاباً برجاحة عقلها ، وقوة إيمانها ، ونفاذ رأيها ، حيث وفقت إلى مالم يوفقا إليه ، ودعاها إيمانها إلى الاستجابة لأمر الرسول .

وذهب أبوها مسرعاً إلى النبي ﷺ ، فقال له : « يارسول الله ، إن كنت رضيته لنا فقد رضيناه ؟ » . فقال النبي : « فإني قد رضيته » وتم الأمر وكان الزواج .

وعلم الرسول ﷺ بعدُ ، بما كان من الفتاة من موقف حميد مشرف ، فسر بها ، وأكبر من شأنها ، ودعا لها فقال : « اللهم اصبب عليها الخير صباً ، ولاتجعل عيشها كدّاً » ويستجيب الله تعالى دعاء رسوله فتصبح الفتاة في بيتها الجديد من أكثر الأنصار « نفقة ومالاً » .

ويسعد جليبيب بهذه الفتاة الملائكية التي منحها ربها جمالاً وكمالاً ، فكانت مثلاً أعلى لكل فتاة وتسعد الفتاة بهذا المال الوفير ، والخير الكثير ، والزوج المؤمن ، ولعلها كانت أكثر الفتيات سعادة وهناءً ، بما كانت تشعر به من طاعة الله ورسوله ، وامتثال أمره ، والتماس مرضاته ، ورضاها بما قسم لها .

ويمكث جليبيب إلى جانب زوجه الوفية ماشاء الله أن يمكث ، حتى يسمع داعي الجهاد يهيب بالمؤمنين إلى القيام بما يتوجب عليهم من نصرة الله ورسوله ، فيستجيب جليبيب للداعي ، ويخرج مجاهداً مع الرسول .

ويخوض المعركة ببسالة وصبر ، ويقتل عدداً من أعداء الله ورسوله ، ثم يخر صريعاً مضرجاً بالدماء ، وينال من الله تكريماً أن يسجل اسمه في سجل الشهداء .

عن أبي برزة الأسلمي أن رسول الله ﷺ كان في مغزى له ، فلما فرغ من القتال قال : « هل تفقدون من أحد ؟ » قالوا : نفقد والله فلاناً وفلاناً . قال : « لكني أفقد جُلَيبيباً » . فوجدوه عند سبعة قد قتلهم ثم قتلوه ، فأتى النبي ﷺ ، فأخبر فقال : « قتل سبعة ثم قتلوه ، هذا مني وأنا منه ، حتى قالها مرتين أو ثلاثاً ، ثم قال بذراعيه فبسطهما فوضع على ذراعي النبي ﷺ حتى حُفِر له ، فما كان له سرير إلا ذراعي رسول الله ، حتى دفن » .

ويتحدث الصحابة عما نال جليبيباً من إعراض عنه ، وكساد أول الأمر ، فيقول الرسول عليه الصلاة والسلام : « أما عند الله فليس بكاسد » .

نعم إنه ليس بكاسد وهل من تكريم أعظم من أن يحمله رسول الله على ذراعيه حتى يوارى مقره الأخير ، في جنات النعيم ؟؟

إن في هذه القصة لعظة وذكرى للذين يخضعون للمادة ، ويغترون بالمظهر ، ولا يقيمون وزناً للخلق الكريم !!

روي أن وفداً مثل بين يدي خليفة ، فانبرى للكلام أصغر القوم سناً ، فقال له الخليفة : ياغلام ليتكلم من هو أسن منك ، فأجابه الغلام : « ياأمير المؤمنين لو أن المسألة بالسن لكان في هذا المجلس من هو أحق من أمير المؤمنين » فسكت الخليفة وأذن له بالكلام ، فأعجب به ، ووجد فيما قال صواباً وحكمة .

وتروي لنا كتب الأدب أن كثير عزة ـ الشاعر المشهور ـ دخل على عبد الملك بن مروان في أول خلافته فقال له : أنت كثير ؟ قال : نعم ، فاقتحمه (أي احتقره ولم يملأ عينه) وقال : « تسمع بالمُعَيْديِّ لأن تراه » فشعر كثير بذلك فقال : « ياأمير المؤمنين ، كل إنسان عند محله رحب الفِناء ، شامخ البناء ، عالي السناء ، وأنشد يقول :

ترى الرجل النحيف فتزدريه ... وفي أثوابه أسد هصور
ويعجبك الطرير إذا تراه ... ويخلف ظنك الرجل الطرير
بغاث الطير أطولها رقاباً ... ولم تطل البزاة ولا الصقور
وقد عظم البعير بغير لب ... فلم يستغن بالعظم البعير
فما عظم الرجال لهم بزين ... ولكن زينهم حسب وخِير

فقال عبد الملك : قاتله الله ! ماأطول لسانه ، وأمد عنانه ، وأوسع جنانه ، إني لأحسبه كما وصف نفسه .

قال عبد الله بن المقفع يصف صديقاً له : كان لي أخ من أعظم الناس في

عيني ، وكان رأسَ ماعظمه في عيني صغر الدنيا في عينيه ، كان خارجاً من سلطان بطنه ، فلا يشتهي مالا يجد ، ولا يكثر إذا وجد ، وكان خارجاً من سلطان لسانه ، فلا يقول مالا يعلم ولا يماري فيما يعلم ، وكان يرى ضعيفاً مستضعفاً ، فإذا جد الجد فهو الليث عادياً ، وكان لا يشكو وجعه إلا لمن يرجو عنده البرء .

وكان خارجاً من سلطان الجهالة فلا يتقدم أبداً إلا على ثقة في منفعة .

وكان أكثر دهره صامتاً ، فإذا نطق بذ القائلين .

وكان لا يستشير صاحباً إلا أن يرجو منه النصيحة .

وكان لا يخص نفسه دون إخوانه بشيء من اهتمامه ، وحيلته ، وقوته .

فعليك بهذه الأخلاق إن أطقتها ـ ولن تطيق ـ ولكن أخذ القليل ، خير من ترك الجميع .

هذه هي الموازين الحقة للقيم الإنسانية ، التي يتفاضل بها الناس على بعضهم ويستحقون الثناء والتقدير .

☆ ☆ ☆

للمؤلف

الأمانة والأمناء

يبحث في الأمانة ، ويبين مكانتها في الإسلام ، ونتائجها الخيرة الشاملة في الأمة ، على ضوء الآيات القرآنية الحكيمة ، والسُّنَّة النبوية الموجهة .

ويورد قصصاً شيّقة عن الأمناء الذي تخلقوا بهذه الصفة الرفيعة ، وطبقوها تماماً كما يريد الإسلام ، فكانوا مُثُلاً علياً للقدوة والأسوة ، وسجلوا أسماءهم في الخالدين .

الحب بين العبد والرب

كتاب يبحث في الحب المتبادل بين المولى عز وجل وعباده المؤمنين ، ويورد نصوصاً قاطعة من القرآن الكريم ، وأحاديث الرسول العظيم ﷺ ، توضح تلك الرحمة الشاملة التي يغمر الله تعالى بها عباده ، وهذه العبادة الخالصة التي يتفانى بها العباد تقرباً إلى الله تعالى ، وطلباً لمرضاته ، مع مُثُل تطبيقية على ذلك .

من وحي المنبر

كلمات مختارة ، في مواضيع مختلفة ، تصلح لمناسبات كثيرة ، تكون عوناً للخطباء ، والوعّاظ ، والمدرسين على أداء مهمتهم التي يقدمونها لأمّتهم .

تطلب من دار الفكر بدمشق

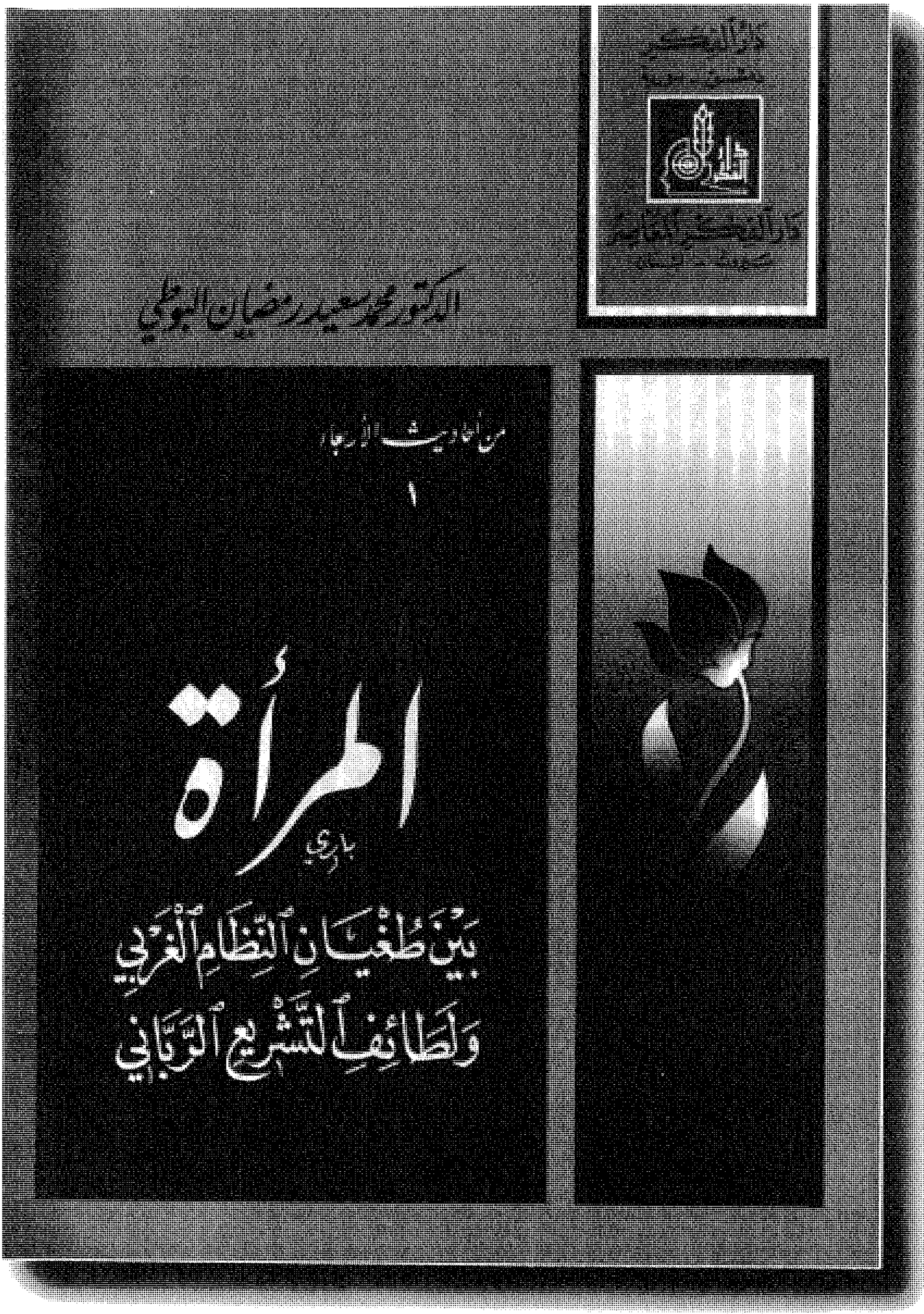
الدكتور شوقي أبو خليل

الحوار دائماً



دار الفكر المعاصر
بيروت - لبنان

دار الفكر
دمشق - سورية


الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي
من أحاديث الأربعاء
1
المرأة
بين طغيان النظام الغربي
ولطائف التشريع الرباني

جودت سعيد

كُنْ كابنِ آدمَ

دار الفكر
دمشق - سورية
دار الفكر المعاصر
بيروت - لبنان

الاسم الثلاثي: ....

تاريخ ومكان الولادة: ....

المهنة: .... المؤهل العلمي: ....

الاهتمامات الفكرية والثقافية:

☐ علمية ☐ دينية ☐ أدبية ☐ تاريخية ☐ ....

العنوان: الدولة .... المدينة ....

....

....

ص.ب: .... الهاتف ....

الفاكس .... E-Mail ....

هل ترغب في الحصول على النشرات الإعلانية بشكل دائم؟ ☐ نعم ☐ لا

بنك القارئ النهم

عزيزي القارئ.. املأ بيانات هذه البطاقة وأرسلها إلى عنوان دار الفكر ليتم تسجيلها في حسابك الخاص في بنك القارئ النهم، حيث يكون بإمكانك الحصول على نسخ مجانية من مطبوعاتنا تتناسب طرداً مع اقبالك على قراءة مطبوعات دار الفكر.

البيانات الدقيقة

تساعدنا على خدمتك بالشكل الأمثل

رأيك يهمنا !

الرجاء ملء البيانات بعد قراءة الكتاب

موضوع الكتاب:	☐ هام جداً	☐ هام	☐ غير هام
الأفكار:	☐ قيمة	☐ مقبولة	☐ غير مقبولة
الأسلوب:	☐ واضح	☐ مقبول	☐ غير مقبول
الإخراج الفني:	☐ ممتاز	☐ مقبول	☐ غير مقبول
الطباعة:	☐ جيدة	☐ مقبولة	☐ غير مقبولة
مرافقات الكتاب:	☐ جيدة	☐ مفيدة	☐ غير مفيدة
إصدارات الدار:	☐ هامة	☐ مقبولة	☐ غير مقبولة
متابعتك لها:	☐ دائماً	☐ أحياناً	☐ نادراً

اقتراحات: ....

....

....

دار الفكر
للطباعة والتوزيع والنشر
سورية - دمشق - ص.ب: ٩٦٢
فاكس: ٢٢٣٩٧١٦ هاتف: ٢٢١١١٦٦-٢٢٣٩٧١٧

بنك القارئ النهم

٢٢١٩٥٧

دار الفكر
دار الفكر

دار الفكر
دمشق